فهـــد اللـــــيل .. رواية

كتبها/أســـامة على الصـــادق

.....

الطبعة الأولى .. مارس ٢٠١٢

الناشر: الكاتب

.....

تصميم الغلاف: ريهام ســـهيل

.....

حقوق الطبع محفوظة للكاتب

موبايل: ٠١٢٢٧٩٧٠٠٣٢

oelsadek@gmail.com

فهد الليـــــل

(روايـــــة)

كتبها/ أســـامة علي الصادق

فـــهد اللـــــيل

رواية

كتبها على لسان أبطالها

أســـامة على الصـــــادق

مقدمـــــة الكتـــــاب

قد تضع الأقدار المرء فى بعض المواقف التى لم يكن راغبا بها أو فكر فيها من قبل ، كان هذا حالي حين واجهت تلك المشكلة التي وضعتني فى هذا الموقف الذى كنت أحاول أن أتخطاه بنجاح والله وفقني فى هذا.

لقد صدر لي كتابان يتناولان العمل العسكري المصري تجاه العدو الرئيسي والأبدي إسرائيل ، الكتاب الأول صدر فى شهر مايو ٢٠٠٧ فى ذكرى مرور أربعين عاما على هزيمة يونيو ١٩٦٧ وعنوان الكتاب " *الناس والحرب* " ؛ لم أكن أتخيل مقدار رد فعل الذين قرءوا الكتاب ، لقد كان رد الفعل إيجابيا وعلى مستوى رفيع من الثناء والتقدير مما أشعرني بالفخر لأنني أقدمت على إصدار هذا الكتاب.

بعد مضى أعوام ثلاثة طالبني الأصدقاء والقراء الذين على صلة بى سواء أثناء الندوات الثقافية أو بالاتصال المباشر تليفونيا بأن أعود لخوض التجربة مرة أخرى لعمل مشابه من أعمال البطولة لرجال القوات المسلحة المصرية ، شعرت بالعجز أمام تلك الرغبة وهذه المطالبة ولكن الظروف خدمتني إذ التقيت بأحد ضباط القوات المسلحة الذى كنت على صلة به منذ منتصف عام ١٩٦٨ ، لقد قرأ كتاب الناس والحرب وأخبرني بأن لديه قصة وتجربة مشابهه لهذا الكتاب الذى صدر ، حدثت بيني وبينه لقاءات عدة تعرفت خلالها على قصته الرائعة وتشجعت وكتبتها وصدرت نهاية عام ٢٠١٠ تحت عنوان " *عابد المصـــــري* " وأحدث صدورها رد فعل إيجابي لدي القراء والنقاد.

تكرر رجاء بعض القراء والأصدقاء بالاستمرار بالسير فى هذا النهج وذلك الخط ، أي الاهتمام بأدب الحرب ، ومن أجل هذا بدأت فى كتابة هذا العمل فى نهاية عام ٢٠١٠ تحت عنوان " *فهـــد الـــــيل* " وأرجو أن ينال تقدير القراء ، وفي تلك الرواية الحقيقية أتساءل:

١- هل البطولة تبدأ مع الإنسان منذ البداية؟
٢- هل البطولة موقف يتعرض له الإنسان فتتضح بطولته وشجاعته؟
٣- هل البطولة متوقفة علي الرجال دون النساء؟
٤- هل البطولة قاصرة علي من يخدمون بالجيوش النظامية؟

أعتقد أن الإجابة على تلك الأسئلة سوف تتضح أثناء تصفح أوراق هذا العمل الذي أتمني أن يحوز رضي الجميع.

المـــــؤلف

نشـــأة الفهـــــد

اسمي صابر أبو ركبة ، من أبناء مطروح ، بدأت حكايتي حين كان عمري ستة عشر عاما ؛ حيث كنت أقيم مع أمي وثلاث شقيقات أصغر منى عمرا ، توفي والدي منذ عدة أعوام ولم يترك لنا ميراثا سوى السمعة الطيبة ، كنت المسئول عن العمل والإنفاق على أسرتي بالإضافة إلي المساعدة التي تقدم لي من أمي وشقيقاتي ، طوال العام كنت أقوم علي رعى الغنم وخلال فصل الصيف أعمل على شاطئ البحر لخدمة المصطافين القادمين لمطروح من أرجاء الجمهورية ؛ اكتفيت بالدراسة بالمرحلة الإبتدائية نظراً لعدم وجود مدرسة إعدادية قريبة من القرية التى نقيم بها.

أقف الآن على رمال الشاطئ ومعي بعض الأغراض التى يحتاج إليها رواد الشاطئ من كراسي وشماسي البحر التى سلمها لي الشيخ عثمان السيوي صديق والدي والذي أقوم على تقديم يد المساعدة والمعاونة له طوال موسم الصيف من كل عام نظير مبلغ ضئيل يساعد أسرتي على التمسك بالحياة ، لقد فضلني عن الكثير من الشباب كي يقدم لنا يد المساعدة نظراً لحالة الفقر المدقع التى تعيشها أسرتي حيث كان والدي إبراهيم أبو ركبه وتلك كنيته غير قادر على العمل ولا يستطيع السير بطريقة طبيعية ؛ حيث كان يركض بركبته اليسرى نظراً لإصابته بإحدى شظايا قنبلة من المعارك التي كانت دائرة في منطقة العلمين خلال الحرب العالمية الثانية ؛ كان والدي أثناءها يعمل لدي جنود الحلفاء بالسخرة تنفيذاً لتعليمات الحكومة المصرية وقد أثر هذا علي نشاطه فأصبح لا يتحمل مشقة الأعمال فأنعكس هذا علي عائلتي بالفقر حيث كنا نعيش علي شظف العيش والمعونة ،

أقولها صريحة ؛ كنا نعيش علي إحسان البعض خاصة الدكتور عبد الحميد السيوي شقيق عم عثمان والذي تعلم في القاهرة ووالده شيخ قبيلة "أولاد علي" ميسورة الحال.

كانت أمي سيدة قوية صابرة ؛ لم أسمعها في يوم من الأيام تشكو سوء الحال وندرة المال ؛ كانت شاكرة لربها باستمرار كما أنها أيقنت بأنه لا سبيل لمقاومة ما نسبح فيه من أمواج الفقر سوي العمل وُحسن التدبير والتدبر ؛ كلما شبت ونضجت إحدى شقيقاتي كانت تقوم علي تدريبها علي الصناعة اليدوية بالمنزل من أكلمة صوف ومفارش وأشغال الإبرة كي تشغل وقتها وتعود بعائد مادي ييسر أمور حياتنا وأصبح هذا العائد هو البلسم الواقي لشظف العيش والحياة.

***

تنبهت من ذكرياتي على صوت خشن جاف يدعوني إليه ، أتجه إليه وأشاهده ناظراً إليّ بنظرة مريبة أدخلت الخوف إلي قلبي حيث كان يجلس مع أسرته وجميعهن من السيدات والفتيات التي تدل حالتهن علي حُسن العيش والمستوي الإجتماعي الرفيع.

ــ حضرتك بتنده؟

ــ ايوه ، ماشي علي مهلك كده ليه يا ولد؟

ــ أبدا يا سعادة البيه بس الرمل هيا السبب

ـ أنت ح تصاحبنيّ؟ أنت مش عارف أنا مين؟

ـ لا والله

ـ طيب أعرفك أنا مين ؛ نهض الشاب الذي يكبرني عمراً ومقاماً وفتوة وشباباً وجسده الأقرب إلي البدانة وفي لمح البصر هوي علي وجهي بصفعة قوية لم أشعر إلا وصيحة مكبوتة خرجت مني وشاهدت نفسي ملقيّ علي الرمال والناس من حولنا تنظر إليّ وقد أفزعتهم المفاجأة.

أقبل البعض ناحيتي محاولين مساعدتي للنهوض حيث كنت ألملم جلبابي وأستتر حتي لا يفتضح أمري بما عليّ من أسمال أسفل جلبابي البالي بينما اتجه البعض إلي الشاب المعتدي محتجين معترضين على تصرفه ظاهرين لومهم علي تصرفه بينما إنشغلت عنهم محاولا إصلاح حالي وتركتهم لكثرتهم وسمعت اللغط القائم بينهم وبين من صفعني دون ذنب أو جريرة ارتكبتها وخلال هذا شاهدتها ، فتاة جميلة في عمر الزهور المتفتحة فى بداية موسم الربيع ، انحنت عليّ تتفحص وجهي حيث هتفت:

ـ دم!! وشك فيه دم ؛ ثم نظرت إلي الفتي الذي صفعني صارخة في وجهه صائحة:

ـ حرام ؛ والله حرام يا علاء!!

كادت أن تبكي وكدت أن الحق بها باكيا لشعورها المرهف الرقيق ، أتفحص معالمها محاولا تذكر هذا الوجه الأبيض الرقيق الذي يبدو كأنه

قطعة من حرير مخملي صاف ، من تكون؟ أعتقد بأنني قد شاهدتها قبل ذلك؛ بمنديل أبيض رقيق ناعم مثلها أزالت نقاط الدم المندفعة من أنفي وربتت علي كتفي وساعدتني علي النهوض ، وقفت بجوارها ؛ بعد مُضي بعض الوقت أقبل رجل مهيب الطلعة تعلو وجهه كل طيبة المصريين وُخلقهم حيث شاهدني علي حالي والبعض راغب في أن يتحدث معه ، شعرت بأهمية الرجل حيث الجميع يطلب وده ، اقترب مني ناظراً في وجهي مُعلنا أسفه لما حدث صائحاً بصوت عال في وجه الشاب الذي أهانني دون ذنب اقترفته:

ــ أنا ربيتك علي كده؟ بئس ما فعلت ، أعاد الرجل حديثه إليّ ؛ ماتزعلشي يا ابني ، ابني علاء سريع الغضب ، سوف أقوم بتقليم أظافره ونزع أنيابه حتي لا يقترف مثل هذا الفعل الشنيع ؛ أسرع إلي مكان أسرته بينما ابنه علاء مازال واقفاً يتصبب عرقاً وخجلا مما لاقاه سواء من الناس أو من والده الذي حادثني منذ قليل ، عاد الرجل إليّ ببعض النقود ووضعها في يدي مقدما إعتذاره ولكني شكرته رافضاً نقوده ، أعاد رغبته في إعطائي النقود وأنا بدوري قدمت له شكري وتقديري.

أعاد فتح حافظته وأخرج منها ورقة علمت فيما بعد أنها "كارت" ينبئ عن شخصيته ، لم أقرأ الكارت لما عليه حالي وقد أصبحت في وضع سيئ من تجمع المصطافين وحزن الرجل المهيب البادي علي وجهه الطيب ، أعاد قوله: سوف أقوم برد ما اقترفه ابني لك مضاعفا ، سوف أهذبه حين عودتي إلي منزلي وسوف أقدم لك أي خدمة وأي رغبة تكفيراً عما حدث من هذا الولد المنفلت ، قدمت شكري له وشعرت براحة بال من الحالة الطيبة التي

غمرت فؤادي ومشاعري؛ عاد الرجل نحو الشمسية وجلس أسفلها وتباعد الناس رويداً رويداً بينما ظلت الفتاة الجميلة بجواري ؛ بعد تردد سألتني:

ـ أنت بتشتغل هنا ولا بتصيف؟

ابتسمت من سؤالها متحدثا عن حالي ، هل هذا منظر إنسان له من المال والوقت ليلهو علي رمال الشاطئ ويتمتع بمياه البحر ذات اللون الفيروزي الجميل؟ أجبتها:

ـ أنا شغال هنا

أشرت إلي موضع الكراسي والشماسي ، أمسكت بيدي وسارت معي حتي موضع عملي ؛ جلست علي أحد الكراسي بينما جلست أنا أرضا ، أشارت إليّ بالجلوس على كرسي مثلها ولكنى أخبرتها بإشارة من يدى بأن هذا أفضل ، أعادت نظراتها البريئة إليّ متسائلة:

ـ أنا فاكره إني شفتك قبل كده؟ ابتسمت لها رغم ما بى من ألآم نفسية.

ـ وأنا فاكر إني شفتك قبل كده؟ ضحكت وعادت برأسها للخلف بعد أن كانت مائلة جهتي وهي تحادثني.

ـ طيب اسمك إيه؟

ـ صابر. بدهشة

ـ أنا عارفه إنك إنسان طيب وصابر لكني أسألك عن إسمك ؛ أجيبها:

ـ صابر ، اسمي صابر

ـ صابر!! بدهشة ، تكونشي صابر أبو ركبة؟

ـ فعلا أنا صابر أبو ركبة ، وضعت يدها علي صدرها متسائلة:

ـ مش فاكرني؟ متردداً

ـ والله أنا فاكر إني شفتك فين مش عارف؟ تعيد ابتسامتها الجميلة:

ـ أنا ريهام ، ريهام بنت الدكتور عبدالحميد السيوي ؛ عقدت الدهشة لساني، هذه ريهام زميلتي أثناء المدرسة الابتدائي لسنوات قبل أن يغادرنا والدها عائداً إلي القاهرة ليتقلد منصبه كطبيب أسنان بوزارة الصحة ، تساءلت:

ـ وإنت ، أخبارك إيه يا صابر؟ لسه في المدرسة؟ أجبتها.

لقد تركت المدرسة منذ أربع سنوات بعد إنتهاء الدراسة الابتدائية ولم أكمل دراستي نظراً لعدم وجود مدرسة إعدادية بمطروح ، شاهدت الأسف على ملامحها :

ـ "خسارة" .. كنت أشطر واحد في الفصل ، ياه يا صابر ؛ خسارة إنك مش كملت تعليمك.

تحدثني وهي لا تعلم عن حالنا حيث كانت أسرتي تفكر ليلاً ماذا نطعم

صباح الغد حتي قالت لنا أمي إننا مثل الطيور التي تأكل طعامها طقه بطقة ولا تخزن طعامها ولا تحمل هما للغد فحالنا هو حالهم وعلينا الصمود والصبر وإن الله لا ينسي عباده أبدا.

ـــ علي فكرة يا صابر .. رضوان باشا والد علاء اللي عمل معاك المشكلة من شوية ، يعتبر جارنا في مطروح ، الفيـــلا بتاعتهم جنب بيتنا القديم ، كمان جه زارنا ومعاه الست مراته أكتر من مره وبابا وماما قاموا بزيارتهم لأنه راجل طيب وميعجبوشي اللي حصل من ابنه علاء.

ـــ الله يسامحه ، لكن أنت في سنه كام يا ست ريهام؟ بدهشة!!

ـــ إيه الكلمة دي؟ إحنا أصحاب وأهل ، قول لي ريهام ، مش عايزاك تحسسني إني غريبة؟ بتردد

ـــ حاضر يا ريهام ، ابتسمت وظهرت أسنانها البيضاء وأضاء وجهها بنور الخالق وصفاء النفس البشرية الطيبة.

ـــ أنا يا دوب لسه مخلصه أولي ثانوي ، كان نفسي تكمل تعليمك يا صابر

ـــ يا ريت ، لو عندك كتب أذاكر فيها يعني للعلم وليس للعلام علشان أفهم الدنيا ماشيه ازاى؟

ـــ حاضر ؛ أنا كنت جايبه معايا كام كتاب من منهج السنة دي أتسلي فيهم ، ح أجيبهم لك بكره.

ـــ ربنا يخليك يا ست ريهام.

نهضت راغبة في مغادرة المكان وإحتقن وجهها وتبدل لونه إلى الاحمرار وأعادت قولها.

ـــ مش قلت ريهام بس ، لازم الكلمتين دول ، يا أخي دا إحنا أصحاب ويا ما كنت أمشي معاك وأنت بترعي الغنم في الصيف ، هو أنت لسه بتشتغل الشغلانة دية؟

ـــ أيوه ، الناس في الصحرا حيشتغلوا إيه؟

ـــ طيب أنا ح أمشى دلوقتى لأن الدنيا قريت تضلم .. مع السلامة يا صابر.

***

أسمع صوت المؤذن الشيخ حسونة الراعي من منزلنا المتهالك يؤذن لصلاة العشاء ، توجهت لأداء الصلاة وبعد أن عُدت إلي منزلي خرجت مع إحدي شقيقاتي لجمع بعض الأعشاب وبعد أن عدنا إتجهت شقيقتي الصغرى إلي جار لنا وعادت حاملة معها عوداً من الحطب المشتعل نارا من الفرن الذي لديهم ، إنهمكت أمي مع شقيقاتي في إعداد الطعام علي ضوء النيران المشتعلة ؛ بعد أن تم إعداده تجمعنا حول صينية العشاء التي أصابها التلف لقدمها وإستخدامها في أغراض كثيرة وإنهمكنا في تناول طعامنا وكل منا قبل دفع لقمة بفمه يقدم شكره إلي الله بأن يحفظ هذه النعمة علينا ويحفظها من الزوال وأن يمتعنا بالصحة فنحن أبعد قدرة عن زيارة طبيب.

كل مساء وقبل دخولي في النوم أستعيد ذكري شقيقتي الصغرى نوال ذات الأربعة أعوام والتى فقدناها العام الماضي ؛ حيث لم يستطع جسدها الهزيل تحمل برودة الطقس ليلاً وعدم تناول الطعام ليوم كامل ؛ حيث لم يعد بالدار أي كمية من الشـــعير كي نطحنه على الرحايا كي تعد أمنا الخـــبز ، كانت نوال رقيقة وجميلة جداً وتأتى إليّ كل مساء تلاعبني وتجلس بجواري كي أقص عليها بعض الحكايات والحواديت، كانت تعمل لمساعدة الأسرة وظلت قبل وفاتها تحمل الرمل والطَفله كي تعد أمي خليطاً يضاف له الماء كي يصبح عجينا تستطيع من خلاله غلق فتحة بجدار الدار سقطت وأصبحنا كأننا نحيا ونعيش بالعراء ، كنت أعدو خلفها لأرفع حمل الرمال التى تحمله في علبة من الصفيح متهالكة كانت تستخدم كوعاء للسمن الصناعي؛ كنت أشعر بأن نوال سوف تلقي ربها قريباً حيث كان جسدها نحيلاً لأقصي درجة ، لدرجة أنها لم تستطع أن تبتلع الخبز الجاف بأسنانها الصغيرة إلا بعد أن تقوم أمي بوضع قليل من الماء عليه حتى تتمكن من مضغه، رحمك الله يا نوال فلقد حصلت على الراحة والبعد عن شقاء الحياة التى نحياها كل يوم.

إتجهت إلي مكان نومي المعتاد والذي يكمن خلف باب الدار؛ فلا يوجد في الدار سوي حجرة نوم واحدة تتستر بها شقيقاتي مع أمي بينما المرحاض البدائي قد وضعت عليه ستارة من قطعة قماش بالية نظراً لعدم وجود باب ، كانت أمي تبتعد عن اللقاءات الإجتماعية نظراً لسوء حالتنا وتجنبا لأي مضايقات من حديث بعض النساء واللائي يخضن فيما نحن عليه من قلة المال وندرة الأملاك بكثرة الأسئلة والإستفسارات التي لا داعي لها ، خلدت إلي نوم هادئ ومازالت صورة ريهام تداعب جفوني.

ريـــهام:

غادرت الشاطئ بصحبة أسرتي وأثناء الطريق تذكرت الذي حدث لصديق الطفولة على يد جارنا علاء الذى أهانه وصفعه علي وجهه فأسالت الدماء من أنفه ، نهضت صباح اليوم التالي أشد نشاطاً وحيوية وجمعت كل ما كنت أحمله من كتب دراسية أتيت بها لأمضى وقتاً مفيداً في قراءتها ؛ إستبقت أسرتي إلى شاطئ البحر ، طلت عيوني صابراً أثناء قيامه بتوزيع شماسي وكراسي البلاج علي الشاطئ؛ حيث كان يعمل بهمه ونشاط ، جلست بعيداً عن ناظريه خلف تل من الرمال كي أتمكن من مشاهدته وفى نفس الوقت لا أشغله عن أداء عمله الذي يقتات منه.

أشاهد صابراً وقد أنهي عمله؛ جلس يستريح وقد سبحت أنظاره في مياه البحر لعله يجد من أصدافها لؤلؤا لأفكاره فتنير له طريقه الذي ضله بالأمس، ألقى بظهره للخلف واضعا يديه متشابكتين خلف رأسه ومازال يتابع مياه البحر محاولا محادثتها ولكنه لم يجد منها إلا نغمة واحدة ؛ صوت هدير الأمواج المتدافعة خلف بعضها البعض؛ أعتقد أنه يفكر فيما حدث من تعدي علاء عليه بالأمس ، كنت أشعر ناحية علاء بالراحة حين قدومه لزيارتنا وتباسطه معي حاملاً معه بعض روايات حديثة لكبار الكتاب المصريين ؛ بل كنت أشعر بأنه راغب بالحديث معي ، لكن بعد تصرفه هذا لن ألتقي به بعد اليوم ، لقد أهان صديق الطفولة هذا الشاب الطيب الفقير وأسرته المكافحة التي تكن لها أسرتي كل ذكريات طيبة.

صـــــابر:

عُدت بذاكرتي إلى الخلف قليلاً وأنا برفقة صديقتي الصغيرة ريهام أثناء ذهابنا إلي المدرسة في الصباح والعودة بعد إنتهاء الدراسة ثم مرافقتها لي أثناء العطلة الصيفية وأنا أقوم علي رعاية أغنام بعض أبناء القبيلة ، إبتسمت وأنا أتذكر تأثير الحرارة علي جسدها الرقيق وقد تفصد منه العرق مما دفعني لأن أجلسها أسفل ظلال إحدى أشجار النخيل تجنباً لأشعة الشمس الضارة على بشرتها.

عادت صورتها إليّ ثانية وكنت أشعر بأنها صورة لأحدى حوريات الجنان وقد غلبها النعاس فنظرت إليها وإلى رموشها الطويلة المرسومة بعناية ألاهية مع إنتشار بعض حبيبات العرق حول أنفها وعيونها ، عادت إليّ فكره أن أبثها بعضا من كلمات أغنية جميلة ، إقتربت منها لأصف حالها في تلك اللحظة وشدوت لها بأغنية جفنه *علم الغزل*.

ألمح ريهام مُقبلة عليّ ببسمة وضاءة جعلتني أتوقف عن الغناء بل أسرع لملاقاتها مصافحاً مرحباً طارداً الخجل الذي كساني بالأمس ، لم تتحدث ولكن عيونها الباسمه وشفتيها التى تنبئ عن سعادتها بلقاء صديق الطفولة والذي أقحمت الذكرى عقولنا وفكرنا بالأمس ، بإبتسامتها التى لا أستطيع وصفها بدأت حديثها:

ــ صوتك حلو يا صابر ، لسه زي ما هو من أربع سنين ؛ يا تري لسه بتقلد الشيخ محمد رفعت في تلاوته للقرآن؟

إبتسمت وداعبت بأصبع السبابة رمال الشاطئ أمامي ناظراً إلى تلك الرمال وقد غمرني شعور بالغبطة والخجل في آن واحد ، حركت رأسي بما يعني أنني مازلت أقوم علي هواية ترتيل القرآن الكريم والغناء أحياناً.

شجعتني ريهام بأن قدمت لي كُتبها وبدأت أقرأ عنوان كل كتاب بسعادة غامرة ، وضعت الكتب علي إحدى الكراسي حتي لا تؤثر عليها رمال الشاطئ الرطبة ، نهضت واقفاً علي ركبتي متحدثاً:

ــ ريهام: نفسي أخد الإعدادية ولو عرفت أكمل تبجي معجزة من عند ربنا ، نظرت إليّ وإخترقت بنظراتها عيوني ، شعرت بنسمة هواء منعشة وتنبهت لحديثها:

ــ أول ما أرجع مصر ح أبعت لك كل الكتب اللي إنت محتاج لها ؛ إيه رأيك؟ إستمر حديثنا حتي غادر الضياء سماء الشاطئ.

اليوم التالي علمت بأن ريهام غادرت مع أسرتها مطروح متجهة للقاهرة لإستدعاء هام من وزارة الصحة لوالدها ، أصابني هذا بإحباط ولكني إستبدلت هذا الشعور بالعودة للماضي القريب وحديثها الرقيق وسعادتي بأن جلست بالقرب مني بعض الوقت.

مضت عدة أيام بعد هذا وإذ برضوان باشا والد الشاب علاء الذي صفعني منذ أيام يرسل فى طلبي ويعرض عليّ وظيفة فى إسطبل الخيل الذى يمتلكه بمنطقة أنشاص بالشرقية عارضاً راتباً لم أكن أفكر فيه أو أتخيله مع منزل أقيم به مع أسرتي ، كان العرض مغريا مع ظروفنا

الاقتصادية السيئة ؛ لم يمض على هذا العرض أسبوعا إلا وكان أحد العاملين مع رضوان باشا مرافقا لي ولأسرتي إلى منطقة أنشاص.

كانت الفرحة والسعادة طاغية ، فمن صحراء جرداء إلى خضرة فى جميع الجهات وزراعات مترامية الأطراف وفرع لنهر النيل يجرى أمام العزبة يطلق عليه ترعة الإسماعيلية ، لن أطيل الحديث ؛ مضت بنا الأيام وأثبت أنني إنسان كفء وأصبحت أهتم بعملي وزادت قوتي البدنية وإستطعت تدريب الخيل على فهم بعض ما أريده منها بالإشارة وتجاوبت معي وتفهمت أسرارها مثل ما سبق وتفهمت أسرار الماعز والأغنام.

مضت علينا الأيام جميلة بعد أن فتح الله باب الرزق والرحمة على أسرتي وكأنما أراد أن نحصل على الخير الذي نستحقه بأثر رجعي فكانت السماء تمطر علينا رزقاً وُحبا وحنانا ؛ بل زادت العلاقات الإنسانية مع جميع أفراد العزبة من عمال الإسطبل الخاص بالخيول وصولا للباشا والسيدة الرحيمة زوجته ، بل تعد هذا ؛ حيث تقارب معي علاء ابن الباشا الذى صغعني دون وجه حق العام الماضي ، كنت أنهل من الكتب التى سلمتها لي ريهام العام الماضي لكن كانت هناك عقبة فى تعلم اللغة الإنجليزية التى كنت أجهلها تماما.

أحد الأيام وأنا جالس أسفل شجرة توت ودرجة الحرارة تلهب الأجساد فاجأني علاء بك وتباسط معي فى الحديث ثم شاهد كتابا مقرراً على طلاب السنة الثانية الإعدادية ، تحاور معي فشرحت له كل شيء وما قامت به ريهام من معاونتي ، أسعده هذا وقرر مد يد المساعدة بشرح لقواعد اللغة

الإنجليزية وأى من المواد التى أقوم بدراستها بل قرر بأن يقوم في العام القادم بمساعدتي بالحصول على شهادة الإعدادية منازل نظام ثلاث سنوات.

تكررت اللقاءات والمساعدة وزادت حينما أقبلت ريهام مع أسرتها تلبية لدعوة الباشا لهم لزيارة العزبة ، أصبحنا نحن الثلاثة نجتمع كثيراً بل كانت ريهام وعلاء يرتبان الزيارات بغرض تقديم المساعدة لي ، مضي العام وأوفي علاء بك بوعده وقدم لي الأوراق المطلوبة لأداء الإمتحان نظام منازل وقام بسداد تكلفة كل النفقات ، الحمد لله دخلت الإمتحان وشعرت أنني قمت بتأديته على أحسن وجه ، بالفعل جاءت النتيجة مؤيدة لهذا وحصلت على شهادة إتمام الدراسة الإعدادية ولهذا فكرت بدخول إمتحان السنة الأولى الثانوي ثم تعقبها باقي السنوات نظام منازل ، سارت بنا الحياة سيرا طبيعيا ونحن نرفل فى النعيم مقارنة بجفاف حلق الصحراء الذى ضن علينا من نعيم الخالق.

خلال السنوات الثلاث التي مضت علينا بعزبة الباشا كُنت مكلفاً بالعمل بإسطبل الخيل مع عم صديق ؛ حيث كنت أقوم على نظافة ورعاية الخيول وتنظيفها وتقديم الطعام لها ، كنت أشعر بسعادة لهذا ، فتلك هى المرة الأولى التى أقترب من فرس وهذا نادر بالصحراء الغربية إلا لدى الأغنياء ، كنت أتدن للخيول ببعض أغان من روائع سيد درويش ومحمد عبدالوهاب بل أغنية ليلى مراد إتمخطري يا خيل وإرقصي ويّا عرايس الليل.

شعرت بتجاوب بيني وبين الخيل ولهذا تجرأت وركبت إحداها ذات مرة ؛ تكرر هذا عدة مرات وعلمت أن الخيل تصبح فى حالة مزاجية طيبة

حينما تقدم لها قطعة من السكر بالإضافة إلى الأغاني والتى كان يميزني صوت طيب أشاد به الكثير من الأقارب والأصدقاء حيث كنت أشعر بأن الخيول تتجاوب معي بهز جسدها والبعض يدق بأقدامه عدة دقات غير منتظمة كأنهم يسيرون على الإيقاع الموسيقي.

علم الباشا بأنني أقوم بركوب الخيل وكاد أن يتسبب هذا التصرف بطردنا من العزبة ولكن الظروف جاءت لتساعدنا ؛ فبعد الضيق والتبرم الذي شعر به الباشا وصله خبر يفيد بمرض الفارس الذي كان ينفق عليه لدخول مسابقة الخيول العربية ، كان الباشا لا يقبل الهزيمة بأن يتخلي عن المشاركة في السباق حتى لو لم يفز الفارس التابع له ؛ لهذا لم يجد أمامه سواي بعد أن زين له ناظر العزبة بهذا الإقتراح مؤيدا بأننى لا أفهم فى السباق لكن هذا أفضل من الإعتذار عن المسابقة التى إعتاد الباشا الإشتراك بها لسنوات عدة.

مازلت أنهل من الكتب وعلاء بك كل أسبوع حين الحضور للعزبة يظل معي يعينني على مذاكرة اللغة الإنجليزية وفى أحد الأيام أثني على إجتهادي بأنني أصبحت أفضل من طلبة المدارس فى مستوي التحصيل ، كما أثنت ريهام على المستوي الذي وصلت إليه ؛ حيث كانت تمد لي يد العون فى توضيح بعض المواد العلمية سواء الرياضيات أو الكيمياء أو الفيزياء ، أنهيت السنة الأولى بنجاح ثم السنة الثانية ثانوي أيضاً ولم يعد أمامي سوى سنة واحدة وألحق ريهام بالجامعة بعد أن تخرج علاء بك هذا العام وأصبح مساعدا لوالده المحامي بمكتب المحاماة بمصر.

حـــدث غـير مـتوقـع

أرسل رضوان باشا فى طلبي فأسرعت أعدو فى إتجاه المكتب حيث يمثل لي هذا الرجل الطيب كل معاني الإنسانية الجميلة الرقيقة .. إستقبلني بود كعادته ثم طلب منى إستخراج بطاقة شخصية! تساءلت عن معنى بطاقة شخصية .. فأوضح لي فائدتها والتى تدل على شخصيتي وأن كل إنسان فى مصر بلغ السادسة عشر من عمره يجب عليه إستخراج تلك البطاقة وإنني أطلبها منك كي أشترك بك كفارس فى المسابقة لأنها من شروط الإشتراك ؛ تساءل: كم عمرك يا صابر؟

صمت لفترة ثم أجبته بأن أبى أخبرني بأنني ولدت قبل قيام حرب فلسطين بعام ؛ ضحك الباشا قائلاً: لقد تعدى عمرك الستة عشر عاما ؛ بل إقترب عمرك من العشرين عاما ؛ فنحن الآن فى عام ١٩٦٦ ، يجب عليك إستخراج تلك البطاقة ولهذا طلبت من الريس صديق أن يرافقك للمكتب المسئول.

توجهت مع عم صديق إلى مركز بلبيس أحمل معي شهادة إتمام الدراسة الإبتدائية والإعدادية وشهادة الميلاد التي كنت أحتفظ بها كأوراق تطلب منى حين أداء الاختبارات بالسنوات الدراسية السابق دخولها ، من مكتب بريد بلبيس إشتريت إستمارة بطاقة ، أمام مركز الشرطة شاهدت عدداً من مصوري الفوتوغرافيا ، جلست أمام أحدهم ؛ حيث قام بأخذ لقطة علي حد قوله ؛ بعد نصف ساعة شاهدته يخرج الصور الخاصة بى من حوض صغير به ماء ، ثم وضعه ليجف على قطعة قماش ثم سلمها لي بعد أن

حصل على ثمن تلك الصور من عم صديق ، كان عم صديق رجل محبوب من الجميع وله علاقات متعددة ولهذا قام الموظف المسئول بتسهيل كل الإجراءات دون تعقيد وأخبرني أن أعود لإستلام البطاقة بعد أسبوع ومعي الإيصال الذي سلمه لي ؛ ثم علق قائلاً:

ـــ دا أنت عديت تمنتاشر سنه .. يعنى ح تروح تكشف فى النضارة " منطقة التجنيد " .. تطوع عم صديق وأخبره بأن هذا الشاب وحيد عائلته وأن والده توفاه الله منذ عدة أعوام .. إبتسم الرجل وأشار إلىّ قائلاً:

ـــ براءة يا صابر

تحركت الأحداث وسارت بى ولم يجد علىّ جديد سوي تسلمي للبطاقة الشخصية التي أسعدتني كثيرا ؛ حيث كنت أنظر إليها من حين لآخر ؛ مازالت مشغولا فى إستذكار دروسي وقد إقترب العام من نهايته وزحفت برودة شهر ديسمبر على الناس فإختبأ الكثير منهم وركزت خلال وقت الفراغ فى إستذكار دروسي ، أيضا مازلت أقوم بالتدريب مع الخيول على أسلوب المسابقة التى إقترب موعدها.

بداية العام بدأت المسابقة بين الخيول المشتركة ، كانت تلك أول مسابقة أشترك بها ، كان الجميع من حولي يؤكدون على تفوقي ، سارت المسابقة على ما يرام ولكن الحصان جفل فجأة أمام أحد الموانع مما تسبب فى عدم حصولي على المركز الأول وبقيت بالمركز الثاني ورغم هذا شعر رضوان باشا بالسعادة.

بداية شهر فبراير أقبل عمى صديق ليخبرني بأن مندوب من البوليس يطلب منى التوجه إلى نقطة بوليس أنشاص ، توتر الجميع وكل واحد تساءل عن السبب فى هذا الإستدعاء وكنت غير قادر على الإجابة ؛ إصطحبني عم صديق وتوجهنا سويا إلى نقطة البوليس وهناك أخبرنا الشاويش المسئول بأن المدعو صابر إبراهيم مطلوب منه التوجه للنضارة "منطقة التجنيد" للكشف عليه حيث أن القرعة "طلب التجنيد" قد حلت على مواليد هذا العام؟

أخبره عمى صديق بأن الشاب المذكور لأداء الخدمة العسكرية توفي والده وأصبح الوحيد لأمه وثلاث شقيقات ؛ طلب منه الشاويش أن يقوم المدعو صابر بإخبار المسئولين فى النضارة بهذا الأمر ، طلب منى التوقيع بالعلم ثم أشار إلى أحد الجنود الذى جذبني من ياقة الجلباب ودفعني لداخل حوش خلف النقطة حيث شاهدت بعض الشباب وعلمت أنهم من المطلوبين للتجنيد.

ظللنا عدة أيام نجلس بعض الوقت ونقف وقتا آخر ، في بعض الأحيان كنا ننام جلوسا والبعض من أقارب الشباب المتواجدين معنا أحضروا لهم طعاما وقبل أن يصل الطعام لأيدينا لابد أن يمر على حضرة الصول والشاويشية والجنود حتى تصل الفرخة لذويهم عظم والخضار المطبوخ يصل دون لحوم وهكذا ، ظللنا على هذا الحال ثلاثة أيام قابلنا خلالها مشاكل جمة ومصاعب هائلة بالإضافة إلى سوء المعاملة وتكليفنا بخدمة خيل النقطة وتطهير الزريبة وحمل أمتعة ونقل أتربة وتلميع أحذية كل من يعمل بالنقطة.

أحد الأيام دفع بنا فجراً إلى محطة القطارات ؛ ركبنا قطاراً خالياً من

الكراسي والنوافذ ورائحته كريهة وفضلات البشر فى كل مكان ، وصلنا محطة التل الكبير حيث موقع النضارة يبعد أربعة كيلومتر تقريباً ؛ واصلنا سيرنا على الأقدام تحت سطوة جنود الشرطة الذين ربطوا معاصم أيدينا معا بحبل طويل ؛ حيث كنا نسير كقطيع يتقدمنا جندي وخلفنا جندي آخر يمطروننا ببعض السباب السيئ وفى بعض الحالات نحصل على هبات من الشلاليت والضرب على القفا.

تسلمنا أحد جنود الجيش ، أصابنا الفرح وقلنا الحمد لله ، الجيش أهون وأحسن حالا من رجال الشرطة وسوف نتخلص من سلوكهم السيئ المشين ، تبين لنا كذب تلك النظرية ؛ فمن شب على شيء شاب عليه ؛ فلقد إستبدلت العصا والشلاليت بالقايش "حزام عريض " وكان الضرب يتم دون تمييز وأنت وحظك فمن الممكن أن تفقد عينا وتفقأ ، كنا نهرول وننفذ التعليمات دون تردد وشعرنا بأننا ضعفاء وقد تكاثر علينا الجنود وهم منضبطين عن جنود البوليس ولا يتطفلون على ما معنا من نقود أو سجائر.

تم ترتيب كشوف الأسماء ؛ أقبل الأطباء للكشف الطبي ، كان الطبيب يسير متفقداً الطابور ولا يتجه إليه الشاب المطلوب الكشف عليه ؛ ومثال ذلك : لو أقبل طبيب الأسنان فيأمر المساعد له "جندي" بالتنبيه على كل من عليه الدور بضربه بالبوكس فى ظهره ليفتح فمه مثل تاجر الماشية الذى يقوم بفتح فم عنزة ينوى شرائها ، كل تنبيه أو أمر بالضرب وما عليك سوى الإستسلام ، لم يتبق سوى كشف الرمد ، أقبل جندي يحمل زجاجه وزميله معه يطلب فتح العين ويقوم بوضع بعض نقاط من قطرة بعين الشاب ، بعد قليل ينادى علينا فرداً فرداً لتوقيع كشف النظر ، كنا نسير ونحن لا نرى

بوضوح فتأثير القطرة شديد ، يسأل مساعد الطبيب على الإشارات التي لا نستطيع توضيحها ونقولها خطأ وأسمع إجابة مساعد الطبيب بصوت عال: النظر قوى ٦/٦ وفى بعض الحالات ٩/٦ .. إنتهى الكشف الطبي ؛ أقبل أحد الصولات وهو رجل كبير الحجم غليظ الرقبة متسائلاً إن كان يوجد شيء يمنع الشاب عن التجنيد ، أشرت إليه بما يعني بوجود مشكلة تمنع تجنيدي ، أشار إليّ أن أقترب منه ؛ لخصت كلماتي بأننى العائل الوحيد لأسرتي وأبى توفى منذ عدة سنوات ولا يوجد إخوة ذكور لي .. كتب شيئا بالأوراق التى أمامه ثم قال يجب عليك أن تبلغ أسرتك بإعداد كشف عائلة وتقوم بتقديمه لمنطقة التجنيد.

قادونا لقسم الإنتقاء والتوزيع .. هناك نودي على الأسماء وتبين لي أننى وُزعت على قوات حرس الحدود وبالسؤال تبين لي أنهم علموا من أوراقي وشهادة الميلاد بأننى من أبناء مطروح وبالتالي أعلم كثيرا عن الصحراء ، لم أهتم بهذا فأنا ضيف عليهم حتى تقوم أسرتي بإعداد كشف العائلة والذى يثبت من هم أفراد الأسرة وفى خانة الوالد يكتب متوفى وترفق به شهادة الوفاة ، كل تلك الأوراق تحتاج إلي وقت ونفقات وسفر لمطروح ومن سوف يقوم بالسفر إلي هناك؟ دُفعنا فى إتجاه محطة القطارات سيرا على الأقدام حوالي أربعة كيلومترات وكل مجموعة من المجندين يرافقهم عدد من جنود الأسلحة التى تم توزيعهم عليها والذين قدموا لإستقبال الجنود الجدد ، كانت المعاملة أحسن وأفضل ، ظللت برفقتهم حتى وصل بنا القطار للمحطة والتى لا أعلم أين تكون وما اسمها ، تبعت المندوب سائرا خلفه حتى وصل إلى المعسكر "القشلاق" الذى كان متطرفا بالصحراء، خلال سيرنا كانت

العواصف الرملية الباردة تلهب وجوهنا ، توقف الصف ضابط قائلاً:

ـ ده مركز تأهيل جنود الحدود

بتلك الكلمات البسيطة القاطعة علمنا أين نحن وماذا سيتم بهذا المركز ، لقد أوجز الرجل وأفاد ، سارت بنا الأمور كما يرغبون ، لم يكن عددنا كبيرا ، لقد كنا إثنان فقط تم تجنيدنا لحرس الحدود بينما كانت الأسلحة الأخرى يتجاوز عدد المجندين بها المئات ، توقفت قليلاً وهدأت كى ألتقط أنفاسي حيث كنت أشاهد جنود المركز الأقدم منا والذى سيتم توزيعهم على وحدات الحدود قد أنهوا تدريبهم ، كان باديا للعيان بأن جميع من بالمعسكر من أبناء أسوان ويميزهم بشرة سمراء وقوام ممشوق أيضا وندرة الحديث ؛ كما يتحلون بسرعة البديهة فى تنفيذ الأوامر بعكس من كانوا معنا من أبناء الفلاحين الذين كانوا أقل إستيعاباً وأبطأ حركة ، اليوم التالي شاهدت أعدادا جديدة من المجندين من أبناء أسوان وتعرفت على بعضهم.

عدة أيام وطلبني القائد المباشر "نقيب شرف" ؛ رجل كبير السن قليل الحركة ، سألني أنت الوحيد لعائلتك؟ أجبته بالإيجاب ؛ قرر بأن أتوجه لوحدة عسكرية تابعة لقوات حرس الحدود وسوف ألحق عليهم لحين الإنتهاء من كشف العائلة ؛ بعد قليل تحدث الجندي المرافق لي مع الأمباشى وهما وقوف بجوار اللوري الذى سلمه خطاب ضمي للوحدة الجديدة قائلاً:

ـ صابر معاكم فترة بسيطة والجواب بيجول إنه يشتغل مع الجمال وبلاش الدوريات لأنه مش ح يكمل مدة تجنيده ، ده كشف عيلة ، صافحني الجندي

المرافق قائلاً:

ـــ مع السلامة يا صابر ؛ ثم غادر المكان

توجهنا إلى لورى نقل عتيق من لوارى الجيش البالية ؛ أشار إلىّ الأمباشى بالصعود إلى ظهر اللوري الذي كان يسير ببطيء وجميع السيارات من حولنا تتخطاه كما أن عادم الموتور يخرج من الخلف كثيف وداكن اللون ، توقف بنا عدة مرات أمام وحدات عسكرية لطلب الوقود الذى نفذ ؛ ظللت ثلاثة أيام بليلتين فوق ظهر اللوري والصقيع يلهب جسدي لكن من حسن الحظ أنه كان يحمل بعض المهمات من أفرولات وبطاطين حيث كنت أختبئ بداخلها إتقاء البرودة.

عبر اللوري كوبري الفردان أعلي قناة السويس ؛ هذه هي المرة الأولي التي أشاهد فيها القناة ، لقد كان منظر القناة رائعا وحجمها كبيرا والمياه بها تشبه مياه مطروح ، بعد عدة ساعات من عبور القناة فى إتجاه العريش توقف بنا اللوري أمام معسكر بدائي به العديد من الجنود والجمال ، كان واضحا بأنهم رجال الحدود الذى تم إختيارهم من جنوب مصر وعلمت بعدها أنهم من أبناء أسوان والنوبة.

بعد أن توقف اللوري العجوز هبطت منه أحمل المخلة ؛ تلقفني أحد جنود الحدود بزيه المميز والمخالف بعض الشيء عن جنود الجيش المصري ، بإبتسامة طيبة رحب بى وطلب منى أن أتبعه ، تبعته وبعد عدة خطوات أمرني بالتوقف أمام خيمة وتركني ودخل إليها ، بعد قليل خرج

برفقته أحد ضباط الصف ، الذي كان يحمل درجة باش جاويش "باش شاويش" بكلمات قليلة وبلهجة غريبة على مسامعي قال كلمات بسيطة :

ــ جندي صابرا .. تنضم على فصيلة الخليج ترعى الجمال لحد ما ورجاتك تنتهي .. خده معاك يا عثمان.

تبعت عثمان والمشابه للباش شاويش بل كل من كان بالمعسكر متشابهون بدرجة غريبة ولا تستطيع أن تفرق بين واحد وآخر إلا من الدرجة العسكرية أو حجم الجسد.

إستضافني عثمان بخيمته تلك الليلة ؛ بعد أن جلست قليلا أشار إليّ بأن أتبعه وتوجهنا معاً إلى المطبخ حيث الطعام وحصلت على الطعام مثله وطلب من الطباخ أن يزيد كمية الشاي لي لأني ضيفهم تلك الليلة ؛ نمت تلك الليلة ولم أشعر بما يدور حولي من فرط الإرهاق الذى واجهته أثناء قدومى من القاهرة إلى سيناء ، لقد تركت حماية الأهل وتبدل الحال وإنقلب كل شئ فجأة وأصبحت وحيداً مطارداً ومطلوب منى حماية نفسي وإطعامها؛ فى الصباح تناولت طعام الإفطار مع عدد كبير من جنود الوحدة ، كنت أختلس النظرات إليهم من حين لآخر ، شعرت بهدوء وسكينة لا حد لهما ، الناس عفويون وطيبي القلب وحياتهم هادئة سلسة ، بعد قليل أشار إليّ الباش جاويش بأن أتبعه ؛ سرت خلفه حتى وصلنا إلى مبنى بدائي مكون من عدة غرف ، أشار إليّ بأن أنتظر ثم عاد بعد قليل وأصدر إليّ الأمر:

ــ جندي مجند صابرا .. معتادا مارش ، سرت بخطوة منتظمة كلها نشاط

ومن الكلمات القليلة التى تحدث بها الباش شاويش علمت أننى متجه للقاء القائد ، صدر إلىّ الأمر:

ــ قف ، توقفت وشاهدت منتصف الحجرة ضابط برتبة رائد قريب الشبه بمن كنت أجالسهم بالخارج ، رحب بى وأخبرني بأننى سوف ألحق على فصيلة الشاويش "إدريس" لفترة لحين البت فى أمر كشف العائلة ؛ يستغرق هذا شهرين بعدها تنتهي خدمتك إذا ثبت إنك العائل الوحيد للأسرة ، ثم وجه حديثه للباش شاويش:

ــ رقيب أول عبيد ؛ العسكري ده يتحرك النهاردة مع قافلة المساء المتجهة لموقع الخليج ، أشار إلىّ الرقيب أول عبيد أو الباش شاويش عبيد بأن أنصرف حيث أصدر إلىّ الأمر:

ــ عسكري صابرا .. للخلف دور .. معتادا مارش .. قف .. أشار إلى أمباشى فأقبل مسرعا وطلب منه أن يضمني إلى قافلة المساء المتجه إلى موقع الخليج.

رجال الجنوب الأشـــــداء

تحركت إلي الجنوب برفقة القافلة ركوبا على ظهر أحد الجمال والتى لم أجرب ركوبها فى منطقتنا بمطروح إلا قليلاً نظراً لأن أسرتي لا تملك جملا لإرتفاع ثمنه ؛ كما أنه يستخدم فى التجارة والنقل ونحن أبعد ما يكون عن تلك الأنشطة ، كانت الرحلة متعبة وشاقة وفى نفس الوقت كنت أنظر وأكتشف ما حولي من الطبيعة الكونية أو الطبيعة البشرية ، الإثنان لم أعهدهما من قبل ورغم إنني بدأت حياتي بالبادية بصحراء مطروح والصحراء الغربية إلا أن المنطقتين مختلفتين عن بعضهما البعض حيث تكثر هنا التضاريس من جبال وهضاب وصخور ورمال مسطحة ينتشر بداخلها الزلط بينما فى مطروح الرمال الناعمة وكأنك تسير بداخل ماء أصفر اللون وليس رمال رقيقة يحركها الهواء كل يوم وكل ساعة لتتبدل لوحة الفن الإلهي العظيمة.

بعد مسيرة ثلاثة أيام بثلاث ليال وصلنا إلى موقع فصيلة الخليج ، إستقبلنا الرجال هناك بالتهليل والترحيب وتبين لي فيما بعد أن تلك هى سماتهم اللقاء الدافئ الطيب وهذا يساعد الجمال على الشعور بالألفة للمكان والأشخاص الذين يلقونهم.

أقبل قائدهم ويدعى الشاويش أو الرقيب إدريس ، لم يكن مخالفا عن الذى شاهدتهم بقيادة الفوج بشمال سيناء ، الجسد الممشوق ؛ فهو طويل القامة داكن البشرة يضع بعض خطوط طولية من الوشم عبارة عن تشريط بالموس فى مرحلة الطفولة وعلمت من أحدهم بأن كل قبيلة تقوم بتشريط

مخالف للقبيلة الأخرى لكن تلك القبيلة تضع ثلاثة خطوط رأسية فى المسافة الخالية من الشعر بين الحاجب وشعر الرأس ؛ حيث كان مشهورا برقم "١١١" كل هذا علمته فيما بعد من زملائي بالحدود ، سلمه المرافق لي خطاب القائد ، قرأه على مهل وبترو بلغة لا أعلمها ، نظر إلىّ مصافحاً وأشار إلى باقى زملائه رافعا يديه الإثنتين لأعلى صائحا:

ــ رحبوا بزميلكم صابرا ، سمعت بعض التعليقات والتى لم أفهم منها أي شئ سوى بعض كلمات دينية مثل الله وقدوم طيب ودعاء بالتوفيق.

اليوم التالي أقبل الشاويش إدريس وتأكد بأننى حصلت على راحتي وتناولت طعامي كما طلب منى أن أخبره عن أى مشاكل تواجهني ؛ ثم أخبرني بأننى سوف أعمل مع الجمال فى إطعامهم وشرابهم ونظافة أماكن معيشتهم ، كان الرجل يتحدث أثناء السير ونحن متجهين لمنطقة تجمع الجمال ، كنت أشاهد الجمال ما بين وقوف أو برك تتناول طعامها أو تخرج بعضه من معدتها ثم تعيد مضغه كما تخرج بعض رغاوى من بين أسنانها ، كان إدريس يوضح لي كل شئ بيسر وسهوله رغم أن الكثير مما يقوله أعلمه بحكم معيشتي فى مطروح ؛ حيث المنطقة تكثر بها الجمال بل وبعض جيراننا لديهم أكثر من جمل.

هناك بمنطقة إيواء الجمال إلتقيت بثلاثة من الجنود الذين رحبوا بى ؛ تركني الشاويش إدريس مع الجنود بعد أن تحدث معهم بكلمات قليلة بلغة لم أفهمها ، سارت بنا الحياة ؛ حيث كنت أقضى كل وقتي مع الجمال ؛ فهى لا تتحدث وأنا لا أستطيع أن أفهم حديث الرجال الذين أعمل معهم سوى وقت

الصلاة أو الدعاء أو حين يتحدث معي أحدهم ، مازال إنطباعي عنهم طيبا؛ حيث أنهم يتميزون بالنظافة وسرعة تلبية أوامر قائدهم الشاويش إدريس أو الاسم الشائع "إدريسا"

***

التدريب على العمل

هذه هي الليلة الأولي لي بتلك المنطقة خلالها خلدت فى نومي بجوار أحد الجمال ؛ لم أشعر بأي شيء أثارني أو ضايقني ، صباح اليوم التالي طلبني الشاويش إدريس ، توجهت إليه وعلمت منه أنه قرر أن ينفذ برنامج تدريب الجنود الجدد على شخصي رغم عدم إقتناعه بهذا لأنه يعلم بأنها أسابيع قليلة وأحصل على شهادة الإعفاء النهائي من الخدمة العسكرية ؛ بعد خروج الدوريات المعتادة أقبل علىّ الشاويش إدريس بجوار الجمال أثناء تناولها الطعام وجلس مواجها لي يزودني بمعلومات عن سيناء ؛ كنت غير راغب فى سماع هذا ؛ فمازال الخيال وأحلام الشباب تهاجم خلوتي وأستعيد ذكرياتي مع رريهام سواء أثناء مرحلة الطفولة أو خلال الشهور الفائتة ؛ بدأ إدريس حديثه حيث قال:

ــ إسمع جندي صابرا .. ح أعرفك بشوية حاجات عن سينا يمكن تنفعك فى المستجبل ؛ مساحة سينا ٦١ ألف كيلو متر مربع وده حوالي ٦ % من مساحة البلاد ، سينا تجع فى الركن الشمالي الشرجي من البلاد وتتجسم تلات تجسام ، من الجنوب للشمال حسب إرتفاعها وهيا: إجليم الجبال أو المثلث الجبلي الجنوبي أو ضهر سيناء ثم الإجليم الهضبي فى الوسط

والبعض بيسميها هضبة التيه وبيجسمها ناس تانيه لهضبتين واحده فى الجنوب وهيا هضبة العجمة والتانية فى الشمال اسمها هضبة التيه ، بعد كده بنلاجي السهول فى الشمال وهيا إما ساحلية بحذا البحر المتوسط أو داخلية فى إطار وادي العريش وتوابعه ويتخللها إجليم الجبجاب "القبقاب" فى الوسط.

***

مضت علىّ الأيام طبيعية ، فى أحد تلك الأيام خلا المكان من جميع الرجال ولم يتبق سواي ؛ حيث قمت بعملي المعتاد من رعاية الجمال وإطعامها وأصبحت الصداقة بيننا متنامية حيث كنت أنادى على كل جمل باسمه فيستجيب لي ؛ فى أحد الأيام شاهدت الجمل "عرابي" الذى وقف بعيداً ممتنعاً عن تناول الطعام وأصبح ساكنا لا يتحرك ولا يستجيب لندائي ومناوشتي له كالمعتاد ، إقتربت منه بحذر حيث أن الجمال تُصبح فى بعض الأحيان عدوانية وشرسة ، لم يتحرك ولم أعرف ما يضايقه.

وقفت بجواره وشعرت بأنه فى حالة سيئة للغاية ، حيث تخرج من فمه أصوات تدل على الضيق وهى أصوات عالية مرتفعة كما يصاحب هذا رغوة كثيفة ازدادت حتى سقطت على الأرض بعد أن ملأت الفم ، هدهدت على رقبته وملست عليها بهدوء مناديا على اسمه:

ــ مالك يا عرابي؟ فيه حاجه تعباك؟

كان الرد الطبيعي حركة متزايدة أتبعها برفع قدمه الأمامية اليمنى

قليلاً ؛ جلست أرضا أتفحص القدم فشاهدت قطعة صغيرة من سلك شائك قد التفت حول الساق أعلا الخف وإنغرس بعض بروز منها بالساق ، ملست على رأسه التى كانت مجاورة لرأسي وبهدوء حاولت إزالة السلك بين صيحاته المتكررة عالية الصوت ؛ الحمد لله إستطعت تخليص عرابي من السلك وشاهدت الدماء تندفع من مكان غرس السلك ؛ أسرعت وأحضرت قطعة قماش لينة من التى تستخدم فى نظافة السلاح وربطت به الجرح ، بهدوء برك الجمل وأحضرت له الماء فشرب الكثير وعرضت عليه الطعام فرفض ونام على جانبه الأيسر وساقه اليمنى منثنية قليلا جهة بطنه ؛ ظللت لفترة أملس على رأسه ورقبته ؛ بعد هذا بفترة ملست على الساق المصابة فشعرت بأن تلك الحركة أراحت عرابي ؛ حيث كان يفتح عينيه من حين لآخر وفى بعض الحالات يخرج صوتا خافتا كأنه يحدثني قائلاً: شكرا يا صابر وربنا ما يحطك فى ضيقة.

جلست بجواره ورغم هذا كنت أراقب باقى الجمال وأتابعها وفى غفوة خلدت لنوم مفاجئ إستيقظت منها على أصوات وهمهمه ؛ فوجئت بأن باقى الجمال أقبلت تلقى نظرة على عرابي ؛ البعض همهم بأصوات غير معلومة والبعض يلعق رقبة عرابي الجمل المصاب ؛ بل أن أحد الجمال برك أرضا ولعق الساق المصابة قريبا من مكان الرباط الذى قمت به.

قبل الغروب أقبل رجال الحدود ومجرد أن وصل الشاويش إدريس شاهدت عرابي يقف ويفرد رقبته على إمتدادها مخرجا صوتاً مميزاً إسترعى إنتباهه فأقبل مسرعاً حيث رفع عرابي قدمه المصابه لأعلى كي يشاهدها إدريس ؛ جلس إدريس على ركبتيه وهدهد على المكان المصاب ؛

ثم نظر إليّ متسائلاً عما حدث فأخبرته وأحضرت له قطعة السلك فشكرني وقال معلقاً: ليه مش طهرت مكان الجرح؟" ثم أسرع وأحضر صندوقا من الخشب وأخذ يقلب فيه حتى أخرج جسم بيضاوي يشبه ثمرة الدوم أو البطاطس الصغيرة؛ وضع بداخل تلك الثمرة مقدمة السونكي فشاهدت سائل مثل اللبن يخرج منها؛ فك وثاق الجمل ؛ خلال هذا كنت أقدم إليه يد المساعدة ، وضع بعض قطرات من هذا السائل على مكان الإصابة ، حدثني أثناء ذلك قائلاً: ده اسمه "بيض الجمل" اللي يعالج ويطهر الجروح لأي حد ، جمل أو إنسان ، ودلوجتى الألم راح من رجل الجمل ، بالفعل شاهدت علامات الراحة على وجه عرابي حيث سار في إتجاه الطعام وتناوله بهدوء ؛ طلب منى إدريس أن أقوم بهذا العمل مع عرابي لمدة يومين آخرين.

تلك الحادثة جعلتني أسأل إدريس كل يوم عن نوع جديد من الأعشاب وصفاتها وقدرتها على معالجة الأمراض رغم أنني أعلم بأنها أسابيع قليلة وأغادر هذا المكان عائداً إلى أنشاص حيث أسرتي وأحبائي والخيول الجميلة التى عشت معها وتعلمت منها والبعض تربي على يدى ، بل كانت تشتم رائحتي فتقبل مسرعة حين تشاهدني أقترب من الإسطبل.

أول إجازة بعد التجنيد

بعد مُضي أسبوعين على إنضمامي لفصيلة سلاح حرس الحدود شعرت بتآلف بيني وبين تلك الحيوانات ؛ فقد شعرت الجمال بأننى الخادم المعين لراحتهم ، مضى على وجودي بسلاح الحدود خمسة أسابيع وسوف أمنح أجازة أربعة أيام وتعتبر الأجازة الأولى لي ، طلبت من الشاويش إدريس أن يزيد مدة الأجازة لأنني سوف أسافر مرسى مطروح لإعداد كشف العائلة ، صمت قليلاً وتحدث مع زملائه بنفس اللغة الغريبة التى لا أعلم عنها أى شئ ، كان الحديث طويلا والجميع يتحدثون فى وقت واحد وكل يوجه للآخر إشارات باليد ويقرب يده من رأسه كأن هذا الكلام لا يدخل العقل أو شئ من هذا ، بعد هذا النقاش الطويل توقف الحديث وإبتسم إدريس قائلاً:

ــ وافجت على منحك يومين يا صابرا ولا تعوج أو تتأخر لأن المعاد معاد، باكر حتركب الجمل مع دوريه العريش وتركب من هناك الجطر يوصلك على مصر وتخلص ورجك وتعود بسلامة الله ، تحدث باقى الزملاء بنفس الأسلوب السابق وأنا جالس لا أعلم ما يقولون.

صباح اليوم التالي ركبت الجمل برفقة دوريه الحدود التى تقطع سيناء من الجنوب إلى الشمال ، أيضاً هناك دوريه أخرى قادمة من الشمال إلى الجنوب وتلك الدوريات تسير على مدقات ومسارات خاصة محددة لا أعرفها ؛ بل وأجهلها لعدم خبرتي بتلك الأماكن لكن من الواضح أنهم يفهمون عملهم ويتقانون فيه ولديهم صبر وصلابة لا مثيل لها.

بعد مُضي ثلاثة أيام وصلت إلى محطة العريش حيث قطار السكة

الحديد رابض ينتظر الأمر بالتحرك صباح الغد ، جلست بصحبة الدورية قريبا من المحطة وأخرج الرجال من أحمال أحد الجمال الطعام والشراب وجلست أتناوله معهم وأنا أسمع ولا أفهم ، طلبت من أحدهم أن يعلمني ما يقولون ، نظر إلى زملائه وأشار إليّ بما يعنى أنه مجنون وظل هذا الحوار أكثر من نصف ساعة حتى كدت أن أقول لهم لا أرغب أن أفهم شيئا فقد حدث لي هوس من كثرة الكلام وسرعته وتداخل أصواتهم مع بعضهم البعض.

بعد هذا النقاش الطويل شعرت برغبة قوية للنوم ، خلدت لنوم هادئ حتى أيقظني أحدهم صباحا لينبهني بأن القطار سوف يتحرك بعد عشر دقائق ، أعاد قائد الدورية حديثه لي بأنه من الواجب علىّ العودة فى اليوم المحدد وأظل بجوار المحطة وسوف أجد دوريه تنتظرني وأعود معهم إلى المعسكر، صافحتهم وبدت البشاشة على الوجوه وكل واحد منهم يدعو لي بأن أوفق فى مهمتي وأنهى أوراقي وأعود لأسرتي.

خلال الأربعين يوما الماضية منذ إنضمامي لوحدة حرس الحدود كنت أشعر بتعاون وتعاطف الجميع معي ؛ حيث إنني الأصغر عمرا نظرا لأنهم جميعا من أصحاب الأعمار الكبيرة عنى ، فلا يقل عمر أي واحد منهم عن ثلاثة وثلاثين عاما بينما يبلغ إدريس سبعة وثلاثين عاما ، جلست بالقطار وأنا أفكر فيما أنا مقبل عليه وكيف أستفيد من الوقت المسموح لي بأن أتوجه لـــ أنشاص لزيارة أسرتي بعدها أتوجه إلى مطروح لإعداد الأوراق وأهمها بالطبع شهادة وفاة والدي.

كنت فى حيرة ؛ فالسفر من أنشاص إلى مطروح يحتاج يومين والعودة يومين ومكتب الصحة يحتاج يومين وعودتي إلى العريش تحتاج يوما .. مجمل الأيام سبعة أيام بينما الأجازة ستة أيام ؛ وصلت لمنزل أسرتي أرتدي البدله العسكرية وحينما شاهدتني أمي أطلقت عدة زغاريد وقامت على رقبي ؛ حيث أخبرتنى بأننى أصبحت وسيم وعليا القيمة وشبه أولاد الذوات؛ أقبلت شقيقاتي وكل واحدة منهن حصلت على بعض من حقها لحب الشقيق الوحيد، أمضيت نصف الليل أتحدث مع أسرتي وأوضح لهن ما أنا مقبل عليه ، صمتت أمي قليلاً وقالت لماذا لا تتوجه لمكتب الدكتور عبدالحميد السيوي بالقاهرة ؛ هو القادر على مساعدتك ؛ حيث يتقلد منصباً هاماً بوزارة الصحة ، كانت الفكرة جديدة ورائعة ولكن كيف لي بعنوان الدكتور عبدالحميد؟

صباح اليوم التالي إلتقيت بعمى صديق رئيسي بالعمل وبعد حديث طيب عرضت عليه مشكلتي ورأى والدتي فأيدني فى هذا وأخبرته بعدم معرفة عنوان الدكتور عبدالحميد أو من أين أحصل على عنوان مكتبه ، صمت قليلاً ثم قال أنه يعتقد بأن العنوان لديه وقد تركته ابنته ريهام حينما حضرت منذ شهر وعلمت بأنك تؤدى الخدمة العسكرية.

أنشرح صدري فقد يسر الله لي أمرى وحلت عقدة اللقاء بالدكتور عبدالحميد ؛ فقد تركت ريهام العنوان كي أخبرها عن حالي وأطمئنها على وضعي ، عاد عم صديق بعد قليل ومعه ورقة صغيرة مطوية ناولها لي قائلاً: هذا هو عنوان بيت الدكتور ورقم التليفون ، قدمت له الشكر الجزيل وأسرعت لمكتب العزبة وإلتقيت ببعض العاملين وبعد قليل هل علينا

رضوان باشا الذي رحب بى ؛ طلبت منه بحياء بإمكانية الإتصال بالدكتور عبدالحميد فطلب من ناظر العزبة تلبية حاجتي.

أسمع رنين التليفون ثم صوت نسائي يسأل عن المتصل ، كانت السيدة حرمه وعرفتها بنفسي فهتفت "حمد الله بالسلامة "وبعض عبارات مماثلة ، سألتها عن الدكتور وأخبرتني أنه بالعمل وقدمت لي رقم تليفون مكتبه ، إتصلت به وبعد أن إستوعب مَن أكون رحب بى وعرضت عليه مشكلتي ؛ طلب منى أن أقوم بإملائه اسـم والدي بالكامل وأسماء أشقائي ووالدتي وأعمارهن.

طلب منى الدكتور عبدالحميد أن أقوم على زيارته بالمكتب غداً فى الصباح ، شكرته على هذا ، صباح اليوم التالي توجهت لوزارة الصحة وسألت عن مكتب المتابعة الذى يعمل به الدكتور ، هناك إستقبلني الدكتور أحسن إستقبال وشاهدت أوراق كشف العيلة أمامه ومختومة بختم النسر ، طلب منى أن أوقع عليها كصاحب المصلحة .. جلسنا نتحدث بعض الوقت ثم قال: اليوم نتناول الطعام مع أسرتي ظهراً ؛ سرت برفقته إلى شقته الفاخرة بحى الدقي تحملنا سيارة الوزارة ، إستقبلتني أسرته أحسن إستقبال وجلست معه بعض الوقت ثم أقبلت ريهام فرحة سعيدة وبعيداً عن عيون الآخرين ناولتني مظروفا طلبت منى عدم قراءته إلا بعد وصولي للوحدة التى أعمل بها حتى لا أنشغل بأي شئ آخر ، أضافت معلقة: بصراحة ح تلاقى الجواب فيه حاجات غريبة وح تقول ريهام بقت جريئة لكن الحقيقة المشاعر هيا اللى كتبت الجواب .. جوابي سـر وأنا موقعتش عليه.

إنتهى يوم جميل وأثناء عودتي فى طريقي لأسرتي كنت أحمل كشف العائلة الذى لولا وجود الدكتور عبدالحميد الذى سخره الله لي ما كنت قد إنتهيت منه ؛ كما تمتعت بحديث ولقاء ريهام وطعام شهى لأقصى درجة ، أمضيت ليلتي فى حالة من السعادة ؛ من الواجب عليّ في الصباح الباكر أن أتوجه لمنطقة تجنيد التل الكبير وأتقدم بتلك المستندات ؛ بعدها أستقل القطار من التل الكبير مرورا بالإسماعيلية ونهايته مدينة العريش ؛ حيث سأصل فى موعدي تماما.

أنهيت ما كنت قادما لإنجازه وسلمت كشف العائلة بالمكتب المختص بمنطقة تجنيد التل الكبير ، ركبت القطار حتى الإسماعيلية ومن هناك ركبت القطار المتجه للعريش ؛ أقترب القطار من محطة العريش للسكة الحديد وكنت خلال الساعات الطويلة أثناء السفر أشعر بوجود كنز معنوي بداخل سترة الافرول ؛ خطاب ريهام ، كنت أتساءل عما يحويه هذا الخطاب ولم أجد الرد المناسب حيث كنت أفكر بأنها تشد من أزرى وتدفع بى لمواصلة العلم حيث إبتسمت لي فى آخر لقاء معلقة بأنه لو تم دخولي الجامعة سوف أحصل منها على مكافأة سخية مما أشاع الضيق بصدري بأنها تتعامل معي معاملة الغنى للفقير.

ضاقت برأسي الأفكار وبالأخص المثيرة للأرق ، فقد إلتقيت بعلاء بك هذا الشاب دمث الخلق بعد عودتي من القاهرة وحين علم بأنني كنت فى ضيافة الدكتور عبدالحميد سألني والخجل يغلفه ؛ هل شاهدت ريهام فإنبريت أخبره بكل ما حدث بإستثناء الخطاب التى سلمته لي ، أعاد بعض أسئلة لم أنتبه إليها فى حينها ؛ أسئلة تدور عن أحوالها الصحية وهل كانت سعيدة

وترتدي ملابس مبهجة وأنيقة وهل لاحظت فتنتها وجمالها وذكائها.

كل تلك الأسئلة والإستفسارات لم أتفهم معنى لها ؛ أثناء أن هممت بوداعه شد على يدى قائلاً: في إجازتك القادمة سوف تسمع أخبارا تسرك عما سألتك عنه من معلومات ، بعد أن إفترقت عنه ظللت أتساءل: ماذا يقصد؟ قلت فى نفسي الأجازة القادمة تنتهي فترة التجنيد وأعود كي أستكمل دراسة السنة المتبقية بعدها ألتحق بالجامعة وأتمكن من مشاهدة ريهام ومشاهدة القاهرة الجميلة.

بعد وصولي إلى محطة العريش حضرت دوريه الحدود كعادتها وإستقبلوني إستقبالاً طيباً وحدث بينهم حوار متداخل بالأصوات بنفس اللغة الغريبة عنى ؛ إبتسم لي أحدهم ليخبرني بأنهم يقولون لي إن صحتك طيبة!!

وصلت إلى الموقع وقدمت تمام وصولي للشاويش إدريس الذى تحدث كثيراً مثل زملائه ثم ناولني الكارنيه العسكري والأقراص الفبر والتى تكتب عليها بيانات كل جندي أو ضابط وعلق على هذا قائلاً: علىّ أن أضع الكارنيه بكيس بلاستيك خشية البلل حيث كان مكتوبا بالحبر الشينى دون تغليف.

لم أستطع فض الخطاب ؛ حيث بلغ بى الإرهاق مداه ، قلت الصباح رباح ، جاء الصباح وأمرني الشاويش إدريس بأن أخرج مع دوريه لمطاردة مهربي المخدرات على خليج السويس ، سبب لي هذا الضيق وتساءلت بداخلي: مالي ومال المطاردة؟ فأنا جندي مؤقت وسوف أتركك بعد شهر ونصف على أكثر تقدير كما أخبروني بالتل الكبير حتى تتم

المراجعة وإبلاغ الإدارات المسئولة عن الإعفاء النهائي الذى سوف أحصل عليه ، فأنا الذكر الوحيد العائل لأمه وإخوته لأب توفى.

اليوم التالي طلب إدريس من قائد دورية الغد أن يلحقني بها للتدريب حتى يحين موعد وصول شهادة الإعفاء من الخدمة العسكرية ، لم أستطع رد الأمر وخرجت مرغما وأثناء الطريق حدثني البعض عن معلومات وتوجيهات يجب إتباعها أثناء المطاردة أو فى حالة الاشتباك مع المهربين بإطلاق الرصاص ، اليوم التالي وصلنا لمنطقة المهربين المحددة ولم نعثر على أي أحد منهم ؛ إقتفينا الأثر ودخلنا فى دروب وممرات جبلية غاية فى الوعورة والصعوبة حتى شاهدناهم فى نهاية الممر وتبين لنا أنهم تخلصوا من البضاعة.

أخذنا طريق العودة ومازال الطريق صعبا وقد أجهد هذا كل من الرجال والجمال بسبب الصخور والتواء الممرات حيث قال أحدهم إنه من الصعب التعرف على هذه الطرق بل يوجد العديد من الدروب لا يعلم عنها أحد سوى المهربين أنفسهم ، قطعنا مسافة عشرين كيلومترا بالتقريب فى أربع ساعات وهو زمن كبير بالمقارنة بالسير فى الرمال ، كانت هذه أول تجربة لي وأشاد الرجال بى حين وصولنا وأخبروا الشاويش إدريس بأننى قادر على معاونتهم بالدوريات ؛ ضحك إدريس وأخبرهم بأنه ضيف عليهم عدة أسابيع بعدها يعود لأهله.

إستغرق وجودي بتلك الدورية ثلاثة أيام والآن مضت أربعة أيام منذ عودتي من الإجازة لم أستطع قراءة الخطاب ، صباح اليوم الخامس طلب

منى الشاويش إدريس رعاية الجمال لأنهم جميعا سوف يغادرون الموقع وسيعودون قبل حلول الظلام ، غادر الرجال الموقع ووضعت العشب والعليق أمام الجمال وإنهمكت الجمال فى تناول طعامها بينما جلست مستندا بظهري على جانب أحد الجمال الذي ظل باركا وأصبح كالمسند والحائط ، فضضت الغلاف وشاهدت خطاب سيهام.

كان الخطاب نصف صفحة ، قرأته على عجل ثم أعدت قراءته عدة مرات حتى أستوعب ما تخبرني به ، بدأت خطابها بأيام المرحلة الابتدائية ثم إنقطاع الوصل عدة سنوات حتى شاهدتني على شاطئ مطروح أقوم على تأجير الكراسي والشماسي للمصطافين وشعورها بسعادة غامرة وهى تشاهد تقدمي فى الدراسة حتى لم يتبق غير هذا العام وأحصل على الثانوية العامة وألتحق بالجامعة.

كل ما قرأته ليس به جديد لكن السطرين الأخيرين كان بهما كل جديد وسعيد ؛ لقد إعترفت بحبها لي ولهذا تشجعت وكتبته بدلا من أن تقوله جهرا وهى تمنى نفسها بعد أن أنتهي من دراستي الجامعية أن يزيد إرتباط كل منا بالآخر وكل ما تخشاه هو علاء ابن رضوان باشا حيث قامت أسرته بزيارتهم عدة مرات وأنهم يلوحون برغبته بالتقدم إليها وهى لا تكرهه لكن قلبها شغل بصديق الطفولة وأنت تعرفه!!

جلست قليلا أستوعب الخطاب ، لقد كان الخطاب جميلا حزينا فى نفس الوقت ، كان جمال الخطاب فى إمتداد صداقة الطفولة وتنامى الحب بيننا بل أنها تتذكر حادث الحصان الذي جمح بها وكاد أن يؤدى بحياتها لولا إنقاذي

لها لكانت فى عداد الأموات ؛ لكن هذا المنافس القوى علاء بك هو ابن باشا وهو شاب وسيم وقد تخرج من الجامعة ويعمل محاميا بمكتب والده ، أين أنا منه؟ لكن حب ريهام كان أقوى من مميزات علاء.

وضعت الخطاب مع الكارنيه العسكري مع أقراص الفبر بكيس صغير أعطاه لي الأمباشي عثمان الطيب ، جلست أفكر ولم يصل تفكيري لأي شئ مفيد ؛ أصبحت مشغول البال ومعلق بين السماء والأرض فلقد شجعت كلمات الحب قلبي وتأكد لي أنها شعرت بعاطفتي نحوها لكن ماذا أفعل أمام علاء بك وهو صاحب أفضال علىّ ويحبني كما أنه قدم لي الكثير من المساعدة.

***

بعد عدة أيام حضر مندوب الفوج من منطقة بئر العبد على ساحل البحر الأبيض بعد أن قطع مسافة تزيد عن ٣٠٠ كيلومتر حاملاً التعليمات وبعض الأدوية الخفيفة ؛ كما أقبلت دورية الشمال يقودها العريف أبو بكر ومعه جنديان ، بعد أن تحدث مع الشاويش إدريس بعض الوقت حيث كنا نشاهدهما على بعد خمسين مترا ، شاهدت الحيرة والربكة على وجه إدريس الذي أقبل يسير ببطيء حتى وقف أمامنا وأظهر الظرف الأصفر الذي كان يحمله العريف أبو بكر ، تحدث إدريس قائلاً:

أيها الرجال ، أخبركم بما وصلنا مع أبو بكر ، لقد تم رفع درجة الإستعداد للحالة القصوى وأعلنت الطوارئ بالجيش المصري منذ عدة أيام ، كل فرد فينا ينتبه إلى جمله وسلاحه والمعدات التى بحوزته ، الخدمات

الليلية عليها أن تدقق النظر وترهف السمع لإحتمال تعرضنا لدورية معاديه من العدو على غرار ما حدث منذ عشر سنوات عام ١٩٥٦ ، لقد كان نصفكم على الأقل يخدم معي هنا ، علينا الإنتباه واليقظة ، الله الموفق.

بتلك الكلمات القليلة القاطعة تحدث قائدنا الشاويش إدريس ، لم أكن أعلم معنى الكثير مما قاله ، ما معنى رفع درجات الإستعداد وحالة الطوارئ ، إقتربت من أحد الجنود أستوضح منه معنى تلك الجمل ، أفادني بإحتمال نشوب حرب بين مصر وإسرائيل ، إرتعدت فرائصي وشعر الجندي بذلك وأيضا بعض الجنود المتواجدين قريبا منا ، طيب أحدهم من خاطري وبأنني لن أحضر تلك الحرب إذا نشبت لأنك معاف وشهادة إعفاءك من الخدمة العسكرية سوف تصل خلال أسبوعين على الأكثر كما أخبرنا العريف أبو بكر ، كما علق آخر بأن صابرا *"جاهل فى العمر"* ويخشي الحرب ، البعض ضحك من رد فعلى والبعض علل ما حدث لصغر السن.

***

وصل لانش السواحل بخليج السويس كالعادة وتوجه إليه بعض رجال الفصيلة لإحضار المؤن من الدقيق والحبوب والسكر والشاي والسولار المستخدم لموقد طهي الطعام بالإضافة إلى الدريس والشعير المخصص كعلف للجمال والتى كانت تحتاج للعديد من الجمال لحملها ؛ كما علموا بتلك التطورات من زملائهم باللانش كما أضيفت إلى المؤن ذخائر للأسلحة وعدد من نظارات الميدان للمراقبة بالإضافة إلى كتالوج لكيفية التعرف على الطائرات المعادية والدبابات الإسرائيلية ونوعية القوات المحتمل القتال معها

وبالأخص جنود الناحال أي القوات غير النظامية بالجيش الإسرائيلي ؛ كما أخبروا رجال الحدود بأن البندقية القناصة سوف ترسل لهم عن طريق قيادة الفوج مع مندوب.

اليوم التالي جلسنا جميعا على هيئة نصف دائرة بناء على أوامر الشاويش إدريس ؛ جلس يخاطبنا بما وصل إليه من معلومات وكان الجزء الأكبر منها قد علمناه بالأمس بعد حضور مندوب رئاسة الفوج ؛ أضاف إدريس فى حديثه الواجبات الملقاة على عاتقنا من مراقبة الساحل الشرقي لخليج السويس بالإضافة إلى الواجب المنوط بنا من مهاجمة المهربين وتجار المخدرات بل أضاف واجبا آخر بأن نضع رجال البترول بالحقول المجاورة تحت حمايتنا لأن القوة المرافقة لهم من رجال الأمن غير كافية وقليلة العدد وغير مدربة ولا تحمل سلاحا آليا مثل سلاح رجال الحدود.

***

نشطت الفصيلة للقيام بالمهام الملقاة على عاتقها سواء الروتينية المعتادة من دوريات ومراقبة أو من وضع الإستعداد لقتال العدو فى حالة نشوب الحرب ، كنت فى حالة من السعادة بما يجرى من حولي ؛ فهذه المـــرة الأولى التى أشارك فيها بالإستعداد للحرب ؛ لم يكن يضايقني ويثير قلقي سوى إنتظار شهادة المعاملة أو شهادة الإعفاء من الخدمة العسكرية ، كنت أدعو الله بألا توافق إدارة التجنيد على إعفائي من الخدمة رغم شوقي الشديد لأمي وشقيقاتي ، أيضا لصديقتي العزيزة ريهام والتى أشعر بنبض الحب والشوق تجاهها.

طلب منى إدريس أن أستمر بالعيش بجوار الجمال فى تلك الأحوال وأن أنتبه إليها رغم أنه وضع حراسة عليها لكن يجب الإحتراز والإنتباه ، حملت أغراضي ونمت على بعد أمتار قليلة من الجمال بعد أن توجهت إلى عرابي "الجمل" الذى سبق وأن عالجت جروحه فشاهدت الهدوء باديا عليه ، إقترب منى بشفاهه الغليظة يمسح على ظهري كأنه يقدم شكره على ما قمت به ، هدهدت على عنقه الطويل وحاولت تقبيل رأسه المرتفعة فلم أستطع فخفض من إرتفاعها ليساعدني على ذلك ، بعد أن قبلته رفع رأسه عاليا وأصدر صوتا لم يصدر منه من قبل فلاحظت أن باقي الجمال تنظر إلينا ثم أطلقت صيحات مماثلة فأقبل أحد الجنود مصافحا لي ُحسن التعامل مع تلك المخلوقات المباركة وهذا دفع بقطيع الجمال إلى توجيه الشكر لك معلقا " من النهاردة يا صابرا كل الجمال أصحابك وبجي لك مكانه عنديهم ، خلاص حبوك ووثجوا بيك ، والله أنت ولد طيب وابن حلال" غادر المكان وترك السعادة والرضا بنفسي ؛ فردت جسدي على البطانية وأنا مازلت أنظر إلى عرابي وأخوته بينما باقى الجمال مشغولة بطعامها وعرابي ينظر إليّ من حين لآخر.

كانت دورية الجنوب متجهه إلى القيادة بالشمال قريبا من بحيرة البردويل بمنطقة رمانة ، رغبت بأن أنبههم بالسؤال عن شهادة الإعفاء من التجنيد قد وصلت من دونه ولكن لسانى توقف حينما نظر إليّ أحد الجنود القريبين مني ووضع إصبعه على فمه بما يعني بألا أتحدث ؛ ثم أقبل عليّ يحدثني همساً بأنه من غير اللائق أن أثير هذا الموضوع الذي سوف يتم دون تتبعه نظراً لأن الحديث عنه ونحن ننتظر معركة سوف يجعلك وسط الفصيلة كأنك ضعيف تخشي الحرب وأنت تعلم يا بني أن الجهاد فرض

عين أي أن كل من يستطيع أن يقاتل فلابد أن يقاتل دون شهادة إعفاء من التجنيد أو خلافه فليس الجهاد فرض كفاية بأن يقوم البعض بالقتال بالإنابة عن الآخرين ، لا تعود لمثل هذا الحديث.

تركني متجها إلى جمله كي يعده نظراً لأنه من ضمن أفراد دورية الجنوب المتجهة للشمال ، فكرت فيما صبه فى أذني وشعرت بأن حديثه هام وجاد فى مثل تلك الأوقات ، كيف أهرول وأسرع لترك المكان والحرب على الأبواب ، همدت فكرتي نحو هذا الشأن لكن بعد قليل تذكرت أمي وشقيقتي الصغرى زينب وباقي شقيقاتي ثم هاجمتني ذكرى الحبيبة ريهام ، أصبحت فى حالة من التشتت ما بين الهدوء وإنتظار وصول ما يفيد بأنني معاف لأنني العائل الوحيد لأسرتي وبين أن أعود لعائلتي فى أقرب وقت قبل إندلاع المعارك ؛ جلست حزينا لا أقوى على التفكير ، أقبل علىّ "عرابي" وحك جانب رأسه بكتفي وأنا جالس فكدت أفقد إتزاني أثناء جلوسي، نظرت إلى عينيه فشاهدت حزنا وقد كستها سحابة قاتمة ، إعتقدت أن هذا سببه الجرح الذي بقدمه ؛ إقتربت من مكان الجرح وأزلت الرباط فشاهدت أن مكان الجرح على ما يرام وقد إلتئم نسبياً ؛ إذاً لماذا هذا الحزن أيها الصديق العزيز؟ تركته يمضغ العشب وتوجهت لفحص باقى الجمال وقد هالني مشاهدة وملاحظة نفس الحالة التى عليها عرابي ، الحزن والكآبة على الجميع ، أسرعت لأخبر الشاويش إدريس فصمت قليلاً وأشار بيده فوق الرمال بما يعني أن أجلس حيث كان يرقد بجانبه على الأرض.

صابرا ، الجمل بيفهم وبيشعر أكتر من البني آدم ، الجمال عارفه إنه ح تحصل الحرب وح يموت ناس يامه ومنهم ناس معانا وعشان كده الجمال

ظاهر عليها الحزن ، شوف صابرا ؛ رفع حالة الإستعداد بدأت من يوم ١٤ مايو الشهر الحالي وإحنا اليوم ٢٩ فى الشهر يعنى عدى ١٥ يوم وطبعا لما الأوامر بتوصل لنا بتكون متأخرة لطول المسافة وأنت شايف حالنا لا تليفون ولا جهاز لاسلكي ، يعنى إحنا زى المسلمين الأوائل بناخد الأوامر من ورجه ترسل لنا ، الحرب جربت وده عرف الإسرائيليين إنهم يجوموا حرب كل شويه ، ربنا خلجهم كده وده وارد نص عليه فى كتاب الله القرآن الكريم، إطمن صابرا وقل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا ، لو جامت حرب ح تشوف الرجالة اللي معانا بتحارب كيف الأسود ، إطمن إحنا منخافش من حد واصل صابرا ، روح دلوجتى على مكان نومتك ريح الجمال وعينك مفنجله وودانك مزنهره لأى مفاجئ وأنا جريب منك وحوالينا تمن رجاله بسلاحهم واخدين أماكن مراجبه وفتح نار.

هكذا تركت محل راحة الشاويش إدريس وعدت إلى الجمال أهدهد على كل جمل بهدوء ؛ حيث كنت أتلوا بعض سور من القرآن الكريم وأنا أسير بينهم مما دفع بالبعض منهم إلى إصدار أصوات أعتقد أنها طيبة لأنها مشابهه لما أصدره عرابي منذ ساعة تقريبا مما دفع بالشاويش إدريس إلى الضحك بصوت عال مرددا ، والله عملك طيب يا صابرا ، ربنا ح يكرمك معانا.

مضت عدة أيام كنا خلالها ننفذ تعليمات الشاويش إدريس بتجميع المؤن من المياه والحشائش للجمال كما عادت دورية الشمال بقيادة العريف أبو بكر وكانت آخر التعليمات التي حملتها ألا تعود أي دورية للشمال إلا بعد أن ترسل لنا القيادة بدورية المؤن والمعدات وبآخر التعليمات أما الواجب

المكلفين به فيجب علينا تنفيذه وأن نسير على خطة العمل الخاصة بفوج الحدود من مقاومة التسلل لأراضى الوطن أو التهريب وخاصة المخدرات يضاف إليها مقاومة العدو فى محيط منطقة العمل.

***

هذا يوم كئيب فى حياتي فلقد نهضت من نومي مذعورا على أصوات إنفجارات قريبة منا وأكد من حولي إنها آتيه من جهة آبار شركات البترول وعللوا هذا بإحتمال حدوث خطأ فني أدى إلى هذه الإنفجارات المتتالية ، لم نظل على هذا الوضع كثيرا إذ شاهدنا بعض طائرات قريبة منا تقوم بإغارة على موقع لقوات المظلات القريبة منا والتى أقبلت منذ أسبوعين بعد رفع حالة الطوارئ ؛ أعلن إدريس أن الحرب قد بدأت وسوف نظل متمسكين بمواقعنا وعلى الأعداء أن يأتوا ليلقوا الهزيمة على أيدى رجالي ، هلل الرجال وخرجت منهم الصيحات المشجعة وسرت على نهجهم ، مضت الأيام بطيئة ولم نعد نشاهد إنفجارات أو أي شيء ينبئ عن قتال ، كما أن إحدى الدوريات التى أرسلت بالأمس أخبرت الشاويش إدريس بأن إحدى شركات البترول القريبة من موقعنا شاهدوا موقعها مغلقا ولا توجد به قوات حراسه من الشرطة.

تلك المعلومة أعطت إدريس إنطباعا بأن الحكومة أصدرت أوامر للجهات المدنية بمغادرة مواقع عملهم خشية على أرواحهم من الإصابة أثناء العمليات ولهذا كلف إثنين من رجال الفصيلة بالتوجه إلى قيادة الفوج قريبا من رمانة على ساحل البحر الأبيض كي ينقلوا تلك المعلومة إلى القيادة

وأيضا إحضار مرتبات الفصيلة التى لم تصل وقد تعدى الزمن نصف شهر يونيو ؛ أيضا معرفة آخر الأخبار وهل ستظل حالة الطوارئ سارية أو إنها قد إنتهت ، وهل ستعود الحياة إلى طبيعتها خاصة أن بعض رجال الفصيلة تعدى موعد حصولهم على الأجازة خمسة عشر يوما كما لم تصل دورية الشمال إلى الفصيلة وكانت آخر دورية وصلت يوم ٢٨ مايو أي الشهر السابق.

مازالت الفصيلة على حالها من النشاط ومراقبة المنطقة ومتابعة المهربين الذين تلاحظ قلة نشاطهم وقد أوكل الشاويش إدريس هذا لحالة الطوارئ والحرب المنتظره ، لكن ما آثار ضيق الشاويش إدريس هو آخر جمل عهدة وصل إلينا منذ ثلاثة أشهر وتبين أن هذا الجمل الشاب لم تتم له عملية الاخصاء وبالتالي فهو عنيف ويبحث عن أنثي يقوم على إخصابها وهذا غير متوفر فى الفصيلة حيث أن جميع الجمال ذكور تمت عملية الاخصاء لهم منذ فترة ، طلب منى إدريس أن أسهر على راحة الجمل الشاب وأن أطلق عليه اسما ينفرد به عن الآخرين ، فكرت بعض الوقت ولم أجد اسما يناسب عنفوانه وتمرده سوى "أمشـــير " نسبة إلى شهر أمشير كثير العواصف الرملية والتى كانت تسبب لنا أبناء مطروح الضيق والتوتر.

من حين لآخر كنت أهدهد على " أمشـــير " وأقدم له الطعام وفى نفس الوقت كنت أخشي أن يهاجمني ويعضني بأسنانه القوية نظرا لحالته العصبية المتفردة دون باقى الجمال ، طلب منى الشاويش إدريس إضافة عُشب ورقة مريم إلى طعام الجمل أمشير كي تهدأ حالته الجنسية ، بالبحث فى عبوات الحشائش التى يحتفظ بها لم أعثر على هذا النوع وأخبرني أحد جنود الحدود

بأن هذا العشب غير متوافر لديهم نظرا لأن جميع الجمال تم خصيها وبالتالي فهم ليسوا فى إحتياج لهذا العشب وما علىّ سوى البحث عن عشب ورقة مريم بالوادي الأبيض القريب من موقع الفصيلة ولا يبعد عنا سوى خمسين كيلومتر تقريبا ، أوضح لي شكل وحجم العشب كما أوصاني بالحذر حين محاولة أخذ بعضا منه وعلىّ التأكد بعدم وجود أفاعي أو عقارب أو حشرات ضارة "بكدي" الحشائش.

أخبرت الشاويش إدريس بهذا الأمر وركبت أحد الجمال الهادئه وهو جمل عجوز ولقبه "هادى" وكان اسما على مسمى ، وصلت إلى الوادي في اليوم التالي ورغم أن هذه هى المرة الأولى التى أتوجه إلى الوادي وأتحرك منفردا دون عون الآخرين الأشد منى خبرة وقوة جسمانية إلا أن وصف زميلي جندي الحدود كان دقيقا ، تفحصت الحشائش حتى عثرت على النوع المطلوب ، بالعصا التى معي إختبرت أسفل "الكودية" وتأكدت بعدم وجود كائنات ضارة وبالتالي قطعت الكثير من الأوراق كي أقدمها لهذا الشاب الثائر " أمشـــــير " ، قفلت عائدا بصحبة الهادي ، لقد ضللت طريق العودة ولهذا لم أوجه الجمل وتركته يسير حتى وصل إلى موقع الفصيلة ، قبل الوصول لموقع الفصيلة غلبني النوم ولم أشعر إلا حين قام بعض زملائي بعملية التنخيخ "تبريك" الجمل فإنتبهت وسمعت تهليل الجميع لجرأتي والتوفيق بعودتي.

طلب منى إدريس ألا أكثر من كمية أوراق مريم التى سيتناولها " أمشـــير " حتى لا تسبب له الضرر ؛ وما علىّ سوى وضع كمية من هذه الأوراق فى حجم كف يد الإنسان وأخلطها بالدريس وتتم تلك العملية مرة

واحدة أسبوعيا ، نفذت تعليمات إدريس وبعد مُضي يومين على تناول " أمشـــير " تلك الأوراق هدأت حالته وأصبحت لا أخشاه وأصبح وديعا مثل باقى الجمال.

مازال وضعنا كما هو ، التدريب والدوريات القريبة وتخزين الأطعمة وأعلاف الجمال ومياه الشرب ، اليقظة والحذر ، كانت الساعات والأيام تمضي ثقيلة ؛ فقد إنقطعت عنا خطوط الإتصال مع القيادة بالإضافة إلى سُبل الإعاشة من الطعام وهذا هو مُنتصف شهر يونيو من عام ١٩٦٧ ولم تصل المرتبات للقوة كما لم تصل أي معلومات عن كيفية نزول الأجازات التى توقفت بسببه حالة رفع درجات الإستعداد.

كيف علمنا بقيام الحرب؟

مضي أسبوعان منذ تحرك دورية الحدود المتجهة إلى قيادة الفوج ، لم تعد الدورية حتى الآن ويعتبر هذا وقت طويل ، أزعج هذا كل زملائي جنود الفصيلة ولكن الذى كان أكثر إنزعاجا الشاويش إدريس الذي تردد فى أن يرسل بدورية أخرى أو ينتظر ، بعد مشاورات بينه وبين باقى زملائه والتى لم أفهم منها كلمة واحدة ؛ قرر إدريس الإنتظار ثلاثة أيام أخري قبل أن يرسل بدورية للبحث عن الدورية الأولي.

ظهر اليوم التالي أقبل رجال الدورية الأولي بين سعادة الجميع والتهنئة على سلامة الوصول ، جلس الرجال وأخبرونا بما حدث وتبين لنا أن بعض دوريات الجيش الإسرائيلي تتواجد بوادي القبقاب وأن الحرب مازالت مشتعلة ولهذا ظلوا مختبئين حتى لا يشاهدهم الإسرائيليون وكانوا يتحركون ليلا بعيداً عن الطائرات العمودية المنتشرة بالصحراء.

زادت الأمور وضوحا الآن وتبين لنا بأننا أصبحنا معزولين عن قيادة الفوج بالشمال وأننا لن نتسلم أي تعليمات بعد الآن وما علينا سوى الإعتماد على أنفسنا من طعام وشراب وإطعام الجمال وأيضا لن تصل إلينا الرواتب الشهرية وبالتالي سوف تفقد عائلاتنا الدعم المالي الذى نرسل به كي يساعدهم على المعيشة ، ظل الإجتماع قائما بين رجال الفصيلة وكان الهدف الأكبر أمامنا كيف نفتح ثغرة نمر من خلالها إلى قيادة الفوج بالشمال ، كانت الآراء كثيرة ولكن الشاويش إدريس كان هادئ البال حيث أخبر الجميع بأن هناك شيء حدث لا نعلم عنه أية معلومات ، لقد مضي موعد إرسال

الإمدادات من خليج السويس عبر البحر والتي توقفت أيضا ، تساءل إدريس: ماذا يدور خارج منطقتنا ونحن لا نعلم عنه شيئا وأصبحنا نهاية شهر يونيو؟

تمنى الرجال بأن لو مع أحد منا "راديو" لكنا علمنا ماذا يدور بالعالم ولكننا فى هذا المكان أصبحنا فى عزلة تامة ، كان قرار الشاويش إدريس إتباع نفس منهج العمل والإستمرار فيه وعلى الجمال أن تحصل على طعامها من البراري مثل جمال الرعي ونحن نقتصد فى الطعام أما الماء فهو متوفر من حولنا وما أكثر مياه الآبار التى فجرها الله لقوم موسي.

***

تعدى الوقت منتصف شهر يوليو وإذا بإحدى دوريات فصيلتنا تلقى القبض على بعض مهربي المخدرات وأحضروهم إلى الشاويش إدريس الذى هلل بمقدمهم ينبئهم بأشد العواقب ، كان من بين المقبوض عليهم زعيم تلك العصابة ويدعى حمـــــدان أبو رمح ، بإبتسامة صفراء أجاب حمدان على تهكم إدريس متسائلاً: ماذا أنت فاعل بنا؟ أجابه سوف أسلمك إلى قيادة فوج الحدود بالشمال أنت وعصابتك ، ضحك الرجل وقال بهدوء: إسمع منى يا إدريس ، لقد هزم جيشنا وتفتت ومن بقي أسرع بالهرب إلى مدن القنال حيث وصلت أوامر للجيش بهذا، وإحتل الجيش الإسرائيلي كل سيناء ، لقد تفتت كل شيء وأصبحت المنطقة خراباً منذ خمسين يوما أو يزيد.

إندهش إدريس من هذا الخبر مثلما أدهشنا أيضاً وساورنا إعتقاد بأن الرجل يكذب ؛ شعر حمدان بأننا لا نصدقه القول ولهذا أخرج من جيب

جلبابه راديو ترانزستور صغير وفتح زر التشغيل وظللنا نستمع لإذاعة القاهرة ؛ أقبلت نشرة أخبار الساعة الثانية والنصف ومن بين ثنايا النشرة علمنا بكل شيء وبالكارثة المطبقة التى حلت بالبلد جميعها وبالخسائر القاتلة التى لحقت بالجيش وتدمير الطيران وإستقالة الرئيس جمال عبد الناصر وعودته تحت ضغط الشعب ، لقد دمرت الأحلام ، بل علمنا أيضاً بما يقوم به أفراد الجيش الإسرائيلى من تصرفات شائنة على الضفة الشرقية لقناة السويس.

نظر إدريس إلى حمدان وعصابته وطلب من رجاله فك أسرهم ، قدموا إلينا الشكر مشددين على أن المصيبة عمت علينا جميعا ونحن أبناء سيناء سوف نقف ونشد من أزركم حتى ترحلوا تنفيذا لأمر الإنسحاب إلى الضفة الغربية لقناة السويس.

لم يجبه إدريس وتحرك متثاقلا وتوارى عن أعيننا وجاء رده على ما حدث ببكاء وتشنجات عنيفة وهلوسة قوية خلعت قلوب الرجال الذين يعلمون علم اليقين قوة وشراسة هذا الرجل ، لقد إنكسرت صلابته أمام هول الهزيمة، حاول زملائه الإقتراب منه ومواساته والدموع بالأعين تزرف مثل شلال فاض وأغرق من حوله لكن الرجل كان صاماً أذنيه وأغلق عقله وقلبه عن أي نداء.

هكذا مضت علينا تلك الليلة ؛ لم ننل فيها طعاما ولا شرابا ولا جرعة ماء رغم توفر كل هذا ، إنطلقت أقوم بعملي وأتابع تلك الحيوانات الأليفة ، شاهدت فى عيونهم ما سبق وشاهدته على قائدنا الشاويش إدريس ، عيون

تحجر بها الحزن وأصوات الجمال هادرة بألم وقد فتلت بعض الجمال الشفاه "أي يقوم الجمل بلف شفته العليا والسفلى للخلف جهة الرأس والبعض منهم خرج من فمه شيء يطلق عليه اســم "القلا" كيس بمبي اللون يحدث به صوتاً مرعباً وهذا الشيء مشابهاً لقلة الماء الخاصة بالشرب ولكنها ذات حجم صغير وفي حجم ثمرة المانجو وهذا فى عرف من يتعاملون مع الجمال دليل علي الغضب والحزن الكامن مما دفع ببعض الجنود لأن يجذبوني بعيداً عن الجمال خوفا من إفتراسها لي ولهم.

تركنا الجمال على حالها وإدريس أيضا على حاله ، تسربت الجمال فرادا وقطعانا تاركة المكان وأصبح علينا الصباح والمنطقة كأنها مقبرة أسفل سفح الجبل الذي نعيش بجواره ، مضى نصف النهار ثم شاهدت الجمل عرابي قادما فى إتجاهي بأقصى سرعة ، هرب الرجال خشية أن يفترسهم وطلبوا منى الإسراع بالإختباء خلف الصخور ولكنى تكاسلت حتى وصل إليّ عرابي وصرخ صرخة مدوية وألقى بجسده أرضا جانبي يرفس برجليه.

أسرع الرجال بالعودة ؛ فقد شعروا أن الجمل أصابه شيء خطير والبعض فكر بأن إحدى الحيات الضخمة قد نجحت وعضته وهو يلفظ أنفاسه ، سكن الجمل ومازال قلبه ينبض ويحصل على شهيق بصعوبة ، إقتربت منه أقبله كسابق عهدي ، رفع رأسه وهو مازال على وضعه وصرخ وشعرت بأن إننى قد أصابها الصمم ، كانت صرخته ونظرته لأعلى كمن يستجير بالله مثل أى إنسان تصيبه مصيبة ، أعاد صرخته وعلى أثرها شاهدت باقى قطيع الجمال مقبلا نحونا وعددهم لا يقل عن أربعين جملا من الجمال ضخمة الحجم ، كان المنظر رهيباً يخيف أي إنسان رغم

علاقتنا بهم لكن الوضع كان مؤلما.

أسرعت الجمال وتوقفت أمام الشاويش إدريس الذى إنتفخت عيناه من البكاء ، نظرت إليه ونظر إليها أقترب جمل منه ويدعى "الـبركة" نخ الجمل لأسفل وبشفتيه الكبيرتان لعق وجه إدريس ، تحركت أشجانه ومشاعره نحو الجمل الذي علمت أنه قضى معه تسع سنوات ، قبل إدريس الجمل فنام الجمل على جانبه وأفرد ساقيه الأماميتين نحو إدريس وجذبه نحوه بحيث وضع رأس إدريس على عنقه كأنه مخدة ووضع حول خصريه ساقيه كأنه يحتضنه ، وقفنا فى شبه ذهول ؛ البعض رفع يديه لله بالدعاء والبعض صمت ووضع يده على قلبه خشية أن يهاجم الجمل إدريس فيقتله فى الحال.

خرجت رغوة بيضاء من فم الجمل وأعقبها أصوات مختلفة وإدريس يجيبه مرة بالحديث ومرة يهدهد بيده على رقبته ومرة أخرى يخبئ رأسه أسفل رقبته ، مما دفع الجمل إلى الغرغرة مرة أخري حتى صمت إدريس ، نهض الجمل ووضع رقبته لأسفل فإمتطاه إدريس وقام الجمل يلف لفة دائرية بالمكان ونحن نهتف له مرددين صيحة الله أكبر ، أسرع الجمل يتهادى ومازال إدريس جالساً فوقه وقد عاد إليه وقاره وحكمته ، هدهد على رأس البركة طالبا منه أن ينزله أرضاً ، أنصاع إليه الجمل ونخ وهبط إدريس ووقف بيننا متحدثا:

زملائي ورجالي أبناء جيش مصر ، ماذا نحن فاعلون؟ فقد علمنا أن المصيبة كبيرة والخطب عم البلاد ؛ لقد صدرت إلينا الأوامر بالإنسحاب ونحن جنود ؛ ماذا نحن فاعلون؟ صمت البعض وتحدث البعض بوجوب

تنفيذ أمر القيادة ، نزع إدريس سترته العسكرية قائلاً: هذا ردي ؛ لقد أصبحت خارج الجيش لكنني مازلت مصريا ابن مصر ، سوف أظل أقاوم بسيناء ، من أين أنسحب وإلي أين أتجه ، هذا هو وطننا مثل ما بلاد النوبة وأسوان بلدنا الصغير ، أنسحب وأعود لزوجتي وأبنائي لأخبرهم بأنني شبه رجل ولم أستطع أن أحافظ على شرف وطني وجئتك يا زوجتى كي أجلس بالدار أطبخ وأعجن الدقيق وأربي الأبناء وعليك أنتِ وشقيقاتك وبنات القرية الذهاب لملاقاة العدو ، لن يحدث هذا ومن يريد العودة فليعود.

صمت القوم وكأن على رؤوسهم الطير ؛ فهذا قائدهم الذي يقدرونه حق قدره قد قرر البقاء ، بعد قليل تحدث الرجال وحدث لغط فى الحديث ومازال إدريس متخليا عن سترته العسكرية ويرتدى الشورت والقلشين الذى يغطى ساقيه والحذاء الميرى ؛ كأنه يخبرنا قائلاً : إذا فسوف أترك هذا الزى الذي سوف يؤدى بى لترك أرضى وأهلي بسيناء ؛ تحدث أحمد الطيب الذى كان يؤم المصلين للصلاة طالبا منا جميعا بأن نحذو حذو رسول الله عندما هاجر من مكة إلى المدينة وحدث تنافس بين المسلمين الأنصار أهل المدينة على من يتولى شرف ضيافة رسول الله وترك هذا الأمر لله بأن دفع بالجمل إلى إختيار المكان.

شملنا شعور عام بالإرتياح لهذا الإقتراح ولم يعارضه أحد ؛ كان السؤال الملح هو كيفية تفهم الجمل لما نريد ، إبتسم أحمد الطيب موضحا ما سبق وتفهمه من أجدادنا المسلمين الأوائل فى عصر الرسول الكريم ، إقترب أحمد الطيب وطلب من الجمل "بركة" أن يشير عليهم هل ننفذ أمر القيادة وننسحب أم نظل بموقعنا نحارب العدو بقدر طاقتنا .. نظر بركة إلينا ثم

سار قليلاً مقتربا من بقية جمال القطيع ، ثم تركنا جميعا وأسرع يعدو بالمنطقة ودار من حولنا عدة دورات لا نعلم عددها ثم توقف ورفع رأسه للسماء مثلما فعل عرابي قبل هذا وتلفت يمنه ويسره ثم دار حول نفسه دورة واحدة برك بعدها أرضا وجلس ومد رقبته ورأسه للأمام وظل على هذا الوضع عدة دقائق.

تحيرنا بعد أن تنفسنا وتركنا حزن الهزيمة جانبا ، تساءل الطيب : بماذا يخبرنا الجمل بعد أن أصبح على هذا الوضع ، أقبل إدريس وأتجه إلى الجمل وقبله ووقف بجوار رأسه وأشار إلى الجهة التى ينظر إليها الجمل قائلاً: نتجه إلى هذا الإتجاه؟ حرك الجمل رأسه لأعلى ولأسفل عدة مرات كأنه يجيب ويؤيد إدريس ، هلل إدريس مكرراً مكبراً "الله أكبر .. الله أكبر" لقد قرر الله وأرسل إلينا برسالته بأن نظل فى هذا الإتجاه .. إتجاه الشرق الذي يعنى إتجاه العدو وليس إتجاه الغرب إتجاه قواتنا التى إنسحبت ، هلل باقى الجنود ، طلب منا أحمد الطيب الوضوء لأداء صلاة الشكر لله على نعمته بأن هدانا ولم نكن نهتدي لولا أن هدانا الله.

هكذا تقرر أن نظل بسيناء بمواقعنا وأن نقاوم العدو ونترك مقاومة مهربي المخدرات حتى نتفرغ للمحتلين ، أصابني هذا القرار بصدمة شديدة؛ لقد دمرت أحلامي وكل الأماني التى كنت أفكر بها بأن تتحقق بالعودة إلى أنشاص والعيش مع أمي وإخوتي ولقاء ريهام التى أكن لها كل حب وأنا أعلم بأنه حب لن يستمر من ناحيتها ولن يكتب له النجاح بأن نصل إلى نهايته ويكلل بالزواج.

قام الشاويش إدريس بتوجيهنا ببعض الأمور الإحترازية ومن أهمها عدم مجابهة العدو بقوة كبيرة بل نكتفي بالهجوم على الدوريات ونقاط التفتيش المنعزلة على أن يتم كل هذا ليلا بعيداً عن ضوء الشمس أو خلال الليالي القمرية حتى لا يشاهدنا الأعداء، مع الإلتزام بالسرية والكتمان ووضع الجمال فى أماكن مخفية لحمايتها بحيث تصبح مستترة حتى لا يشاهدها العدو ويطلق عليها النيران ويحرمنا من تلك الوسيلة الهامة للتحرك من مكان لآخر.

قرر إدريس بأن يرسل بإثنين من الجنود إلى الريس حمدان مهرب المخدرات كي يزودنا بملابس أبناء سيناء تساعدنا على التخفي والتمويه حتى لا يصبح زينا الرسمي مثار ملاحظة سواء من العدو أو من بعض البدو الكارهين لما قمنا به من إعتقال ومقاومة لنشاطهم الإجرامي المنافي للقانون ، أخبرنا إدريس بأنه سبق وهمس بهذا الأمر مع حمدان الذي أيد تلك الفكرة حتى لا نصبح لقمة سائغة أمام من يرغبون بالحصول على المعلومات وإرسالها للمحتلين.

اليوم الرابع للقرار الذي إتخذ بالمكوث بسيناء ومقاومة المحتل عاد الجنديان بالجمال بعد أن حملها حمدان ورجاله بالكثير من ملابس الأعراب وبعض الإحتياجات من مؤن وخلافه ؛ تبادلنا النظرات بأن يقوم هذا المجرم الخطير بفعل هذا ولكن أحمد الطيب علق قائلاً: هذه هى مصر وتلك أخلاق المصريين الذين يتحدون في الشدائد ويشد بعضهم بعضا ، فنحن أقوياء أمام الخطوب والمحن ولذا فضلنا رسولنا الكريم عن باقى الأمم.

تم توزيع الجلباب علي الجميع وقد حصل كل فرد فينا على جلباب بالإضافة إلى جلباب آخر إضافي مع بعض الملابس الأخرى ومناشف وقطع من الصابون والتى تبين أن نصف تلك الأغراض قد سرقت من مخازن الجيش المصري ، تعاون البعض معي كي أقوم بلف غطاء الرأس بالطريقة السليمة.

رغبت بالإستفسار عن وضعي وهل ستصلني شهادة الإعفاء من الخدمة العسكرية من عدمه، ولكنى تراجعت أمام قوة الرجال وإنهماكهم فى إعداد السلاح كما قام إدريس يعاونه إثنان برسم لوحة علي الأرض توضح طبيعة صحراء سيناء وأهم الهيئات من جبال وهضاب وأودية وطرق موجودة بها؛ كان حجم اللوحة يقارب العشرين مترا فى عشرين متراً ؛ كما تعاون جميع الأفراد كل واحد بما يعلمه من أسماء الهيئات والجبال بوضع كل هذا على تلك اللوحة.

كنت فى دهشة مما يقوم به الرجال وما الغرض من إجهاد النفس لأيام ثلاثة لرسم مثل تلك اللوحة على الأرض ؛ وهل سوف ننظر إليها كل يوم وما سوف يحدث لتلك اللوحة حين هبوب العواصف الرملية أو حين هطول الأمطار ، أيقنت أنهم لا يفكرون بعمق وأنهم يلهون على الرمال مثلما كنت ألهو مع ريهام ونحن أطفال صغار على شاطئ مطروح الساحر مما فتح خزانة الذكريات وبالتالي إندفعت دموع الألم وإبتعدت عنهم مستترا بقطيع الجمال حتى تفيض دموع الحزن والذكريات التى هاجمتني بعيداً عنهم بعد أن أصبحت سجينا فى تلك الصحراء وقد أنقطع وصل الأهل والأحبة بى ولم يعد هناك من مستقبل لإستكمال طريق الدراسة الذي بدأته منذ عدة أعوام

بعد أن وفقني الله فيه ولم يتبق على دخولي الجامعة سوي تلك السنة الدراسية ؛ حيث لم أتمكن من تسجيل دخولي بسبب حالة التجنيد وعدم وجودي قريبا من مديرية التربية والتعليم بالشرقية والتى تتبعها بلدتي أنشاص إداريا ؛ فمنذ بداية العام وأنا مجند بالجيش بداخل صحراء سيناء فلم أستطع كتابة إستمارة دخول إمتحان الثانوية العامة نظام منازل.

الدوريات تجوب سيناء

الآن ظهرت الحقيقة واضحة جلية بأن الجيش المصري هُزم أمام الجيش الإسرائيلي وإنسحبت قواتنا أمام الأعداء ؛ لقد مضى على هذا العمل أكثر من خمسين يوما ؛ ولم نعلم به إلا مصادفة من تاجر المخدرات وعصابته ، لقد كتب الله علينا البقاء بسيناء لمقاومة العدو ، لقد قالها الشاويش إدريس : إلى أين أتجه ولماذا أنسحب؟ هل من المنطق أن أترك أرضي للعدو وأهرب وألجأ إلى منزلي وزوجتي أحتمي بهم ، ومن الذى سوف يقوم بالحرب؟ بل لم يكتفي بهذا ؛ لقد ألهم الله الجمل بأن يظهر لنا القرار المناسب الذى تقبله جميع الجنود ولولا هذا لحدث تضارب بينهم وكل واحد منهم قرر أمراً مخالفاً للآخرين.

جلست هامداً بعد أن شعرت بأن مستقبل حياتي أصبح مُظلماً ، فليس لي جيش كي أخدم به وحتى الآن لم تصل شهادة إنهاء الخدمة العسكرية وأصبحت شبه أسير بسيناء ، لقد تركت أمي وشقيقاتي كما ضاع مستقبلي الدراسي ، أيضا حبي لصديقتي ريهام ، كل شيء ضاع ولم تعد هناك آمال أو صفحات بيضاء فى مستقبل حياتي وعليّ أن أتقبل قرار البقاء مع زملائي بالحدود وأن أتبع حياتهم وسيرتهم وألا أشذ عن قراراتهم.

بعد أن إنتهي إدريس وبعض معاونيه من رسم اللوحة التى تمثل سيناء وطبيعتها جلس أمامنا يوضح طبيعة كل منطقة سواء قرأ عنها أو خدم بها ، فالرجل جاب سيناء عدة مرات وله فيها سبعة عشر عاما حفظ خلالها كل

دروبها ومسالكها وأماكن المياه والمناطق الهامة والتضاريس الوعرة.

كان الرجل فاهما حاذقا فى شرحه المسهب الواضح ، بعد أن إنتهي من شرحه قسم رجاله إلى مجموعات ، كل مجموعة فردان وطلب من كل مجموعة التوجه لمنطقة محددة يظلان بها لمدة أسبوع يعودان بعدها إلى المقر بتلك المنطقة بهضبة النسور حاملين معهم ملاحظاتهم عن العدو والمتمثلة فى عدد القوات والتسليح ، وطبيعة ما يقومون به ، ونقاط الضعف التى تمكننا من التعامل معهم بأقل الخسائر والحصول على نتائج هامة ومن أجل هذا قُسمت القوة إلى ثمان مجموعات ولم يتبقى سواي وبعض الجمال الزائدة عن الحاجة كما تركوا الجمل المشاغب " أمشير " خشية أن يتسبب لهم فى مشاكل أثناء السير أو حين مشاهدة قوات العدو ، تحركوا بعد أن تبادلنا الوداع مع تحذيرات محددة لي من الشاويش إدريس باليقظة والحذر وحماية المهمات ومخابئ الأسلحة والذخيرة الزائدة عن الحاجة ؛ بالإضافة إلي رعاية الجمال وتقييدها وعدم تركها حرة حتى لا تترك الموقع باحثة عن أماكن إعاشة أخري أو البحث عن الجنود الذين تصادقوا معهم.

فى جنح الظلام غادر الرجال الموقع يرتدون ملابس بدوية وأخفوا أسلحتهم بأغطية قماش باليه كي لا يرتاب بهم أحد حين اللقاء رغم أن تعليمات إدريس الإبتعاد عن البشر بقدر الإمكان وعدم فتح النار على أحد إلا تحت الظروف القهرية حتى لا نكشف أنفسنا كما أمرهم بترك الكارنيه العسكرية بالمخلة لحين العودة حتى إذا إلتقوا مصادفة بأفراد من العدو لا يعلمون شخصيتهم وإذا حدث فتكون أقوالهم بأنهم عمال بمناجم الفحم أو

الفوسفات أو البترول وهم راغبون بالعودة إلى أقاربهم بوسط سيناء.

أصبحت بمفردي مع عشرة جمال بالإضافة لهذا الجمل المتهور "أمشير " الذى زاد توتره حينما شعر بأن الكثير من الجمال غادر المنطقة خاصة الجمل المدعو هادي حيث كان أمشير يشعر بحب نحو هذا الجمل لكبر عمره ومن المحتمل أنه شعر بأن هذا الجمل أباه!!

ظللت طيلة الليل يقظا ومعي بندقية ومستعد لإستخدامها حين الشعور بالخطر قادم على الجمال رغم إنني لم يسبق لي إستخدامها من قبل ، كانت ليلة طويلة جدا والسكون يلف المكان ولم أشاهد أي ضوء فى الأفق أو السماء حيث كانت ليلة صامتة سوداء بكل المعايير وتعتبر تلك الليلة الأولى فى حياتي بأن أظل منفردا بعيداً عن الناس.

ظللت على حالي باليقظة ليلاً والنوم نهارا مع الإستمرار في رعاية الجمال التى لم تجد سواي ولهذا شعرت بقربها منى أكثر عن الأيام السابقة ، كنت فى بعض الأوقات أشدو ببعض الألحان لأغانى بعض المطربين والمطربات المشهورين ، أيضا كنت أشعر بالراحة والأمان حين تلاوة القرآن حيث كنت أجيد التلاوة مقلداً صوت الشيخ محمد رفعت إلى حد بعيد وسبق وأن أخبرني بهذا من سمع تلاوتي ، لاحظت أثناء التلاوة أن الجمال تمتنع عن طحن الطعام والبعض منها يقترب منى ويبرك مجاورا لي لدرجة أن إدريس أقبل وباقي الرجال ولم تهتم بهم الجمال وظلوا قريبا منى يستمعون للتلاوة ، كنت أثناء ذلك أحاول أن أستفسر منهم هل أنتم جمال أي حيوانات؟ أو ملائكة فى صورة جمال لما تقومون به وأنكم تفهمون

وتعبرون، أيضا حين أداء الصلاة كنت أشاهد الجمال تنظر إليّ كأنها راغبة فى محادثتي.

كل تلك التصرفات أشعرتني بأنني أجالس بشر علي مستوي عال من الرقي والقرب من الله ، حتى الجمل المتهور " أمشـــير " لم يتصرف معي تصرفاً طائشاً ؛ حيث كان إدريس يخشي حدوث توتر منه أثناء غياب الفصيلة عن الموقع ، أسعد هذا إدريس والرجال بعد أن عادوا وعلموا بأنه لم يحدث أي شيء غير عادى لي أو للجمال المتبقية وظل الوضع على حاله مما دفع بإدريس إلى أن يقدم لي الشكر والثناء على ما قمت به.

تكررت الدوريات وكانت ذا فائدة عظيمة حيث شعرنا بأن سيناء شبه فارغة من جنود الأعداء بإستثناء أماكن محددة وبعض المحاور الواضحة التي يستخدمونها وينشرون حراستهم حولها وعلمنا بأنهم أنشئوا وحدات صغيرة لتوزيع المعونة الغذائية على أبناء سيناء وعادة ما تشمل تلك المعونة الدقيق والسكر والشاي والبن والسجائر وبعض الأدوية الصغيرة سيرا على نهج الحكومة المصرية قبل الإحتلال ؛ كما وصلت معلومات تفيد بأنهم يقومون بتوزيع بعض الهبات من النقود الإسرائيلية "الليرة" فى ذلك الوقت لدعم البدو وإجتذابهم نحوهم وتدعيم الحب معهم، وبأنهم أحسن حالا الآن عن ذي قبل إبان الحكم المصري.

أحد الأيام حضر مندوب عن الشيخ "حمـــــــدان" زعيم عصابة المخدرات وقدم هدية بسيطة للشاويش إدريس عبارة عن راديو ترانزستور وبعض بطاريات إضافية ، شكره إدريس على هذا ؛ حيث كنا نجتمع حوله

لسماع قرآن المساء الصادر من الإذاعة المصرية بتوقيت الثامنة مساء يعقبها نشرة الأخبار ، شعرنا أننا نحيا ونعيش مع أبناء الوطن ، أصبحت المعلومات والأخبار تصل إلينا أولا بأول وأفادنا هذا وبالأخص حينما سمعنا عن المعركة البحرية بين مصر وإسرائيل وفيها قامت البحرية المصرية بإغراق مركب كبير يقال عنها المدمرة ايلات وعلمنا بعد ذلك ما معنى مدمرة.

تلك الأخبار دفعت بدماء الحمية الوطنية بأجسادنا الهزيلة ورفعت من هامتنا وشعر كل فرد بيننا بأننا إتخذنا القرار المناسب وبالتالي طغى هذا على كل شك أو ريبة فى صحة ما إتخذه إدريس من قرار بالبقاء بسيناء ومقاومة العدو ، لم تمض عدة أيام علي عودة دوريات البحث عن المعلومات إلا وقام إدريس بتحويل كل تلك المعلومات إلى خطة لمهاجمة العدو ، كانت الخطة سهلة وميسرة وتصب بالهجوم على الحراسات النائية البعيدة عن كثافة القوات المعادية ، أيضاً تتلخص بالهجوم المباغت بعد منتصف الليل وفى هذا التوقيت يهاجم النوم الحراسات ؛ أما طريق العودة فقد وضع به كمين مكون من فردين يقومان بستر القوة المهاجمة وإحداث خسائر بالعدو ؛ كما حدد أماكن الإختباء قبل شروق اليوم التالي بساعتين مستغلين الظلام وعلينا البقاء بالكهوف يومين أو ثلاثة حتى تنتهي مهمة البحث والمتابعة كما أن سير الجمال فوق الصخور فى إتجاه الكهوف سوف يمحى كل أثر متبقي من خف الجمل.

مضت أربعة أيام منذ غادر رجال العملية الفدائية ؛ ها هم قد عادوا ثانية ولم يصيبهم أي ضرر وقد إستقبلناهم بفرحة عارمة ، جلس إدريس يعدد

مكاسب تلك العملية والتى أسفرت عن قتل جندي وإصابة ثلاثة والإستيلاء على رشاش إســـرائيلي من ماركة "عوزي" وهو رشاش قصير لكنه مباغت فى العمليات العسكرية بداخل الجبال ولم يكن به ذخيرة ولهذا أضيفت للخطة التالية الحصول على ذخيرة لهذا الرشاش ؛ تلك العملية شجعت الرجال على الإندفاع لمهاجمة قوات العدو ولهذا أطلق إدريس على تلك العمليات اســم " فهد اللـــيل "

***

أول عملية قمت بها:

منتصف شهر ديسمبر من عام ١٩٦٧ ؛ وقد مضي على هزيمة الجيش المصري ستة أشهر وبعض الأيام ، مازال الشاويش إدريس يجوب سيناء بحثا عن المعلومات وخلال تلك الفترة إستطاع مع رجال الفصيلة الحصول على الكثير من المعلومات التى تفيد الجيش المصري ولكنه لم يستطع الوصول إلى الطريقة المثلي كي تصل تلك المعلومات إلى القيادات ، أمرنا إدريس بأن نتجه إلى منتصف سيناء قريبا من المحور الأوسط الذى تكثر به حركة الإسرائيليين للحصول على البيانات حيث إننا لم نقم بتغطية تلك المنطقة وكان التركيز بالمنطقة الجنوبية التى يقل بها نشاط العدو.

تم التحرك بالفصيلة بالكامل مع بقاء العريف أبو بكر بمؤخرة الفصيلة للحماية وبرفقته الجمال الزائدة عن الحاجة والأسلحة والأدوات الإدارية بالفصيلة ، طلب إدريس أن نحمل معنا طعام ثلاثة أيام على أن يكون الطعام جافا مثل الجبن وقطع من العجوة وبعض عبوات الماء الشخصية لزوم

الشرب كما أُعد جمل يحمل بعض عبوات ماء بلاستيك عبوة ٢٠ لتر من المستخدمة كعبوات زيت موتور لسيارات الجيش والتى عثرنا على الكثير منها.

إقترح الأمباشى أحمد الطيب أن نسلك الطريق التى كانت تستخدمه القوة ذهاباً وعودة من وإلى قيادة الفوج بالسهل الساحلي القريب من بحيرة البردويل بجوار منطقة رمانة ، وافق الجميع على ذلك ، بالفعل تحركنا حيث كان رجال الفصيلة يشدون من أزرى وبتشجيعي على الإشتراك معهم فى الدوريات ، بعد مسيرة يوم ومن خلال العواصف الرملية الشديدة التى ألهبت وجوهنا إقتربنا من المحور الأوسط وكان الوقت قد قارب من المغرب والظلام بدا يسرع بإتجاهنا.

لمح البعض منا كومة تغطيها مهمات أو ملابس فأسرع الجميع نحوها وتبين إنها لهيكل عظمى لإحدى جمال الدورية التى كانت قادمة من القيادة إلينا ، كما عثر أحد رجالنا على الشنطة الجلد التى يحتفظ بداخلها مندوب الدورية على الأوامر والمعلومات والأوراق ، طلب منا إدريس أن نبحث عن الرجل الذى كان يركب الجمل ، لم تمض عدة دقائق إلا وعثر أحدنا على الهيكل العظمى لصاحب الجمل ، تعرفت عليه القوة وكان للجندي عثمان آدم وهو أحد أبطال فوج الحدود فى مطاردة الهاربين والمخالفين للقانون.

قام الرجال بدفن الجثمان بعد أن تفحصوا ملابس الشهيد والتى تدل على أنه حصل على دفعة رشاش من مدفع إسرائيلي نظرا لتمزق الافرول بثقوب

من آثار الطلقات التى أطلقت عليه ، اليوم التالي نهض الرجال والحزن كامنا بالصدور ، تفحص إدريس الأوراق وكانت أول ورقة وقعت عيناه عليها هى شهادة إعفائي من الخدمة العسكرية ، بُهت القوم وكنت أول هؤلاء؛ فلقد أصبحت حر طليق ، توقف بى الزمن فترة ثم عُدت كي أستدرك الوضع الذى أصبحت عليه الآن ؛ كيف أصبحت حرا طليقا وسيناء محتلة من جنود العدو الذين ينتشرون بكل مكان ، تمنيت بألا كنت قد شاهدت وعلمت بوصول شهادة الإعفاء ؛ فقد تأقلمت مع الرجال ورتبت نفسي على العيش معهم حتى النهاية حين يتم الإنتصار على العدو.

بكلمات قليلة تحدث إدريس موضحاً بأنه من الواجب علينا الأخذ بثأر الشهيد وألا تضيع دماءه هباء ، ولهذا قرر بأن يتجه جميع أفراد الفصيلة إلى منطقة جبل الحلال ونصب كمين لدورية الشئون الإدارية والتى سبق وأن رصدنا تحركها عدة مرات الشهر السابق ولهذا طلب منى الإختباء قريبا من الصخور الواضحة القريبة منا والتي تقع بأول جبل المغارة ؛ أشار إلىّ بأن تلك الصخور القريبة يمكنني أن أختبئ خلالها وترك معي الجمل "هادى" حتى لا تحدث مشاكل من أحد الجمال الأخرى بينما سلك الرجال الطريق الواصل بين جبل الحلال وبئر روضة سالم.

هكذا غادر الرجال المكان فرادى بين كل فرد وآخر ربع ساعة تقريبا حتى لا يلفتوا أنظار الأعداء لو كانت هناك مراقبة دون أن ننتبه إليها ، مضت أكثر من ساعتين وأصبحت بمفردي بتلك المنطقة التى تكثر بها قوات الأعداء ، برك الجمل بين الصخور بينما تحركت قريبا منه ثم توجهت إلى هيكل الجمل الذى كان يحمل الشهيد الجندي عثمان آدم ، حركت الهيكل

العظمى قليلا فشاهدت أثراً لقطعة من القماش الميرى "الـــبُل" وهو قماش متين مثل المشمع ، جذبت قطعة القماش وتبين أنها تحتوي علي شيء ما لأنها صعبة ولا تتحرك ، أزلت الرمال من حولها ثم جذبتها فتحركت معي بسهولة ، فضضت قطعة القماش وتبين أنها لبندقية جميلة ذا حجم أكبر من البنادق الآلية التى يحملها الجنود ؛ بل إنها مزودة بجهاز به قطعة من الزجاج وفيما بعد علمت أنها تلسكوب ، تذكرت أن تلك البندقية طلبها الشاويش إدريس من قيادة الفوج منذ عدة أسابيع ، ولهذا فقد أرسلت إليه ولم تستخدم من قبل كما لم يستخدمها الشهيد عثمان آدم حينما واجهه الأعداء وأعتقد أن الأعداء قد إستولوا علي سلاحه الشخصي فلم يكن متواجدا مع الجثمان ؛ أيضا لم يفطنوا لوجود البندقية القناصة التي كانت مخبأة علي ظهر الجمل بين الأغراض الشخصية له ، كانت البندقية سليمة ولم يطلها الصدأ حيث يحيط بها قماش منغمس فى زيت خاص يمنع الصدأ.

قمت على نظافة البندقية بسعادة وقلدت زملائي جنود الحدود حينما كنت أشاهدهم يقومون بمثل هذا العمل اليومي ، كانت البندقية محشوة بالطلقات ، أسعدني أن أختبر التلسكوب وأنظر بداخله ، كنت في غمرة النشوة والتي تسعد أي شاب صغير مثلي بأن يعثر على سلاح بتلك الطريقة ، رددت بداخلي : لقد أصبحت أمتلك سلاحا أعتقد أنه أفضل من أسلحة زملائي الجنود حيث كنت أستمع لبعض تعليقاتهم بأنهم يرغبون بقطعة من بندقية قناصة مزودة بتلسكوب ولكن قيادة الفوج أهملت هذا الطلب الذي تكرر مرات عديدة ، أخيرا وافقت علي تزويد الفصيلة بالبندقية لكن من حملها قتل أثناء قدومه للفصيلة وبالتالي حرمت الفصيلة من مزاياها لأنها لم تتسلمها.

أثناء تفحصي أجزاء البندقية شاهدت حيوانا يعدو مسرعا قريبا منى وتبين لي بأنها غزالة من النوع الفريد المنقط ، لم أهتم بتعليمات الشاويش إدريس ولم أتذكرها إذا قمت بالتصويب على هذا الحيوان وضغطت على الزناد فخرجت الرصاصة تشق عنان السماء وشاهدت نفسي مقلوبا على ظهري من رد فعل البندقية الشديد ؛ شعرت بدفعة قوية بجفن عيني اليمنى من تلسكوب البندقية ، تنبهت إلى الخطأ الشديد الذى إقترفته ولهذا أسرعت وخبأت البندقية بالغلاف الذى كانت مغلفة به قبل ذلك وقمت بالحفر بالرمال قريبا من موقع " بَرك الجمل " وعدت ثانية وأنا أتلفت عن يمينى وعن يسارى ، لم تمضي دقائق إذ شاهدت غبارا ناتجا من سيارة وبدا واضحا أنها سيارة جيب للأعداء قادمة فى إتجاهي ، أدركني الخوف والتوتر فإختبأت بين الصخور وتبين لي فيما بعد أنهم إكتشفوا موقعي وأين إختبأ حيث أنهم مزودين بنظارة ميدان تقرب وتوضح لهم الرؤيا على مسافة عدة كيلومترات، هكذا توقفت السيارة الجيب وهبط منها أحد الجنود متقدما فى إتجاهي شاهراً سلاحه بينما ظل الثلاثة الآخرون بالسيارة.

توقف الجندي على مسافة لا تبعد عن مخبئي بأكثر من خمسين مترا وصاح مناديا بصوت مرتفع:

ــ تعالى هنا يا مصري يا ابن الكلب ، لم أتحرك سواء خشية منه أو لسوء حديثه والسباب الذى لم أكن أتوقعه ، إقترب قليلا حتى وصل إليّ وقبض عليّ بشدة ودفعني أمامه وظل يضربني بأقدامه " بالشلوت " بينما كنت أسمع أصوات ضحكات باقى الجنود ، مازال الجندي يضربني بقسوة كنت خلالها

أسقط أرضا سواء بضربي بالشلوت أو على مؤخرة الرقبة.

كان إتجاه دفعي للسير فى إتجاه السيارة ؛ الآن علمت نهايتي المحتومة، سواء بالقتل أو بالأسر لكن الشيء الذى لم أكن أتوقعه وأعتقد أيضا بأن الجنود لم يتوقعوا حدوثه هو مشاهدة "هادى" الجمل الذي نهض مسرعا وأقبل فى إتجاهي ولم ينظر ناحيتي حيث كان مركزاً نظره أثناء عدوه ناحية الجندي الذي مازال واقفاً مشغولا بإيذائي وفى لحظات هجم الجمل على الجندي الإسرائيلي وقبض علي ذراعه بأسنانه القوية ورفعه لأعلى ثم هوا به أرضا بين صرخات الجندي ، كان واضحا حالة الهياج والضيق التي لبست الجمل والتي سبق وأن أوضحها لي زملائي جنود الحدود بعدم الإقتراب من الجمال حين تتوتر أو يصيبها الضيق لأنها تصبح عنيفة وتهلك الأشخاص التي أمامهم خاصة حينما يشعر الجمل بأن صديقا له أصابه الأذى، صمت الجنود الآخرون من هول المفاجأة ؛ بعد أن سقط الجندي أرضا داس الجمل عليه بقوة مستخدما الخف وسمعت صرخة الموت صادره من الجندي وتحطمت عظامه وخمد جسده بينما تنبه أحد الجنود وفتح النار على هادي الذي أسرع فى إتجاه السيارة العسكرية.

لم يستطع الجنود مغادرة السيارة من هول المفاجأة بينما كنت أشاهد الدماء تتدفع من مقدمة وصدر الجمل والذي كاد أن يسقط أرضا ولكن في لمح البصر قفز فوق السيارة الجيب وسمعت صرخات الجنود وقد أصبحت السيارة أسفل الجمل بعد أن تحطمت وبعد أن تحطمت عظام الثلاثة الآخرين وبركت السيارة أرضا بعد أن حطم ثقل الجمل العجلات والوصلات وأصبحت لا ترتفع عن الأرض ، جلست أنظر لما حدث حولي حيث كان

المشهد مثيرا مرعبا وأنا على هذا الحال شاهدت بعض الجمال قادمة مسرعة نحوى ثم تلاها جمال أخري ، لقد أقبل رجال الفصيلة بعد أن إنتهوا من وضع بعض المفرقعات قريبا من ممر الدورية المعتاد وأثناء عودتهم سمعوا صوت الطلق الناري ثم شاهدوا السيارة مندفعة فى إتجاهي وعلموا ما سوف يحدث لي ولكنهم لم يتوقعوا بطولة هادي الذي فقد حياته للدفاع عنى.

أصدر إدريس أوامره بالإختباء بداخل الثنايا القريبة من جبل المغارة نظرا لأن اليهود سوف يقبلوا مسرعين للإنتقام مما حدث لزملائهم ؛ لقد سمعوا كل ما دار وحدث على جهاز اللاسلكي المتواجد بالعربة الجيب ، حاول بعض الرجال مع إدريس أن يمهلهم لبعض الوقت كي يعدوا حفرة لدفن عرابي ولكنه كان حازما مؤجلا هذا إلى أن تهدأ الأمور ، تحرك الرجال كسالي ورغم حالتى المتردية مما حدث لي علي يد الجندي الإسرائيلي إلا أنني شاهدت الجمال تتحرك بصعوبة ولم ترفع عيونها عن زميلهم هادي كأنهم يودعون شخصا عزيزا عليهم ، كان المنظر مؤثرا للغاية وكنت فى حالة من الضيق والخجل لما حدث وأنبت نفسي لما تسببت فيه من مشاكل لرجال الفصيلة ورغم هذا لم يوجه لي أحد كلمة توبيخ أو تقريع.

وصلنا إلى الميول الجنوبية لجبل المغارة وهي عبارة عن سلسلة من الصخور الممتدة والمنتشرة حول جسد الجبل الضخم ، كان إدريس غاية فى الذكاء حيث تخير الموقع الذى سوف نعتكف به ليكون غير صالح لتحرك السيارات أو الدبابات ، بل وتكثر به الثنايا التي تساعد علي إختباء الأفراد

والجمال ؛ وعلمت بعد هذا بأن هذا المكان يحتوي علي ثلاثة عيون ماء صغيرة ولكنها كافية ؛ وتلك المنطقة تساعد الرجال على مقاومة قوات المشاة والكوماندز الإسرائيلي إذا حاولت الإقتراب منا ؛ كل تلك المعلومات علمتها من حديث إدريس مع الرجال ورغم الخطأ الذي إرتكبته إلا أنهم حملوني ووضعوني بمكان تنتشر به الرمال وليس به ندوب صخرية ؛ كما قام على رعايتي الجندي طلحة الذى إستخدم بعض سوائل الأعشاب "بيض الجمل" لتقليل الإصابات التي ألمت بى ؛ قام إدريس بتوزيع المهام على الرجال كما قام كل رجل منهم بإخفاء الجمل الخاص به تحت إشراف إدريس كما أسرع الرجال بتوفير المياه قبل حلول الظلام.

إستيقظت صباح اليوم التالي أنظر حولي فى تلك الطبيعة الخلابة التى تحيط بى ، عبارة عن صخور من مختلف الألوان والأشكال تحيط بالكهوف التى قامت الطبيعة ببنائها وأعتقد أن الله أعد تلك الكهوف كي يقيم بها الإنسان في بداية الكون بديلا عن المساكن كي تقيهم البرد والأمطار شتاءً ؛ أيضا تحميهم من حرارة ولهيب الشمس صيفاً ، تنبهت على صوت طائر يغرد بين الصخور ، أدخل صوته وشكله الجميل السعادة والفرحة إلى قلبي بعد ما نلته من أذي على يد الجندي الإسرائيلي بالأمس ، كان الطائر يغرد ويتحرك فى إتجاهات معينة ، بعد فترة زمنية ظهر من خلال الصخور حيوان ذهبي اللون وشكله رائع إلى أقصي درجة وإستطعت أن أميز نوعه حيث أن هذا الحيوان يقارب فى الشبه حيوان أبو الحصين "الثعلب" الموجود بمنطقة أنشاص ويهاجم الطيور ويسرقها يقتات بها ، حينما سألت أحد الجنود أكد لي أن هذا هو الثعلب الجبلي بمنطقة سيناء وكما تراه بلونه الذهبي

الجميل كما أنه يحاول دائما أن يقترب من الناس كي يحصل على طعامه وطعام أبناءه.

أصبح منظر الطائر ذا اللون الأحمر والأخضر مع الثعلب صغير الحجم ذو اللون الذهبي هو شاغلي الأول والأخير ؛ فأنا لست مكلفا بعمل ، بل وشبه مريض ولهذا طلب منى إدريس أن أركن للراحة ، شعرت بأن الطائر يرفرف كثيرا ويتجه ناحية الثعلب وإعتقدت أن الثعلب سوف يهاجمه ويصبح وليمته القادمة، لكن تبين لي أن هناك حديثا يدور بين الاثنين ؛ الطائر والثعلب ؛ حيث يصدر الطائر أصواتاً يتبعها الثعلب بحركات وتصرفات غير طبيعية ثم يطير الطائر إلى أن يصل إلى أقصي إرتفاع ثم يعود ويتحاور مع الثعلب ، ظل هذا الحوار قائما بينهما وأنا أمنى نفسي لو كنت أعلم لغة الطير لكنت إشتركت معهما فى هذا الحوار.

بعد قليل شاهدت الثعلب قادما قريبا منى وبدأ يتحرك ويقفز ويقف على قدميه الخلفيتين وبقدميه الأماميتين يقربهما من أنفه ثم يقفز ويعلوا بمؤخرته لأعلى مما آثار الجمال القريبة منى ودفع هذا بأحد الجمال ليحدث صوتا غير عادي ثم تبعته بعض الجمال التى أخرجت من فمها "القلة" بلونها البمبي ؛ إزداد صوت إحتجاج الجمال مما دفع الرجال بأن تسرع وتسألني عن السبب فى هذا وماذا حدث للجمال وأثارها بتلك الطريقة، شرحت لهم ما شاهدته من الطائر ثم الثعلب ثم إقتراب الثعلب من الجمال والحركات التى قام بها.

صمت الرجال لفترة ثم تحدث إدريس بصوته الهادئ وبلهجته النوبية

التى لم أعلم عنها أي شيء ؛ بأن شيئا غير طبيعي سوف يحدث ، إقترب منى أحد الجنود وأخبرني بأن إدريس يعتقد بأن طائرات قادمة فى إتجاهنا لقذفنا ، وما قام به الطائر الذي كان يقوم بالمراقبة وأخبر الثعلب الذي أفاده بأن ما تشاهده سوف يقضي علينا ولهذا أسرع الثعلب ليخبر الجمال ؛ نظرت إليه بدهشة متسائلاً : إنني أرغب فى معرفة ما يدور بعقل وفكر هذا الطائر وتلك الحيوانات لكن الجندي ترك المكان مُسرعاً ، أثناء هذا شاهت الثعلب يضع أحد الثعالب الصغيرة فى فمه ويقفز به من مكان إعاشته القريب منا ويغادر مخبأة ثم عاد بعد فترة فنقل صغيراً آخر حتى إنتهي من حمل صغاره وعددهم أربعة ، نظر أحد الرجال إليّ قائلاً : تلك المنطقة سوف تشهد معركة دامية ونيران وإنفجارات ، إن تحرك الثعلب يعنى هذا وضيق الجمال يؤكد ذلك.

أثناء إنشغالنا فى تلك الإجراءات أقبلت ثلاث طائرات هليكوبتر وحلقت فوق رؤوسنا ودارت دورة ثم سمعنا صوتها عاليا مما يدل علي إنها سوف تعود ثانية ، أشار إدريس للجميع بالإختباء بداخل الكهوف وعدم إستخدام السلاح ضد الطائرات ومن المحتمل إنها تحاول إشغالنا عن هجوم مباغت لرجال المشاة أو الكوماندز.

أثبت إدريس أنه يجيد قراءة أفكار العدو مثلما أجاد إستنتاجات أفكار الطائر والثعلب ؛ حيث ظهرت أشباح لجنود إسرائيليين ، لم أكن أتوقع دقة رجال الحدود فى الرمي بتلك الطريقة الرائعة حيث كانت الطلقات تتدفع فرادي لكنني إستطعت مشاهدة عدد من الإصابات مما دفع بالطائرات إلى قذف المنطقة بالصواريخ شديدة الإنفجار كي تساعد الجنود على الإرتداد

حاملين القتلى والجرحى ، لقد خسر الإسرائيليون بعض رجالهم فى تلك المعركة الصغيرة التى لم تتجاوز الدقائق.

شاهدت فرحة النصر على الوجوه السمراء العفية ، تلك الوجوه الطيبة المخلصة للوطن ، أقبل البعض نحوي يخبروننى بإنتصارهم على العدو وأن المعركة بدأت ولم تنتهِ بعد معلقين: نحن نعلم عن الإسرائيليين الكثير من طول مدة الخدمة بسيناء ، نحن نعلم عنهم كل شيء ونعد أنفسنا منذ زمن طويل لمعركة معهم وقد أقبلت ونحن على أتم إستعداد لها ، كرر أحدهم قوله ، سوف نلحق بالجمل هادي ؛ هذا الجمل الرائع الذي ظل معنا لمدة تزيد عن عشر سنوات قدم خلالها الكثير من الخدمات للوطن وقطع خلال تلك الفترة آلاف الكيلومترات بحثا عن الخارجين عن القانون وفى نهاية حياته أنهي حياة أربعة من رجال العدو.

كنت أشاهد إدريس جالساً هادئ كعادته وهذا يدل إما على الرضا أو أنه مشغول البال يفكر فى الخطوة التالية ، تساءل عن عدد إصابات العدو وتبين أن هناك ثلاثة قتلى وسبعة جرحي ، حرك إدريس رأسه دليلاً على الثقة ثم وجه حديثه لزملائه قائلاً: أيها الرجال الشجعان ، رجال الحدود المصريين ، سوف تبدأ المعركة مع العدو وإحتمال كبير أن يقوم بقصفنا بالنابالم أو القنابل شديدة الإنفجار ، علينا الإختباء بعمق بداخل الكهوف مع الإحتياط حتى لا تصيبنا القنابل الحارقة والتى ليس لها علاج ، سوف يتبع هذا حصار طويل لموقعنا حتى نخرج رافعين الأيدي علامة الاستسلام والهزيمة، ولو كانت الظروف مواتية وخدمنا الحظ وتلبدت السماء بالغيوم وأمطرت بشدة فسوف يساعدنا هذا على ترك الموقع دون أن يلحقنا الأذى

كما أن العدو لن يستطيع إقتفاء أثر الجمال ، طلب إدريس من الجميع أن يتوجهوا لله بالدعاء أن يثبت قلوبنا على المعركة الفاصلة مع العدو وأن يمنحنا الخير بالمطر الشديد الذي يملأ السماء رعداً وبرقا.

خلال الليل وفى الظلام الدامس كنت أشاهد بريق عيون الرجال المتيقظة كما لم أسمع ضحكات أو أي أحاديث تدور بينهم ، كان الرجال فى حالة من الإنضباط الشديد وإحترام القوانين والتعليمات التى أمر بها الشاويش إدريس ، كنت أشعر بالسعادة بأننى أرافق هؤلاء الرجال كما إزداد فخري بأبناء وطني الذين يعملون بكل دقة وفى ظروف صعبة دون عون إداري أو قيادة للإشراف والمساعدة والتوجيه ، لقد أيقنت أن ما سبق وسمعته فى "كتاب القرية الذى يملكه " الشيخ حسن مستكة عن سير الصحابة الأجلاء لرسولنا الكريم بأن هؤلاء الرجال يقتدون بهم ، فما الذي كان سيفعله الصحابة سوي الجهاد بالنفس والبدن دون إنتظار عائد مادي أو أدبي ، هؤلاء يقومون بهذا دون جلبة أو ضوضاء وكان من الممكن أن يعملوا إلى العودة لغرب القناة تنفيذاً لأمر الإنسحاب أو يظلون بسيناء قابعين دون عمل أو يقومون بمساعدة المهربين ويحيون حياة رغدة طيبة مقارنة بما يقومون به الآن.

اليوم التالي لم يجد جديد والهدوء ينشر ستارة مريحة على النفس لكن التوتر كنت أشاهده فى عيون إدريس أثناء مروره على الرجال وحين الإقتراب منا ، توقف لحظة ثم رفع صوته عاليا : إستعدوا يا رجال ، لقد أقبلت طائرات العدو القاذفة التى سوف تشعل المكان حريقا ضخما ، أنهى الرجل تعليماته وأسرع بالإختباء بداخل الكهوف مع باقى الرجال ؛ إزداد

صوت الطائرات وضوحا وأصبحت الأصوات مرعبة ولكن الأكثر رعباً وخوفاً هو صوت إندفاع صهاريج النابالم من الطائرة فى إتجاه المنطقة التى نقيم بها ، ثم إنفجارها وإنتشار الحرائق المهلكة بكل مكان ، كنت أشاهد النابالم أثناء إنفجار العبوات كأن مياه حارقة تتناثر فى كل مكان واللهب الحارق يتصاعد ويمتد لمسافات أبعد عن المكان التى سقطت به العبوة ولهذا تأكد لي أن إدريس كان واعيا وفاهما لطبيعة العدو ولتلك الأسلحة الفتاكة ، ظلت النيران مشتعلة بعض الوقت وبدأت تخمد رويدا رويداً حتى إنطفأت ومضت ساعة من الزمن ثم شاهدنا تقدم أفراد العدو قادمين فى إتجاهنا.

كان واضحاً لجنود الأعداء بأنه قد لحقت بنا إصابات شديدة ومن المحتمل أنها قضت علينا ولهذا لم يحتاطوا لنا كما حدث فى السابق حيث كان تقدمهم سريعا والسلاح ليس فى وضع الضرب ، إقترب منا رجال العدو حتى قاربوا من فتحات الكهوف ومازالت أثار النابالم واضحة على الصخور بلونها الأسود المتفحم ، لم أشعر إلا والرصاصات تخرج من بنادق رجال الحدود وفى المقابل كنت أسمع أصوات صرخات وأنين المهاجمين ، حاول البعض منهم الفرار دون جدوى خاصة أن رجال الحدود ضايقهم قذفنا بالنابالم ولهذا كان العناد والإستبسال هو سيد الموقف.

إختبأ الرجال بين الصخور وبعد عدة دقائق سمعنا صوت إنفجارات قنابل بصوت مكتوم ثم شاهدنا أدخنة سوداء قاتمة تتصاعد بحيث لم نستطع أن نشاهد ما يدور حولنا ، صاح إدريس بعدم تحرك الرجال حتى إذا شاهدت غريبا قادما عليك فإقتله فى الحال لأنه من الأعداء ، بدأت الأدخنة فى الزوال تدريجيا وبعد مضي نصف ساعة عاد صفاء الرؤيا للمنطقة

وتبين لنا أنه خلال تلك الفترة إستطاع العدو الإنسحاب بعد أن حمل قتلاه وجرحاه.

خرج المراقبون من رجال الحدود لأماكنهم وإجتمع إدريس بالرجال وجلست معهم بعد أن تحسنت حالتى الصحية ، أخبرنا الرجل بأنه من المحتمل أن تهطل علينا الأمطار مساء غد ؛ حيث يشاهد آثار غيوم ويشتم رائحة المطر القادمة من إتجاه الشمال ، خاطب الرجال قائلاً: أيها الرجال إذا حدث المطر فستكون تلك فرصتنا للهرب ؛ وقد أبلغني المراقبين بأن العدو يحتفظ بعربتين مدرعتين خارج المنفذ الوحيد الذى يمكن أن نغادر منه تلك المنطقة برفقة جمالنا ولا يمكن أن نفرط بترك الجمال ؛ فالجمل بالنسبة لنا مثل الدبابة والطائرة والمدفع والسفينة بالنسبة للمقاتل ، أعيد حديثي : إذا هطل المطر فيجب عليكم الإستعداد للهرب تباعا بعد أن أشير إليكم وإذا حدث وغادر أول فرد فينا الممر الواصل بين الكهف والصحراء دون أن يطلق أحد عليه النار فهذا معناه أن الطريق أصبح آمناً ولهذا سوف نسلك طريقنا المعروف الذي تسلكه دورية الشمال القادمة إلينا متجهين إلى موقعنا بالجنوب أما عن حالي فسأقوم ومعي إثنان بوضع ألغام من التى نحتفظ بها معنا منذ تحركنا من الجنوب أسفل جنازير العربات المدرعة من الأمام والخلف والجنود لن يلحظونا لأنهم سوف يختبئون بداخل سياراتهم إتقاء العواصف والمياه الشديدة ، تلك هي فرصتنا الوحيدة للنجاة من هذا الحصار؛ أما بخصوص صابر فيوضع على أحد الجمال القوية ويقوم الرجال بربطه جيداً بالحبال حتى لا يسقط من فوق الجمل أثناء الهرب بتلك السرعة الشديدة ولن يستطيع أحد إنقاذه وحين الوصول لموقعنا بالجنوب نفك وثاقة ، ثم عاد وتساءل: هل تفهم الرجال المهمة؟ أجاب الرجال بلغتهم

الغريبة على أذني بما يفيد بأنهم تفهموا ووعوا كل تعليماته ، أشار إليّ إدريس بأن أظل على ظهر الجمل الذي يعلم طريق عودته حيث ستتبع جميع الجمال الجمل الأول فى طريق العودة.

قبل غروب اليوم التالي بات واضحا بأن المطر علي وشك السقوط ولهذا أمسك بى أحد الجنود وسار معي فى إتجاه أحد الجمال البارکة والذى كان يتناول بعض الأعشاب المتواجدة بتلك المنطقة ، سمعت صوت إدريس عاليا يطالب الجنود بالسرعة والإستعداد لتنفيذ خطته لأن الرياح الباردة قادمة مسرعة من إتجاه الشمال محملة بالأمطار ؛ ضحك حيث كان يدعو الله بأن تكون تلك الرياح رعدية حتى يستطيع الرجال كسر الحصار الذى فرضه جنود العدو على الفصيلة ، جلست فوق ظهر الجمل كما طلب منى الجندي ، كان الركوب مخالفاً حيث جلست على مؤخرة الصنم وأقبل جندي آخر وشاهدته يمسك ببعض الحبال وقام بربط الحبل حول المعصمين ومن الناحية الأخرى بأقدام الجمل الأمامية بمنطقة المفصل بين الساق وبطن الجمل ؛ حدث هذا أيضا لساقيّ حيث ربطت الحبال حول المفصل بالكعبين ثم ربطت بأقدام الجمل الخلفية ، أقبل إدريس وصرخ فى الجنديين متسائلاً لماذا إخترتم هذا الجمل ، إنه جمل شارد ، سمعت جندي آخر يدعو الله أن يكمل أمشير الرحلة مع صابر على خير ، إنتفضت حين سماعي لهذا الاســم ، فأنا أعلم من هو أمشير المتمرد العنيف ، طلب منهم إدريس وضع اللجام حول فمه حتى لا يصيب صابر ، قاوم الجمل وأقبل إدريس وآخرون ونجحوا فى مهمتهم وفى تلك اللحظة هبطت الأمطار مصحوبة برعد يصم الآذان وبرق يخطف الأنظار وسمعت إدريس يصرخ فيمن حوله متسائلاً من وضع هذا العشب أمام أمشير إنه عُشب " أبو خوسبا " رددت بصوت عـــــال

" أبوخوسبا " لكن الوقت والموقف إنقلبا سريعا إذ نهض الجمل مسرعا دون إنتظار باقى الجمال وأصبحت الرؤيا ضعيفة من شدة الأمطار وشعرت بأن أمشير يسابق الريح من خلال الصخور التى أشاهدها من حولي وصوت إدريس يكرر: لقد تعوذ رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأيهمين ، وهما السيل الجارف والجمل الهائج ، قال الشاعر:

رغى عقب التمتمة والهديري *** من خوف مصقول يقص العتاري

حينما ظهرت الصحراء شاهدت أضواء العربات المدرعة للعدو بضوء خافت من تأثير شدة الأمطار ، كان الريح هو أمشير وأمشير سابق للرياح العاتية والأمطار تهبط من حولي ومن شدتها شعرت بأن حبيبات المطر سوف تخترق ظهري ؛ لكن كلمة "أبو خوسبا " كانت الشغل الشاغل لي ، إنها تعنى العشب المهيج جنسيا لدى الجمال وهذا الجمل لم يتم خصيه بعد وهو جمل شاب راغب بالبحث عن أنثي وقد فعل العشب فعله وسوف تزيد من هياجه ووضح لي أن مفعول العشب بدأ يؤثر فيه بعد مغادرة ركب الفصيلة وباقي الجمال وتلك السرعة الهائلة التى يجري بها وخلال ذلك كنت أسمع صوت هديره عاليا رغم أصوات الرعد المصاحبة للمطر وأيضا صوت سقوط المياه على الأرض والصخور القريبة.

أيقنت بأن حياتي قد قاربت على الإنتهاء ؛ سواء من عضة هذا الجمل وما سبق ورأيته منذ عدة أيام من الجمل هادي الذى كان اسما على مسمي ورغم هذا قضي على أربعة من الأعداء ومازال منظر رفعه لجسد الجندي الإسرائيلي لأعلى وسقوطه أرضا يخيفني ، أيضا توترت وتخوفت من هذا

الجمل أمشير ؛ وإذا أنقذني الله من جنونه فسوف أموت من شدة البرد التى بدأت تلسع ظهري وأجنابي.

ما لم يكن فى الحسبان

الجندي رباح:

تجمع الزملاء وبادرني أحدهم متسائلاً: ما الموقف الآن يا رباح؟ لم أجبه ولكني وقفت مع رجال الفصيلة بجوار الشاويش إدريس الذى كاد أن يبكي لما حدث لزميلنا الجندي صابر ونحن رجال الحدود نعلم مقدار غضبة الجمل وتهوره وبالذات نوعية أمشير الذى لم يتم خصية بالإضافة إلى تناوله كمية كبيرة من حشائش "أبو خسبا" المقوية جنسيا ؛ فلم نهتم بما يتناوله أمشير مثل باقى الجمال لأن أى جمل يتناول مثل تلك الحشائش لا يتأثر بها لأن جميع الجمال تم خصيها بقيادة الفوج قبل أن تأتي للفصيلة وهذا عرف دارج بالسلاح ولكن الجمل أمشير تناساه المسئولون عن القيام بتلك العملية ولم يكن أمامنا من مفر إلا بالتعامل معه بحذر وهذا ما قام به صابر خير قيام ؛ بل كان من الواجب علينا إطلاق النار عليه وحينما أرسلنا بهذا الأمر لقيادة الفوج رفضوا الفكرة رغم إكتشاف حالة التوتر التى صاحبته.

أشاهد الشاويش إدريس يتحاور مع باقى جنود الفصيلة ثم سمعت صوته ينادي علىّ: رباح ، نعم إنى مقبل ، أفندم شاويش إدريس ، أيها الرجال ؛ جنود فصيلة الحدود ، اليوم ومنذ نصف ساعة تقريبا فقدنا الجندي المستجد صابر الذى هرب به الجمل العنيف أمشير وما هي إلا ساعة زمن ويتهور أمشير على صابر بأن يلوى عنقه الطويل ويقبض على جسده ويمزقه ؛ فالجمل فى أشد حالة هياج وقد علمت من الجندي رباح أن الجمل أمشير تناول ما يزيد عن خمسين كيلو جرام من حشائش "أبو خسبا" وجميعنا

يعلم مدى تأثيرها على الحيوانات التى تتناوله وكيف أن ذكور الأغنام والماعز حين تناول هذا العشب تظل فى حالة هياج جنسي عدة أيام ولا تهدأ وتسكن إلا بعد أن تفرغ طاقتها بإناثها ؛ لكن الوضع هنا مخالف ، فلا توجد نواق "جمع ناقة أى أنثي الجمل" من حولنا ؛ لهذا فسوف يدفع هذا بأمشير إلى أن ينهى حياة صابر وهذا الشاب الصغير لا يعلم عن أحوال الجمال أي شيء.

الآن نستعد لتنفيذ خطة تدمير دورية العدو الرابضة أمام الجبل لأسرنا أو القضاء علينا قبل أن تسكن الأمطار ، يتحرك معي كلٌ من العريف عثمان والجنديان حمزة وجعفر حاملين الألغام لنقوم بتلغيم العربتين المدرعتين اللتين تحاصران مكاننا منذ أربعة أيام ، باقى الجنود يستقلون الجمال فى إتجاه موقعنا بالجنوب وأيضا الجندي رباح سيتولى السيطرة على الجمال الخمسة التى سوف نركبها لنلحق بكم ، هيا يا رجال تحركوا.

من ذكرت أسمائهم يقتفون أثري ، قف هنا يا رباح ومعك الجمال وباقي المجموعة من حولي ، أسرعوا نحو السيارتين اللتين إلتصقتا ظهر كل واحدة بالأخرى والجنود بداخلها يجلسون فى حماية واقي المطر مستخدمين المشمع السميك ، عثمان تحرك نحو السيارة بالجانب الأيمن ثم قُم بالحفر أسفل الجنزير من الخلف وأنت يا جعفر تحرك نحو سيارة اليسار ثم إحفر أسفل الجنزير الخلفي ، بعد الحفر كل واحد يضع بداخل الحفرة اللغم ويتركه ومياه الأمطار كفيلة بتغطيته بالرمال التى تتحرك من أعلى التبة فى إتجاه السيارتين ، أنا والعريف عثمان سوف نلغم السيارتين من الأمام فإذا تحركتا

للأمام أو الخلف تنفجران على الفور.

هكذا إنشغل الأربعة بالحفر بينما ظللت قريبا منهم أمسك بلجام الجمال الخمسة بينما أسرع رجال باقى الفصيلة هربا قريبا من السيارتين المدرعتين واللتان كنا نسمع بعض ضحكات وأحاديث الجنود بداخلها بينما الطقس من حولنا بالغ السوء، سواء من الصقيع أو من الأمطار الشديدة.

إنتهى الرجال الأربعة من أعمال الحفر وبث الألغام المضادة للدبابات تحت إشراف الشاويش إدريس وأشاهدهم بصعوبة رغم رداءة الطقس ؛ أسرع الرجال نحوى وكل واحد منهم تعرف علي جمله فشد الحبل لأسفل فنزل الجمل برقبته حتى أصبحت لا ترتفع عن الأرض إلا بمقدار متر فقفز كل فارس على ظهر الجمل بأن وضع قدمه على رقبة الجمل وأمسك بصنمه وقفز فوقه وأسرع به كالريح العاتية حتى إذا هممت باللحاق بهم لم أشاهدهم لكن الجمال تعلم الطريق وتشم رائحة بعضها البعض.

مازلنا نسرع الخطى وفجأة توقفت الأمطار بعد أن هدأت الرياح ، شاهدت إدريس يقف بين الرجال حتى إقتربت منهم ولكنه لم يكمل سيره إذا كان ينتظر حدثا هاما وقد وجه نظره جهة الجبل ، شاهدنا إضاءة كشافات السيارتين ، وبعد قليل سمعنا إنفجاراً يصم الآذان ، وبعده بدقائق كان الإنفجار الثانى حيث كانت الألغام فى المقدمة والمؤخرة مختفية أسفل الرمال التى حركتها الأمطار القوية ، هكذا تم تدمير عربتان مدرعتان إسرائيليتان ، وبالتالي سوف تقوم قيادة الجيش الإسرائيلي ولن تهدأ حتى تعلم من قام بهذا العمل ، شاهدت البسمة على وجه إدريس وباقي الزملاء ثم سمعنا الضحكات

وتحرك الركب وسمعت صوت إدريس متحدثاً: لقد أخذنا بثأر الجمل هادى وشريكه وحبيبه الراحل صابر.

بعد مسيرة أربع ساعات إختبأنا جميعاً بأحد تجاويف الجبال الصغيرة المنتشرة بمنطقة بئر الجفجـــافة بالمحور الأوسط ، لقد قطعنا حوالي ستين كيلومترا حتى الآن ؛ أسرع بعض الرجال بالبحث عن عُشب جاف وإستطاعوا تجميع البعض منه وأيضاً عُشب أخضر لإطعام الجمال ، كان تجويف الجبل منثنيا على هيئة قوس حتى نضمن عدم خروج ضوء بعد إشعال اللهب وقد كان وشاهدت النيران المشتعلة التى أدخلت الدفء والراحة إلى أجسادنا المبتلة التى أصبحت مثل قطع من الحديد اللين.

أخرج أحد الرجال من جراب الجمل أدوات الشاي من عبوة السكر والماء والشاي والأكواب ووضع كل شئ على النار حتى خرجت رائحة الشاي الجميلة المنعشة وتبادلنا تناول الشاي فرد بعد الآخر حيث لم نكن نحمل أكوابا تكفي الجميع ، هدأت النفوس وتسلل الدفء إلى أجسادنا ومازالت الجمال باركة أمامنا تمضغ طعامها بهدوء ولم يكن يعكر صفو تلك الجلسة سوي شعورنا بأننا جميعا شاركنا فى نهاية حياة أصغر رجال الفصيلة أي الجندي صابر بإهمال إختيار الجمل الذي ركبه أو لعدم مراقبة هذا الجمل العنيف الذي كان من الواجب تركه فى مؤخرة الفصيلة مع باقى الجمال والمعدات مع الجنديين النوبتجية الذين تركناهما بموقعنا القديم.

كل تلك الأحداث كان إدريس يذكرها من حين لآخر مما دفع بأحدنا وهو الجندي بلال لأن يخرج صوته العذب بالغناء وكان هذا دأب بلال حين

القنوط والضيق تنفرج أساريره ويخرج صوته بنغمات طيبة تعيد الهدوء والسكينة إلى صدورنا فيهدأ الرجال إستعدادا ليوم آخر.

عصر اليوم التالي خرج أحدنا إلى مقدمة الكهف يستطلع الأمر ، ظل جالسا لفترة ثم عاد وأخبرنا بأنه سمع أزيز محركات بعض الطائرات الهليكوبتر تفتش المنطقة ومن المحتمل أنها تبحث عن أي دليل بالرمال يرشدها لمن قام بتلك العملية ، أضحك هذا إدريس حيث علق قائلاً: لو الجن الأحمر أراد معرفة من قام فلن يعثر على أي أثر لأن المياه أزالت كل أثر لأقدام الجمال وأصبحت الرمال ناعمة ولا يوجد عليها أي أثر لإنسان أو حيوان منذ الأمس.

حينما حل الغروب تحركنا فرادا نتبع بعضنا البعض بفاصل أكثر من عشر دقائق وقد طلب منا إدريس أن نتجمع فى منطقة هضبة "التيه" بعد أن نعبر وادي غرندل فنسلك الطريق إلى جبل "يلـــق" ثم بئر المالح فالكنتلا ونستغل أحد روافد وادي العريش حتى نصل نخل ومنها إلى معسكرنا الدائم، هكذا تحركنا بحرص حتى إذا تواجدت أكمنة إسرائيلية لا نقع بها جميعا ويكفي الشخص الأول وعلى الباقي الإختباء لفترة ثم العودة لمكان الكهف الذي أوينا بداخله بالليلة السابقة ، قبيل الفجر وصلنا إلى هضبة "التيه" وكانت سعادتنا كبيرة فلقد عبرنا منطقة وسط سيناء التى تنتشر بها القوات الإسرائيلية بكثافة ، أصبح الطريق إلى وادي "فيران " الذي يؤدى إلى مكان تمركز الفصيلة مفتوحا ، شاهدنا أحد عيون الماء فأسرعنا بالجمال فشربت وعبت كما شرب الرجال وكل واحد قام بملأ العبوة التى يحتفظ بها بالماء.

مضت ثلاثة أيام واليوم الرابع هبطنا إلى منطقتنا وشعرنا لحظتها بأننا وصلنا إلى دارنا أو منزلنا الفسيح الذي نقيم به منذ أعوام تعدت العشر سنوات منذ نهاية حرب عام ١٩٥٦ ، إستقبلنا رجال المؤخرة بالفرحة والسعادة وجلسنا نتجاذب أطراف الحديث ثم فجأة تساءل أحد رجال المؤخرة عن الجندي صابر؟ صمت الجميع وكان للصمت معنى ومغزى بعدها علق إدريس بكلمات قليلة ثم إستنهض الرجال داعيا الجميع للصلاة وأن نقيم صلاة الغائب على روح هذا الشاب الصغير الذى جاءت ورقة إعفاءه من الخدمة العسكرية ولم تصل ليده حيث كانت الحرب أسرع قدوما من وصول ورقته وأخيرا هاهو قد أصبح فى رحاب الله بعد أن جاءت نهايته بأسنان أحد الجمال العنيفة التى أمدتنا بها القيادة ، وتساءل لو أن كل من يقوم بعمله بإتقان لما وصل إلينا هذا الجمل ولما قابلنا هذا السلوك العنيف ولما راح ضحيته أحد الشباب.

صباح اليوم التالي إقترب منى أحد جنود المؤخرة وأخبرني بأنه سمع أمس الأول بعض أصوات لبشر خلف تلك الصخور النارية وخشيت أن أترك المكان وأتجه إلي مصدر الصوت بمفردي للبحث عن من يكونون وفكرت بأنه من المحتمل أن بعض جنود العدو ينتظرون بالخلف ، لذا فقد إنتظرت إلى أن حضرت الفصيلة لأبلغ الشاويش إدريس ومن أجل هذا فقد أبلغتك يا رباح وعليك إعلام رقيب الفصيلة بهذا الموضوع.

غادرت المكان وتوجهت لمكان الشاويش إدريس الذى كان منهمكا على نظافة بندقيته كما أن باقى الجنود يحذون حذوه ، إقتربت منه وأسررت بما سبق وأن أخبرني به جندي المؤخرة ، توقف إدريس عن العمل وتحرك

معي وأشار إلى ثلاثة جنود آخرين وإتجهنا مع جندي المؤخرة الذي سمع تلك الأصوات إلى الجهة التى قال أنه سمع الأصوات صادرة منها حاملين معنا أسلحتنا ، ظللنا جميعا ننتظر حوالي الساعتين دون نتيجة وبدا الملل والسأم يتسلل إلي نفوسنا وقرر إدريس العودة ولكن أحد الرجال وضع أذنه علي الأرض ثم نهض وأسرع عائدا وأشار لباقي الزملاء فحضرنا إليه وأخبرنا بأنه سمع أصوات لبعض الأفراد يتحدثون العربية.

عاد إدريس وكل فرد منا أعد سلاحه وتوجهنا كمجموعة جهة المنطقة التى صدر منها الصوت وتسللنا المرتفعات وبدا أن الإنهاك أصابنا من شدة ووعورة المرتفع ثم هبطنا المرتفع من الجهة الأخرى ولم نعد نشاهد زملائنا بموقع الفصيلة لبعد المسافة وإلى إرتفاع قمة الهضبة الصخرية التى تسلقناها، جلسنا بعض الوقت لنحصل على الراحة فنادي عليّ إدريس قائلاً: رباح ...أقبل عليّ ؛ نهضت وإتجهت إليه ؛ فقال لي : أترى هذا الظلام الذي يظلل تلك الصخور ، إتجه إليه وهناك سوف تجد مدخلا لأن هذا الظلام يعنى أن تلك المنطقة مفتوحة وبالتالي لم تنعكس الأشعة بالخارج عليها ، إذهب وإستمع وبعد ساعة أقبل وأخبرني بما سمعت.

أسرعت بتنفيذ أوامر الشاويش إدريس ، جلست قريبا من فتحة الكهف ، لم تمضى عدة دقائق إلا وسمعت أصوات رجال تتحدث العربية بلهجة أبناء القاهرة ، عدت مُسرعا وأخبرت إدريس الذي تحرك بالرجال وطلب منهم عدم إطلاق النار خشية سماع الأعداء لصوت طلقات الرصاص وتحدث كارثة مثل التى حدثت عندما أطلق المرحوم صابر النار ، تسللنا بهدوء إلى داخل الكهف ، بعد عشرين مترا تقريبا أخذ الكهف شكل منحنى لأحد

الأجناب ، حينما تعدينا هذا المنحنى شاهدنا ثلاثة رجال يجلسون ويتحدثون بأحاديث غير متجانسة ، أي كلمة من هنا وكلمة من هناك ، بهدوء فاجأهم إدريس طالبا منهم عدم المقاومة ورفع الأيادي ، نفذ الرجال الثلاثة أمر إدريس لكن المفاجأة أنهم بكوا بكاءً شديداً جعلنا فى دهشة من أمرنا.

نهضوا معنا وكانت حالتهم مزرية إلى أقصي درجة سواء من الشحوب البادي على الوجوه أو القذارة وطول اللحية الذي يميزهم عن أي شخص آخر بالإضافة إلى طول شعر الرأس ، سرنا بهم ونحن نرفق لحالهم من عدم المقدرة على السير مثل حالنا ، وصلنا لموقع الفصيلة بعد أن هبط الليل، إستقبلنا الرجال بفرحة وهنا طلب إدريس إعداد طعام للرجال وتذويدهم بمياه الشرب وتوفير أغطية تقيهم برودة الشتاء.

مضت أيام ثلاثة على الرجال قبل أن يصبحوا قادرين على الحديث معنا ؛ لقد كانوا فى حالة من الذهول وعدم المقدرة على التركيز رغم فرحتهم بلقائنا وعلمهم بأننا فصيلة من سلاح الحدود المصري ، اليوم الرابع تحدث الرجال وعلمنا ما حدث لهم ، أنهم من العاملين بأحد حقول البترول بمنطقة أبوزنيمة ، وحينما إندلعت الحرب أقبلت قوة إسرائيلية وقتلت البعض منهم وأسرت الباقين وكان الرجال الثلاثة يقومون بربط ماسورة طرد مياه ساخنة بأخرى بالخليج ولم يشاهدهم الإسرائيليون ، بعد أن غادر الأعداء المنطقة أسرعوا وهربوا يبحثون عن ملجأ يقيهم شراسة العدو وظلوا طوال تلك الشهور هائمين بالمنطقة ؛ يوما ينالون مياه شرب وأياما أخري تجود الأرض عليهم بنقطة مياه صالحة كما أنهم أكلوا من حشائش الأرض وإصطادوا بعض الفئران لطعامهم وفى شهري سبتمبر وأكتوبر إعتمدوا فى

غذائهم علي البلح من بعض أشجار النخيل المنتشرة بالمنطقة ، إستخدموا الكهف للمعيشة ولنومهم خشية الحيوانات المفترسة والأفاعي ، ومع طول المدة بدأ يهاجمهم شعور بأنهم هالكون لا محالة ولن ينقذهم أحد بتلك المنطقة المهجورة ، لقد مضي عليهم شهور ستة منذ إندلاع الحرب.

صباح اليوم الرابع لعثورنا على هؤلاء الرجال الثلاثة أشاهدهم مقبلين علىّ وعلى الشاويش إدريس ؛ بعد أن جلسوا تحدثوا معنا : صباح الخير يا شاويش إدريس ، رحبنا بهم وتحدثنا معهم بحديث بسيط فقد أقبل أحد الجنود يحمل الطعام لهم وقد سبقناهم بتناوله نظراً لأننا ننهض مبكراً ؛ عرفنى أحدهم بنفسه ، عزيز ميخائيل ، مهندس ميكانيكا ، طول عمري وأنا باشتغل فى البترول لحد ما وصل عمري ٥٢ سنه وبقالي هنا تمن سنين ، صمت لفترة ثم تبعه الثانى ليعرفنا بنفسه: جلال حمدي فني موتور ، كما تحدث الثالث وأسهب فى الحديث قائلا: هلال حسني مشرف ميكانيكا والذراع اليمني للباش مهندس عزيز ، رحبت بهم وبسعادتي بأن الله أنقذهم وسوف ينالون العون والرعاية من رجال الحدود.

أمشـــــير والعاصفة الممـــــطرة

بعد أن مرق "أمشـير" كالسهم من خلال صخور الجبل الذى أوينا إليه منذ عدة أيام بسبب خطأ إرتكبته دون قصد مما ترتب عليه فقد حياة هادى أحسن جمال القطيع ، سكنت قليلا حزينا لكن بعد قليل غمرتني فرحة طاغية بأن أربعة من جنود العدو لاقوا مصرعهم تحت ضربات وشجاعة هادي.

مرق الجمل بجوار العربتين المدرعتين كالسهم وخلال هذا كنت أخشي أن ينتبه أي أحد بداخلها والذى يصل عددهم إلى عشرة جنود كما أخبرنا الشاويش إدريس ولكن تبين لي أنهم عاكفون على الإختباء من الأمطار والبرودة الشديدة كما لاحظت أن العربتين المدرعتين إلتصقتا من الخلف كما توقع إدريس ، شعرت بالغبطة من ذكاء إدريس.

خاطبت "أمشـير" طالبا منه أن يخفف من سرعته ولكن صوتي ضاع بين أصوات الرياح العاتية ، كنت أشعر بأن جلبابي سوف يتمزق من قطرات المطر القوية الشديدة ، بل فى بعض الحالات كنت أشعر بأن مسامير تخترق جسدي مما دفعني للتألم بصوت عال بل والنواح ورغم هذا ظللت متماسكا فى هذا الوضع الشائك على ظهر الجمل.

لقد تذكرت حالي علي هذا الوضع مثل حالي وأنا أواصل التدريب على الإشتراك لدخول المسابقات بين الخيول والتى كان يعشقها رضوان باشا ، حيث كنت أجلس على مؤخرة الحصان وجسدي الخفيف يساعد الحصان على القفز عبر الموانع الموجودة بغرض التدريب ، ما أشبه اليوم بالبارحة ، شعرت بأن مفاصل يداي تؤلماني وبدرجة كبيرة فحاولت تقليل أثر شد

الحبال المربوطة بها مع أرجل "أمشـــير" الأمامية بأن أمسكت بالحبل بيدي كي أقلل من قوة الشد ونفذت هذا التصرف على مفصل القدمين ؛ تذكرت المثل القائل ما باليد حيله وهنا قلت إذا ما للرجل حيلة.

من حين لآخر كنت أسمع أصوات الجمل المرعبة التى تدل على أن شيئا ما ضايقه ، بل أنه فى بعض الحالات كان يلف رقبته للخلف ناحيتي ويخرج أصواتاً عالية وأنا بدوري أطمئنه بكلمات طيبة ، فقد شعرت بأن شيئا ما ضايقه ولهذا فهو يبثني آلامه وضيقه وإعتقدت أن السبب فى هذا عائد إلى خشيته من الأعداء بأن يتصرفوا معه مثل ما تصرفوا مع زميله هادى ، فقد كان جمل شاب يخشي على حياته.

مازالت الأمطار تتساقط والصقيع يضرب بجسدي وملابسي ومع تلك السرعة كادت خلالها أن تتجمد مفاصلي لولا سماعي صوت إنفجار قوى إعتقدت فى بادئ الأمر أنه برق من السماء ولكن ما جعلني أستبدل هذا الإعتقاد هو مشاهدتي لإنفجاريين متتاليين بفاصل عدة دقائق ويميزهما لونين أحمر وأصفر متداخل وأن الإنفجارات وقعت على الأرض وليس بالسماء.

تساءلت: هل هذا ناتج من العملية التى كان ينوى إدريس القيام بها ضد من يحاصرون فصيلتنا بداخل الجبل منذ أربعة أيام؟ تمنيت هذا ومازال "أمشـــير" يقطع المسافات دون هدف واضح وظاهر وبدا الإعياء يؤثر فيه وكاد أن يتعثر أثناء العدو وكدت أتمايل لأحد الأجناب وهذا ما كنت أخشاه لأن وضع مثل هذا سوف يؤدى بحياتي ، مازال الجمل يعدو وإعتقدت بأنه لن يتوقف حتى يلفظ أنفاسه ، أعتقد أنه قد مضي علينا منذ مغادرة سلسلة

الجبال التى كنا نختبئ بداخلها أكثر من ساعتين ، شعرت بتخدير بأجزاء جسدي ودخولي فى النوم ، بل شعرت بأن جسدي قد إرتفعت درجة حرارته وصاحب هذا رجفة ورعشة وقشعريرة تلاها حالة من الهذيان ، لم أعد أشعر بأي شيء من حولي سوي إنتباهي من حين لآخر على صوت الجمل المرعب وعدوه الذي مازال مستمرا.

شعرت بأنني أصبحت فى عالم آخر ، فجأة تنبهت على صوت قوى وصوت الجمل يدخل الرعب في قلوب من حوله خاصة أن الأمطار توقفت وأصبح الصوت مسموعا واضحا ونظرت للأمام فشاهدت أمشير قد إصطدم بسياج من الحديد ومازال يقاوم ويدفع هذا السياج بأقدامه رغم أن إرتفاع هذا السياج يضاهى إرتفاع "أمشـير" اى ما يقارب المترين ، ظل على هذا الحال عدة دقائق حتى إستطاع هدم السياج وأسرع يعدو فشاهدت جملا يقف، أسرع "أمشيـر" جهة الجمل وحدث تقارب بين الإثنين ، قام "أمشـير" بشم بعض أجزاء جسد الجمل الآخر ؛ ثم وضع رقبته فوق رقبة هذا الجمل ومازال صوته مرتفعا ، إستطاع "أمشـير" أن يجعل الجمل الآخر يبرك أرضا بعدها دار "أمشـير" نصف دورة وبرك أرضا ووضع مؤخرته في مقابل مؤخرة الجمل الأول ، ثم قام الجمل الهائج بإبراز شقشقته ، ويسميها البدو هدّاره ، ويحك مؤخرة رأسه (قذالة) بكتفة ، تعجبت لهذا وتذكرت العربتين المدرعتين اللتين قامتا بهذا العمل منذ ساعات وإعتقدت بأن هذا نظام مُتبع فى الصحراء لتفادى البرودة ، عدت لحالة القشعريرة ومازال الجمل يتحرك ويصدر أصواتا وأنا غائب عن الوعي كما قل إنتباهي.

شعرت بأنني أحلم وأن خيالا يتحرك قريبا منى ويبد هذا الخيال بندقية

بل ويمسك أيضاً بسكين كبير ، خشيت على حالي وأنا فى تلك الحالة بأن البعض أقبل لقتلى ولكن الخيال المتحرك قام بقطع الحبال التى تربط يداي وساقاي "بأمشـــير" ثم ساعدني على النزول من فوق الجمل فسقطت أرضا فمد لي يد المساعدة مرة أخرى وإستطعت الوقوف مستندا على هذا الخيال الذي سار بى بعيداً عن مكان الجملين مسافة ورغم هذا مازالت أشاهد الجملين باركين أرضا بهذا الوضع.

تركني هذا الشخص أو ذاك الخيال وأسرع نحو الجملين وفرد عليهما غطاء أحكم وثاقه ، ورغم حالتى كنت أشعر براحة بأن من قابلني فى منامي أو غيبوبتي يرحم الحيوان كما يرحم الإنسان ، أقبل الخيال الذي كان يلتحف بغطاء من أعلى الرأس حتى أخمص القدمين تجنبا للمطر والبرودة ، عاد وساعدني حتى دخلت مبنى أو خيمة وهناك وجدت فراشا طيباً فإستلقيت أرضا وبعد قليل عاد الخيال لكن فى صورة أخرى ، صورة سيدة جميلة وحادثتني بأن طلبت مني أن أقوم بإستبدال ملابسي المبتلة حتى لا أصاب بالمرض ثم ألقت إلىّ ببعض الملابس وغادرت المكان.

جلست أستعيد الدقائق الماضية وهل ما حدث هى أضغاث أحلام أو أنها حقيقة واضحة ، تحسست الفراش الوثير من حولي والضوء الصادر من أحد الفوانيس ليتأكد لي أن ما أشاهده حقيقة واضحة وضوح الشمس ، نظرت للملابس وتحسست ملابسي المبتلة وتنبهت على إصابتي بالكحة ، نهضت رغم حالتى وإستبدلت ملابسي بالملابس التى أحضرتها السيدة وألقيت بالملابس المبتلة جانبا ودخلت فى الفراش الوثير فشعرت بالدفء ينتشر

بأوصالي ؛ بعد هذا رحت فى سبات.

كنت أسمع بعض الأصوات وأنا نائم ولكني لم أنتبه ؛ حيث كنت أشعر بأنني فى حالة من الهلوسة ؛ حيث كنت أشاهد أمي وفى بعض الحالات أشاهد العريف أبوبكر كما كانت تهاجمني من حين لآخر رحلة الجمل الشاقة وصوته المخيف المرعب ، أخيرا سمعت من يحدثني ويهز جسدي ؛ تنبهت وشاهدت السيدة التى شاهدتها قبل ذلك ، قدمت لي مشروبا فتناولته وشعرت بطعم لاذع فسمعت صوتها وهي تخاطبني قائلة: هذا الدواء لعلاج نزلة البرد التى أصابتك أمس ، تحدثت فى بعض الأحاديث وأنا عنها غافل من حالة الهلوسة ، قدمت لي مشروبا دافئا ومذاقه جميل فتناولته ؛ ناولتها الكوب ثم رحت فى سبات مرة أخري.

ظل هذا هو حالي حتى أقبل الظلام والذى كنت أميز الأضواء من باب الخيمة القريب من الفراش الذى أرقد فوقه ورغم تلك الحالة كنت أسمع من حين لآخر صوت الجمل سواء كان هذا حقيقة أو كابوسا مزعجاً لما حدث لي أثناء الرحلة القاسية ، أقبلت السيدة وجلست تحدثني ووضعت كف يدها على مقدمة الرأس وإبتسمت قائلة لي: لقد تماثلت للشفاء ، إقتربت منى متسائلة عن اسمي ، أخبرتها فرحبت بى ثم نهضت وعادت بعد قليل حاملة بعض الأطعمة لي ، كانت الأطعمة مخالفة لما إعتدت عليه سواء فى مطروح أو أنشاص أو مع رجال الحدود ، كان الطعام له مذاق خاص وجميل ومحبب ، أنهيت على تلك الأطعمة التى كانت على هيئة سندوتشات من التى كنا نشتريها من كنتين مركز تدريب سلاح الحدود قبل التوزيع.

تناولت الطعام وأعقبه كوب من الشاي المحلى باللبن الحليب بعدها وضعت رأسي على المخدة وشعرت أنني شبه طائر بالسماء وأنه ليس لي وزن وأن أنني كبيرة وأسمع بداخلها طنين والبعض ينادى علىّ : أقبل يا صابر أين أنت؟ ولماذا لم تلحق برجال الفصيلة ، هل تركتنا لتعبث وحدك، ألن تحارب معنا يا صابر؟ بعدها شاهدت الجمل هادي أثناء هرولته جهة السيارة الجيب الإسرائيلي والجنود يمطرون صدره بالرصاصات القاتلة والدماء تندفع وكاد يتعثر ويسقط لكنه إستنهض الهمه راغبا بأن لا يترك الحياة إلا بعد أن يسجل اسمه مع الأبطال والشهداء ، هكذا سقط فوق السيارة وخلال هذا كنت أسمع الصرخات وأشاهد أذرع وأرجل الجنود القتلى أسفل الجمل ؛ لقد تحطمت السيارة وأصبحت لصيقة بالرمال من ثقل الجمل ، كادت الدموع تغادر عيناي ولكن النوم كان أسرع حيث رحت فى سبات للمرة الثالثة ، خلال تلك الفترة نلت قسطاً من النوم المريح العميق ولم تهاجمني الكوابيس والأحلام المزعجة.

تنبه سمعي على صوت نسائي رقيق يطلب من صابر أن ينهض ويترك الكسل والخمول ، أعقب هذا بأن فتحت عيناي لتكتمل الصورة بمشاهدة تلك السيدة والتى تأكد لي أنها فاتنة وجميلة لأقصي درجة وتضع بسمة على شفتيها الرقيقتين تجعل أي إنسان حزين يقبل على الحياة ، جلست نصف جلسة علي حافة السرير فأقبلت السيدة وقدمت لي كوباً من الشاي الساخن المحلى باللبن ، أمسكت به وأنا أدقق النظر فى وجهها ، أخبرتني بأنها تُعد طعام الإفطار وعلىّ النهوض واللحاق بها وتقديم يد المساعدة كي نفطر ثلاثتنا معاً ، كنت أدقق النظر بها أثناء مغادرة الحجرة ، لقـــد تأكد لي بعد

الإفـــاقة بأن الســـيدة رائعة الجمال ؛ طويلة القامة ، ليست نحيفة ، بيضاء وذات شعر كستنائي جميل طويل عقصته من الخلف ، ترتدي الملابس الإفرنجية ، أي بنطلون وبلوزة وفوقها جاكت جميل وحذاء متوسط الارتفاع.

نهضت وسرت أتفحص المنزل المقام من المشمع تقويه دعائم من الحديد المجلفن ، كان المكان فسيحا نظيفاً رغم أنه شُيد بين الجبال والصخور ، شاهدت السيدة تضع الطعام على مائدة صغيرة نسبيا ترتفع عن الأرض بحوالي٣٠ سنتيمتر ؛ أي مشابهه للطبلية التي كنا نتناول عليها الطعام بالقرية ، كما شاهدت طفلا صغيراً جميل الصورة يجلس أمام المائدة أرضا فوق وساده مرتفعه نسبيا ، حينما شاهدتني السيدة إبتسمت مرحبه بى:

ـــ أهلا صابر ، منور المكان

ـــ ربنا يخليكي ، مين القمر الجميل ده؟

ـــ ده ابني هارون

ـــ عاشت الأسامي يا هارون ؛ إنحنيت عليه وقبلت وجنتيه وجلست قريبا منه

عادت السيدة وجلست بعد أن وضعت أطباق الطعام أمامنا وبدأت تناول ابنها الطعام بقطع صغيرة والصغير يمضغ بمهل ، أعتقد أن الطفل لم يكمل العامين ، يرتدي جلبابا صغيرا وطاقية صغيرة على رأسه ، أبيض اللون يكسو خديه حمرة خفيفة ، كان قريب الشبه من أمه ، هكذا إندفعت فى

الحديث وتناولت الطعام الشهي ؛ حيث كنت أنظر من حين لآخر لهذا الطفل الصغير الجميل وأكرر : الحمد لله على نعمته على الناس بوجود أطفال صغار حين تنظر لأحدهم تشعر بالسعادة وراحة البال ويفارقك هاجس الصراع بين الناس على المال والمناصب.

من هـــــــي؟

الحمد لله ؛ قلتها بعد أن إنتهيت من تناول طعامي ، ثم قمت بمد يد المساعدة للسيدة فى رفع الأطباق وتنظيف المكان ؛ بعد قليل تركتني ورافقت ابنها ثم عادت بعد أن قامت بغسل يديه وفمه من بقايا الطعام .

نظرت إليها متسائلاً:

ـ اسمك إيه؟

ـ رحيل

ـ عاشت الأسامي يا ست رحيل

ـ جوزك فين؟

ـ راح مأمورية قريبة من تل أبيب

ـ ينهار!! تل أبيب ، جوزك راح عند أولاد الرفضي؟

ـ صابر ؛ إسمعنى وافهم كلامي ، أنا يهودية وجوزي كمان ، إحنا يهود مصريين وهاجرنا إسرائيل من عشر سنين ، ومش عيزاك تشتم اليهود لأن ده ح يزعلني ، فاهم؟ مش بتتكلم ليه؟ زعلت؟

ـ مش زعلت ، مكنتش فاهم الحكاية كده ، على كل حال إنتى مصرية وإلا

مش ينفع برضه؟ شاهدت البسمة على وجهها وأجابتني

ـ طبعا ينفع ، هو ده الأكيد فى الحكاية ، أنا يهودية مصرية ، كده أحسن وبلاش إسرائيلية خصوصا فى حالة الحرب اللي إحنا عايشينها دلوقتى ، لكن مقلتليش ، إنت بتشتغل إيه؟ تذكرت حديث الشاويش إدريس عن موضوع العمل وأننا نعمل بشركة بترول أو منجم الفحم حتى لا نلفت الأنظار إلينا بأننا جنود مصريون وتسبب لنا الكثير من المشاكل ، تنبهت لإعادة السؤال فأجبتها:

ـ أنا كنت شغال عامل فى شركة بترول على خليج السويس وبعد الحرب مش لاقي شغلانه ومش عارف أرجع بلدي

ـ بلدك!! بلدك اسمها إيه

ـ مرسي مطروح ؛ بصوت مرتفع

ـ ياه على مرسي مطروح الجميلة ، رحتها سنة ١٩٥٢، بلد جميلة والميه بتاعتها تجنن ، طيب يا صابر ممكن تشتغل معايا؟

ـ الشغلانه إيه؟

ـ تعرف تشيل شوله وصناديق؟ الحكاية... إن أنا وجوزي بنشتغل مع قوات الإحتلال الإسرائيلي؛ إحنا مسئولين عن توزيع المعونة اللى قررتها الحكومة الإسرائيلية للشعب الفقير بسيناء ، عشان كده عندنا مخزن كبير مليان

معونات ، يعنى شولة دقيق ، وشولة سكر وصناديق شاي وصناديق بن وصناديق سجاير وبعض الأدوية الصغيرة دا غير عبوات السمن والزيت واللبن البودرة ، إيه رأيك تعمل معانا وكل يوم بيجيلنا حوالي من عشرين إلى خمسة وعشرين عيلة يحصلوا على نصيبهم وبدل ما الواحد منهم يدخل المخزن ويشيل حاجته تقوم إنت بالعملية دية وتحمل الجمال والحمير اللى جايين بيها ، فكر يا صابر ، وأكلك ونومك هنا ، ولو عجبك الشغل ح ناولك كل شهر عشرين جنيه مش بياخدهم اللى تخرج من الجامعة بمصر.

ساد الصمت بيننا ، قطع هذا الصمت مغادرتها للمكان متوجهة للمطبخ لإعداد الشاي كما قامت بوضع ابنها هارون على المرجيحة كي يتسلي ولا يظل سائراً خلفها ، خلال إنشغالها كنت أفكر فى هذا العرض وهل من الواجب علىّ أن أظل مقيما بهذا المكان أو من الواجب أن أتركه وأتوجه لموقع الفصيلة بجنوب سيناء على خليج السويس ، بعد قليل أقبلت وقدمت لي كوباً من الشاي ، شكرتها وإنشغلت فى شرب الشاي وإختلاس النظرات إليها ؛ بعد أن شربت الشاي طلبت منها مشاهدة المخزن كي أقرر هل يمكنني حمل الأثقال والسير بها خلال الصخور ، رافقتني إلى المكان التى أعدته ؛ المكان عبارة عن خيمة صناعية مضادة لمياه الأمطار مثل التى تقيم بها ، شاهدت كميات كبيرة من أجولة الدقيق الأبيض المشابه لأجولة الدقيق التى كنت أشاهدها بالمدرسة وأنا طفل ويقولون عنها المعونة الأمريكية وتلك الأجولة ذات أوزان مختلفة ؛ خمسون وخمسة وسبعين ومائة كيلو جرام ؛ فعلا كانت تحمل شعار اليدين المتصافحتين والتى تـــدل على التعاون بين الأمريكان وباقي الشعوب ، أيضاً هناك قسم لأجولة الســـكر ؛ العبوة زنة

عشر كيلوجرامات ، شاهدت صناديق الشاي والبن ، قسم الزيوت والسمن وعبوات اللبن البودرة ومسحوق الكاكاو ، كان المنظر يسر العين خاصة أجولة الدقيق التى كان رجال فصيلة الحدود يقاسون الكثير فى سبيل الحصول على بعض الطحين كما يطلقون عليه بسيناء ؛ نظراً لعدم وفرتها بالفصيلة منذ بدأ الحرب ولهذا كان رجال المخدرات يحضرون لنا بعض الدقيق والتى لم تكن كافية، بينما هنا متوفرة ومن مختلف الأوزان.

أخبرت رحيل بموافقتي على العمل معها ، فأسعدها هذا ؛ وأشارت إليّ بما يعنى إلحق بى ، سرت قريبا منها فأشارت إلى مكان بجوار الأجولة وأخبرتني بأن هذا مكان نومك بعد ذلك ، المكان عبارة عن فرشة صغيرة على باب خيمة المخزن أي أنني سوف أنام مع أجولة الدقيق والسكر ، أثناء حديثنا سمعنا من ينادى ، لقد أقبل بعض البدو للحصول على المعونة الشهرية والتى قررتها لجنة الإحتلال بسيناء ، توجهت إليهم رحيل وتبعتها ، شاهدتها وهي تتأكد من البطاقة المسلمه لهم من لجنة الإحتلال وقامت بمراجعتها فى الدفتر المعد والمحفوظ لديها وهو المرجع لها وتأكد لها أن تلك الأسرة تستحق الكميات المحددة بالبطاقة ، طلبت منى إحضار جوال دقيق وشكارة سكر وعبوتين من الشاي وعبوة سجائر وعبوة سمن متوسطة الحجم ومثلها لزيت الطعام وعبوتين لبن بودرة زنة نصف كيلو جرام ، حملت تلك الأغراض ووضعتها فوق الجمل الذى حضر مع الأسرة التى غادرت المكان.

أثناء عودتي للمخزن شاهدت "أمشـــير" يقف بجوار الناقة التى أقبل نحوها بغرض تلقيحها يوم العاصفة الممطرة ، كان الجملان يأكلان العشب

بهدوء وحينما شاهدني "أمشـــير" أقبل نحوي يهز زيله القصير ثم وضع رأسه بجوار رأسي كأنه يقدم إعتذاره عما حدث ، نظرت إليه وهدهدت على رقبته مهنئا بحصوله على عروس وتكوين أسرة ، حدثته بصوت واضح ؛ لقد كدت أن أدفع حياتي مهرا لتلك العروس.

مضي على وجودي بهذا المكان أسبوع ، لم يكن العمل شاقا كما توقعت؛ حيث كنت أقضي وقت فراغي فى تلاوة القرآن الكريم ، أحد الأيام وأنا أتلو ما تيسر من القرآن الكريم فاجئني النوم وظللت جالسا نائما فى حالة مزاجية عالية ، لا أعلم السبب فى حالة النوم المفاجئ ؛ هل لأن أشعة الشمس كانت مُسلطة عليّ بمكان جلوسي بجوار الخيمة فدفعت بالحرارة التى خدرت جسدي بينما الجميع يشعر بالبرودة التى تكاد تيبس العظام والعضلات ، شعرت بشيء يدفعني فى وجهي وشعرت بشعيرات جافة على عيني وأنفي فتنبهت فشاهدت أمشير يداعبني أثناء نومي ، نهضت مهدهدا على رقبته فحرك رأسه مسرعاً بأنه يرغب بشيء ما وهذا ما تعلمته خلال الشهور الماضية ، إقتربت منه أحادثه:

ــ عايز إيه يا طفص؟ حبيبتك جنبك والأكل والميه متوفره ومش لك شغله ولامشغله غير إنك تحب فى الناقة وملكش منافس وأنا كل يوم بأهدهد عليك، إيه ناقصك؟

بالطبع لم يجب ولكنه مازال يحرك رأسه ، تجاهلته ولهذا إقترب مني ودفعني بفمه فتدحرجت عدة خطوات على جانبي ، تركني ومضي ، عُدت إلى جلستي السابقة أفكر فيما يريده هذا الجمل المخبول الذي لا يعجبه

العجب ولا الصيام فى رجب ، أسعدتني كلمة الصيام ونحن الآن فى شهر شعبان وكلها أيام قليلة ويقبل الشهر الكريم وأصوم رمضان لأول مرة بعيداً عن أسرتي.

إنشرح صدري بتلك المناسبة الإيمانية ، فتساءلت هل من الممكن أن أستمع لأغاني رمضان مثلما كنت أسمعها فى أنشاص؟ عادت إليّ الذاكرة وقمت بالغناء : رمضان جانا أهلا رمضان .. قولوا معانا .. أهلا رمضان .. رمضان جانا .. أهلا رمضان ؛ كنت أشاهد "أمشـير" ينظر إليّ ورأسه مقتربة من الأرض وهذا يدل على حالة مزاجية غير مريحة ، آه .. تنكرت وإستبدلت أغنية رمضان بسورة القدر :

إنَّا أنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ القَدْرِ (١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ القَدْرِ (٢) .. إلي آخر السورة؛

أثناء التلاوة كنت أشعر بالسكينة تغمر جسدي ، شاهدت "أمشير" يسير بهدوء رافعا رأسه للأمام وأطلق بعض صيحات وظل سائرا حتى توقف أمامي وبرك أرضا ورأسه لا تبعد عن وجهي بأكثر من طول المسطرة أي مسافة قدم ، مازالت أتلو و"أمشير" ينظر إليّ ثم وضع مقدمة فمه بالصخور ولم أدقق عيناي حينما شاهدت قطرات دامعة تنزل من عينيه ، صمت وتوقفت عن التلاوة فنظر إليّ نظرة ذات معنى ؛ نظرة كأنه إنسان يعتب عليك أن حرمته من شيء يتمناه ، قبلت رأسه واستكملت التلاوة ومازلت أراقبه وأتساءل : هل هذا الحيوان المشاكس يتفهم القرآن؟

أنهيت التلاوة وشعرت بأن شيئا كبيرا بداخل جسـدي كما أن روحي

أصبحت مثل البخار أو الدخان ؛ بل توقعت أن تصعد روحي للسماء مما شاهدته وتأثرت به ؛ إقتربت من "أمـــشير" ووضعت رأسي على رقبته ، فإلتفت إليّ برأسه وبشفتيه الكبيرتين ليداعب شعر رأسي ، نهضت واقفاً وأصبحت رأسي فى نفس إرتفاع رأس "أمـــشير" ، قبلته عدة قبلات وساعدته كي ينهض ، كان الجمل فى حالة من التخدير عالية ، نظر إليّ وكأنه يطلب منى ألا أقطع عليه تلك اللحظات الجميلة.

تركته لحاله وجلست أمامه وأنا مازلت أفكر وأتساءل: هل الحيوانات تتفهم القرآن؟ تذكرت كلمات العريف أبو بكر حيث قال: أن الشيخ حسان أخبرهم أثناء الدراسة بالكتاب بقريتهم القريبة من كوم أمبو بأن الحيوانات تسبح بحمد الله وتخشع لسماع القرآن.

قررت التأكد من حديث الشيخ حسان ، بعد أن نهض "أمشـــير" إتجه إلى إناء المياه يعب منه كعادة الجمال ، بدأت فى التلاوة مرة أخري ، كدت أنهض مُسرعاً ؛ فقد شاهدت " أمشـــير" مُقبلاً نحوى بخطواته الطويلة ، خشيت منه وشعرت بالخوف فقد واجهت هذا ليلة العاصفة الممطرة ، توقف الجمل أمامي وهبط برأسه أرضا ووضع رأسه بين ساقيّ ، مازلت أتلو سورة الليل:

(بسم الله الرحمن الرحيم)
وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى (١) وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى (٢) إلي آخر السورة.

برك "أمشـــير" للمرة الثانية ، كنت راغباً بالتأكد من دموع الجمل ، لقد

ظهرت الدموع للمرة الثانية ، فى تلك المرة لم أتساءل أو أفكر بل إندفعت دموعي لتلحق بدموع الجمل الذى تأثر بالقرآن وبأنه يعبد الله مثل بني البشر، مازلت أقوم بتلاوتي القريبة لتلاوة الشيخ محمد رفعت رغم دموعي التى مازالت تسيل كلما شاهدت دموع "أمشـــير" .

بعد أن إنتهيت من التلاوة تركت أمشير وسرت بعيداً ؛ خلال هذا كنت أسمع صوت السيدة رحيل تنادىّ علىّ دون أن أجيب ، لقد تملكني شيء غامض لم أقابله خلال حياتي السابقة رغم أننى عشت بصحراء مطروح والكثير من الجيران لديهم جمال لكن هذا الجمل لم أشاهد مثله بإستثناء الجمل "هادي" الوديع الذي ضحي بحياته حينما شاهد الجندي الإسرائيلي يصفعني ويضربني بقدميه ، لقد كان قريب الشبه بأمشـــير حين سماع التلاوة.

لقد أثر هذا الحادث على حالتى النفسية بطريقة لم أعهدها من قبل وأصبحت إنساناً حساساً إلى أبعد درجة وأصبحت مشاعري متوهجة مما دفعني لكثرة التلاوة سواء محاكاة للشيخ محمد رفعت أو تلاوة عادية بصوتي الذي أعجب به الكثير ممن سمعها ، مازلت أتساءل: لماذا لم يحدث لي مثل هذا الحدث بمطروح أو أنشاص؟ لم أتوصل لنتيجة ؛ أخيرا عثرت على إجابة السؤال ، التفرغ لعبادة الله وسماع التلاوة ، والله يقول في كتابه الكريم:

وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ "سورة الأعراف"

عـــودة موشـــيه

مضى على وجودي بهذا المكان أكثر من ثلاثة أسابيع ، شعرت خلالها بالراحة البدنية والنفسية من حُسن معاملة رحيل لي وملاطفة طفلها هارون الجميل ومداعبة الكلب ليفي ، أيضا مداعبة أمشير لزوجته الناقة التى لم أتخير لها اسما حتى الآن وإكتفيت بأنها زوجة أمشير.

خلال تلك الفترة إقتربت من السماء كثيرا بمشاعري وأحاسيسي والفضل بعد الله سبحانه وتعالي يعود إلى أمشير بما يقوم به من تصرفات حين تلاوتي للقرآن ، فمازال يقترب منى ؛ بل في بعض الأوقات تصطحبه السيدة حرمه وكأنهما متجهان لأداء واجب العزاء وقررا سماع بعض آيات من الذكر الحكيم ، مازالت تصرفات أمشير مؤثرة ، فالجمل يستمع للتلاوة وأعتقد أنه يتفهم معانيها أكثر منى أو أنه أقرب إلى الله وما المانع من هذا والقرآن يتحدث عن كائنات كثيرة تعبد الله وأيضا هناك ناقة صالح التى ذكرت فى القرآن.

***

السيدة رحيل سيدة جميلة جداً ؛ فقد جمعت خصال الجمال المصري والأجنبي ، بالإضافة إلي كل ما تحدثت عنه من مواصفات جمالية فهي تتمتع بصوت رقيق بلهجة مصرية راقية واضحة ، لها جاذبية بنات مصر وسماحة الوجه ، تعتد بنظافتها الشخصية وتهتم بملابسها رغم وجودها بالصحراء، تمتلك راديو صغير الحجم تستمع من خلاله لنشرة الأخبار باللغة العبرية كما أخبرتني ؛ أيضا تستمع لبعض أغاني لعبد الحليم حافظ

وشادية وليلى مراد التى تربطها بها صلة قربي كما أخبرتني بذلك ، حين التعامل معها تأكد لي أنها تتميز بالكرم ؛ أي لديها عطاء بعكس ما كنا نعلمه عن اليهود بمصر قبل مغادرتهم ، من حين لآخر كانت تجلس معي وتستمع إليّ وإلى أحاديثي بلهجة أبناء الريف فتشعر بسعادة وغبطة وتسألني عن بعض طباع الفلاحين سواء فى حياتهم أو عادات الزواج والعلاقات الإنسانية العائلية التى كانت تفتقدها بإسرائيل.

أعتقد أن السيدة رحيل تكبرني بخمسة أعوام ؛ في بداية العلاقة كنت ألقبها بالخالة رحيل وهذا الاسم أصابها بالضيق فطلبت منى بأن أدعوها مدام رحيل أو أم هارون ، كانت رحيل تهتم بنظافة ابنها هارون والعناية بخيمتها الكبيرة التى كانت تحتوى على قسمين أي حجرتين ومكان للطبخ ودورة مياه لم أشاهدها إلا بعد عدة أسابيع ولهذا تبين لي رغم أن السيدة تحيا بالصحراء إلا أنها تحيا حياة عصرية ورغم هذا كانت تشعر بحنين إلى مصر وشعبها ؛ فلم تنس أيام طفولتها ولعبها ولهوها بحارة اليهود القريبة من مسجد الحسين والموسكي، أيضاً كانت تقص عليّ معلومات عن تلك الأماكن التى لم أكن أعلم عنها شيئا سوى الاسم فقط، فلم يتيسر لي زيارتها من قبل.

بات واضحا أن رحيل تشعر بالضيق من تأخر زوجها رغم أنها لم تكن تخشي الحياة بمفردها فلديها أحد كلاب الحرب القادرة للدفاع عنها وعن ابنها ؛ أيضا تمتلك سلاح عبارة عن بندقية سريعة الطلقات كما أنها تؤدى خدمة لأبناء سيناء ومن غير المعقول أن يهاجمها من يتلقون المساعدة منها ، ورغم هذا كانت تبثني من حين لآخر مخاوفها وخشيتها على زوجها ؛ فقد

تأخر موعد عودته.

فى أحد الأيام تحدثت معي بحديث واضح صريح عبرت فيه عن شعورها بالراحة من ناحيتي ومشاعرها الطيبة نحوى حيث لم يكن لها شقيق ولهذا فهى تشعر بأنني شقيقها الأصغر ، شكرتها على ثقتها نحوى وأخبرتها بأن هذا هو نفس شعوري ؛ فلدي ثلاث شقيقات حرمت منهن وحرمن منى ولهذا فأرى أنك العوض عنهن ، زاد هذا من ترابطنا أكثر فأكثر ، كانت رحيل تقضي فترات طويلة جالسة معي تحت أشعة الشمس وفى بعض الأحيان تستضيفني بخيمتها ؛ حيث كان الصغير ينام هادئ البال على ساقيها سعيداً بحنان أمه ، وحين ألاحظ رغبتها بالنوم كنت أغادر الخيمة عائداً إلى مكان إقامتي بمخزن المساعدات الغذائية.

تلك الليلة شعرت برغبة قوية فى النوم مبكراً ؛ فلقد ظللت طوال النهار أقوم على تفريغ لورى نقل محمل بأربعين شيكارة دقيق تزن الواحدة منها ٧٥ كيلوجرام وهذا وزن ليس لي مقدره على تحمله لكن الله أعانني حيث كان السائق وزميله يجالسان رحيل يتحدثون بحديث غريب اللغة على سمعي ، كنت خلال تلك الفترة أسقط إعياءاً من كثرة العمل ، هكذا إنتهيت من تفريغ الحمولة وتلقيت ثناء من رحيل بعد مغادرة الجنديان ؛ حيث نظرت إليّ نظرة عميقة تدل على الود والشكر لما قمت به من مجهود.

لم تمانع رحيل فى حصولي على قسط من النوم مبكراً رغم شعوري إنها إعتادت على مجالستي مثل كل يوم ؛ حيث تدور بيننا أحاديث متبادلة والتى تتطرق للحياة فى مصر وأسئلة معادة عن بعض أماكن بالقاهرة وهل

ما زالت النساء يرتدين الملاءة اللف، ثم مديحها وثنائها على رقة وجمال ممثلات مصر كفاتن حمامة ولبني عبد العزيز وكريمان وغيرهن ؛ بعد أن خلدت فى نوم عميق نهضت مذعورا على صوت رحيل صارخة تنادي عليّ وتستنجد بأي إنسان ؛ أسرعت إليها مندفعا رغم وجود بعض الصخور والحصى بالممر الواصل بين مخزن الغذاء ومكان نوم رحيل ، لم أجدها فى خيمتها وسمعت صوتها خارج الحصن الذي شيده جنود الجيش الإسرائيلي بوضع بوابة حديدية عليه لمنع الحيوانات المفترسة من الضباع والذئاب من مهاجمتها ليلاً.

أسرعت للخارج فشاهدت رحيل تجلس أرضا على ركبتيها كما شاهدت رجلا ممدا أرضا ووضعت رأسه على فخذها ؛ مازالت تتلوي حزنا وبكاء مؤلماً ، أسرعت إليها متسائلاً: ماذا حدث وما حكاية هذا الشخص؟ حينما شاهدتني أمسكت بتلابيبي طالبة منى حمل الرجل إلى خيمتها ومازالت تنادي، موشيه ... موشيه ، الآن علمت من هذا الرجل ؛ إنه موشيه زوجها الغائب ، حملته بصعوبة حيث كان الرجل أقرب إلى البدانة ، وضعته على السرير وشاهدت على الضوء المنبعث من الفانوس آثار إصابات وضربات فى الوجه وعلى الأيدي وكدمات ، تذكرت ما حدث لي سابقا على يد أحد الجنود والذى أنقذني منه الجمل هادي المخلص.

أقف فى حجرة النوم ورحيل تجلس على حافة الفراش تداعب شعر رأس الرجل ؛ حيث كان ينام ويئن بصوت واضح ، تهدهد على كتفيه وعلى وجهه بعيداً عن الكدمات التى لحقت به وتتساءل: عمن قام بهذا العمل ، تعيد ذكر بعض الأسماء حتى إذا ذكرت اسم "جاستون عدس" صرخ الرجل

مشيراً بأحد أصابعه بأنه هو وردد خلفها المجرم ، المجرم .. يكمل حديثه: بعد أن فرغت من مهمتي بتل أبيب إقتفي أثري ؛ حتى إذا بلغت حدود العدو المصري بسيناء ألقى القبض عليّ موجها لي بعض التهم .. أشاهد الرجل "يتألم أثناء الحديث" يكمل حديثه: حتى إذا إقتربنا من منطقتنا تلك أخذني بعيدا عن جنوده وقال لي أريد أن أرسل معك بهدية لزوجتك الجميلة ؛ ظل يضربني بيديه ورجليه ثم أكمل عليّ بقطعة من الخشب كانت معه بالسيارة الجيب ، هكذا وجدت نفسي أصرخ ورحت فى سبات حتى إذا وصلنا إلى هنا قذف بى من السيارة وأطلق عليّ ظهري ثلاث رصاصات أصابت أماكن مختلفة ولكنها لم تصب القلب ، أنا أشعر بأن نهايتي إقترب موعدها.

مازالت رحيل تبكى متوعدة هذا القاتل النجس ، يردد زوجها "رحيل" تنبهي لنفسك ، جاستون راغب بك ، جاستون راغب بك ، صرخ الرجل آه .. آه .. آه .. آه .. صمت ولم أعد أسمع أي أصوات حتى صوت الزفير والشهيق توقف لثلاثتنا ، لم يقطع هذا الصوت سوي صراخ رحيل باكية حيث وضعت رأسها على صدر الزوج الذى فارق الحياة وظلت تعدد وتولول بكلمات غير مفهومة.

تركت الحجرة ووقفت بالخارج من شدة الحزن ؛ سواء على الزوج أو رحيل ، بعد قليل سكنت رحيل ونهضت وغادرت الحجرة وغابت قليلاً ثم عادت مرفوعة الرأس وتبين لي أنها هندمت من ملابسها وصففت شعر رأسها وغسلت الدموع وما يصاحبها من مظاهر على الوجه ، نظرت إليّ متحدثة بكلمات قليلة مقتضبة:

ـ صابر ؛ رأيت ماذا حدث لزوجي وماذا ينتظرني من وجه البومة جاستون الملحد ، لقد تعاهدنا على الأخوة فلتكن هكذا وتقف بجوار أختك وطفلها بعد أن ترملت وتيتم هارون ، ألقت برأسها على صدري باكية بحزن شديد ، هدأت من روعها وطيبت من خاطرها وتعهدت لها مرة ثانية بأنني سوف أقف بجوارها وأحميك أنت وصغيرك ، الآن قفي وإنهضي وفكري فى الخطوة القادمة.

جلست قليلاً وإستندت بظهرها على دولاب صغير مرددة: سوف نواريه الثري ، سوف نواريه الثري .. فى الصباح سوف أعد العدة لإجراءات الدفن والصلاة على روحة طبقا للتعاليم اليهودية ، عليك الإنتظار بجواره حتى الصباح ؛ فمن المحتمل أن تعود إليه الحياة!! ثم هربت من أمامي باكية وإتجهت للحجرة الأخرى كي تحصل على قسط من النوم وتقوم على حماية صغيرها.

هكذا وجدت نفسي بجوار جثمان موشيه ، كنت مرتابا ومتخوفا بأن أظل بجوار إنسان توفي ولاقي ربه كما أن من توفي عدو ويهودي ونحن لا نثق بهم وما سمعته من الشاويش إدريس وباقي رجال الحدود ينبئ عن هذا، لم أستطع أن أغالب النوم ورحت فى سبات ، إستيقظت فجأة ونسيت أنني غفوت بجوار جثة وفتحت عيناي فشاهدت هذا المنظر فحدث لي ذعر وخرجت مني بعض الصيحات فأقبلت رحيل مسرعة كي تطمئن وتعلم ما حدث ، قدمت لها إعتذاري عما حدث وصياحي الذي أزعجها من نومها ، جلست قريبة منى بينما كنت راغباً فى ترك المكان ؛ كان السبب الرئيسي الذى أزعجني وأخافني هو منظر موشيه ، فحين إستيقظت شاهدت وجه

مخيف إلى أقصي درجة ، الوجه أزرق والعينان منتفختان ورائحة كريهة تفوح منه لم أشتم مثلها من قبل ، لقد شاهدت الكثير من الموتى بمطروح وهم فقراء وذلك حين كنت أعمل صبي حانوتي لكنى لم أشاهد هذا المنظر أو أشتم تلك الرائحة.

تفهمت رحيل ما أثار ضيقي ، طلبت منى الهدوء ؛ موضحة أن ما تراه هو نوع من عبادة الله بأن يقوم من توفي بالتذلل لله ويضع المساحيق الداكنة على وجهه ، شاهدت الحيرة وعدم الإقتناع لما تقول على وجهي ، أعادت حديثها ؛ الذي يتوفي بسبب الحماية والدفاع عن اليهودية وتعاليمها تعود إليه الحياة فى الجانب الآخر من الدنيا ولا نشعر نحن البشر بهم ويقومون بالعبادة والتذلل والاستكانة للرب.

إكتفيت بما أوضحت وفسرت ورغم هذا لم أقتنع بكلمة واحدة ؛ فأنا أعلم علم اليقين أنه موشيه لم يؤمن برسالة سيدنا محمد ، فى الصباح طلبت منى رحيل حمل كوريك الحفر والسير خلفها بعد أن وضعت صغيرها فى المرجيحة ولم تدع له الفرصة لمشاهدة أباه وما حدث له ، بالخارج تخيرت رحيل مكانا وسط الرمال وطلبت منى عمل حفرة عميقة ، ظللت أقوم بالحفر حتى إنتصفت الشمس بالسماء ، الحفرة لا يقل عمقها عن متر ونصف بطول مترين وعرض متر.

طلبت منى حمل زوجها وإحضاره لداخل الحفرة ، كنت متخوفا من هذا، توجهت إليه فلاحظت أنها قامت بإستبدال ملابسه بملابس أخري وعطرته ببعض عطرها ورغم هذا مازالت الرائحة النتنة تضرب بالمكان ،

حملت الرجل إلى الحفرة المعدة ، كنت أشعر بأن بعض قطع من جسده تتساقط وأنا سائر كأنني كنت أحمل تمثالا من الطين ، وضعت الرجل بالقرب من الحفرة وجلست ألتقط أنفاسي فإذ برحيل تطلب منى جمع ما سقط من جسده ، سبب لي هذا ضيقا شديدا وكدت أفر هربا فلم أتعرض لمثل هذا الموقف من قبل.

إستجبت لما طلبت ليس خوفا أو حبا فى أخوة حديثة ولكني فكرت فيمن سوف يقدم لها يد المساعدة؟ لا أدري ، قمت بجمع قطع اللحم المتساقطة من المتوفى ؛ صرخت حينما شاهدت الديدان بداخل تلك القطع ، أنا أعلم أن تلك الديدان لا تأتي للميت إلا بعد مرور أربع وعشرين ساعة ، ألقيت بتلك القطع بالحفرة ودفعت بيدي بالجسد فسقط مرة واحدة مما أغضب رحيل ؛ ظللت أنظف يدى بالرمال فترة طويلة ، أشرت إليها بأن ألقي عليه بالرمال ، وافقت وبعد أن إمتلأت نصف الحفرة بالرمال طلبت منى أن أضع الصخور فوق تلك الرمال حتى لا تأتي الذئاب وتتناول لحمه ، نظرت إليها راغبا بأن أخبرها بأن الذئاب تعاف هذا الجسد ولكنى صمت مراعاة لمشاعرها ، أصابتني الدهشة ، وتساءلت: كيف تنتشر الديدان بتلك السرعة بجسد موشيه، لقد إطلعت علي الكثير من عادات الديانات الأخرى ولم أعلم مثل ما شاهدت.

جلست السيدة بجوار الحفرة تقرأ بعض ترانيل وتعاويذ وكلمات ليس لها معنى لأنني لم أتفهم منها أي كلمة بعد سماعي لها ، طلبت منى مساعدتها للنهوض ، نهضت وسارت شبه مترنحة وإستندت بجسدها على جانبي الأيمن وظللت معها حتى باب حجرتها فتركتها مسرعا مغادرا المكان

متوجها للمياه أقوم على غسل وطهارة يداي ، رغم هذا لم أشعر بالراحة ولهذا تحللت من ملابسي وإستحممت بمياه باردة وتوضأت وقمت بأداء صلاة الظهر.

هذا الحادث أظهر لي بجلاء بأن من يؤمن بالله تصبح نهايته طيبة ولا يحدث له مثل ما حدث لموشيه زوج رحيل ، تساءلت: وماذا سوف يحدث له بعد أن يأتي الملكين للمقبرة لحسابه؟ كانت الإجابة فوق قدرة الإنسان العادي وأعتقد أن بعض العلماء يعلمون ولكنى لا أعلم وما شاهدته لهو أكبر بيان وحقيقة.

فى المساء رغبت بمجالسة رحيل والأخذ بيدها وتضميد جرحها النفسي؛ إلتحفت بالعباءة ووضعت الشال على كتفي وسرت متجها لخيمتها بعد أن مررت على أصدقائي من أكلة العشب حيث قدمت لهم التحية وشعرت بعدم ود من ناحيتهم حيث كان التجاهل هو حالهم وقد أدهشني هذا التصرف ، مازلت سائرا لخيمة رحيل ولا أدري لماذا إتجهت إلى الباب الحديدي الذى يفضي للخارج ؛ حيث شاهدت ضوءا خافتا ، خشيت قدوم المجرم جاستون الذي تحدث عنه موشيه زوج رحيل.

فتحت الباب بالمزلاج الداخلي ووقفت أتفقد المكان فشاهدت إضاءة أو لهب صاعد من الأرض ، أسرعت جهة النار فشاهدت النار تنبعث من الحفرة التى قمت بحفرها ظهر اليوم ووضعت بداخلها جثمان موشيه ، أسرعت بالعودة مناديا على رحيل التى أقبلت مسرعة يحرسها كلبها متسائلة ما الذي دفعني للصياح بصوت مرتفع ، أخذت بيدها وخرجنا خارج الباب

الحديدي ومجرد أن شاهدت النار حتى صرخت وأسرعت جهة القبر تحاول إطفاء النار بقذفها بالرمال.

شعرت بضيق من أن يقوم جاستون بهذا العمل بعد أن مات الرجل ، أشاهد رحيل تحاول إطفاء النار ورغم هذا فشلت كل محاولتها فأشارت لي بالمساعدة، أسرعت إليها محاولا إطفاء النار دون جدوى ، تساءلت هل هي نيران أم ضوء؟ نظرت إليّ مستفسرة راغبة بالإجابة على هذا السؤال ، وضعت بعض أعواد من العشب المنتشر بالمكان جهة هذا الضوء فإحترقت فى الحال ، تذكرت رواية لأحد الصحابة الأجلاء بأن رجلا من قريش أغضب أمه ومات وهي ناقمة عليه وبعد أن تم دفنه خرجت النيران من الحفرة التي دفن بها ، حينما علم رسول الله صلي الله عليه وسلم طلب إحضار الأم وأخبرها بما حدث ، بكت ودعت ربها بأن يغفر له ، خمدت النار بعدها مباشرة.

أسرعت للداخل بإحضار عبوة ماء كي نطفئ هذا الحريق وحينما شاهدتني رحيل أشارت إليّ بألا أفعل ، وضربت يديها بعضهما ببعض وهي تردد "ما فيش فايدة ، جسده أتحرق خلاص ، مات كافر ، الرب مش راضي عنه" ، نهضت مغادرة المكان والبكاء والعويل هو حالها ، حاولت اللحاق بها ولكنها منعتني بطريقة سيئة للغاية صارخة بى بأن وشي شؤم عليها وعلى أسرتها.

توجهت للمخزن وجلست صامتا متسائلاً : ليه وشي شؤم؟ دا أنا حالي يصعب على الكافر ، تنبهت لكلمة الكافر ، لقد مات موشيه كافرا والدليل ما

شاهدته على وجهه وقت أن تنبهت من نومي حين كنت أقوم علي حراسة جثمانه بعد وفاته ثم الجيفة التى لحقت بجسده أثناء دفنه والآن الحريق والنار التى تتصاعد من مدفنه ، إسترجعت الكثير مما كنت أسمعه من شيخ المسجد بمطروح عن القبر الذي يصبح روضة طيبة على جسد المتوفى المسلم العابد صاحب العمل الطيب ، والقبر المهلك الذي تخرج منه النار على الميت وما يشاهده من العذاب بعد دفنه.

أيقنت بأن ما شاهدته هو نوع من العذاب الذي يلقاه الآن موشيه لأنه كافر، طلبت من الله المغفرة والعفو وأن يجعل خواتيم أيامنا طيبة ويغفر لنا كل ذنوبنا ، ثم نهضت وتوضأت بمياه أقرب منها للثلج وقمت بالصلاة عدد من الركعات شكرا لله لأن أنار لنا الطريق وأمنا به وبرسالة سيدنا محمد صلي الله عليه وسلم.

تحول الغزالة إلى نـــمر

ساد الصمت بالمكان ، كما ودعت رحيل الضحكات والإبتسامات الرقيقة التى كانت تخرج من بين شفاهها الجميلة ، تركت المرح وبعض أغاني شادية وليلى مراد وحاكت نساء الصعيد حين الحزن وذلك بوضع رابطة سوداء حول رأسها ، كانت تجلس ساهمة لفترات طويلة وأهملت طفلها والحياة ، بل لم تهتم بالبدو حين القدوم للحصول على المؤن الشهرية؛ حيث كانت تشير إليّ لأراجع المقررات وأقوم على صرفها.

لم أستطع التفاهم معها أو الإقتراب منها ، فما شاهدته من آثار التعذيب على جسد الزوج أثناء دفنه أثار مخاوفي ؛ بل وجزعت نفسي عن الطعام التى تعده وأصبحت كارها المكان ، أيضا النيران التى كانت تتصاعد من قبره كل يوم أخافتني ؛ كل تلك المظاهر أثبتت أن الرجل كفر بربه وهو غير راض عنه وأن تلك السيدة مثل زوجها وأنها لا تعاملني كأخ كما قالت ؛ حيث أسمعتني كلمات سيئة بالأمس ؛ شعرت رحيل بأنني بعيد عنها ولهذا حاولت قدر طاقتها الإقتراب منى ، جلست بجواري ليلاً جلسة طويلة وخلالها أخبرتني بالمزيد من المعلومات التى كنت أجهلها تماما.

صابر ؛ أول حاجه مش تزعل من الكلمتين اللى قلتهم لك أمبارح ، أعذرني لما أشوف الحالة اللى مات عليها موشيه وبعدها اللي حصل له بالقبر ، كمان جاستون المجرم رغب بى أكثر من مرة حيث كنت أرفض رغباته ؛ صرحت بهذا لموشيه فطلب منى أن أضع ليمونة فى فمي وأتقبله! نظرت إليها بدهشة فلم تهتم وإستطردت فى حديثها: صابر أنا أقوم على

خدمة بلدي وعقيدتي ، ألا تعلم أن الشباب اليهودي يموت منهم الكثير بنيران المجرمين القتلة سواء المصريين والسوريين أو الإرهابيين الفلسطينيين ، هل الحياة أهم أو العفة والشرف؟ الرجال يقومون بالتضحية ؛ أيضا النساء يقمن بالتضحية سواء بالعمل بجيش الدفاع أو بتقديم بعض المتع الجنسية لمن يقدم بيانات ومعلومات تفيد الوطن أو للجنود الذين يحاربون ، ومن أجل هذا فأنا أقوم على تسلية بعض القادة بالجبهة الجنوبية المصرية وإمتاعهم بالرقص الخليع الذي يخلب عقول الرجال ، جاستون أحدهم ولم أرغب به ليس للعفة كما سبق وأخبرتك لكن لسبب آخر ؛ رائحته سيئة ولا يداوم على النظافة وتلك بعض العيوب المنتشرة بالشعب اليهودي.

ألا تعلم إنني وموشيه حينما تزوجنا أرسلوا بنا إلي معسكر قريب من الحدود المصرية ؛ حيث شاهدت المعسكر قد إمتلئ باليهود المصريين والمصريات اللذين كنت أعرفهم أو اللذين لم أشاهدهم قبل هذا ، كان المعسكر مقسم إلي أقسام مختلفة ، كل قسم مخصص لعمل معين ، كان من نصيبي ونصيب موشيه أن ننضم للمعسكر الذي سوف يقوم بمد أبناء سيناء بالمعونة وإستقطابهم فى حالة نشوب حرب بين مصر وإسرائيل وإحتلال سيناء!!

أتساءل: هل كان الإسرائيليون يعلمون بأنه سوف تحدث حرب بين البلدين وتنتصر خلالها إسرائيل وتحتلون سيناء؟

نعم صابر .. هذا مخطط لدي القيادة .. المخطط يتم بغرض تحقيقه وليس بغرض الإعتماد علي الحظ .. بالضبط مثلما تنوي الذهاب للسوق لشراء

بعض الفواكه ، فتقوم بارتداء ملابسك والتوجه للسوق وتتخير البائع ونوع الفاكهة للتأكد من جودتها ثم تقوم بشرائها والعودة بها .. هذا ما يتم هنا .. كل شيء مرتب وتم حسابه والقيادة تعلم علم اليقين بحتمية تحقيقه .. فالشعوب الحرة بأمريكا وأوربا تقدم يد المساعدة لإسرائيل دون حدود حتي لو أدي الأمر لدخول الحرب مباشرة بجانب إسرائيل .. أي أن النصر قائم لا محال ، أيضا سوف تلاحظ أن العدد الأكبر من ضباط وجنود جيش الدفاع بسيناء يتحدثون العربية بطلاقة والسبب في هذا أنهم من يهود مصر والمغرب وتونس واليمن ولبنان وسوريا ، ومن أجل هذا وضعتهم القيادة بالوحدات العسكرية التي سوف تقاتل المصريين ، سوف تلاحظ هذا بنفسك.

بداخل المعسكر تم الزواج ، كان هذا نهاية عام ١٩٦٣ ولم نكمل ثلاث سنوات منذ هجرتنا من مصر ، كان المسئولون يقومون بتدريبنا علي الرماية وأنواع الأسلحة التي تملكها مصر وأسلوب التعامل مع المصريين بالتهديد و"الشخط" والضرب والقتل والتعالي عليهم ، أيضا علمنا كل شيء عن الصحراء والبدو وأسلوب حياتهم والجمال وما يخصها سواء بالحياة ونوعية الأعلاف والحشائش التي تتناولها أو أسلوب الحياة من حمل وولادة وإنجاب ورعاية الصغار ، بداخل المعسكر لم يتركوا لنا سؤالا يخطر علي بالنا بالمستقبل إلا وكانوا مستعدين له بالمعلومات والصور ، بل كان هناك تحذير من تعامل الرجال اليهود مع نساء البدو لسببين هامين: الأول هو مخالفة تعاليم الدين اليهودي بأن تنجب امرأة كافرة من أحد رجال اليهود المؤمنين الذين فضلهم الله علي باقي شعوب العالم والشيء الآخر كثرة الأمراض المنتشرة بينهن ، ومن أجل هذا قررت القيادة إمداد معسكرات

الرجال ببعض نساء اليهود المؤمنات للترفيه عنهم وإشباعهم جنسيا!!!

صمتت رحيل لفترة ثم نهضت وتوجهت للمطبخ لإعداد عشاء ممتع كما قالت ، أعقبتها بضحكة تدل على عدم الإهتمام بما حدث لزوجها ، شاهدت الحيرة والريبة فى وجهي ، أسرعت نحوى وإقتربت منى وقبلت قمة رأسي وهى تردد:

ــ صابر ، ح تشوف رحيل ح تعمل إيه ، لأجل الإخوة اللى بينا مش تسيبنى أو تهاجمني بكلام شديد ، سيبنى على راحتي أعمل اللى أنا عايزاه، لكن النهاية هيا المهمة ، مش ح سيب تارى ، مش فى مصر بيقولوا كده ، أنا زيهم ، أنا مصرية وعندي النار ، يا أنا يا جاستون الكلب ؛ سمعنا صوت نفير سيارة وإضاءة واضحة من خلال الباب الحديد ، طلبت منى الذهاب لمشاهدة من القادم ، تركتها وإتجهت للباب ؛ من خلال الأعواد الحديدية سمعت صوتا حاداً يطلب منى فتح الباب ، كان أحد ضباط جيش الدفاع الاسرائيلى وبناء على تعليمات رحيل السابقة يجب علىّ تنفيذ تعليماتهم بسرعة وإلا سوف يطلقون علىّ النار.

تهادت السيارة إلى الداخل وهبط منها الضابط الذى نظر إلىّ متسائلاً:

ــ فين ستك يا ولد؟

ــ الله يرحمها ، دى ماتت وشبعت مووت

ــ أنت ح هتزر معايا ، تذكرت حادث مطروح وابن الباشا فخشيت الأنية ،

تساءلت:

ــ تجصد مين يا ساعة البيه؟

ــ فكرتني بمصر وأيام مصر الحلوة ، كان كل الهلافيت والعبيد اللى زيك يقولوا ليا كده ، روح إنده علي ستك رحيل.

ــ حاضر يا بيه ، دجايج وتيجي تجابل حضرتك

ــ أسرع الرجل بالدخول لحجرة الإستقبال ، غادرت المكان مُسرعاً ودلفت من الباب الخلفي أخبر السيدة رحيل .

حينما وقعت عيناي عليها شاهدت فاتنة رائعة الجمال فى ثوب حرير كاشف للجسد أكثر مما يخفي ، نظرت إلىّ باسمة ثم أمسكت بشفتاي وضغطهما على بعض ، وبكلمات قليلة قالت: دقيقة وأكون عنده يا صابر ، تحركت من أمامي تتهادي وهي تتغني بأغنية .. "نعم يا حبيبي نعم ، أنا بين شفايفك نغم"

أسرعت إلى مخزن الدقيق ؛ جلست بالظلام لا أعي ما يحدث بجواري، تنامي إلى سمعي أصوات ضحكات عالية مرتفعة تلهب المشاعر والأحاسيس ، إقتربت من مكان جلوسهما أتلصص بتأثير الشباب وحب المعرفة ، شاهدت أشياء ومناظر لم أشاهدها بحياتي قبل هذا ، وكانت النتيجة أن الإثنين تخلصا من ملابسهما وإلتصقا معا وخفضا من ضوء الفانوس ، لحظتها عذرت "أمشـير" ولهفته على الناقة المجاورة لي ، رغبت بإطلاق اسم رحيل عليها ولكنى شعرت بأن هذا يعتبر ظلم لتلك الناقة التى

تتبع منهج الحياة التى خلقت عليه ، ساورني هاجس بترك هذا المكان النجس والتوجه لرجال الفصيلة ، إسترجعت أفكاري ؛ فأنا لن أستبدل أخلاق الناس أو عقيدتهم ، فلتكن رحيل غانية وأظل أنا عابدا لله أتلو القرآن ، نهضت لقراءة القرآن فتنبهت على صوت وداع ساخن أعقبه سماع موتور السيارة التي غادرت المكان وأغلقت رحيل البوابة ، سمعت صوتها ينادي عليّ فلم أجب ، صمتت ثم أغلقت الأنوار وخلدت فى نومها.

لم أستطع النوم بعمق تلك الليلة ، لقد تحطمت معاني ومبادئ كثيرة كنت أعتقد أن رحيل تتمتع بها ، لكن تبين لي أن كل شيء قابل للبيع والعطاء وبالأخص الشرف والعفة ، فموشيه لم يمض على وفاته أيام بينما رحيل تلقي بنفسها بين أحضان رجل آخر ، ومن هذا الرجل؟ بئس الأخلاق.

لم أغادر المخزن كعادتي كي أقوم على إطعام "أمشـــير" والسيدة حرمه كالمعتاد أو التأكد بأن المكان لم يتسلل إليه أى من حيوانات الصحراء المفترسة أو البحث عن أي مشكلة ما كي أقوم على علاجها ، أو أقوم على حمل الماء إلي الخزان الموجود قريبا من خيمة رحيل كي تستحم وتغتسل ، ظللت جالساً ساهماً وشعرت بأن رأسي لم يعد بها أي أفكار ذات فائدة ؛ فقد تداخل كل شيء ولم تعد هناك مبادئ أو قيم ، شعرت بأن آذان الفجر قد حان ، تركت الوخم والدفء وتوجهت للبئر وبالعبوة التى معي حملت الماء وتوضأت وشعرت بأن عظامي سوف تتكسر من شدة البرودة ، عدت وقمت بأداء صلاة الفجر ثم الصبح وجلست قليلاً وشعرت بالراحة بعد أن تسلل الدفء إلى جسدي ، بعد قليل سمعت من يحاول فتح باب المخزن ؛ ثم ظهرت رحيل بإبتسامتها الرقيقة التى إعتدت عليها منذ أول لقاء تم بيننا ؛

ألقت علىّ بتحية الصباح ثم تقدمت ناحيتي وجلست مواجهة لي ، كانت تتحدث بأحاديث لا رابط بينها ، تفتح حديثا وتغلق آخر وكان من الواضح أن عيونها تهرب من نظراتي لها.

فجأة تشجعت وقالت: أنا قلت لك إنى مش ح سيب تارى من جاستون ، إمبارح كان أول خيط للخطة ، إقتربت منه وأنت شفت وسمعت .. بس .. أدي كل الحكاية ، تفتكر إني سلمته نفسي بجد؟ مش ممكن يحصل أبدا وح تقول رحيل قالت ونفذت ، توقفت قليلاً ؛ رغبت بالحديث فأشرت لها بأن تصمت ؛ فعلت ثم ألقيت عليها بسؤال: هل الرجل الذى حضر بالأمس وإلتقيت به هو جاستون؟ أشارت لي بما يعني نعم وتلك كانت الكارثة.

نهضت راغبا فى مغادرة المكان ، أسرعت تحول بيني وبين أن أتركها بمفردها ، ظلت تحاول إقناعي حتى شعرت بالذل يسيطر على صوتها وعواطفها ، ألحت باكية بأن ما تقوم به سوف يعرضها للخوف وتضطر للعودة ثانية للمستعمرات الإسرائيلية التى كرهت الحياة بها ، فما بالك الآن بعد أن فقدت زوجي ، لقد كان زوجي بجواري وأنا أريد أن أظل بجوار مقبرته حتى يعلم كيف أخذت بثأره ممن قتلوه وإنتقمت منهم.

بصوت جاد وحازم: صابر ، الآن سوف نعمل معا ، هل تجيد إستخدام البندقية؟ أجبتها بكلمة لا ، إذاً إتبعني وسر خلفي لأقوم على تدريبك على كيفية إستخدام السلاح حتى تصبح رامياً ماهراً وتقدم لي يد المساعدة للأخذ بثأر زوجي.

هكذا تحولت عربدة الأمس إلى تدريب جاد على أجزاء البندقية من

فك أجزائها ونظافتها واسم كل جزء والتصويب الجاف دون ذخيرة ؛ ظللت ثلاثة أيام على هذا الوضع حتى جاء اليوم الرابع والذى كان رماية بالذخيرة الحية ، فى هذا اليوم إستهلكت كمية كبيرة من الذخيرة ، مازالت رحيل تقوم على تدريبي ومراقبتي أثناء الرماية ؛ مضي هذا اليوم وجاء اليوم التالي ثم الأسبوع التالي وظللت لمدة ثلاثة أسابيع أقوم بالرماية يوميا وفى بعض الأيام كانت تقوم علي تدريبي على الرماية الليلية وفى أوقات أخرى على الرماية لأهداف متحركة.

مضي أكثر من شهر أخبرتنى بعدها بأننى أصبحت رام ماهر وتساءلت: ماذا تريد منى أيها الرامي الماهر؟ إقتربت منها وعرضت رغبتي بشراء جوالين دقيق وعبوتان من السكر وصندوق شاي وصندوق دخان لأصحابي العمال الذين يعيشون على هامش الحياة بجوار بعض القبائل العربية.

وافقت على طلبي وتحملت ثمن نصف تلك الطلبات ، أخبرتها بأننى سوف أتغيب عنها أربعة أيام فطمأنتني على نفسها وأن تلك الأيام سوف تشهد زيارات يومية لبعض ضباط المنطقة الجنوبية ولهذا سوف تصبح فى أمان لحين عودتي ، هكذا حمل أمشير كل ما رغبت شراءه طالبا منه مرافقتي إلى فصيلة الشاويش إدريس ، فى بادئ الأمر تلكأ ، بعد هذا بدقائق غافلني وتحدث مع الناقة وحدثت همهمة وبعض إشارات وشعرت من تصرفات قام بها بأنه قبلها عدة قبلات وودعها وداعا ساخناً لا يقل عن لقاء رحيل وجاستون الشهر الماضي.

معالم روحانية تظهر على أمشـــير

إقتفيت أثر خطي أمشـــير وإقتربت من رحيل ؛ طبعت قبلة على خديها ومثلها على خد طفلها الجميل ، ركبت فوق الأجولة وأثناء سير "أمشـــير" كنت أشاهد رحيل تحمل طفلها وهما ملوحان لي بوداع باسم مع التمنيات برحلة موفقة ، إزدادت المسافة بيننا ولهذا لم أعد أشاهد سوي ظلها ثم تلاشي الظل وإرتعشت الرؤيا وإهتممت بحالي وبالمهمة الوحيدة التى سوف أقوم بها من تلقاء نفسي بعيداً عن تعليمات وأوامر إدريس والمساعدة التي يقدمها لي باقي جنود الفصيلة.

أقبل الليل وشعرت أننا قطعنا نصف المسافة ؛ فقد تعدت المسافة التى قطعتها خمسون كيلومترا ولم يتبق سوى خمسة وخمسون كيلومترا بالتقريب، كنت أخشي أن أضل الطريق ولكن أمشير كان أذكي من أن يضل طريقه وهو الذي علم طريق حبيبته وأم ابنه القادم "بعرور" ؛ منتصف الليل توقف "أمشـــير" عن السير وبرك أرضا فشاهدت نبعا من الماء بجواره بعض الحشائش وكلأ الصحراء ، هكذا سوف نصيب جزء من الليل كراحة بعد أن قطعنا مسافة كبيرة تعدت من الزمن العشر ساعات.

إقتربت من "أمشـــير" وجلست مستنداً بظهري على جانبه الأيسر كي أتفادي الرياح الباردة وبعض لسعات من رمال تتطاير بفعل الهواء السريع ، فتحت كيس من القماش أعطته لي رحيل ؛ أخرجت منه بعض الأطعمة والتى تشبه القطائر وهذا النوع محشو بالجبن ومعد إعدادا جيداً ؛ بعد أن إلتهمت الطعام الذى هدئ من شدة الجوع والبرودة الزاحفة التى تظهر أنيابها

بعد منتصف الليل ، بعد هذا عببت من ماء العين المثلج ذا الطعم المستساغ ، إلتففت بالشال والعباءة التي معي ونمت بجوار "أمشـير" أستفيد من حمايته لي.

ضرب ضوء الصباح بشعاع هادئ ينبئ عن بزوغ يوم جديد فى حياتي بعيداً عن عائلتي وأنا أحيا وأعيش فى سيناء بل وأخدم بجيشها دون سند قانوني ، أثار هذا ضيقي وتبرمي ثم تنبهت وعادت بى الذاكرة ؛ حيث كنت أستمع لمدرس حصة الدين أثناء الدراسة بالمدرسة الإبتدائي ؛ حيث كان يردد أن القتال والدفاع عن الوطن فرض عين وليس فرض كفاية وظل يوضح هذا المعنى ولم أفهم هذا المعنى إلا بعد مضي عدة أعوام ، أي أن القتال فرض على كل المسلمين ولا ينيب أحد عن آخر فى القتال طالما كان قادراً على هذا ؛ الحمد لله فأنا قادر على هذا وأقوم بالدفاع عن الوطن وليس هذا مرتبطاً بالتجنيد والخدمة الإلزامية بالجيش ، بعد فترة زمنية سكن فؤادي وهدأت نفسي المترددة الثائرة.

نهض " أمشـير " وإستكملنا سيرنا حتى إقترب غروب اليوم التالي ؛ شاهدت أحد جنود الفصيلة راكبا جمله مقبلاً ناحيتي حتى إذا شاهدني وتعرف عليّ صاح مردداً: الله أكبر ولله الحمد ، صابرا لسه عايش ، صابرا حي يا رجال ، شاهدت بعض الرجال على الجمال وآخرين دون جمالهم مسرعين للقاء بى محتضنين جسدي وكلمات رقيقة طيبة صادرة من القلوب البيضاء الطاهرة.

جلست بين زملائي فى حضرة الشاويش إدريس الذى قرر أن يحتفل

بتلك المناسبة بأن يدخن سيجارة على غير عادته ، شكرني الرجال على المعونة الهامة التى وصلت فى موعدها فقد ضرب بهم الجوع منذ ثلاثة أيام؛ حيث كانوا يقتسمون الشعير مع الجمال ، هكذا علق أحد الرجال بأن نيران إعداد الطعام سوف تظل مشتعلة طوال الليل ، قام بعض الرجال بإعداد الطعام بينما ظللت أقص علي الباقين رحلة "أمشـــير" ولقاء عروسه مما أضحكهم جميعا ، بعد أن قطعت شوطا من الزمن بالتحدث مع زملائي شاهدت رجال ثلاث لم أشاهدهم من قبل ، أقبلوا ناحيتي مرحبين قدومى وما سمعوه من الزملاء عن فقدي ، تعرفت عليهم وكان المهندس عزيز ميخائيل أول من تحدث معي مرحبا مهنئا سلامة الوصول وتبعه الإثنان الآخران.

صباح اليوم التالي شعرت بأننى فى منتهي السعادة ؛ فقد إكتملت منظومة الحياة والصحبة ، سردت على إدريس ما شاهدته وسمعته أثناء إقامتي مع السيدة رحيل ؛ طلبت منه النصيحة ، أيد إدريس إستمرار وجودي مع السيدة ؛ لسببين هامين: الأول .. طلبها الحماية وهذا كان شائعا فى صدر الإسلام بأن أهل الملل الأخرى يطلبون الحماية والعون فيهب المسلمون لنجدتهم ، ثم الشيء الثاني .. قيامك بتزويد الفصيلة بإحتياجاتها من المؤن التى وفرها العدو للتوزيع وبتلك الطريقة سوف نحصل على بعض ما سلبه منا هؤلاء اللصوص.

جلست عدة ساعات مع رجال الفصيلة الذين أسهبوا فى وصف وسرد ما حدث من هجمات بسيطة متفرقة قاموا بها على دوريات العدو ، كانت الهجمات ناجحة وأثرت فى تلك القوات تأثيراً واضحاً لدرجة زيادة أعداد الدوريات وهذا حمل القوات المعادية مجهود إضافي وجعلهم فى حالة من

التأهب والإستعداد وبالتالي أدي هذا لأن فقد العدو الكثير من قدراته ؛ أيضاً تقلصت أماكن إنتشار دورياته حتى لا تتعرض لهجمات رجالنا وهذا ساعد رجال الفصيلة على الحركة والتغلغل بداخل الصحراء فى إتجاه المحور الأوسط والمحور الشمالي التى تزداد حركة ونشاط العدو عليه.

سمعت عن تلك العمليات الجريئة بتأثر شديد وفرحة غامرة ؛ كما شعرت بالفخر لإنتمائي لتلك القوة الرافضة الإنسحاب ؛ والتي لم تكتفي بهذا؛ حيث تقوم بمهاجمة قوات العدو ، لقد تبين لي من حصر ضحايا العدو المؤثرة بأن عددهم لا يقل عن ثلاثة عشر فردا خلال الشهور الثلاثة المنصرمة.

ودعت الرجال عائداً إلى مستودع المعونة الشهرية لبدو سيناء الفقراء برفقة أمشير ، مضى على مغادرة موقع الفصيلة ؛ أربع وعشرين ساعة ؛ هكذا حلت علىّ الليلة الثانية منذ وداع رجال الفصيلة الذين قاموا بوداعي وداع مؤثر تتخلله كلمات الإشادة بما قمت به وأن هذا العمل لا يقل عما يقومون به من مهاجمة قوات العدو.

برك الجمل فى بداية الليل قريباً من منطقة عشبية وكعادتي إلتحفت بالشال والعباءة كي تقوم على حمايتي من البرودة القاتلة ، كان للمجهود المبذول وإنخفاض درجة الحرارة وما أصابني من حبيبات الرمل المتطايرة المرافقة للهواء البارد أثر سلبي على وجهي ويداي ، غفلت لبعض الوقت وكان النوم عميقا لم أتنبه إلا على صوت "أمشـــير" بعد أن زام وظهر صوت غضبته التى أعلمها ، جلست أتبين ما حولي فشاهدت ثلاثة ذئاب

تقف على بعد أمتار قليلة من مكان جلوسي ، نهضت فزعا وبالتالي نهض "أمشـــير" ثم أنزل رقبته حتى كادت تلامس الأرض ؛ فقفزت عليها متسلقا ظهره وخلال تلك الثواني قامت الذئاب الثلاثة بمهاجمته فدفعه هذا لإظهار غضبة بصوته المرتفع المثير وشاهدت "القلة" التى خرجت من فمه والتى تدل على أنه غاضب وفى أشد حالات هياجه ، مضت عدة لحظات وشاهدت أحد الذئاب بعد أن طار فى الهواء من دفعة قوية بقدم أمشير الأمامية فصدر منه عواء الذئب المخيف ثم سقط أرضاً بعد عدة أمتار يتلوي بينما الذئب الآخر سمعت صوت تحطم جسده أسفل خف الجمل ، نجح الذئب الثالث فى التعلق بذيل الجمل وظل يقضم فى فخذه بأسنانه والجمل يلتف حول نفسه ومن شدة دورانه السريع سقطت أرضا وشعرت بأن عظامي تحطمت.

شاهدت "أمشـــير" على بعد عشرين خطوة ومازال الذئب ينهش فى فخذه لكن الجمل برك فوق الذئب فخرج عواءه يضرب صداه من خلال الجبال والأودية ، نهضت مُسرعاً فى إتجاه "أمشـــير" فشاهدت الحزن على وجهه ، هدهدت على رقبته وقبلت رأسه وقد أصابني الجزع أن شاهدت بركة من الدماء كانت خلفه سواء من دماءه أو دماء الذئب الذى شاهدت جزء من جسده والرأس وأحد الأرجل وقد فارق الحياة حيث تدفقت الدماء من فمه الواسع.

طلبت من "أمشير" النهوض ، أخرج بعض الأصوات التى تدل على أنه متعب ونظر إلىّ نظرة عتاب بما يعنى ألا تفهم أيها الجندي بأنني إشتبكت مع ثلاثة ذئاب جائعة وأحدهم إقتطع جزءا من أعلى الفخذ الأيمن ، بعد مُضي عدة دقائق نهض أمشير وسرت بجانبه أحدثه من حين لآخر ، إستمر

سيرنا حوالي ساعتين قطعنا خلالها ثمانية كيلومترات تقريبا وتلك المسافة تعادل نصف المسافة التى يقطعها الجمل فى الأحوال العادية.

شعرت برغبة أمشير فى الراحة ولهذا ساعدته على أن يبرك أرضا ، أحضرت له بعض العشب من حولي فلم ينظر إلىّ ، شعرت بحزن أليم وأن فقدي لهذا الصديق سوف يكون كارثة لا تقل عن الكارثة التى لحقت بالسيدة رحيل حين فقدت زوجها ، كنت فى أشد الحاجة لمن يشد أزري ولهذا لم أجد أنفع وأشفع من تلاوة بعض آيات من الذكر الحكيم.

بدأت التلاوة وكما توقعت فقد خارت قوى أمشير حيث إستسلم للراحة وغادرته مشاعر الألم رويدا والتى كانت واضحة على وجهه ، ظللت أتنقل فى التلاوة من سورة إلى أخري من قصار السور حتى وصلت إلى السورة الأخيرة والتى قررت التيمم بعد تلاوتها لأداء صلاة الفجر والصبح ؛ فقد بدأت تظهر أضواء اليوم الرابع منذ مغادرة منزل السيدة رحيل:

(بسم الله الرحمن الرحيم)
وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا (١) وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاهَا (٢) وَالنَّهَارِ إِذَا جَلاَّهَا (٣) وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا (٤) وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا (٥) وَالأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا (٦) وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (١٠) كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا (١١) إِذْ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا (١٢) فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا (١٣) فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا (١٤) وَلا يَخَافُ عُقْبَاهَا (١٥). صدق الله العظيم

أسرعت جهة أمشير حيث شاهدته قد مد قدميه الخلفيتان للخلف ولم أشعر به أو أسمع صوته ، شعرت أن الجمل قد فارق الحياة ، جلست مجاورا له أنعيه بكلمات بائسة غير مفهومة لي أو لمن يستمع إليها ، قدمت إعتذاري له واننى سوف أنهض لأداء الصلاة قبل أن يتعدى موعدها ثم أعود إليه.

نهضت متثاقلاً وتيممت ووجهت وجهي جهة القبلة بالتقريب وقمت بأداء صلاة الفجر بصوت عال رغم إنني الوحيد الذي يصلي وليس معي أحد ، قبل نهاية الصلاة شعرت بشيء يتحرك على مؤخرة رأسي "القفا" ، خشيت ترك الصلاة وإعتقدت أنه ثعبان جاء يخرجني من الصلاة وأكيد أن هذا الثعبان من سلالة إبليس كي يقوم على هذا ، تماسكت وتشجعت ولكن الحركة تحولت إلى صوت وبدا الصوت يرتفع ، فى تلك اللحظة إنتهيت من الصلاة ونظرت سريعا للخلف لأشاهد من أتى لمهاجمتي ، ألا يكفى ما حدث لصديقي "أمشـــير".

كانت المفاجأة المذهلة المفرحة ، لقد كان أمشير الذي تنبه وأقبل يستمع لما أقوله أثناء الصلاة ، قبلت شفتيه الكبيرتين وبالتالي بادلني القبلات التى كادت تصبح نهايتها قطع جزء من مقدمة الوجه ، حدثته طالبا منه الهدوء حتى أنتهي من صلاة الصبح ، غير من وضعه ليقف مواجها لي وظل هكذا؛ لكن المدهش أنه كان يحرك رأسه ورقبته ، فى الركعة الثانية كدت أخرج من الصلاة حين شاهدته يبرك أرضا كأنه يركع بل حين برك وضع رأسه بالرمل وحين شاهدني أسلم بعد الصلاة شاهدته يحرك رأسه ذات اليمين وذات اليسار وأخرج بعض أصوات من فمه وهي أصوات لينة هادئة كأنه يقول "السلام عليكم ورحمة الله".

أسرعت بالوقوف وتركت قدماي للريح أعدو بأقصى سرعة ، لقد تبين لي بأن هذا الجمل مسحور أو أن به لطف ونحن بصحراء سيناء التى كنت أسمع عنها الكثير من القصص والحكايات وما كان يحدث للأنبياء بها من معجزات الله ، كانت الجرعة كبيرة على شاب فى عمري وبمفرده ليلاً بالصحراء مع هذا الجمل الغير عادي ، مما أربكني وزاد من خوفي وإضطرابي مشاهدة أمشير يعدو خلفي راغبا فى اللحاق بى ، لقد لحق بى الجمل وأمسكني بأسنانه القوية من تلابيب جلبابي ورفعني لأعلي وإعتقدت بأنه سوف يتصرف معي مثلما قام بهذا العمل الجمل هادي مع الجندي الإسرائيلي ولكن المفاجأة أنه وضعني على ظهره بهدوء وخلال هذا سمعت حشرجة وأربعة عيون تلمع فى الظلام ، لقد أقبلت ضباع سيناء القاتلة وإشتم أمشير رائحتها ولهذا وضعني بتلك الطريقة السريعة ثم ترك أقدامه الأربعة للهواء لدرجة إنني إسترجعت سرعته يوم الأمطار حتى كدت أفقد إتزاني.

خلال هذا كنت أتشبث بكمية الأصواف الموجودة على ظهره وأنا أعلم من رجال الحدود أن جذب الجمل من تلك الشعيرات أو شعيرات المحيطة بفمه تثير ضيقه وحنقه ورغم هذا لم يظهر الجمل غضبه حيث كنت أنظر من حين لآخر خلفي فأشاهد الضباع مازالت تطارد الجمل ولكنها لم تلحق به نظراً لسرعته الكبيرة ، أقبل ضياء اليوم الرابع ومازال الجمل يسرع فى عدوه حتى لم أشعر بأننا إقتربنا من مستودع الغذاء وفجأة شاهدت الباب الحديد الذي إقتحمه أمشير مثل المرة السابقة ولكن تلك المرة سقطت من على ظهره أرضا أتلوى فشاهدت رحيل التى أقبلت مسرعة لدى سماعها للصوت والجلبة التى أحدثها أمشير وصياحي وصراخي من ألم السقوط.

شاهدتني فأسرعت تمسك بى تساعدني على الوقوف لكـــن الدماء كانت

تغطي وجهي وجزء من جسدي ، ساعدتني رحيل كي تضعني بالفراش بنفس الحجرة التى سبق وأن رقدت بها ثلاثة أيام سابقة وقامت على تمريضي ، فى تلك المرة كنت منتبها ولم يكن يعكر صفو حياتي سوي شعوري بتأثير الإصابات المتنوعة.

اليوم التالي سمعت صوت أمشير على باب الخيمة كأنه راغب بالإستفسار على حالي فأسرعت إليّ رحيل وطلبت منى الخروج ولقاء أمشير حتى لا يحطم الخيمة ولحظتها لن أتركه يقوم بهذا العمل فسوف أطلق عليه النار فوراً ، خشيت عليه حيث كنت أعتقد بأن هذا الجمل قريب من الله وصاحب بركات وحظوة مما شاهدته وسمعته وما أراه حين تلاوة القرآن بل حين أداء الصلاة ، لقد ظللت عدة أيام بعد هذا الحادث أتخوف من لقاء أمشير وبالأخص ليلاً ، بل إمتنعت عن قراءة القرآن بصوت مسموع.

اليوم الرابع شعرت بالتعافي فخرجت أتنزه بداخل المنطقة وإلتقيت بأمشير والسيدة زوجته "ناقة" هانم التى تنتظر حادثاً سعيداً بعد ثمانية أشهر فقد مضي من شهور الحمل أربعة أشهر ، أقبل عليّ أمشير ومد رقبته ورأسه ناحيتي كأنه يحدثني وشاهدت آثار الجروح التى سببها له الذئب الثالث الذي تعلق بفخذه لمسافة طويلة وقد تماثلت للشفاء وتأكد لي صدق رواية رحيل حينما أخبرتنى بأنها ضمدت جراح أمشير فى نفس ليلة وصوله بما تحمله معها من أدوية وعقاقير ، مازال أمشير راغباً فى محادثتي لكن هذا لم يؤثر فيّ بل الذي أثر فيّ وجعلني أكاد أرتكب معصية لن تمحيها الأيام والسنين بأن أطلق عليه النيران هو ما فعله وجعلني فى وجل منه ، لقد مد رأسه ناحيتي ثم أخرج بعضاً من أصواته المختلفة والمتتالية ؛ أثناء هذا هز رأسه هزة خفيفة لليمين واليسار بالتتابع ، لقد حاول أمشير أن يقلد أدائي للقرآن وكأنه يطالبني بالتلاوة.

بداية عـــام جديد

بقرية أنشاص وبعزبة رضوان باشا إختلف القوم فى تفنيد المعلومات والحقائق حول إختفاء الجندي صابر ؛ البعض أكد أن صابر لاقي ربه أثناء قتاله مع الأعداء مثل الكثيرين والبعض الآخر نفي هذا مؤكدا أن صابر لا يستطيع إستخدام السلاح نظراً لضعف بنيته وأنه مازال حديث الخدمة بالجيش ؛ جلست أمه وشقيقاته ناعيات حظهن بأن الولد الوحيد إختاره الله إلى جواره وهم لا يعلمون شيئا عن مصيره.

أقبلت ريهام مع أسرتها لزيارة أسرة رضوان باشا ؛ توجهت إلى منزل أم صابر تستوضح منها عن أي بيانات تخصه ، أخبرتها أمه بأنهن لا يعلمن أي معلومات عنه وأنهن ينتظرن لعل الله يرسل لهن بمن يطمئن قلوبهن عليه ، غادرت الفتاة المنزل وتوجهت إلى الإسطبل وهناك شاهدت الخيول التى قام صابر على رعايتها والإهتمام بها حتى أصبحت تلك الخيول جزءاً هاماً من حياته ؛ بل أن الخيول أصبحت المنافس القوي فى حب صابر لأسرته ؛ كان واضحاً الوجوم والحزن على الخيول ، فلم تعد تلك الخيول التى تصهل وتعدو داخل الإسطبل سعادة وفرحاً وقد أيد هذا عم صديق ، معلقاً:

ــ تعرفي يا ست ريهام ، الخيل من يوم ما صابر راح الجهادية وحالهم زى ما أنتي شايفه ، مش لهم نفس للأكل ولا للشرب ، مش عارف صابر كان عامل لهم إيه ، ربنا يرد غربتك يا صابر يا ابني عشان خاطر إخواتك وأمك الغلبانة ، دول ولايا.

ــ ما فيش أخبار عنه يا عم صديق؟ الحرب إنتهت من أربع تشهر وفيه ناس كتير رجعت ، أكيد فيه مكان نسأل فيه عن عساكر الجيش ، تفتكر

منطقة التجنيد تعرف حاجه عنه؟

ــ مش عارف يا بنتي ، فيه كفر جريب منا ناحية الزوامل أعرف نعمان أفندي موظف فى الأطيان الزراعية وأعرف أنه له أخ بجاله مده فى الجيش، بيجولوا عليه متطوع ، وأنه ماسك حاجه مهمه وزى ما تجولي كده بجي صول ، بكره أخطف رجلي وأوصله يمكن ربنا يكشف لنا الغمه عشان خاطر أمه وأخواته وكمان الخيل اللى مش جادره تتكلم.

بعد يومين توجه صديق لقرية المساعد "الصـــول" عرفان بعد أن علم بأن الرجل لا يأتى للقرية إلا مساء كل خميس نظرا لظروف الحرب فيمضي مساء الخميس ونهار الجمعة مع أمه وزوجته وأطفاله يعود بعدها لعمله بالقاهرة ، إستطاع صديق الوصول لمنزل شقيقه الأستاذ نعمان الصراف بمأمورية الأطيان الزراعية بمركز بلبيس ، بعد الإستقبال والترحيب توجه الإثنان للقاء الصول عرفان الذي رحب بهما ، تحدث صديق وأخبر عرفان بما حدث للجندي صابر ، طلب منه الرجل تزويده ببياناته من الاسم الثلاثي وتاريخ التجنيد ورقم الوحدة ، لم يستطع صديق تقديم أي بيانات ولهذا طلب إمهاله حتى الأسبوع القادم ، خلال الأسبوع التالي أخبر صديق رضوان باشا بحالة أسرة صابر وما قام به وطلب منه سؤال الدكتور عبدالحميد السيوي عن أي بيانات تخص صابر لأنه علم أنه قد ساعده فى إنهاء أوراقه بغرض الإعفاء من الخدمة ، اليوم التالي كان الباشا قد أنهى إتصاله بالدكتور عبدالحميد وحصل على صورة من الأوراق التى كانت بحوزته ؛ حيث كان يحتفظ الدكتور عبدالحميد على بعض نسخ من كل الأوراق الرسمية التي يقوم بتوقيعها وتصدر عن مكتبه؛ كرر صديق زيارته للصول عرفان وخلال ذلك سلمه الأوراق١٤٦التى شعر حين تصفحها بأنها

تحتوى على كل البيانات التى طلبها والمتوفرة بتلك الأوراق ولهذا طلب عرفان من الريس صديق زيارته الأسبوع القادم ليخبره بحالة الجندي صابر ، تكررت زيارة صديق للمرة الثالثة ، رحب به عرفان وأخبره بالخبر الذي لم يتوقعه أحد ، عم صديج ، الجندي صابر تم إعفاءه من الخدمة بالجيش وجدم كشف عيله بالحكاية دية وتسلم ورجة الإعفاء يوم ٢٠ مايو ١٩٦٧ ، يعنى صابر مش فى الجيش.

إضطرب صديق وأعاد التأكيد هل تلك المعلومات دقيقه؟ أخبره الصول عرفان بأنه يعمل بالسجلات العسكرية بالقاهرة وهم يعلمون كل شيء عن كل جندي ومتطوع بأفرع القوات المسلحة ، مُضيفاً: على فكره لو حصل له حاجه "وفاة" جبل ما يرجع لبلده مش ح يستحج معاش ولا مكافئة ، صابر مش فى الجيش جبل ما الحرب تبدأ.

نزل هذا الخبر الصادم على كل من يعرف صابر وأسرته وتعددت التعليقات والمبررات وكان أكثرها تعليقا وإنتشاراً أن صابر أصابه التعب والإرهاق من تحمل أعباء أخوته وأمه ولهذا فقد قرر أن يهجر العزبة ويطفش وراح أتجوز بنت حلوه من اللى بتحط أبيض وأحمر وزغللت عينه.

***

فى بـــــلاد النـــــــوبة

اليوم الأول من شهر أكتوبر من عام ١٩٦٧ توجهت أنا الرائد طارق من قوة المنطقة العسكرية فى مهمة محددة إلى قرية "ميت عنيبه مركز نصر النوبة محافظة أسوان" لإبلاغ أسر المفقودين السبعة عشر من قوة ســـــلاح الحدود بالفوج الذي يعمل بشمال وجنوب سيناء ، لقد وصلت قوة الفـــــوج

كاملة إلا أفراد الفصيلة الخامسة والمكونة من سبعة عشر رجلا من أبناء تلك القرية ، كانت المهمة شاقة ومؤلمة أن تبلغ أسر هؤلاء الرجال بفقد ذويهم بسيناء بعد الهزيمة الساحقة التى منيّ بها الجيش المصري.

لم أرغب فى أن ترافقني قوة من الشرطة المدنية كما تقضي التعليمات بذلك ؛ حيث أن العزاء عسكري بحت كما كنت أعلم الكثير عن أهالي النوبة الشجعان وما يتصف به قومها من نبل الأخلاق ورقة المشاعر وإحترام الغريب حتى لو كان القادم يحمل خبر فقد رجال بهذا العدد وهذا الفقد يغلفه شعور عام بالموت شبه المحقق بسيناء.

كان الطريق طويلا وشاقا ، وحينما ظهر لنا جسم السد العالي الذي مازال تحت التشييد والبناء عبرنا النيل إلى الجهة الشرقية ، فلم تكن بحيرة السد قد ظهرت على الوجود بعد ، واصلنا سيرنا بالسيارة العسكرية وكان يرافقني أحد ضباط الفرع المالي للمنطقة العسكرية حاملا معه بعض أوراق ومستندات صرف مستحقات مالية لعائلات الضحايا السبعة عشر ، أيضا فرد حرس من الشرطة العسكرية وسائق السيارة الجيب ، كنا جميعا نرتدي لبس الميدان الافرول الكاكي نظرا لحالة الطوارئ التى تعم البلاد منذ رفعها قبل خمسة أشهر.

وصلنا إلى مشارف القرية وإستقبلتنا رائحة ذكية للنباتات العطرية المنتشرة على أجناب الطريق أيضا أشجار الكركديه والتمر هندي وقصب السكر والذرة الشامية وبعض النباتات العطرية التى تشتهر بها تلك المنطقة، كنا نشاهد الشباب والرجال بوجوههم السمراء المكتنزة والبسمة المضيئة تعلو تلك الوجوه بل كانوا يقومون بتقديم التحية صوتا بالفم وحركة باليد ، كان هذا الإستقبال أحد المكونات الهامة للجلد والثقة بالنفس على إنـــهاء تلك

المهمة بنجاح والتي تتلخص فى إعلام أهالي المفقودين بفقد ذويهم وصرف المستحقات المالية وهي راتبهم الشهري الذى كانوا يتقاضونه قبل الفقد ويبدأ الراتب من شهر يونيو الماضي.

سألنا عن كبير الناحية فأسرع البعض للمصافحة بعد أن تركنا السيارة بأحد أجناب الطريق الغير معبد نظراً لضيق الطريق وأيضا كي نترك مساحة لسير الدواب التي كانت تتحرك من حولنا سواء أغنام أو أبقار أو حمير ، سار معنا نفر من القرية من أجل لقاء الشيخ شعبان وهو كبير الناحية ويعتبر شيخ تلك القرية ويعتبر بمثابة الحاكم الآمر الناهي بتلك القرية والجميع يحترم قراره ورأيه ، هذا ما أخبرنا به من إلتقينا بهم ، البعض حاول الإستفسار عن سبب زيارة رجال من الجيش للقرية لكننا لم نفصح لهم عن أي شيء وإكتفينا بالإبتسامة والصمت.

هذا هو دار الشيخ شعبان ، تلك الجملة قالها أحد الشباب المرافق لنا بينما أسرع آخر للدق على باب كبير ليعلم الشيخ بحضور بعض الزوار له ، فتح الباب وظهر بعض الرجال المعاونين للشيخ والذين إستقبلونا أحسن إستقبال ودخلنا إلى قاعة فسيحة يطلق عليها اسم المندره والمخصصة لإستقبال الضيوف والتي تحتوي على العديد من الكنب البلدي المغطي بأغطية جميلة نظيفة وشلت للجلوس مزودة بمسند ظهر يريح الضيف الجالس ومصنوعة من القطن فتريح من يستخدمها.

إستقبلنا الرجل بترحاب وقدموا إلينا المشروبات الساخنة من الشاي والقهوة رغم إرتفاع درجة الحرارة فى هذا الوقت ، عرفت الشيخ شعبان بنفسي وباقي الزملاء ، رحب الرجل ومعاونوه بنا فرداً فرداً ، أوجزت بالمهمة المكلف بها ، لم تتبدل ملامح الرجل أو معاونوه بل علق قائلاً: نحن

نحتسبهم عند الله ، لذا فأنتم على الرحب والسعة زملاء لهم ، تحدث زميلي الضابط المالي بأنه راغب بلقاء أسر هؤلاء الرجال كي يقدم لهم مستحقات أبنائهم المالية مع رجاء بإحضار الوثائق والأوراق التى تثبت درجة القرابة.

أشار الشيخ إلى معاونيه الذين غادروا المكان وبعد نصف ساعة شاهدنا بعض الرجال والنساء مقبلين على المندرة ، قام على ترتيبهم رجال الشيخ حيث بدأ بالنداء على أقارب كل فرد على حدة ، كانت توجد بعض الأوراق من شهادات ميلاد وإذا لم تكن كافية كان يقدم إقرار كتابي موقعا عليه من الشيخ شعبان ، ظل هذا الحال أكثر من ساعتين تسلمت الأسر مرتبات أربعة أشهر "يونيو/يوليو/أغسطس/سبتمبر" ، قدم إلينا الرجال الشكر كما غطي البكاء وجوه بعض النساء فأصدر الشيخ أوامره بمنع البكاء.

قدمنا الشكر للشيخ راغبين بالعودة ولكنه أصر علي أن نظل تلك الليلة بضيافته حيث هبط الظلام والتحرك ليلاً بتلك المنطقة به خطر علينا من سوء الطرق الغير معبدة ، تحت الضغط والإرهاق البدني قبلنا البقاء وأعدت دار ضيافة وأحضرت الملابس "الجلباب الأبيض وبأسفل منه السروال" ، حصلنا على وجبة الغذاء الفاخرة ، همس الشيخ بحديثه بأن تلك الليلة سوف يتم بها زواج كبري بنات الشاويش إدريس أحد المفقودين ومن أجل هذا رغبت بأن تحضروا هذا الإحتفال بالإنابة عن الفقيد.

شرح لنا الشيخ كيف يتم الإستعداد لتلك الليلة حيث يتم إجراء عملية تجميل طبيعية للعروس يطلق عليها "الطلح" وهي عبارة عن خشب الصندل الذي يوضع فى حفرة بالأرض ويتم إشعاله ثم تطفئ النيران فتتصاعد منه الأبخرة المعبقة برائحة الصندل التى تغزو الأنوف متعة وجمالا ، تحصل العروس علي الدخان الذي يتصاعد من الحفرة إلى داخل ملابسها ولا يتواجد

معها سوي النساء بعد أن يلين جسد العروس ويصبح هلاميا يحك جسدها بشحم الأغنام المضاف إليه روائح طبيعية من بعض الأشجار الأفريقية وتسمي "الحمره" والتي يضاف إليها مخلوط يعبئ بزجاجات تغطي وتحفظ فى مكان مظلم لفترات زمنية طويلة حيث تعتق مثل الخمر فتزداد الرائحة بها تعتيقا فتزيدها عبقاً جميلاً ، كل هذا يساعد العرائس المتزوجات حديثاً بأن تظل الواحدة منهن ذات رائحة طيبة لفترة زمنية طويلة.

رغبنا بالتعرف على المزيد من المعلومات عن أبناء مصر ببلاد النوبة التى إبتعدت عنهم وسائل الإعلام إما لبعد المسافة أو للإهمال المتعمد لأبناء مصر على الحدود والقرى ، شرح لنا الشيخ شعبان كيف يتم الزواج بين الشباب من الجنسين من نفس القبيلة أو من قبيلة مجاورة وبالتالي الجميع يعرفون بعضهم جيداً كما أخبرنا بأن أكبر قبيلتين بالنوبة هما "قبيلة فارتس وقبيلة كنزي" فمثلا بلهجة الفارتس كلمة هجوم تقال *جم* وبالكنزي كلمة حدود تقال *حدود تناتر* والعدو يقال عنه *عدو* والجمل يقال عنه *كم* والبقرة يقال عنها *تي* والفرح *بليه* وعروسه *إركنيه* وشيخ مسجد يقال *فجير* وشيخ البلد يقال *ثمل* وزوجة بالكنزي *إزن* وبالفرتس *إدين* .. ولد/ *برو* .. أو *إبرو*.

قام الشباب بالغناء والرقص التعبيري بحركات إلتفافية طيبة والتصفيق بطريقة موحدة وتصفيقات متعددة مع دقات الطبلة والرق ، كانت اللحوم المشوية من الأغنام والماعز منتشرة بكل مكان والجميع يتناول طعامه بسعادة مع إنتشار الحلوى وتوزيعها على الأطفال والشباب ، قدمنا التهنئة للعروس من على بُعد وللعريس أيضا وخلدنا فى نومنا حتي صباح اليوم التالي ثم ودعنا أهل ميت عنيبة مركز نصر النوبة محافظة أسوان بعد قضاء أربعة وعشرين ساعة من أحسن ما قضيت كما أنهيت مهمتي والحمد لله أنا والمرافقين لي.

أمنيات تتحقق بفضل الله

كنت أمنى نفسي بقتل جندي إسرائيلي أسوة بزملائي رجال فصيلة الحدود ، لقد أصبحت أجيد الرمي ولكن المشكلة التي كانت أمامي هي كيفية العثور على هؤلاء الأعداء وكيفية الهرب دون اللحاق بى؟ لو إستخدمت "أمشير" فسوف يسبب لي مشاكل كثيرة كما أنه أصبح بطيء الحركة ، جلست جلسة تأمل أنظر فى الأفق متمنيا أمنية بعيدة المنال ؛ أردد بداخلي " لو كنت أمتلك حصانا مثل الخيول التى كانت تجاورني وأعتني بها ؛ لقد كانت أفراس وخيول رضوان باشا نعمة ومتعة لي" ، خرجت من صدري تنهيدة ، لو حدث هذا فمن الممكن القيام بعمليات كثيرة بمختلف الأماكن وسوف يساعدني الحصان بسرعته سواء بالهجوم أو الفرار بحيث أترك المكان قبل أن يعثر عليّ الأعداء.

ظللت جالساً أمام الباب الحديدي الذي كان يتم إغلاقه ليلاً ، إعتكفت بين الصخور المتعرجة أحتمي بها من برودة شهر نوفمبر وأتمتع بشعاع الشمس الذي أدخل الدفء إلى جسدي ، مازال خيالي سابحاً فى الفضاء المترامي أمامي متخيلاً عثوري على فرس قوي قادر على أن يساعدني فى تحقيق أمنياتي ، فجأة شاهدت فرس عربي أصيل أمامي ؛ تعجبت من أحلامي تلك وهذه الخيالات لدرجة أنني إعتقدت أنها أصبحت حقيقة واقعة ، نهضت لأملس على هذا الفرس الذي أمامي ؛ تراجعت وجلست وأغمضت جفنيّ وطلبت من الله أن يحقق أحلامي وأمنياتي بالعثور على الفرس ، تنبهت على صوت سيدة عجوز تحدثني تطالبني بأن أمدها ببعض المؤن حيث أنها إستهلكت كل ما تسلمته الشهر الماضي ومازال أمامها عشرة أيام

على موعد صرف مستحقاتها ، أخبرتها بأن هذا غير جائز ، بكت وإستعطفتني بأن أحقق لها رغبتها وأنها على إستعداد أن تقايضني بهذا الحصان فى مقابل جوال من الدقيق.

ضحكت من حديثها وإعتقدت أنها أضغاث أحلام وأصبحت هلوسة وقد أثرت عليّ حتى إختلط حديث السيدة بأمنياتي وأحلامي ، تساءلت : حصان إيه يا حاجه؟ أجابتني : هذا الحصان الذي أمامك ، أنه حصان "جاهل" أى مازال شاباً وسوف يساعدك على الحركة والجري ويمكنك أن تحقق ما كنت تفكر فيه ، إضطربت وشعرت أن السيدة إما تقرأ الطالع أو أنني وصلت إلى مرحلة من الهلوسة التى سوف تؤدي بى إلى الجنون.

لم يسعفني وينقذني من تلك الحالة سوي وصول رحيل ؛ أعادت السيدة عليها الحديث عارضة شراء جوال دقيق فى مقابل هذا الحصان ، صرخت بها رحيل ورفضت عرضها وأنها ليست فى حاجه لهذا الحصان الهزيل ، تنبهت وتأكد لي أن ما أشاهده من وجود فرس قوى هو حقيقة واقعة وأن ما تعرضه السيدة علينا لهو واقع أيضاً ، بكت السيدة العجوز مرة ثانية ورغم هذا لم تتأثر رحيل ، فى تلك اللحظة تدخلت وطلبت من رحيل الإستجابة لطلب السيدة ، رفضت رجائي وصرخت فيّ وأسمعتني بعض كلمات قاسية على أذني لم أسمعها منها من قبل.

تأثرت لهذا وغادرت المكان مُسرعا وعدت ممتطيا "أمشير" مودعاً الجميع ، أسرعت رحيل ترجوني البقاء وسوف تنصاع منذ الآن لكل رغباتي ورغبات السيدة ، هكذا أصبحت أمتلك فرساً وفى المقابل سلمت السيدة جوال دقيق ورغبت فى أن أمدها بجوال سكر فشكرتني على هذا معلقة بأن هذا جوال السكر وفره لحصانك ، إقتربت مني وهمســـت بأذني:

الحصان اسمه شهاب ، مش تنسي شهاب ، ضحكت وغادرت المكان مسرعة حتى إنني شاهدتها على مسافة بعيدة وقد أسرع بها الجمل الذى وضعت جوال الدقيق فوق ظهره وقمت بإحكام رباطه ؛ مازالت الدهشة هي حالي متسائلاً: كيف أسرعت السيدة بمغادرة المكان بتلك السرعة التى لا يستطيع أمشـــير اللحاق بها ، تعجبت وخشيت بأن تكون العجوز قد خدعتني بهذا الحصان وأنه لا جدوى من إقتناءه وكيف تضحى بحصان مرتفع الثمن فى مقابل جوال من الدقيق.

من أجل هذا إمتطيت الحصان المزود بسرج جميل مرتفع الثمن لا يقل عما كنت أشاهده من سرج على ظهر أي حصان من خيول رضوان باشا ، أسرعت بالحصان لمسافة بعيدة وشعرت بأنه يستجيب لي وقمت بعدة دورات كانت ناجحة ثم دورات قصيرة حادة نجح خلالها الفرس بالقيام بها ؛ تأكد لي أن هذا الفرس من الخيول الأصيلة سواء لمظهره المعتد بنفسه أو لحركته السريعة.

كانت رحيل تنظر ناحيتي وتشاهد الحيرة فى وجهي الذي أصبح ساكناً لا يتحرك ولا يجيب أو يتحدث ، قمت بالسير متجهاً إلى مخزن الدقيق والفرس يتبعني ، شعرت أن دوارا أصابني وأن عقلي لا يسعفني في الشرح وتفسير كل ما أشاهده منذ عدة أيام سواء من " أمشـــير" أو في هذا اليوم من تلك العجوز وذاك الفرس ، لقد ظللت طوال الليل يقظاً منتظراً أن تظهر العجوز دون جدوى ولم أعثر على جواب شاف لإختفاء السيدة بتلك السرعة من أمامي ولم أعد أشاهد لها أي أثر فى الصحراء المفتوحة أمامي.

أثناء الليل نهضت فزعاً من أحلام وكوابيس مخيفة هاجمتني ، خلالـــها كنت أشاهد السيدة العجوز بأشـــكال مختلفة ، كما شـــاهدت "أمشير" يتحدث

معي كأنه الشاويش إدريس ، فى الصباح شعرت بصداع بالرأس أعقبه إرتفاع فى درجة حرارة الجسم سقطت بعدها مغشيا عليّ ، تنبهت فشاهدت رحيل بجواري تقوم على رعايتي مستخدمة كمادات مياه باردة على وجهي، كنت أنهض من حين لآخر فزعاً باحثاً عن السيدة العجوز ، بعد هذا بأيام تحسنت حالتى الصحية نسبيا.

يوجد منطقة رمليه بين الأخاديد بداخل هذا الجزء من جسم الجبل أيضاً تجري بها مياه السيول ، المنطقة مغطاة بالرمال وتكثر بها الأعشاب البرية التى تعتبر غذاءً هاماً لتلك الحيوانات سواء الجمال أو الماعز أو الخيول ، المنطقة متسعة ومساحتها تقارب مساحة حوش المدرسة أي حوالي قيراطين ونصف أي أكثر من أربعمائة متر مربع ، تلك المنطقة أصبحت ميدان التدريب الذى إخترته لتدريب الفرس المهدي إليّ والذي سقط عليّ من السماء ، وضعت كل خبراتي بالسنوات السابقة بعزبة رضوان باشا فى خدمة الخيول وتدريبها ؛ إستفدت من تلك الخبرات وعزمت على إستهلاك وقت فراغي فى تلك الهواية الممتعة والتى لا يستطيع من إختبرها أن يبتعد عنها ؛ كانت منطقة التدريب تلك بعيدة عن أنظار دوريات العدو أو زوار السيدة رحيل ، لقد كانت مخفية بجوف هذا الأخدود بالجبل.

كل حركة أو أمر أصدره للحصان تبدأ بقطعة من السكر وتنتهي بقطعة أخري إذا تفهمها وأجادها ، لهذا بدأت فى تعليمه الأرقام ، فإذا أشرت بإصبع واحد وفهمها ضرب الأرض بقدمه ضربة واحدة وهكذا حتى أجاد أرقام العشرات أي الأرقام من رقمين ، ثم تدرب على معرفة الشمس سواء الغروب أو الشروق ، أيضاً تدرب على معرفة رحيل ، فإذا أمسكت شعر رقبته الطويل فتلك هى رحيل ، وإذا أمسكت إحدى إذنيه فهذا هارون ، وإذا

وضعت يدى على صدري فهذا يعني بأنني صابر وأرغب فيّ أن أعطيه الإشارة المطلوب تنفيذها ، ظللت على هذا الحال عدة أسابيع حتى شعرت بأنه أتقن الكثير من الإشارات كي أستطيع التفاهم معه مثلما كنت أفعل وأتصرف مع خيول رضوان باشا بالإضافة إلى تدريبه على العدو لمسافات.

أقبلت رحيل سعيدة بما أقوم به مع هذا الفرس ومن أجل هذا أحضرت المرجيحة الخاصة بابنها هارون وجلس بداخلها يشاهدني بسعادة بالغة ولهذا كنت أشير إلى أذن الحصان فيتجه إلى هارون يشتم رائحته و إذا ملست على شعره إتجه نحو رحيل فتضحك باسمة وتناوله قطعة من السكر، كنت من حين لآخر أطفئ رغبتي وأهدئ من غربتي بتلاوة آيات الذكر الحكيم والتى كان يجتمع عليها كل من أمشير وهذا الحصان حتى أصبحت تلك التلاوة هى شفرة النداء لهما.

ظل هذا حالي حتي تماثلي للشفاء من الخوف والتوتر من لقاء السيدة العجوز ، لقد شعرت بأن تلك الحالة التي لبستني من تأثير تلاوة القرآن على أمشير وشهاب لن أخرج منها وأستريح إلا بعد أن ألتقي بأصدقائي الذين سوف يوضحون لي كل ما شاهدته سواء من أمشير وشهاب أو السيدة العجوز ، أخبرت رحيل برغبتي فى زيارة العاملين زملائي السابقين ، لم تناقشني ولم تعرض عليّ بعض المواد الغذائية من دقيق وسكر وشاي.

قررت المجازفة وإستخدام الحصان قبل أن يهبط ضياء هذا النهار ؛ وصلت إلى زملائي الذين إستقبلوني بفرحة عارمة ودهشتهم من عثوري على هذا الفرس بتلك الديار التى يندر بها وجود مثل تلك الأفراس ، بعد أن حصلت على قسط من الراحة تحدثت مع زملائي عما حدث ، كانت دهشتهم كبيرة بالأخص حين تحدثت عن موضوع السيدة العجوز أما ما حدث من

أمشير والحصان فقد أكدوا لي بأن تلك آية من آيات الله الكونية التى يرسلها لعباده ولكنهم لا يفقهون ، بينما أوضح العريف أبوبكر بأن الله أوضح فى إحدي سور القرآن بأن هذا القرآن لو نزل على جبل لرأيته متصدعا من خشية الله ، فما بالنا بتلك الحيوانات التى تعبد الله لكن بالطريقة والكيفية التى خلقها الله.

أما الباقون فلم يستطيعوا أن يفسروا ما حدث وطلبوا مني أن أهنأ وأرتاح لأن رغبتي قد حققها الله والذي لا يحقق سوي الرغبات الطيبة والتى أمرنا بها ، لقد أصبحت الآن تمتلك فرساً وتجيد الرماية وعليك الإحتراز واليقظة من ألاعيب العدو ومن عملاءه وجواسيسه وقد تكون رحيل إحداهن.

صباح اليوم التالي عُدت مسرعا إلى مخزن التموين ، أثناء الطريق شعرت بالعطش والظمأ كما لاحظت العرق الغزير على رقبة الحصان ، توجهت إلى عين الماء التى رقد بجوارها "أمشـــير" في المرة السابقة ، عببت منها وحمدت الله وبدأ الحصان فى عب المياه ، أثناء متابعتي للحصان شعرت بمن يتحرك خلفي ، نظرت مسرعاً فشاهدت العجوز التى أقبلت منذ أيام ومعها الحصان ، نظرت إليّ باسمة؛ مرددة: ربنا معاك ، تحدثت معها قليلاً: أجابت بكلمات قليلة ، ربنا معاك ودايما تفتكر الصحابة عملوا إيه ، معك شهاب هذا الفرس القوي وشبابك وحبك لبلدك ، عليك العمل ، أستودعك الله وأسرعت وإختفت والجمل يسابق الريح؛ جلست هامداً وتنبهت إلى أن الحصان يدق بقدميه أرضا كي أنتبه فالوقت يسرع والليل سوف يهبط بعد ساعات ، ركبت صهوته وأسرعت عائداً إلي مستودع الأغذية فشاهدت رحيل تجلس أمام قبر زوجها كعادتها فإستقبلتني إستقبالاً طيبا مشيدة بعدم تأخري وعودتي مبكرا.

هل البطولة موقف؟

لم أتناول طعاما رغم أن رحيل حاولت جاهدة أن تدفعني لتناول الطعام معها لكنني كنت فى أشد الحاجة للإنفراد بنفسي ، كل ما تناولته كوبا من الشاي وتركت رحيل برفقة ابنها هارون بعدها توجهت للمخزن وأغلقت الباب خلفي وجلست مستنداً بظهري على أجولة الدقيق أفكر وإسترجع أحداث الأيام السابقة وآخر لقاء تم مع العجوز منذ ساعات قلائل.

نهضت صباح اليوم التالي أكثر نشاطاً وحيوية نظراً لما بثته فى رأسي السيدة العجوز والذي أكد لي حديثها الأخير بجوار نبع المياه أنها سيدة صالحة وإذا كانت روحا فإنها روح طيبة أو ملاك جاء لمساعدتي لأن أصبح شيئا ذا قيمة بدلا من عملي هذا الذي لا يخرج عن كوني حمالا أرفع أجولة الدقيق لأضعها فوق الجمال عدا هذا فلم أقدم لوطني أي شيء ذا قيمة تذكر مثل رجال الحدود الأفذاذ.

أقبلت رحيل فشاهدتني منشرح الصدر وقد أثرت عليّ ساعات النوم المريحة فظهر الضياء على وجهي كما قالت ، إقتربت منى وقبلت خداي كعادتها ورافقتني حتى مسكنها وتناولنا طعام الإفطار بصحبة هارون هذا الطفل الساكن الهادئ الذي أودع الله به كل الصفات الجميلة.

أثناء تناول الطعام أدارت حديثها متسائلة عن أحوال أصدقائي وهل مازال الدقيق متوافراً لديهم أم إنهم فى حاجة إلى كمية أخري؟ أخبرتها بأنهم فى حاجة لدقيق ولكني خشيت أن طلبت منك كمية أخرى أن يصيبك هذا بالضيق والضجر ، هدأت من ضيقي وما عليّ سوي أن أطلب منها الكمية المرجوة وهى قادرة على إستعاضة أي كمية من الدقيق المنصـــــرف والتى

تأتي من الولايات المتحدة مباشرة إلى المناطق المحتلة بغرض إيهام سكان تلك المناطق بأن حالتهم أصبحت أحسن حالا وأفضل عن السابق خلال خضوعهم للحكم المباشر للحكومات الوطنية قبل قيام الحرب وإنتصار جيش الدفاع الإسرائيلي على جيوش الدول العربية المتهالكة والباغية التى تكره وجود دولة إسرائيل الحرة بالمنطقة.

نظرت رحيل إليّ بعيونها الجميلة متسائلة: هل تشعر بأن إسرائيل دولة راقية ومتقدمة عن باقي الدول العربية المجاورة لها؟ أجبتها بأنني لا أشعر بهذا ، بل من قراءة كتب التاريخ أشعر بأنهم عصابات وقتلة راغبة فى سفك الدماء ، إضطربت وأحمر وجهها من شدة الضيق وصمتت لفترة ، ثم نهضت راغبة فى إنهاء اللقاء ، نهضت خلفها ووجهت لها نفس السؤال ، رحيل : لقد نشأت بمصر وتربيت بها حتى وصل عمرك إلى أربعة عشر عاما ، هل شعرت بأن مصر والمصريين أكثر تخلفاً من إسرائيل وهل لاحظت أن الشعب المصري يعشق سفك الدماء؟

كانت دهشتي قوية ، إذ إنفطرت عيونها عن دموع غزيرة وأمسكت كتفيّ تهزهما بعنف ، وتردد : مصر ما فيش زيها ولا فى الأحلام ، مصر أحلى بلد فى العالم ، مصر بلدي وبلد أجدادي ، مصر بلد الديانة اليهودية وعلى ترابها نشأ نبي الله موسي ، ثم أمسكت بكلتا يديها ببعض وجلست على ركبتيها ونظرت لأعلى تناجي الله: يارب ، إغفر لي كل ما قلته بحق هذا الوطن العظيم الذي تخيرته ليكون مهدا لطفولة موسي وحامي لرسالته ثم حميته من الحاكم الظالم وأغرقته فى البحر ؛ إستدارت نحوي وعادت تحتضنني مقدمة أسفها وإعتذارها لما قالته فى حق مصر والمصريين وأسرعت من أمامي وإختبأت بداخل حجرتها.

بداخل الإسطبل أشرت إليه ؛ أقبل أيها الفرس ، أشاهده قادماً مسرعاً حتى إذا وقف أمامي صهل ودق بقدميه أرضا كأنه يقول لي حاضر يافندم مثل التى كنا نقولها للشاويش إدريس ، وضعت السرج على ظهره وقفزت أعلاه وخرجت من باب المستودع والشمس تضيء المكان والصحراء هادئة من حولي ، كنت أشعر بأن شهاب ينهب الأرض نهبا ؛ بل كدت أن أطلب منه خفض سرعته ، وجهته كما كنت راغبا ، مضت ساعتان حتى وصلت إلى المكان الذي أبغيه ، الهيكل العظمي للجمل الذى مات وكان يحمل أحد رجال الحدود والذي عثرنا بداخل حافظة البريد التى كان يحملها على شهادة الإعفاء الخاصة بى ، قريبا منه يرقد هيكل الجمل هادي الذي أنقذني من براثن الجنود الإسرائيليين ؛ أيضا السيارة الجيب الإسرائيلية محطمة وقد علاها الصدأ.

بجوار الجمل الأول حفرت أسفل عظامه حتى عثرت على الجراب المشمع الذي خبأت به البندقية القناصة ، سحبت الجراب وبداخله البندقية فشاهدتها ومازالت سليمة ولم يقترب منها الصدأ نظرا لحمايتها بالجراب المشمع المبطن بزيت السلاح المانع للصدأ ، ظللت أحفر قريبا من الهيكل العظمى حتى عثرت على صندوق من الخشب في حجم علبة الحلوي الصغيرة يحتوي علي ذخيرة البندقية ، تذكرت كلمات الشاويش إدريس:

ـ عسكري صابرا ، البندجية الألية عيارها ٣٩×٧,٦٢ بينما البندجية الجناصة عيارها ٥٤×٧,٦٢ ، البندجية دية واعرة جوي وكل طلجة منها بتهد الكتف لكن ضربها دجيج لو النفر منا منشن صح ومدرب عليها ، صابرا ، البندجية دية كل رصاصة تخرج منها بنفر يموت فى الحال.

أخيراً عثرت على ذخيرة البندقية ، أسرعت بالعودة إلى مســـتودع

الأغذية حاملا معي البندقية وصندوق الذخيرة الخاص بها ؛ شاهدت رحيل جالسة خارج المستودع وصغيرها يلهو قريبا منها ، أشارت إليّ بأن أعود إليها بعد أن أحرر شهاب من السرج ثم قالت بصوت عال بأنها وضعت أمام الجمال صباح اليوم بعض الشعير بالإضافة إلى العشب الجبلي الذي أحضره لهم يوميا.

بالداخل تركت ظهر الحصان وحللته من السرج فأصبح حرا ووضعت الطعام أمامه وشاهدت عبوات الماء ممتلئة ، توجهت لأمشير كي أطمئن عليه وهدهدت على رأسه وقبلت صدغه الأيمن ثم توجهت للسيدة ناقة وقمت بتحيتها مثل ما حدث مع أمشير لكنه زمجر وبدأت الغيرة واضحة عليه وكادت القلة تخرج من فمه وهذا يعني بأن الدفاع عن الشرف لا بد من أن تراق عليه الدماء ، تركته مغادرا المكان طالبا منه أن يشبع بالسيدة ناقة وكل واحد ينام على الجنب الذي يريحه.

ليلاً فتحت صندوق الذخيرة وأخرجت عبوة كرتون تحوي خمسين طلقة من طلقات القناصة ولففتها بقطعة قماش من الألياف الصناعية التى تستخدمها رحيل لمنع تسرب المياه من ابنها هارون أثناء نومه على فرشة السرير ، حملت بعدها الصندوق وكوريك الحفر وفتحت باب المستودع وبالخارج قمت بتخير مكان قريب من الصخور ومرتفع نسبيا حتى لا تركن به مياه الأمطار ، قمت بالحفر وبعد أن لففت الصندوق الخشبي عدت ووضعت بعض الرمال فوق الحفرة وبسطحه الخارجي وضعت بعض أحجار من الصخور كي أعلم أين أخبئ الذخيرة.

كنت أخشي قوات العدو ولهذا فكرت فى تلك الطريقة ، اليوم التالي وفى المساء تسللت أنا وشهاب الذي كان يساعده هذا الاسم وغادرنا

المستودع وبعد مسيرة ساعتين إختبأت معه فى إنتظار الدورية التى قال لي عنها الشاويش إدريس إنها تتحرك قريبا من هذا الجبل فى ميعاد يقترب من الثامنة مساءً ونظراً لعدم وجود ساعة يد معي إضطررت للجلوس ولم أكن أخشي الذئاب أو الضباع لوجود البندقية القناصة وبالنظر داخل التلسكوب أوجه الضرب على الهدف وفي أقل من الثانية يكون قد لقي حتفه.

جلست طوال الليل ولم أشاهد الدورية وضاعت عليّ تلك الفرصة ؛ تركت البندقية وعلبة الذخيرة الكرتون بعد أن لففتهم جيدا ووضعتهم بداخل فتحة بداخل سرداب بالجبل الذى كنت أحتل قمته ، لقد كنت أخشي لقاء مباشراً ومفاجئاً مع دورية من العدو وبتفتيشي يعثرون على السلاح والذخيرة ويلقون القبض عليّ ، لم أكن أخشي أن يقوم أحد من البدو بسرقة السلاح ؛ فمن سوف يأتى لهذا المرتفع الصخري الذي لا فائدة منه فليس به ماء أو كلأ تتناوله الدواب من الماعز والأغنام والجمال.

فى الصباح عدت ثانية للمستودع ، شاهدت رحيل تقف فى وضع غير مألوف وتهز ساقيها لأعلى وأسفل أثناء وقوفها وهذا معناه إنها إكتشفت خطأ ما إرتكبته ، تساءلت: لماذا تقفين هكذا؟ أشارت إليّ بأن أتبعها ؛ وافقت على طلبها بعد أن أقوم بتحرير السرج من علي ظهر شهاب وأضع أمامه الطعام والشراب ، عدت منفذا تعليماتها وتبعتها وأنا أفكر فيما إكتشفته من أمري وفكرت بأنها قامت بمراجعة الدقيق وأجولة السكر وإكتشفت نقصا ، دخلت إلى الحجرة التى نتناول بداخلها الطعام ، أشارت إليّ بالجلوس ، جلست ثم أقبلت نحوى وجلست أرضا تحت أقدامي وأمسكت بيدي ونظرت فى عيناي وهي تردد:

دي عمايل الإخوات : دي عمايل الإخوات ، مكنتش فاكره أن قلبك أسود من

ناحيتي ، ظهرت الحيرة على وجهي ولم أجيب ؛ ثم نهضت وعادت بعد قليل حاملة الصندوق الخشبي الذي خبأته والذي يحتوى على ذخيرة البندقية القناصة.

شعرت أن الأرض تميد بى ، فكرت بالفرار وأن أمتطي الفرس وأهرب ولكني جبنت ولم أقوى على المواجهة ؛ حيث كانت الحجة دامغة لا أستطيع لها ردا ولا نفيا ، عادت وجلست جلستها الأولي تحت أقدامي ، هبطت أرضا وجلست أمامها مباشرة وإنحنيت مقبلاً وجنتيها لكنها إبتعدت عني راغبة فى مقاطعتي ، أحدثها: هكذا تعاملين أخاك الأصغر ، نظرت إليّ نظرة كلها أسي قائلة وهكذا تعامل أختك الكبرى ، هل أصبح بيننا أسرار ، لماذا تخفي عني الذخيرة وطالما هناك ذخيرة هناك سلاح وطالما هناك سلاح فهناك قتلي من أبناء عقيدتي ، أنت من أبناء وطني ولكن من تقوم بقتلهم من أبناء عقيدتي ، لماذا تضعني فى حيرة؟ هل أظل صامتة ساكنة على قتل أبناء عقيدتي بيد أبناء وطني أم أقوم على خيانة أحد من شباب وطني وأبلغ عنه ، لماذا؟

جلست صامتا لفترة وشعرت أن عدوي الصمت قد أصابتها أيضاً ، نهضت مُسرعا إلى داخل المخزن وجلست بالظلام ؛ أقبلت خلفي مسرعة وجلست بجواري لصيقة بى ، تنادي عليّ : أخي صابر لا تضعني فى هذا المأزق .. أرجوك .. أرجوك .. ثم بكت بكاءً مراً مؤلماً لم أستطع إخراجها منه ، مازالت تردد: سوف أحتفظ بتلك الذخيرة كي أضمن ألا تستخدمها ، مما إضطرني لإعادة تقبيل رأسها ووجهها ، نهضت مسرعة مغادرة المخزن فلحقت بها فتوقفت وألقت برأسها على صدري ، كنت أسمع شهقات وتشنجات صدرها ومازالت الدموع منهمرة ، شعرت لحظتها بأنني إرتكبت

معصية كبيرة ومن المحتمل أن أفقد رحيل وأنا لا أستطيع العيش بدونها ؛ فلقد أصبحت بالنسبة لي مثل الطفل الذي ولد في الحال ومازال ملتصقا بأمه بالحبل السري.

دفعتني بعيداً عنها بهدوء وغادرت المخزن ، ترددت وتساءلت: هل ألحق بها أو أنتظر؟ بعد مضي نصف ساعة تقريباً على هذا الحوار سمعت صوت موتور سيارة وشاهدت أضوائها فأسرعت وفتحت الباب فشاهدت جاستون الذى جاء للمرة الثانية والذي تسبب فى مقتل موشيه زوج رحيل ، رحبت به وهو بالأحرى أشار إليّ بتحية مخالفة عن اللقاء الأول ؛ هبط من السيارة وسرت أمامه حتى باب الحجرة المواجهة والمعدة سلفاً لإستقبال زوار رحيل ، أشار إليّ بيده بعد أن وضع ساق على ساق حيث قال:

ـ بسرعة عرف سنك أنى وصلت

ـ حاضر يا سعادة الباشا ، هرولت ودخلت على رحيل ولم أستأذن للدخول؛ لحظتها كانت تستبدل ملابسها فنهرتني فتركت حجرتها عائداً بسرعة مؤنباً نفسي على تلك السقطة الأخلاقية ، متسائلاً: كيف يحق لي أن أنتهك حرمة السيدة وقد أمرنا القرآن بأن نستأذن قبل الدخول للبيوت ، لقد أصبحت قراءة القرآن شيء والعمل به شيء آخر ، عكفت بداخل المخزن وبعد قليل خرجت من تلك الأفكار السيئة وتأنيب الضمير بتلاوة القرآن ، شعرت بسعادة أثناء التلاوة ولم أفكر فيما يحدث بالخارج ودون أن أشعر ارتفعت درجة صوتي حيث أقبل بعض المستمعين لسماع ترتيلي ، أمشير وبصحبته السيد شهاب وتبعتهم الناقة حيث وقفت بعيداً نظراً لخجلها من مزاحمة الذكور!!

شعرت برغبة قوية فى النوم ، رددت بهدوء : صدق الله العظيم ؛

فقد إنتهت التلاوة وخلدت لنوم هادئ ولم أشعر بأي شئ إلا بصوت ورائحة رحيل التى أقبلت بعد أن غادر جاستون خيمتها ، شعرت بها تحتضنني وتقبل خدي قائلة: يخرب عقلك يا صابر ، بأحبك موت ، ياه ، والله لو بابا وماما كانوا جابوا ليا أخ ما كنتش حبيته زيك ، مش تزعل منى ، أنا عارفة أني زعلتك وقلت في نفسي قبل ما أروح أنام آجي أراضيك ، خلاص مش زعلان ، تصبح على خير يا أحلي أخ ، رددت خلفها ؛ تصبحي على خير يا أحلي أخت.

بعد تلك العواطف المتبادلة بيني وبين رحيل شعرت من جانبي بأن علىّ واجبا إنسانياً بأن أظل مع تلك السيدة رغم الخلاف الواضح بيننا ، فرحيل لم تشعر بعد بأن إسرائيل دولة معتدية ومن حقنا مقاومتها وتحرير أرضنا ، لقد تأثرت بالدعاية المغرضة التى يبثها الإعلام الإسرائيلي رغم مظاهر بعض العواطف الكامنة التى كانت واضحة على تصرفاتها معي سواء لمصر أو المصريين من جراء إقامتها ونشأتها بمصر خلال المراحل الأولي من حياتها حيث هاجرت وهي صبية خلال فترة المراهقة ؛ فلم تستطع تكوين صورة حقيقية عن مصر وطباعها وُحسن أخلاق شعبها.

الصـــيد الثمين

صباح اليوم التالي هاجمني شعور قوى بأنه من الواجب علىّ التحرك والعمل ضد العدو المحتل ، تساءلت: هل سأظل هكذا صامتاً كسولاً وقد أصبحت مستعداً للقتال سواء بالتدريب أو بوسيلة الإنتقال وأخيرا آمنت نفسي مشقة الحصول على طعام مثل المشقة التى يلقاها رجال الحدود الشجعان ، تناولت طعام الإفطار على عجل بعدها إتجهت إلى السرداب الذي خصص لوقاية الحيوانات بداخله من برودة الشتاء ومياه الأمطار ووضعت السرج على ظهر الحصان وأمسكت بالحبل وإتجهت به إلى جهة الباب الخارجي ، تنبهت رحيل وأقبلت تتساءل عن السبب لسرعة مغادرة المستودع هذا اليوم، أخبرتها بأنني حصلت أمس على عبوة من بذور نبات الشعير من زملائي العاملين وهم راغبين بزراعتها بوادي القبقاب نظراً لأن هذا موسم تساقط الأمطار ومن المحتمل أن تنهمر الأمطار خلال الأسبوع القادم.

شجعتني وأمدتني ببعض الأطعمة ثم قامت بوداعي حتى الباب الحديدي الخارجي ، أسرعت إلى وادي القباب بعد أن وضعت عبوة بذور الشعير على ظهر الحصان ، وصلت قبيل الظهر ؛ فقد تعدت المسافة ستون كيلو متر ، كان واضحا أن رجال الحدود يعلمون أماكن سقوط مياه الأمطار ومن ضمن تلك الأماكن هذا الوادي حيث شاهدت الكثير من النباتات الخضراء البرية والتى لم يقم أحد على زراعتها ، تركت الحصان الذي إنهمك فى تناول الحشائش بينما شمرت عن ساعدي وقمت بتسوية الأرض بإستخدام بعض المعدات القديمة الصدأه القريبة من المكان وإستطعت إحضارها بربطها بسرج الحصان.

نثرت حبوب الشعير وعدت ثانية أمشط المكان بتلك القطعة من الحديد الصدأ والتى كانت عبارة عن شاسيه سيارة قديم حيث كان الحصان يتحرك به كأنه محراث بدائي ، كنت أتذكر أثناء العمل ما قاله لي العريف أبو بكر، أنثر البذور فى الميول الجانبية للوادي وليس بعمق الوادي حتى لا تجرف مياه الأمطار البذور أيضاً حاول تغطية البذور بالرمال وإتركها والله سوف يرعاها ، هكذا إنتهيت من زراعة مساحة لا بأس بها من الأرض لا تقل عن فدان مقسمة على عدة أجزاء حسب طبيعة الأرض ، جلست لأستريح ثم غادرت المكان بعد حوالي نصف ساعة متجها إلى مستودع الغذاء.

أثناء طريق العودة أسدل الليل ستارته وحينما إقتربت من هضبة الجبل الذى خبأت به السلاح غيرت من جهتي وصعدت لقمة الجبل وهناك تركت الحصان فى منطقة آمنة نسبيا قريبا منى وبحثت عن السلاح فعثرت عليه ، كنت فى حالة من السعادة بأن أشاهد السلاح مرة أخري ، وضعت التلسكوب على البندقية وقمت بالتصويب فى أي إتجاه ، كنت أشاهد بعض هيئات أمامي ، أسعدني هذا ، أثناء النظر بداخل تلسكوب البندقية شاهدت سيارة نصف جنزير إسرائيلية تمر من أمام الهيئة التى أحتل قمتها ، لم أتمهل وأفكر ؛ بل وضعت طلقة بفم الماسورة وعدت للتصويب بالتلسكوب المزودة به البندقية بكل ثقة وإحتراز ، كان التصويب على جندي من الجنود الأربعة الذين يجلسون بمؤخرة العربة ؛ ضغطه هادئة على الزناد بنظرية العصر أي دون جذب الزناد دفعة واحدة حتي لا يختل التنشين.

سمعت صوت خروج المقذوف بصوت عال مما دفعني للخلف قليلاً من شدة إندفاعه من فوهة البندقية ، حاولت تدقيق النظر ومشاهدة ما حدث بداخل العربة المدرعة مستعيناً بضوء القمر فى تلك الليلة ، توقفت السيارة

بعد عشرات الأمتار وشاهدت حالة من الهرج بداخلها وحركة الجنود الجالسين بالخلف بينما دوى المدفع الرشاش المزودة به العربة بصوت إطلاق الرصاص فى كل إتجاه.

أسرعت بوضع البندقية باللفافة وبداخل السرداب وبحثت عن الظرف الفارغ حتى عثرت عليه فوضعته في جيبي كي أتخلص منه بعيداً عن هذا المكان ، مازال صوت المدفع الرشاش يعربد فى كل إتجاه وتأكد لي أنهم لم يحددوا مكان إطلاق الرصاصة نظرا لأن إطلاق الرصاص كان عشوائياً ، تحركت السيارة وبعدها بنصف ساعة نهضت وتحركت مستخدماً الجانب الآخر من الوادي الذي يحيط بالجبل رغم طول المسافة إلى المستودع مقارنة بالطريق الأول المعتاد.

وصلت قبل منتصف الليل وخلال الطريق ألهبت البرودة جسدي خاصة أنني لا أرتدي ملابس تناسب فصل الشتاء فالملابس التي أهداها لنا حمدان تاجر المخدرات تعتبر من الملابس الصيفية وبالطبع لم نستطع شراء ملابس تناسب برودة فصل الشتاء بسيناء ، وصلت لمستودع الأغذية وجسدي يرتجف ؛ شعرت رحيل بوصولي فأقبلت عليّ فشاهدتني وأنا أغادر السرداب الذى تحتمي به الناقة وأمشير وشهاب.

إطمأنت رحيل على حالي وتساءلت لماذا تأخرت فأجبتها بأنني شاهدت الكثير من الجنود فإختبأت خشية أن أتعرض للأذى ، شجعتني وأيدت تصرفي وأشادت به وطلبت منى اللحاق بها إلى غرفة الطعام كي نتناوله سويا ، بعد أن إستبدلت ملابسي وإغتسلت وتوضأت من مياه العين شديدة البرودة قمت بأداء صلاة المغرب والعشاء جمع تأخير ثم توجهت لرحيل فشاهدت الطعام والأبخرة تتصاعد منه دليلاً على سخونته وبتناوله سوف يدخل الدفء إلى جسدي.

جلسنا معا وسألتها عن هارون فأخبرتني بأنه فى سابع نومه بعد أن تناول طعامه ، كانت سعادتي لا مثيل لها ؛ حيث قمت اليوم بأول عملية ضد قوات العدو وطلبت من الله أن يساعدني على الإستمرار بها ، كنت أشاهد نظرات رحيل لي من حين لآخر وكأنها راغبة بالدخول إلى عقلي ومعرفة سبب سر سعادتي والإبتسامة التى على وجهي وأنا بالأحرى أتذكر حديث رجال الحدود بأن أكون حذراً معها ؛ فمن الجائز أنها تتجسس عليك رغم أنك تساعدها وهم قوم يجيدون التجسس والخديعة والغدر.

نظرت إليّ باسمة بعد أن توقفت عن تناول الطعام متسائلة: يا تري حبيبي أخويا الصغير مبسوط من إيه؟ أكيد قابلت بنت بدوية جميلة وتعرفت عليها ، حين سماعي هذا أصابتني حالة من الضحك وتوقفت عن تناول الطعام وأنا أستعيد كلماتها ، مازالت تحاول معرفة سبب ضحكاتي وأخيراً أخبرتها بأن سعادتي هى مشاهدتي لكِ ثم تناول هذا الطعام الجميل ، لقد كان موشيه رجلاً محظوظاً أن أرتبط بكِ ، نظرت إليّ نظرة الأنثى الراغبة بمعرفة المزيد والإفصاح عن بعض كلمات الثناء والمديح التى تطرب آذان السيدات فى مثل هذا العمر ؛ تساءلت:

ــ موشيه بس اللى كان محظوظ؟

أصابني هذا السؤال بضيق ، فقد تذكرت علاقتها بجاستون الذي قتل زوجها ثم أصبح يعاشرها مرة أو مرتين كل أسبوع ، لم أجب على سؤالها ونهضت بعد أن شكرتها على الطعام ، جلست بالمخزن أسترجع نتائج عمل اليوم ، لقد قمت بزراعة نبات الشعير الذي سوف يصبح علفاً وغذاءً لأمشير وزوجته وصديقي شهاب ، ثم الأهم أنني دخلت ميدان القتال والجهاد ضد العدو ، خلدت فى نوم هادئ ولم أشعر بأي شيء حتى نهضت في الصباح إستعداداً ليوم جديد.

مساء اليوم التالي توجهت إلى المكان الذي خبأت به البندقية ، عثرت عليها وقمت بنظافتها من الداخل لأنني لم أستطع تنظيفها بالأمس ، لقد تذكرت كلمات إدريس : عسكري صابرا ؛ لما تضرب بالبندجة لازم تنضفها وتضع كهنه جافة على أول الحربي وتدفعه لداخل الماسورة مرتين رايح جاي وبعدين تطلعها ، عسكري صابرا : باين عليك مش بتفهم ، خلى ودانك معايا ، نضافة السلاح أهم من نضافة البدن ، ليه؟ لأن البدن مش ح يصدي لكن السلاح يصدي ومنعرفش نستخدمه وبنشتريه بالعملة اللى بيجولوا عليها الصعبة وأنا مش عارف اسمها كده ليه؟

هكذا نفذت تعليمات الشاويش إدريس دون تواجده ، حملت السلاح وصندوق الذخيرة راغباً فى تخير مكان آخر ، بالفعل إخترت مكاناً يبعد عن المكان الحالي بحوالي عشرين كيلومتر جهة الجنوب حتى لا يرصد العدو مكان وجودي ، كنت أستعيد كلمات الشاويش إدريس ، عسكري صابرا ، دايما تبدل مكان صيدك للأعداء عشان المكان مايترصدش ويكبسوا عليه ويخلصوا عليك ، فاهمَ يا صابرا؟ والله باين عليك ما أنت فهمان واللي جابك الجيش ظلمك ، يا لله ؛ كلتها كام أسبوع وتاخد ورجاتك وتعود لأهلك.

ظللت مستيقظاً فى إنتظار هدف أستطيع التعامل معه لكن دون جدوى ومضي الوقت بطيئاً وبالتالي شعرت بالبرودة تسري فى أوصالي فإلتحفت بالعباءة والشال وركنت جانبي بمدخل أحد الأخاديد بالجبل ، تنبهت على صوت محرك فنهضت مسرعاً مترقباً المكان فشاهدت دبابة معادية تسير على مهل وأحد الجنود يقف بداخل البرج يراقب المنطقة التى أمامه ، لم أشعر سوي أننى عمرت البندقية وصوبت التلسكوب فى إتجاه هذا الفرد وضغطت على الزناد "عصراً" فخرجت الرصاصة تشـــــق المكان وشاهدت

الجندي قد تدلي جسده فوق الدبابة مما يعنى أنه فقد حياته ، بعد قليل توقفت الدبابة وتم سحب الجندي من البرج ولم يظهر أحد من الداخل لكن الدبابة قامت بقذف عدة قنابل شديدة الإنفجار فى إتجاهات متعددة.

أسرعت بإخفاء البندقية وإلتقطت الظرف الفارغ ومن خلف المرتفع الصخري هربت برفقة شهاب لأحد الممرات الجبلية القريبة ؛ لقد أصبح النهار كاشفاً لكل شيء ، لم تمضِ نصف ساعة منذ مقتل الجندي إلا وسمعت صوت طائرة مروحية تفتش المكان ، ظللت مختبئاً بينما الطائرة تقوم بالبحث عن مرتكب الحادث ، لم يعثروا على المطلوب لكن الطائرة أطلقت عدة صواريخ فى إتجاهات متعددة ومنها المنطقة التى كنت أستخدمها للضرب على الهدف السابق ؛ بعد حوالي نصف ساعة هبطت طائرة هليكوبتر بجوار الدبابة وحملت المتوفى وعادت به للخلف.

ظللت مختبئا وبعد ساعتين أقبلت عدة سيارات مدرعة وقامت بالبحث والتفتيش بالمنطقة عن المتسبب فى هذا الحادث ، مازالت مختبئا وشعرت بأن الدائرة تضيق عليّ حيث شاهدت الجنود يسيرون على الأقدام يتفحصون الرمال مشيرين إلى الإتجاه الذي كنت أختبئ به مقتفين أثر حوافر شهاب ، أشعرني هذا بحالة من الخوف ؛ سوف يلقون القبض عليّ ، إقتربت من أذن شهاب طالبا منه العدو بأقصى سرعة والعودة بالمساء ، أعيد عليه ، عليك بالعودة للمكان الأول وأشرت إلي الشمس إذا إختفت فعليك بالعودة ثانية.

رفعت من فوق ظهره السرج وضربته بيدي على مؤخرته فخرج مسرعاً يعدو فى المنطقة المحصورة بين الجبلين والتى ينتشر بها الجنود اليهود الذين شاهدوا الحصان يعدو وحيداً وحينئذ توقفوا عن المطاردة وشاهدتهم بتلسكوب البندقية يتضاحكون من مطاردتهم لهذا الفرس الذي يعدو منفردا.

تحركت القوات وغادرت المكان ولم يتبق أحد ، ظللت كامنا بمكاني والوقت يمر عليّ بطيئا مملاً حتى إختفت الشمس من كبد السماء ولم يعد شهاب وتأكد لي أنه هرب وعاد للسيدة العجوز ، ضرب الجوع والبرد بجسدي فإزدادت حالتي سوءا ولم يتبق معي من ماء سوي جرعة واحدة وتساءلت كيف سأظل طوال الليل فى هذا المكان بتلك الحالة اليائسة ، قمت على نظافة البندقية وأخفيتها مع كمية الذخيرة المتبقية ، قررت الإحتفاظ بالظرف الفارغ بجوار جثة موشيه كما حدث مع ظرف الرصاصة الأولي ، لقد تأكد لي أن هذا المكان لن يعبث به أحد.

شعرت بهبوط مفاجئ ورغبة بالنوم ، سكنت وتدثرت فى العباءة والشال ورحت فى سبات لم أستيقظ منه إلا على صوت حافر الفرس ، فتحت عيناي فشاهدته يقف أمامي ينظر إليّ ، كنت فى ضيق من تأخره لكنه فى النهاية حضر ، نهضت متثاقلاً ووضعت السرج على ظهره وركبت صهوته عائداً إلى مستودع الأغذية.

وصلت قبل منتصف الليل فشاهدت من على بعد سيارة تخرج من البوابة الحديدية وهذا معناه أن المجرم جاستون كان موجوداً ويغادر المكان الآن وإذا شاهدني ومعي الفرس فسوف يتأكد له بأنني من قام بهذا العمل ، بسرعة توقفت بالفرس وهبطت من على ظهره وجذبت اللجام لأسفل فبرك الحصان أرضا وظللت ضاغطاً عليه حتي تخطت السيارة المنطقة التى كنت مختبئا بها رغم أنها تبعد بحوالي خمسمائة متر عن الطريق الذى يسلكه جاستون ؛ وكان من الممكن أن يشاهد الفرس.

بعد أن تأكدت من إبتعاد السيارة نهضت وأكملت طريق العودة مع شهاب ، وصلت للبوابة الحديدية فشاهدت الباب مغلقا ، ضربت علـــى الباب

دون جدوى ؛ حيث كانت الرياح شديدة بالخارج ولم تسمعني رحيل ، أعدت ضربات يدى دون جدوى ، صهل الفرس دون جدوى ، تساءلت ماذا أفعل؟ خلال الظلام شاهدت أمشير قادماً فى إتجاه البوابة وإرتفع صوته وظهرت القلة من بين أسنانه ثم أسرع فى إتجاه خيمة رحيل فشاهدتها قادمة مضطربة وبيدها البندقية ، حين شاهدتني ظهرت الفرحة على وجهها وقامت بفتح الباب وإستقبلتني أحسن إستقبال ؛ حيث كانت سعيدة بعودتي وعطرتني بكلمات طيبة وقبلات على الوجه تعبيراً عن فرحتها.

أسرعت رحيل تعد الطعام بينما أسرعت إلى الإسطبل كي أريح شهاب مما تحمله نهار أمس ومساء اليوم ، رفعت من على ظهره السرج ودعكت ظهره بفرشاة عبارة عن جزء من " مقشة" فشعر بالسعادة وصهل كأنه فى حفل راقص ، عب من الماء ووضعت الشعير أمامه ، ثم توجهت لأمشير أرتب على فخذه ورقبته فأسعده هذا ورفع رأسه لأعلى كأنه يدعو الله أن يسترها معي ، ألقيت التحية على السيدة ناقة عن بُعد دون قبلات حتى لا يغضب منى أمشير مثل المرة السابقة.

عُدت بعد أن إغتسلت من مياه العين الباردة ، كما شربت منها حتى إرتويت ؛ بعدها توجهت للمخزن وإستبدلت ملابسي وعدت بالعباءة كي تقيني برودة الليل القاتلة ، شاهدت رحيل جالسة وقد أعدت الطعام ، ظهرت الفرحة على وجهها وأشارت إلى الطعام وأخبرتني بأنها لم تتذوق الطعام منذ الصباح ؛ حيث كانت فى توتر بسبب غيابي الغير مبرر ، تساءلت عما حدث؟ أخبرتها بأنني كنت متوجها لأصدقائي لزيارتهم ومن شدة التعب نمت أثناء تحرك الحصان ولم أدر سوي أنني سقطت من فوق ظهره وظل الفرس يعدو وظللت بالمكان أنتظر مشاهدة أي أعرابي كي يقلني تلك المسـافة التى

تعدت الخمسين كيلومترا ، وأخيرا عاد شهاب وحملني وعدت والحمد لله.

صباح اليوم التالي نهضت وقمت بكل ما إعتدت القيام به يوميا من الإغتسال والإطمئنان على أمشير والناقة وشهاب والكلب ثم توجهت ناحية خيمة رحيل فشاهدتها تقف بجوار عمود الخيمة بأحد الأجناب إتقاء البرودة ، تبادلنا الإبتسامات وأعقبها التحية المتبادلة بكلمات طيبة ، صافحتني وأمسكت بيدي متجهين للخيمة وبادرتني:

ــ إيدك ساقعة قوى ، باين عليك بردت بالليل؟

ــ أبدا لكن الوضوء والإغتسال من ماء البئر مباشرة هو الذي أثر فيّ، عادت من المطبخ تحمل "تورمس" وأفرغت ما به بكوبيتين كبيرتين حيث كان به شاي مضاف إليه اللبن وبجواره بعض فطائر صغيرة تجيد صنعها ، تحدثت معي فى أمور شتي ثم إقتربت مني قائلة:

ــ إمبارح إنفتح النجس "جاستون" في حديثه وأفشي لي بعض أسرار خطة الخدمة للدوريات بالمنطقة التى نحن بها وهي تشمل المحور الأوسط وبداخل الخطة شرح تفصيلي لأماكن الدوريات وتسليحها ، أيضا تحركات جاستون نفسه والأماكن التى يتمركز بها بمفرده ، صابر ... الخطة سرية ومكتوبة بالعبري وشرحها لي فى لحظة ضعف الرجل أمام المرأة حين يشتد به الشوق نحوها وتتمنع عليه فيعمل على إغوائها بالمزيد من الهبات والهدايا وكانت تلك هديتي ، لقد وضعت أول الحبل حول عنق هذا النجس.

كنت فى حالة من الصمت المطبق ، سواء للدهشة مما تقول أو لتلك المرأة التى إستطاعت خداع القائد الإسرائيلي ، إقتربت مني بعد أن وضعت كوب الشاي بجوارها تتصاعد منه الأبخرة متحدثة بصوت خافت:

ــ صابر ... مســـــاء الجمعة القادم ســـوف يحضر "جاستون" ومعه بعض

زملائه ونقضي سهرة رائعة يتخللها الطعام والرقص المثير ، كنت أرغب بأن تشاهد براعتي فى الرقص والغناء ولكنى أعددتك لعمل هام ، إذا كنت مستعداً لتنفيذه فأخبرني.

ـــ مستعد يا رحيل لو كان هذا فى مقدرتي

ـــ صابر.. على فكرة أنا عرفت عنك كل حاجة ، أنت قتلت إتنين من جيش الدفاع الإسرائيلي ، جاستون عرفنى أن فيه واحد مخرب يستخدم حصان قام بقتل ضابط صغير وشاويش بالجيش الإسرائيلي فى عمليتين منفصلتين ، وطلب منى لو أعلم من هو مستخدم الحصان لأخبره وله مكافأة من قيادة المنطقة العسكرية الجنوبية الإسرائيلية.

صمت قليلاً وشعرت أن حبل عشماوي يقترب من رقبتي ، تنهدت وإبتسمت لها معبراً عن سعادتها بالمكافأة التى سوف تحصل عليها ، نظرت إليّ قليلاً دون مبالاة ثم إستطردت فى حديثها : مقابل إخفاء سرك وحمايتك بعد هذا عليك قتل "جاستون" المجرم مساء الجمعة القادم ؛ حيث سيترك باقي زملائه متجهاً إلى إحدي الوحدات القريبة من جبل "لبني" حيث موعده هناك الساعة الثانية عشر مساء ولذا فسوف يغادر المكان الساعة العاشرة ، عليك إنتظاره بالمنطقة الصخرية التى إعتاد السير بجوارها قبل الجبل بمسافة عشرين كيلومترا حيث المكان ضيق وبه بعض الصخور ولهذا فهو يتحرك بسيارته الجيب ببطيء تجنبا لوعورة الطريق ، هناك تنتظره وتطلق عليه النار وتتركه لمصيره فإما يقوم أحد بنقل جثمانه أو تأكل الضواري لحمه.

شعرت بإختناق وخوف ورهبة ، لقد أصبحت قاتل محترف والمرأة راغبة بأن تدفعني لقتل من قتل زوجها رغم أنها تعطيه من المتعة واللذة الكثير ، تحاول قراءة أفكاري وأنا أنظـــر إليها فى بلاهة لهذا الموقف التي

ترغب بأن تضعني به ؛ بل أنه فوق طاقتي وإحتمالي ، تشير بيدها متسائلة: ما هو قرارك أو رأيك؟

ــ رحيل ، إننى أخشي الإسرائيليين وبالذات هذا الرجل ، بل إننى أخشاك وأعلم إنك سوف تتخلصين مني بتلك الطريقة المهلكة ، قفزت بجواري ووضعت يدها فوق شفاهي مرددة " ماتقولشى كده .. ماتقولشي كده، مافيش أخت بتعمل مع أخوها كده ، إفهم .. إفهمني وإعرف وحس باللي بيحرق جسمي وعقلي ، موشيه مدفون بالأرض والقاتل نايم فى حضني بامتعه ، شفت أكتر من كده فُجر وإجرام؟ ، ده كله فوق طاقتي من تمثيل الدور ده ، خلاص .. أعصابي إتحرقت ، ساعدني وإرحمني ، إعتبره واحد من خصومك وأعداءك اللى قتلتهم"

نهضت باكيه ، وما لرحيل من تأثير فى البكاء على شخص مثل حالي وتأثيرها الأنثوي على ضيوفها ، إقتربت منها ومسحت دموعها بفوطة صغيرة بجواري وهمست بأذنها ، أخوكى وحبيبك صابر ح ينفذ كل اللى قلتي عليه عشان خاطرك وخاطر حبيبي هارون ، أسرعت وإحتضنتني بقوة كأنها تودعني إلى عالم مجهول ثم وقفت أمامي مرددة "مش ح أنسي معروفك ده ، النهاردة إحنا مصريين ، من اليوم أنا وابني مصريين ، ده أول يوم نرجع فيه لبلدنا حبيبتنا مصر اللى كل جدودي نشأوا فيها ودفنوا فى أرضها.

سارت الأمور عادية سواء بالخروج بالتنزه قريبا مستخدما "أمشير" بدلاً من شهاب الذي قررت أن أخصصه للعمليات الليلية حتى لا يرتاب أحد بى، كنت أجلس وأفكر فيما أنا مقدم عليه ، هل هذا الإتفاق الذي تم بيني وبين رحيل فى صالحي قبل أن يكون فى صالحها؟ كنت أود الحصول على رأي

إدريس ولكن الوقت لم يكن فى صالحي ، نحن يوم الثلاثاء والعملية سوف تتم مساء الجمعة ، لقد أعدت رحيل الخطة وأقبلت منذ ساعتين ورسمت لي أين المكان؛ بل وطالبتني بزيارته والتأكد منه وإختيار الموقع الذي سوف أطلق منه النيران ، بالفعل فى اليوم التالي توجهت نهارا بصحبة أمشير وقطعنا المسافة فى ثلاث ساعات وشاهدت الموقع وبرك أمشير، ودست بقدمي على الأرض ونظرت من حولي لأعلم طريق قدوم "جاستون" وأين موقعي ونقطة وصول جاستون التى سوف أطلق منها النيران بحيث لا أكون فى مواجهة السيارة حتى لا يكشفني ضوئها ومن المحتمل أن يبادر جاستون بقتلي.

إستعدت نشاطي ووعي وحيويتي بأنني أبحث عن أهداف إسرائيلية وهذا هو الهدف الثمين الآن ، رائد بجيش الدفاع الإسرائيلي يتولى قسم الإستخبارات بوسط سيناء وعلمت ببعض ما قام به خلال الأشهر الماضية منذ الإحتلال ؛ سواء بتعذيب بعض المصريين أو قتل البعض الآخر أثناء مطاردته لهم ، لقد أطلقوا عليه اسم السهم الأسود من سرعته وشدة جبروته وعدم مشاهدته أثناء المهام المكلف بها ، بل وصل الأمر بأن أصبح جاستون كشخصية أسطورية بسيناء وأصبح اسمه يخيف الكثير من أبناء سيناء ، حيث كانت توكل إليه المهام الصعبة التى فشلت أقسام المخابرات للقيام بها ، إذا سوف أقتنص جاستون وقبل أن أقتنصه حبا فى إخوة رحيل سوف أقتنصه حبا فى بلدي حتى إذا قتلت أكون قد نلت الشهادة.

تأكد لرحيل بأنني مستعد وأسعدها هذا؛ حيث كانت تغدق علىّ بحبها وحديثها الطيب حتى وصل الحديث إلى نقطة يجب التوقف عندها فقد زادت كمية الكلمات الطيبة وما صاحبها من تعبيـــرات وإيماءات إلى نقطة أثارت

بعض نوازعي كشاب ولهذا نبهتها إلى هذا وإستجابت لرغبتي تلك ضاحكة بأن أخاها الأصغر قد كبر وأصبح يميل إلى النساء!!

مساء الخميس أسرعت ممتطيا شهاب إلى النقطة التى خبأت بها سلاحي، هناك إحتضنته بقوة وبحب لا مثيل لها ، كنت فى شغف إلى لقاءه ، كنت أشعر بالحماية والأمان وهو معي ، بل كنت أشعر بأنني رجل ميسور الحال بما أملكه من سلاح قادر على إصابة الأعداء وهذه إحدي نسائهم تطلب ودى وعوني بالقضاء على أحد أعدائها ، حملته عائداً إلى مستودع الأغذية وكنت هياب أثناء العودة بألا أفاجأ بدورية تستوقفني وتقوم على تفتيشي ولكن سرعان ما غادر هذا الإعتقاد مخيلتي ، لقد كانت الليلة تنبئ بصقيع ودرجة حرارة تصل إلى الصفر ، لقد أضاءت السماء وأصبحت النجوم تتلألأ بضوء أبيض لامع كأنها مرآة وهذا فى عرف أبناء الصحراء يتبعه سقوط البرد أو تتجمد قطرات الندي وتصبح جليداً ولهذا فسوف تعكف القوات على الإختباء طلبا للدفء.

وصلت والحمد لله إلى المستودع ، بعد قليل أقبلت رحيل تستوضح عما كنت أحمله ملفوفا بقطعة من القماش السميك ، أظهرت لها البندقية ، ظهرت الفرحة فى عينيها وكادت تصرخ حينما علمت أنها بندقية مزودة بتلسكوب فهى تعلم أن نسبة الإصابة بها تقترب من النسبة النهائية أي ١٠٠% ، قبلتني وهي تهز جسدي فرحة وطلبت إخفائها بعيدا عن زوار الغد ، لقد حدث كل شيء وأصبح مرتبا مع رحيل ، عكفت فى الخيمة ولم أظهر إلا مساء الغد للعمل على خدمة الضيوف.

أقبل الرجال وأعتقد أن عددهم وصل إلى أكثر من عشـــرة من الضباط وبعض الجنود السائقين وقد حملوا معهم أطعمة فاخرة ومشـــروبات وجهاز

كاسيت تصدر منه الأغاني وأنغام راقصة رائعة ، أضيئت الخيمة بإضاءة إضافية أحضرها الضيوف وقام أحد الجنود بتوزيع الأطعمة والمشروبات ولم يسمحوا لي بالدخول أو تناول الطعام وكل ما أوكل إلى حماية السيارات وقد أدهشني هذا وما حمايتي لتلك السيارات وهل ستسرق.

شاهدت رحيل مقبلة من أحد أجناب الخيمة وأشارت إلى ساعة بمعصم يدها وأخبرتني بأن الساعة الآن التاسعة وعليّ البدء الآن بالتوجه للمكان إنتظارا للملعون "جاستون" على حد قولها كما طلبت مني أن أقوم بسحب حبل الحصان بهدوء وأضع اللجام حول فمه حتى لا يصهل وينكشف الأمر.

نفذت تعليمات رحيل وخرجت بالحصان بهدوء بعد أن ناولته بعض قطع من السكر أسعدته ونظر إليّ نظرة طيبة بما يعني أنه سوف يجعل تلك الليلة بطعم السكر ، كنت أحمل معي البندقية والذخيرة والعباءة والشال نظراً لظروف البرد القارص ، أيضا قطعة من قماش بلاستيك لحمايتي أنا وشهاب من سقوط مياه الأمطار الباردة والتى قد تؤثر على حالتنا الصحية ، بعد مغادرة المستودع أغلقت الباب الخارجي بهدوء وسرت مسافة بجوار شهاب حتى إذا إبتعدت مسافة أمان ركبت شهاب وطار بى كالريح ، وصلت إلى الموقع المختار وساعدت شهاب على الإختباء نظراً لأن الخيول لا تستريح ولا تبرك مثل الجمال بل تقضي الجزء الأكبر من حياتها وقوفا.

جلست مجاورا لشهاب وقمت بإستخدام المشمع لتغطية كل منا معا فتسلل الدفء نسبيا إلى جسد كل منا، كما قمت بتمويه شكل شهاب من حصان إلى لون قطع من الصخور المجاورة لنا ، بعد أن تسلل الدفء إلى جسدي ورحت فى سبات ، لم أنهض إلا بعد سماعي لصوت موتور السيارة وملاحظة ضوئها الذي سطع بالمكان ، خرجت من أسفل الغطاء

لأجد أن السيارة قد تعدت المكان وبالتالي فشلت خطة الإيقاع "بجاستون" لكن المفاجأة أن جاستون حينما مر بجوار شهاب تشكك فى هذا الشكل ولهذا أوقف سيارته وهبط منها عائداً للخلف كي يتأكد مما شاهده وإعتقد وقتها أن هذا هدف أو شيء يبحث عنه ، كان هذا دأب جاستون ، الشجاعة وعدم خشية الآخرين ، لقد زادت ثقته في نفسه ، كنت خلالها قد عمرت البندقية ورقدت أسفل شهاب الواقف ومن أسفل المشمع صوبت فى إتجاه جاستون الذي تنبه فأسرع وأخرج سلاحه صائحاً بطلب النجدة وقبل أن ينهي كلمته كانت الرصاصة قد إخترقت رأسه فسقط أرضا دون حركة ، ظللت فى مكمني وانا أعلم أنه شيطان ماكر ، بعد أن تأكد لي أنه فارق الحياة ، نهضت وسرت فى إتجاهه ووضعت البندقية فى وضع الضرب وألقيت عليه نظرة ثم وضعت إصبعي علي عينه فلم يتألم ، تركته مغادراً المكان حتى وصلت إلى المستودع وكما خرجت متبعاً أسلوباً معيناً عدت بنفس الطريقة ودخل شهاب الحظيرة بعد أن أهديت له بعض قطع من السكر فشرب وبدأ فى تناول طعامه وأعتقد بعد أن تركته قد أفاض فى الحديث مع أمشير والسيدة ناقة بما حدث ثم توجهت لمستودع الأغذية وأضأت نور الفانوس فإذا شاهدته رحيل فسوف تعلم بعودتي.

تسللت قريباً من خيمة رحيل وسمعت الموسيقي الصاخبة وشاهدتها ترقص رقصا يثير الأشجان والمشاعر والأحاسيس ، شاهدتها تخرج رأسها من الخيمة وتنظر فى إتجاه المخزن حتى إذا شاهدت الضوء بداخل المخزن علمت بأنني قد عدت وكان هذا إتفاق بيني وبينها مما أدخل السعادة إلى قلبها فعادت ترقص بنشـــاط وســـعادة وتتمايل طرباً ودلالاً وأنوثة ناحية ضيوفها الذين شـــعروا بســـعادة غامرة لتلك الفاتنة وما تهديه لـــهم من مـــتع داخل

الصحراء بأرض محتلة لدولة مجاورة.

إنتهت الحفلة وبدأ الضيوف فى الإنصراف حيث كنت أقف على الباب الخارجي فى وداع كل ضيف خارج والبعض يشير إلىّ بالتحية والبعض يتجاهلني حتى إذا غادر آخر ضيف المكان أغلقت الباب الخارجي وأمسكت رحيل بيدي وأسرعت للداخل تنظر بعيونها الساحرة بداخل عيوني متسائلة: حصل؟ أشرت إليها بتحريك رأسي فصفقت وقفزت لأعلى وأسفل ودارت حول نفسها عدة دورات وأقبلت ناحيتي تقبلني وتحتضنني مرددة ، مش ح أنسي اللي قمت بيه من أجلي ومن أجل هارون ، دلوقتي أنا إرتحت وكل اللى أنت عايزه أنا أنفذه لك بالتمام والكمال ، شكراً حبيبي ، ربنا يخليك ، ربنا يخليك ، جلست أرضا تبكي وأنا فى دهشة أتساءل: ماذا يبكيكِ؟ تجيب: أبكي الزوج الطيب أبو ابني الذى قتل غدراً ، اليوم أعيد أحزاني التى منعتها حتى أقتص ممن قام بها ، منذ اليوم سوف تشاهد رحيل أخري ، رحيل الملتزمة المتمسكة بالدين ، رحيل الأم والأرملة التي أخذت بثأر زوجها موشيه ، تصرخ: موشيه .. موشيه .. إسترح فى قبرك ، لقد نلت من الجبان الذي قتلك غدراً ولا تحزن بأني دفعت جزءا من شرفي وكبريائي حتى أقتص منه.

غادرت خيمة رحيل وأنا أشعر بأن السيدة فى حالة غريبة ، رغم أن السعادة الطاغية هي حالها إلا أنها كانت تدقق النظر فيَّ مما أخافني وإعتقدت أنها إستخدمتني لتنفيذ مهمة ما وسوف تتخلي عني ؛ حيث كُنت فى دهشة من حالة الثأر التي تقمصتها لكنني تذكرت بأن القرآن الكريم أباح للمسلمين القصاص فى مثل تلك الأحوال.

مساء اليوم التالي كان القرار بالتخلص من شـــهاب خشية القبض علينا

وقد أيدت رحيل هذا الإقتراح ؛ ولتنفيذ هذا القرار نهضت مبكراً وحملت معي جوال صغير من السكر وصندوق من الشاي يزن إثنان كيلوجرام وإمتطيت صهوة شهاب وأسرعت متجها إلى مقر فصيلة الحدود ، كنت خلال هذا أنهب الطريق مع الحيطة والحذر والخشية من مفاجأة دورية إسرائيلية.

الحمد لله ؛ وصلت إلى رجال الفصيلة الأعزاء الذين أسعدهم حضوري رغم أن نصف قوة الفصيلة كانت فى مهمة مع الرجال الثلاثة من شركة البترول ولم يتولي أي أحد من زملائي بشرح طبيعة المهمة وأنا أيضا لم أتساءل عما تكون تلك المهمة ؛ ليلاً عاد الرجال وفوجئ الجميع بحضوري وبعد تناول الطعام أخبرتهم بالغرض الذي حضرت من أجله والعملية التى قمت بها بقتل الميجور "جاستون" ، دهش الرجال فهم يسمعون الكثير عن إجرام وقسوة هذا الرجل ، نهض البعض يقبلني بسعادة بالغة بينما إشرأبت وظهرت البسمة على وجه الشاويش إدريس وعلق ضاحكاً "الولد صابرا كبر وبجي أجدع من الرجالة".

اليوم التالي زودوني بأحد الجمال السريعة الهادئة لينة الحركة ويدعي "البركة" أسرعت به عائداً وبعد أن قطعت مسافة لا بأس بها إعترضت طريقي دورية إسرائيلية وقامت بإستجوابي ومن بين تلك الأسئلة من أين أتيت وإلى أين تتجه؟ وحينما علم الجنود أنني الخادم والمساعد للسيدة رحيل بمستودع المساعدات الغذائية أفرجوا عنى وعلمت أنهم يبحثون عن العصابة الإجرامية التى قتلت "جاستون".

وصـــلت اليوم التالي إلى المستودع وإلتقيت رحيل التى أخبرتني بأنها شـــعرت بالراحة لمغادرتي المكـــان بصحبة شهاب وإقتربت منى وهمست

بأذني: صابر ؛ بعد أن غادرت المكان بساعتين أقبلت عدة سيارات عسكرية وجلس معي بعض الضباط وأخبروني بمقتل "جاستون" وأن من قتله تركه بالعراء حيث هاجمته الحيوانات الليلية المفترسة وشوهت جثته وبالتالي قلن يقابل الله لأنه أصبح مشوهاً.

كنت أشعر بسعادة طاغية وأنا أستمع لما حدث لهذا المجرم جاستون ، لقد شرب من نفس الكأس الذي أذاقه لزوجي الحبيب "موشيه" ، كنت أتذكرك وأفكر فيك وقررت حين حضورك أن أقيم حفلة خاصة بك وأن أقدم لك أي هدية ترغب بها ، لقد أخبرني الرجال بأنهم يبحثون عن مجرم يمتطي فرسا هو الذي قام بهذا العمل ولهذا فإن القيادة أمرت بتوزيع الدوريات والبحث عن صاحب الفرس ولقد شاهدنا آثار أقدام فرس قريبة من هذا المستودع ولهذا فنحن نسألك هل شاهدت هذا المجرم؟ وعندما نفيت هذا أكد لي الرجال بأن هذا المجرم أراد قتلك مثلما قتل جاستون وهو يعلم مقدار معزته لديك ومدي الصداقة التى قامت بينكما ، البعض رأف بحالي حينما لاحظ دموع الحزن تنساب من عيوني ولكن تلك الدموع كانت دموعي على الراحل موشيه والذى قررت ألا أنعيه إلا بعد الأخذ بثأره من قاتله المجرم.

صابر ؛ إحترس وعليك القيام بنظافة السرداب الذي كان يقيم به شهاب مع الجمل والناقة حتى لا يشاهد أي أحد من الجنود أثر فضلات شهاب وبالتالي نتعرض لمشاكل نحن نرغب بأن نكون بعيداً عنها ؛ شعرت بحسن رأي رحيل ولهذا أسرعت بسحب الجمل "البركة" إلى الداخل وقمت بعدها بجمع فضلات شهاب ، خارج المستودع أعددت حفرة عميقة ودفنت بها كل فضلات شهاب ثم أهلت عليها الرمـــال وعدت ثانية فإستقبلتني رحـــيل بكل حب وتقدير وأخذتني بين ذراعـــيها وهي تربت على ظـــهري وكتفي مقبلة

رأسي وتردد .. ألف شكر يا صابر .. يا أحسن أخ وأحسن صديق عرفته ؛ توقفت وأبعدت رأسها عن صدري ونظرت إليّ بكلتا عينيها وتساءلت: ماذا تطلب من حبيبتك وأختك رحيل؟ إبتسمت لها وبكلمات قليلة أجبتها: الأخ لا يحصل على عائد من شقيقته نظير سعادتها وسعادة ابنها ، هذا يكفيني ويسعدني أن تنامي مرتاحة البال وفى المستقبل حين يكبر هارون تخبريه بأنكِ أخذت بثأر والده من قاتله.

صمتت قليلا ثم إندفعت فى البكاء واحتضنتني وهي تردد ، يا ريت ما إخترتك أخ وكنت إخترتك حبيب لكن معدش ينفع ، بقينا إخوات ومش معقول الإخوات ينقلبوا إلى عشاق ، ضحكت من تعبيرها وأخبرتها بأن الإخوة ليس عليها إلزام، لكن الأحباء هناك إلتزام على كل منهما، وبالتالي فمن المحتمل أن يحدث تقصير من أحدهم أو من كليهما وتحدث مشاكل ، لكن الأخت تظل حبيبة الأخ وبالتالي فالإخوة أضمن وأطول عمراً.

سرت معها إلى الداخل فشاهدت هارون نائما فإنحنيت عليه وقبلته وكادت الدموع تخونني لفقده والده مبكرا وشعرت أنه ابنا لشقيقتي.

رجال داخل الحصار

بعد أن غادر صابر موقع الفصيلة سمعت صوت إدريس ينادي عليّ: رباح ؛ أسرعت إليه فشاهدته جالسا محملقاً بنظارة الميدان التى وصلت إلينا قبيل إندلاع الحرب ، بصوت واضح مرتفع قال:

ــ رباح ؛ إجمع كل الرجالة اللي خالبين من الخدمة وكمان ضيوفنا بتوع البترول ، أسرعت لتنفيذ تعليمات إدريس ، لم تمض عشرة دقائق إلا وكان الرجال قد أقبلوا وجلسوا مواجهين لإدريس الذي طلب من زميلنا جعفر إعداد بكرت "براد" الشاي.

إيه يا رجالة ، بجالنا خمس تشهر بعيد عن أهالينا من يوم ما جامت الحرب لا حس ولا خبر ، لا هم عرفوا حاجه عنا ولا إحنا نعرف أيتها حاجه عنهم وكمان مانعرفش الحكومة بتسلمهم الراتب الشهري ولا لأ؟ بعد هذا صمت إدريس قليلاً ، تحدث العريف أبو بكر:

ــ إدريسا : إعتبرنا فى عداد الأموات أو الشهداء اللى بنسمع عنهم فى الراديو ، يعنى دول ح يجوموا يستفسروا عن أحوال ناسهم ، إتركها لله .. الجميع: الحمد لله

ــ كلامك زين يا أبو بكر ، دلوجتى يا رجاله عايزين نفكر نعمل حاجه تنفع البلد وتضر العدو ومش تحطنا فى موجف صعب زى اللى وجع فيه الجندي صابرا وإلا بلاش الجندي ما هو مش تبع الجيش ، الولد صابرا جام وعمل عملية واعره ومهمة وفيها جتل المجرم "جاستون" بتاع المخابرات الإسرائيلي وزى ما إنتوا شاعرين العدو عمال يدور على اللى جتله والولد صـــابرا عمل زين إنه جاب الفرس حدانا لحد من العدو يعرفه ويخلصـــوا

عليه، فكروا شويه فى حاجه نعملها عشان ننتجم من المجرمين الإسرائيليين.

ــ أبو بكر: عرفنا الولد صابرا إن الطحين حدانا جرب يشطب ، والله الولد ده جدع وجايم على مصلحتنا وبيحارب لوحده ، ربنا إمعاه ، وعشان كده خبرنا بأنه ح يسيب تموين الشهرين بالمنطجة اللى اليهود حبسونا فيها عند جبل الحلال من كام شهر والكلام ده ح يكون فى نص الشهر العربي عشان الجمر وهو خايف يجيب الحاجه لوحده تجوم الديابة ولا الضباع تجابله وتخلص عليه وعلى الجمال لكن إحنا عزوه وعندنا خبره فى الموضوعات اللى زى كده.

ــ إدريس: ربنا يوفجه ، عرفته ح يجيب جد إيه؟

ــ أبو بكر: هوه جال إنه ح يبعت شوالين طحين كبار وشيكارتين سكر وصندوجين شاي وصندوج بن وعبوتين سمن وتلات عبوات زيت وعبوتين لبن جاف.

ــ المهندس عزيز ميخائيل: سبق إنى كلمتك قبل كده يا شاويش إدريس بأن البريمة الموجودة بموقع البترول لو طلعناها من الحفرة وردمنا المكان ح تكون العملية دية مؤثرة لو الإسرائيليين حبوا يشغلوا البريمة عشان يطلعوا البترول ، طبعا فيه بير إسترشادي جنب البريمة لكن بتروله ضعيف وغير إقتصادي وطبعا مش ح يقربوا منه لأنه مش ينفع.

ــ إدريس: طيب البير الإسترشادي اللى بتجول عليه فيه بترول ، يعنى ممكن نجيب منه جاز ولا سولار؟

ــ عزيز: ده فيه بترول خام ، يعنى لا ينفع جاز ولا بنزين ولا سولار لكنه ممكن يشتعل ولونه أسمر وتقيل لأن عليه القطران لسه ومش تكرر.

ـ إدريس: إيه خطتك اللى أنت جلت عليها من كام يوم؟

ـ عزيز: نرفع البريمه من موقع البير ونردمه بالرمل وناخد البريمة ونرميها بالبحر والمسافة قريبة حوالي مائة متر ، وممكن الجمال تساعدنا بقوتها سواء لرفع البريمة أو لسحبها ورميها بالبحر ، كمان فيه معدات مهمة بالموقع وربنا يعمي اليهود عنها، وعايز نجيب أكبر كمية من المعدات عشان كده فكرت لو تبعت كام واحد معايا ونروح هناك ونستكشف المنطقة ونشوف أحوالها إيه.

ـ إدريس: موافج ، الطيب وجعفر وآدم ح يروحوا معاك وطبعا رجالتك معاك؟

ـ عزيز: أيوه ، بس ح نروح قبل الغروب عشان محدش يشوفنا

ـ إدريس: كلامك زين وطيب ، أنا موافج والرجاله اللى سمعوا اساميهم ح ينضموا للباش مهندس عزيز وتاخدوا جمال جويه ومرتاحه وسلاحكم معاكم، خلاص كل واحد يروح يرتب نفسه.

***

بعزبة رضوان باشا بأنشاص أصبحت أسرة صابر تجتر أحزانها على هذا الشاب الذي فقد حياته دون معرفة مثواه الأخير كما لم تمنح الحكومة المصرية أسرته أي تعويض أو معاش وأصبحت الأسرة مكبلة بالعمل وبدأ البعض يتناسى تلك الأسرة وعكفت البنات مع أمهم على العمل بداخل العزبة خاصة بعض مرض زوجة الباشا التى كانت رحيمة بتلك الأسرة ؛ فلم تستطع أثناء مرضها متابعة أحوالهم كما قامت زوجة ابنها الأكبر بإختيار أحدى شقيقات صابر للعمل كخادمة لديها وتلي هذا إختيار الشقيقة التالية وأرسلت بها كخادمة لدي شقيقتها بالقاهرة ولم يتبقي سوى الصـــغيرة وأمها

التى حزنت على فقد ابنتيها ولم تعد تشاهدهما أو تسمع أي أخبار عنهما ولم تعد قادرة على بث شكواها للسيدة الكبيرة التى لازمت الفراش حتى قابلت ربها فى بداية عام ١٩٦٨ ثم تبعها رضوان باشا فمرض هو الآخر وسكن الفيلا يحيا تحت إشراف الطبيب بينما إنشغل علاء ابنه فى الإشراف على مكتب المحاماة الذي يمتلكه رضوان باشا الذي أقعده المرض عن متابعة نشاطه.

حاولت ريهام أثناء زيارة العزبة تقديم يد العون للأسرة ولكن مجهودها كان قليلاً فى مواجهة شراسة زوجة شقيق علاء الأكبر ، والمساعدة التى قدمتها لا تخرج عن الكلمات الطيبة والمواساة ، غادرت منزل أسرة صابر حزينة لما آل إليه حالها ؛ فقد بات واضحا الحزن والفاقة التى تحيا بها الأسرة بعد فقد عائلها صابر ؛ أما عن عم صديق فقد أصبح فى حالة من الإنزواء لفظاظة عصام بك ابن الباشا الأكبر فى تعامله معه ومع باقي العاملين بالعزبة وطغي على الجميع حالة من الضيق والحزن والبعض هاجر العمل بحثا عن عمل آخر بعيداً عن عزبة رضوان باشا من سوء المعاملة.

***

ظل الإسرائيليون طوال شهر ديسمبر من عام ١٩٦٧ يبحثون عن من قتل جاستون وألقوا القبض على العديد من أبناء سيناء كمشتبه بهم ثم أفرجوا عنهم بعد عدة أيام ، أثناء متابعتي لحالة الجمال أقبل إثنان من مكتب المخابرات العسكرية الإسرائيلية لسؤال رحيل عن الشخص التى تتشك فيه وقد يكون أقدم على هذا العمل ؛ وأثناء الحديث شاهدت أحدهما يشير ناحيتي، أهملت تلك النظرات وظللت مشغولاً بإطـــعام الجمال وتســـاءل

أحدهما: من المحتمل أن يكون هذا البدوي قد قدم يد المساعدة لأحد المخربين.

نفت رحيل ذلك مؤكدة بأن هذا الشاب يحترم جاستون لما كان يقدمه له من منحه ببعض العملات النقدية كمساعدة له نظرا لأنه فقير مما دفع بالإثنين للضحك لما يعلمانه من بخل جاستون ، فى اليوم التالي أقبل ثلاثة رجال آخرون وتحدثوا مع رحيل ثم أقبلوا ناحيتي وطلبوا منى إصطحابهما إلى ملجأ "زريبة" الجمال ؛ هناك تفحصوا روث الجمال وأعتقد بأن طبيبا بيطريا كان بصحبتهم ، بعدها أشار إلى الآخرين بأنه لا يوجد شئ غير عادي.

هكذا إبتعد عنا الإسرائيليون ولكن رحيل التى تعلم طباعهم وعاداتهم حذرتني بأنه من الجائز أن يعودوا لمفاجأتنا بالتفتيش ومن أجل هذا يجب أن يظل شهاب بعيداً تلك الفترة لمدة لا تقل عن ستة أشهر ، أحزنني هذا الحديث ؛ حيث كنت فى شوق إلى شهاب ؛ لقد فهم وإستوعب الكثير مما أقوله رغم أننى كنت أجزل له العطاء بقطع من السكر والتى كانت تسعده.

بداية العام الجديد ١٩٦٨ ، كنت جالساً أمام الباب الخارجي للمستودع كي أكتسب بعضاً من أشعة الشمس التى أدخلت الدفء إلى جسدي الهزيل حيث أن مخزن الدقيق تشع البرودة من داخله لعدم دقة إحكامه حيث أن التصميم يسمح بفتحات تهوية تغطيها أسلاك دقيقة مانعة لتسلل الفئران أو الثعابين والسحالي ، شعرت بتخدير فى أوصالي وخبأت رأسي بداخل العباءة ورحت فى سبات ، تنبهت على صوت أنثوي يحادثني:

ــ صباحك خير ؛ أريد أخذ حصة تموين هذا الشهر

ــ أهلا وسهلا ، معاكي بطاجة الصرف

ـ أيوه إمعاي بطاجتين ، واحدة لنا والتانية تبع أمي رشيدة "الخالة" لأنها بعافيه وعدمانه "مريضة".

برك الجمل بالفتاة ، الفتاة لم تتعدي الثامنة عشرة ، يميزها جمال طبيعي أخاذ وبالأخص خدودها الحمراء من شدة البرد ، طلبت منها الجلوس بأحد ثنايا المدخل القريبة من الباب الحديدي تجنبا لشدة الرياح الباردة ، إقتربت منى وجلست ولاحظت أنها تخرج زفيرا من فمها بداخل كفيها المتشابكتين كي تشعر بالدفء.

أسرعت للداخل وأعددت كوباين من الشاي وخرجت وجلست قريبا منها وناولتها كوبا أمسكت به بكلتا يديها راغبة بالدفء ونظرت إليّ نظرة هادئة وشكرتني بكلمات رقيقة ، بعد أن شاهدت البطاقتين أخبرتها بأن تموين كل أسرة يحتاج إلى جمل ، جمل واحد لا يكفي ، أجابت بأن والدها ألقي القبض عليه منذ عشرة أيام من قبل سلطات الإحتلال ؛ كما أن خالتها لديها أطفال صغار وأكبرهم فى العاشرة من العمر ولهذا وقع عليّ الإختيار ؛ تحدثتي:

ـ ربنا يخليك ، تصرف مستحقاتنا حتى أستطيع الوصول إلى الدار قبيل نزول ظلام الليل وما يفاجئنا من حيوانات وضواري وقطاع طرق.

أخبرتها بأن كل أسرة سوف تصرف جوالين دقيق بالإضافة إلى شكارتين من السكر وصندوقين للشاي وآخر بن وأربعة علب مسلي وأربعة زجاجات زيت طعام وثلاث عبوات لبن جاف وعبوتين خام كاكاو وهذه حمولة جمل وبعد تلك الحمولة لا يستطيع أحد إعتلاء ظهره لأنها حمولة كبيرة ؛ لو أضفنا مستحقات الأسرة التالية بنفس الكميات فأين نضع تلك الحصص التى سوف تقومين بصرفها.

هدأت وصمتت وأنا أيضا لم أتحدث محاولاً التفكير ولم يستطع تفكير كل

منا أن يصل إلى حل معقول لعلاج تلك الحالة الإنسانية ، فجأة سمعت أصوات تهف قريبا وشاهدت السيدة العجوز مقبلة فوق الجمل ؛ وقفت أمامي ونظرت إليّ صامتة لفترة حتى أن الفتاة صاحبة المشكلة توقفت عن تناول الشاي راغبة فى معرفة ما ترغبه تلك العجوز التى تكلمت بكلمات قليلة واضحة معبرة مؤثرة.

ــ الحظ جه لحد عندك ، جوم وساعدها يا صابر ، وخلى شهاب فى مكانه مع أصحابك لأن اليهود لو شافوه ح يجتلوه ويجتلوك ، فاهم ، ساعد تراجي،

إنتفضت الفتاة وتساءلت:

ــ إنتي تعرفي اسمي؟

ــ تراجي أبو إسماعيل ، عرفاكي لكن إنتى ماتعرفينيش ، لسه جاعد يا صابر؟ ، إدخل إصرف كل حاجه لها ومعاك جملين جوه وروح معاها وتعالي بكره بعد ما تكون جدمت خدمة للعيلتين الغلابا.

تركتنا السيدة وأسرعت بالجمل تسابق الريح وإرتسمت الدهشة على وجه الفتاة وأنا أيضا ، أسرعت بالدخول إلى داخل المستودع وقمت بصرف مستحقات كل أسرة ، مستحقات أسرة الفتاة وضعتها فوق ظهر الجمل "أمشير" أما مستحقات خالة الفتاة فوضعتها فوق الجمل "البركة" ، شاهدتني الفتاة أغادر البوابة الحديدية بالجملين محملين بالحصص التموينية ، شاهدت فرحة وسعادة لم أشاهد مثلها من قبل ، أحضرت الدفتر ووقعت أمام أرقام البطاقتين كما أشرت بداخل البطاقة بأن الأسرتين صرفتا حصة الشهرين المتبع تنفيذها.

أسرعت للداخل وحفظت الدفتر وأخبرت رحيل بأنني متوجه لخدمة إنسانية مع فتاة وحيدة بالجملين أمشير والبركة وسوف أعود قبيل الغروب أو

بالغد صباحا ، طلبت منى غلق البوابة الخارجية ، أسرعت بمغادرة المستودع وأغلقت بابه الحديدي الخارجي وطلبت من الفتاة أن تركب جملها التى حضرت به ، فى البداية تمنعت ولكني طلبت منها ركوبه حتى نغادر المكان ونصل لأسرتها فى الموعد ، كنت أسير على قدمي خلف الجمال المحملة بينما الفتاة تمتطي ظهر الجمل حيث كنت ألاحظ السعادة والفرحة على وجهها ، حينما سألتها عن المسافة أخبرتني بأنها تتعدي العشرين كيلومتر ولهذا واصلنا السير فوصلنا المنطقة التى تقيم بها أسرتها بعد صلاة العصر كما عرفت هذا من أفراد القبيلة.

كان إستقبال أســـرة الفتاة طيباً للغاية ؛ أسرعت الفتاة بالترحيب بى والثناء على ما قمت به وتجشمي عناء السير تلك المسافة مع هبوب العواصف الرملية الباردة ، قدموا لي الطعام والشراب ، رغبت بمغادرة الموقع ولكنهم طلبوا مني الإنتظار حتى الصباح تجنباً لحدوث أمطار مفاجئة قد تضر بى وبالجمال ، سهرت تلك الليلة مع الأسرتين المتجاورتين وتبين لي بأنه لا يوجد رجال أو شباب ؛ فالجميع إما فى المعتقل أو مكلفين بتقديم يد العون لجيش الإحتلال فى صورة أبنية وإنشاءات تقام ، كانت الفتاة التى أقبلت لصرف مستحقات الأسرتين والتى أخبرتني السيدة العجوز بأنها تدعي تراجى هي كبري شقيقاتها ولها خمسة من الأشقاء ما بين ذكور وإناث ، وهذا حال أسرة خالتها.

سهرت مع الأسرتين حتى منتصف الليل وكانت السعادة واضحة من كمية الطحين المضاعفة التى قمت بصرفها حيث أنني قمت بصرف أجولة دقيق زنة ١٠٠ كيلو جرام بدلاً من أجولة زنة خمسين وهذا سوف يساعد الأسرتين أن تحييا دون خوف ، لقد وقعت فى هذا الخطأ دون إرادتي وأعتقد أنه نابع من حالة الإستعجال التى ١٩٩٤ لبستني.

نهضت صباح اليوم التالي وأنا فى حالة نفسية طيبة لما كنت أشعر به من تقديم يد المساعدة لهاتين العائلتين ، أيضا تذكرت السيدة العجوز التى أصبحت كقدري ومازلت أشحذ فكري عن من تكون وما هي حكايتها ومن أين تلك المعلومات التى تعرفها ومن أين تحصل عليها؟ تناولت طعام الإفطار مع الجميع وتبادلنا أطراف الحديث وعلموا إنني من أبناء مطروح والتى لم تكن لهم معرفة بها.

تفرق الجميع ، الكبار لشئون الدار والأطفال للعب واللهو بينما ظلت تراجي تجالسني مرحبة بى، لا أعلم كيف هاجمني شعور طيب جميل، لقد لبست ثوبا رقيقا من السعادة يقطر عطراً جميلاً شجيا ، ذاب الوقت بيننا ولم أع إلا وتنامي إلى سمعي صوت آذان الظهر من راديو صغير لديهم ، نهضت مغادراً ، أرادت تراجي أن تستبقيني بعض الوقت ولكنى أقنعتها بأنني مكلف بعمل ، إبتسمت مرددة بأنه من الواجب عليّ ألا أكرر الخطأ الذي وقعت به أثناء عملي مثل ما قمت به معها ، أعقب هذا ضحكة هادئة ونظرت إلى الأرض خجلاً ، إقتربت منها وأسررت بأذنها بأن الإنسان يولد مرة واحدة ، شعرت بأنها فى غاية السعادة والنشوة رغم صمتها وخجلها الذي بات واضحا حتى أن أمها شاهدتنا فأقبلت باسمة مستفسرة منا ماذا يدور بينكما يجعل الضحكات والبسمات تشاهد بالعين ولا تسمع بالأذن؟ لم تحصل على أي إجابة ، قفزت فوق ظهر أمشير مودعاً ، أسرعت تراجي خلفي مرددة ، ما تعوج ، ما تعوج إحنا من غير رجاله!

إكتشفت الآن بأن ورائي مهمة سامية وهى زيارة الأسرتين من حين لآخر ورعاية مصالحهما وتقديم يد المساعدة لهما ، كنت أركب الجمل ولسعات البرد وحبيبات الرمل تهاجمني ولكن السعادة هي حالي ، لقد تيبست

الأطراف لكن القلب كان دافئا يطرب من صوت الهـواء وصفيره ولسعات البرد المؤلمة ، سرحت فيما سمعت ورأيت من تراجي وشعرت بأن هناك حباً ولد بديلا لحب ريهام الذي ذبل أو قضي عليه بعد الحرب ، لقد فتح الله لي نافذة طيبة من حب البشر المتمثل فى تلك الفتاة الجميلة.

تنبهت على صوت طائرة هليكوبتر تقترب مني ثم هبطت على مسافة مائتي متر تقريبا ، غادرها خمسة جنود مدججين بالسلاح ، أسرعوا مبتعدين عن الطائرة يحنون أجسادهم للأمام لما تقذف به من هواء يثير الرمال من حولهم ، أشاهدهم مقبلين نحوى ، آثار هذا حفيظتي وأصابني التوتر ، توقفت عن المسير ، الجنود أمامي مباشرة الآن أحدهم رفع السلاح ناحيتي والماسورة مصوبة نحو وجهي ؛ شعرت أننى ملاق الله فى الحال ولن ينقذني من قسوتهم سوي معجزة إلاهية.

بلغة عربية ركيكة أمرني الجندي بالهبوط من فوق ظهر الجمل ، برك الجمل وقفزت من فوقه أرضا ورفعت يداي لأعلي ، إقترب مني أحدهم يفتش ملابسي وحين لم يعثر على أي شيء غير عادي سألني عن وجهتي فأخبرته بأنني متوجه لمركز المساعدات الغذائية ، أحدهم إرتاب فيما أقول وأقبل ناحيتي وضربني على جانب رأسي بدبشك البندقية فسقطت أرضاً ، سمعت صوت أمشير فأسرعت بالنهوض والدماء تغلف رأسي وأمسكت بالحبل خشية أن يهاجم الجنود ويقتلوه كما حذا حذوه الجمل الآخر البركة ، كان أمشير هائجاً رغم إصابتي كنت أربت على رقبته وهو مازال هائجا وكاد أن يرفعني لأعلي ويقفز بى أرضاً ، حين شاهد الجنود هذا المنظر أسرعوا بالفرار وإستقلوا الطائرة عائدين إلى المعسكر.

ركبت فوق ظهر أمشير وكنت أهدهد عليه من حين لآخر ، شـــعرت

بأنني ســوف أصاب بالإغماء ، هدهدت علــى رقبته وطلبت منه أن يبرك " نخ" الجمل وأثناء ذلك سقطت أرضا من فوق ظهره ومازالت الدماء تندفع من رأسي ، شاهدت أمشير واقفاً يحيط بى بأرجله بحيث أصبحت أنام أسفل ظله وتحرك بحيث كنت أشاهد زيله بأعلى ولكن الغريب فى الأمر وأنا على هذا الحال إذ بأمشير يبال "يتبول" عليّ ، كانت مياه كثيرة ساخنة لكن الأخطر أنها كانت مثل الشطة الحامية حيث كنت أصرخ متألما ، بعد قليل هدأ تأثير البول وشعرت بترطيب من أثر الهواء البارد.

تركني الجمل وبرك بجواري وأيضا الجمل الآخر بحيث حجب الجملان الهواء البارد برماله القاسية عن جسدي ووجهي ، غلبني النعاس لفترة أعتقد أنها لا تزيد عن الساعة ؛ بعدها شعرت بأنني أحسن حالاً ، نهضت وتحسست رأسي فلم أشاهد أي أثر لدماء ، حاولت مرة أخرى البحث عن دماء وتبين لي أنه لا توجد دماء ، ضحكت فى نفسي بأن أمشير بال علىّ كأنه يغسل الدماء نظراً لعدم وجود مياه ، نظرت إليه ورغم إصابتي حدثته:

ــ إنت جمل نتن ، حتى وإنت بتقدم المساعدة ، تعمل فيا كده يا مقرف؟

ترك مضغ العشب وزمجر وظهرت القلة من فمه ، ضحكت متعجبا ومتسائلاً: يا إما أنت بتفهم لغتي أو أنا بأتكلم جملي زيك ، أعقب هذا بعض ضحكات وأسرعت بالجملين عائداً إلى مركز المساعدات الإنسانية ، قطعت المسافة دون مشاكل لكن السماء كانت تنذر بأمطار نظراً للغيوم التى حجبت الرؤيا وحجبت ضوء الشمس ، وصلت إلى المستودع وهبطت من على ظهر أمشير وطرقت على القطعة الحديدية التى تنبه من بالداخل بوجود أحد بالخارج راغب بأهل المكان ، شاهدت وجه رحيل الجميل من بين ثنايا الخيمة ، إختفت ثم عادت بعد أن تدثرت ببعض الملابس الثقيلة وأقبلت علىّ

باسمة ضاحكة مرددة "حمد لله بالسلامة" شكرتها وحين دخلت وأغلقت الباب الحديدي وسرت خلف الجملين نظرت إليّ بقرف متسائلة عن مصدر تلك الرائحة الغير مقبولة ، ضحكت من سؤالها وأخبرتها بما قام به أمشير معي، نظرت إليّ فى بلاهة كأنها غير مصدقة حديثي ثم عادت باسمة مرددة :

ــ كل شيء جايز ، أنت كنت بتكلم شهاب وبتضحك معاه كل شيء جايز.

للمرة الأولى سمحت لي رحيل بإستخدام حمامها المزود بمياه ساخنة ، لا أعرف كيف ولكن فيما بعد علمت بأن لديها سخان يعمل بالغاز وتحضر لها إدارة المساعدات عبوة بها وقود يسمي غاز مثل التى كنت أشاهدها فى فيلا رضوان باشا ، تمتعت بالمياه الدافئة والصابون ذو الرائحة الطيبة وأزلت بقايا ما قام به أمشير وغادرت الحمام سعيداً منتشيا فشاهدت رحيل وقد أعدت طعاما ساخناً والدخان يتصاعد منه ، خلال إعداد مائدة الطعام كنت أضاحك وألاعب هارون الذى شعرت بحب ناحيته وبادلني نفس الحب حيث كان يقبل مسرعاً فى إتجاهي ويجلس على ركبتي أو يجلس بجواري حين تناول الطعام.

كانت رحيل تنظر إلي طفلها بسعادة لما يقوم به ، بعدها تغادر المكان مسرعة والدموع تغطي عيونها الجميلة ، فى إحدى المرات سألتها عما يبكيها فأجابت بضيق قائلة:

ــ أنا أحقد وأكره علي هذا المجرم الذي حرم ابني من حنان وحب الأب ؛ هذا الكره لا يوازيه أي كره فى العالم ، أسألها:

ــ الآن جربتي فقد الزوج كما أن هارون جرب فقد الأب ، ألا تعلمين أن الكثير من المصريين فقدوا الأب والزوج والابن بسبب تعدي إسرائيل على بلدي ، نظرت إليّ صامتة وغادرت المكان دون كلمة.

فى تلك الليلة هاجمني شعور جميل وتذكرت بعض أغان لمطربين مصريين من أمثال :عبد الحليم وليلى مراد وشادية ، أثناء تقليدي لأصوات المطربين شعرت بحركة خارج مخزن الدقيق ، خشيت تسلل أحد الضواري ولكني تشجعت وخرجت فشاهدت أمشير ينظر إلىّ بعيون متسائلة ، تحيرت منه وأصابني الخوف ثم تشجعت وأخبرته بأنه من الممكن أن يقوم بغناء تلك المقاطع للسيدة ناقة أم ابنه بعرور ، شعرت بأنه لم يهتم بحديثي وغادر المكان بينما عدت للخيمة للحصول علي الدفء ، تذكرت كل ما حدث بيني وبين تراجي ، شعرت بدفء الحب يغمر قلبي.

فى الصباح أخبرت رحيل بالخطأ الذي وقعت به بتحميل أجولة دقيق ذات وزن كبير بدلاً من زنة الـ ٥٠ كيلو ، نظرت إلىّ راغبة بمعرفة ما بداخلي ثم سألتني: الغلط كان لمصلحة تراجى إسماعيل اللى قرأت اسمها فى الدفتر؟ أيدت إستنتاجها ، ضحكت على خيبتي مرددة بأن البنات ضحكوا عليك ، طلبت منها خصم الفرق من راتبي ؛ كما طلبت حصة لزملائي مثل سابقتها وبالثمن ، لم تعارض وقامت رحيل بخصم كل تلك الأغراض وكان الخصم كبيراً وشعرت بأن راتبي لم يعد متبقي منه إلا القليل.

مساء اليوم التالي أقبل بعض ضباط القيادة الجنوبية وأعدت لهم رحيل طعاما فاخراً ؛ كنت أشتم رائحته ، بعد هذا تناولوا المسكرات وبناء على رغبة رحيل ظللت بجوار الخيمة مستتراً كي أسمع كل أحاديث تخرج من أفواه الضيوف بعد أن تطيح الخمر بالرؤوس ، كانت المفاجأة أن القادة أخبروا رحيل بأن بعض المخربين المصريين توصلوا لبئر بترول أبو زنيمة

وإستطاعوا تدميره بالكامل وسرقة كل المعدات وردم البئر وأصبح كأنه لم يكن حيث كانت الحكومة بتل أبيب تمني نفسها بالحصول على البترول من هذا البئر وتنقله لإحدى المصافي كي يتم تكريره ثم تزود به مركبات جيش الدفاع.

اليوم التالي أخبرت رحيل بما قامت به قوات الكوماندز الإسرائيلية المحمولة جوا وقطعهم الطريق أثناء عودتي من قبيلة تراجى أبو إسماعيل ، أصابتها الدهشة وأيقنت أن حال الجنود فى توتر ثم تساءلت عما قاله القادة فأخبرتها بما قالوه وتأكد لها أن هذا ما سمعته منهم بالضبط ، طلبت منى الحذر نظراً لأنهم يتصفون بالغدر وقسوة القلب فى تعاملهم مع أعدائهم وبالأخص المصريين ، تردد: صابر... لقد كنت أسمع ما يقولونه عن مصر والمصريين بعد هجرتي مباشرة لإسرائيل ؛ حيث كان ينتابني الضيق والتوتر ، فما زلت مصرية وهذا هو وطني الذي ينعتونه بكل سيء ، الحمد لله أن تنبهت ولكن بعد فوات الأوان وضياع زوجي مني.

منتصف الشهر العربي حملت كلٌ من أمشير والبركة بما يحتاجه رجال الحدود الأفذاذ الذين نفذوا عملية تدمير آبار بترول أبو زنيمة ، وصلت إلى الكهف المحدد بجبل الحلال والذي شهد المعركة القوية بينهم وبين الكوماندز الإسرائيليين ، هناك تركت الدقيق والسكر والشاي والبن واللبن الجاف والزيت والسمن بداخل الكهف وأنا أعلم أن الرجال سوف يأتون تلك الليلة لإستلام إحتياجاتهم.

مضى على وداع تراجي عشرة أيام ولهذا شعرت بالشوق إلى لقائها ، أخبرت رحيل فنظرت إليّ فى حالة من التشكك والخوف من أن يصيبني أي مكروه ، بعد قليل غادرها هذا الهاجس وودعتني وطلبت مني أن ألتزم

الحرص أثناء الطريق ، رافقتني حتى الباب الخارجي فطلبت منها العودة نظراً للطقس البارد ولكنها أخبرتني بأنها لم تزر قبر زوجها منذ مقتل جاستون ، حين توجهت بصحبتها إلى القبر شعرنا بالخوف والقشعريرة ثم تلا هذا بكاء رحيل فقدمت لها يد المساعدة للعودة إلى الخيمة كما ألغيت زيارة تراجي فى هذا اليوم حيث شعرت بأن السيدة فى أشد الحاجة إلى أنيس ورفيق ولن تجد غيري ، بداخل الخيمة كان الدفء هو عنصر السعادة لمغادرة حالة الضيق التى أصابتنا حين مشاهدة القبر.

غادرت المكان مُسرعا وأغلقت الباب الحديدي خلفي متوجها إلى قبيلة تراجي ، وصلت قبيل الغروب وإستقبلني كل من عرفني بالبهجة والسرور ، كانت تراجي أول من شعرت بإستقبالها والذي إهتممت به وأشعرني بالسعادة وشعرت بأن شيئا بقلبي يتحرك ، إنعكس كل هذا على وجهي حيث قالت لي أن اليوم يوم عيد لقد أضاء وجهك وأصبح مثل القمر ليلة أربعة عشر ، شكرتها على الكلمات الرقيقة والبسمة الساحرة لهذا الوجه الملائكي الجميل والذى لم أستطع أن أبعد عيناي عنه ، سارت أمامي فأسرعت لأكون بجانبها كي ألتقط بعض نظرات أدخرها بذاكرتي تعينني على البعد والفراق ، ضحكت بسعادة فقد علمت ما أبغيه.

أقبلت أمها مرحبة ثم شاهدت أباها الذي أطلق الإسرائيليون سراحه بالأمس ، كان الرجل منهكا متعباً ، أخبرته زوجته بأن هذا صابر والذي ساعدنا كي نصبر على إبتلاء العدو ، صافحني الرجل شبه صامت ورفع إصبع السبابة لأعلى مردداً "ربنا ما يحوجك لحد ويبعد عنك ولاد الحرام" صافحني عائداً للداخل حيث يرغب فى الحصول على الراحة من إرهاق المعتقل.

أقبلت تراجي وقدمت لي مشروباً مصحوباً بعيون لامعة سعيدة تغوي الشيخ ليصبح شابا يافعا كما خرج من بين شفتيها حديث مسكر طيب السمع والمعني ، أمسكت بيديها فجلست أمامي وإقترب وجهها من وجهي مرددة: وشك حلو زي البدر! ضحكت وتساءلت : لما أنا بدر تبقي إنتي إيه؟ أزاحت طرحة الرأس للخلف فظهر ضياء شعرها الكستنائى الطويل الناعم اللامع ثم قالت: أنا الشمس ، تسمع عن شمس الأصيل بتاعة أم كلثوم؟ أجيبها: طبعا وحافضها ، يعني كده أنا تابع لكي ، ضحكت ونهضت مسرعة وسارت بخيلاء بنات حواء ، سكنت ووضعت همي ومشاعري فى كوب الشاي الساخن.

هكذا شعرت وعلمت وفهمت بأن تراجي تبغي حبي وصداقتي وما يتبعها من مصاهرة ، كان واضحا أن هذا حال الأب والأم الذين صمما على أن أبيت تلك الليلة فى ضيافتهم نلهو ونضحك ونشعر بالدفء بإشعال بعض العشب الجبلي المنتشر بالمنطقة ، أمضيت ليلة لا تداينها ليلة أخري كما لا أستطيع وصف مشاعري خلالها ، شعرت بطعم السعادة والأماني الطيبة الحلوة ؛ في تلك الليلة شعرت أن بالدنيا أياما جميلة وأناسا يدخلون البهجة على الإنسان حتى لو فى أصعب الظروف.

***

أشاهد الشاويش إدريس جالسا يحيط به الرجال الذين إنتهي دورهم بالخدمة أما من عليه الدور فيقف مشدودا يراقب المنطقة التى حوله وسلاحه بيده ومن الواجب عليه أن يشاهد زميله بالخدمة بالجانب الآخر حتى لا يهاجمه أي معتد بحيث لا يظل فرد الحراسة بمفردة ، سمعت إدريس ينادي عليّ ؛ رباح: نعم إدريس : أقبل يا فتى ، أرجـــو أن تعيد ما شـــاهدته أثناء

مراقبتك وقت أن كان رجال البترول وزملائك فى المهمة المكلفين بها ، قص علىّ ثانية ماذا حدث.

كان يوما رائعاً ، لقد تسلل المهندس عزيز ميخائيل وصاحبيه إلى داخل حقل البترول الذي كان الظلام يحيط به من كل جانب ، كنت أشاهدهم يتشاورن ثم توجه الثلاثة إلى مبني مغلق وإستطاعوا كسر أحد أبوابه وحملوا أشياء معهم ثم تبين لنا أنها حبال وأسلاك طويلة من الصلب ، أشاروا إلينا فأسرعنا إليهم بالجمال ، لقد شدوا وثاق ما يسمي بالبريمة وهي عبارة عن ماسورة حديد طوليه وبها حواف شبه حلزونية من الحديد وأخبرنا المهندس بأن حلزونية البريمة حينما تدفع فى باطن الأرض تلف وتخرج الرمال حتى تصل إلى العمق الذي يظهر منه البترول.

إنتهى الرجال من شد وثاق البريمة ودفعنا بالجمال ناحية شاطئ الخليج، تبين أن البريمة ثقيلة الوزن خاصة إنها كانت تجرف الرمال من حولها فأصبحت الحركة صعبة على الجمال ومن أجل هذا تجمع الرجال وساندوا الجمال الأربعة حتى وصلنا إلى منطقة صخرية فأصبحت الحركة أسهل رغم إرتفاع صوت البريمة المحتك بالصخور ، على حافة الخليج ومن إرتفاع عال والمياه بالأسفل عميقة فككنا البريمة ودفعنا بها حتى سقطت من أعلى الهضبة الصخرية.

شاهدت الفرحة على وجوه رجال البترول الثلاثة ثم أشاروا إلينا بالعودة إلى فتحة البئر وقمنا بدفع الرمال بداخل الفتحة حتى إمتلأت وأصبحت مشابهه للأرض المحيطة بها ، عاد الرجال إلى الحجرة التى فتحوا بابها عنوة وأحضروا بعض المعدات وحملناها على ظهور الجمال وتبين أنها ثقيلة الوزن على ظهور الجمال ، الحمد لله لقد أنجزنا تلك المهمة تحت قيادة المهندس عزيز.

بعد إنتهاء زيارتي لعائلة تراجي أبو إسماعيل لم أتخذ الطريق المعتاد الذي يصل بى إلى مركز المساعدات عائدا لعملي وبيتي بين أجولة الدقيق ، بل توجهت إلى السرداب الذي أخبئ به السلاح "البندقية القناصة" للإطمئنان عليها وإجراء النظافة المعتادة حتى يظل السلاح مستعداً للعمل ، قضيت ساعتين مع سلاحي منهمكاً فى نظافته والتمتع بمشاهدته ، لقد ساهمت تلك القطعة بإدخال البهجة والسعادة إلى قلبي وأشعرتني بأنني رجل ؛ بل ورجل مقاتل ، أنني لم أقتل جاستون من أجل عيون رحيل ولكنى قتلته لأنه عدو قتل العديد من أبناء وطني.

أستعد لوضع السلاح فى الجراب المعد له والذي يحميه ، لا أعرف لماذا قمت بتجربة أخيرة بالنظر بداخل التلسكوب ، تلك النظرة لن أنساها أبداً ، من حين لآخر كنت فى حيرة وأتساءل: هل أراد الله أن أقوم بتلك النظرة الخاطفة كي أشاهد ما لم أتوقع مشاهدته ، لقد شاهدت أربعة من رجال الحدود يركبون الجمال ودورية إسرائيلية تستوقفهم متشككة فى شخصياتهم ولكن المفاجأة الهامة هي مشاهدتي لشهاب الذي كان بصحبتهم هذا الحصان الرائع الجميل ، لقد تشكك الرجال فى هذا الحصان وربطوا بينه وبين مقتل جاستون نهاية العام الماضي ؛ لقد عثروا على آثار حوافره قريبا من مكان الجثمان.

لقد طوقت الدورية الإسرائيلية رجال الحدود الأربعة ومن سوء الحظ أنهم لم يكونوا مسلحين ، لم أنتظر أو أفكر في كيفية علاج الموقف ؛ بل تصرفت مثل تصرفي السابق حينما أطلقت النار على فرد دبابة وآخر بعربة مدرعة ، ضغطت ضغطة عصر فخرج المقذوف لهدفه فسقط أحد جنود الأعداء صريعاً ، لم أترك لهم المجـــال للتفكير رغم أنني شـــــاهدت رجال

الحدود يرقدون أرضاً على بطونهم تجنبا للنيران كما حاول جنود العدو الحماية بالأرض وإطلاق النار في أي إتجاه ، لم أترك لهم الفرصة ، فلقد لحقت الطلقة الثانية والثالثة بالجنود ثم تلتهم الرابعة على التوالي ؛ حيث كانوا أهدافا ثابتة لي وأجسادهم واضحة ، بل كنت أستطيع التفريق بينهم وبين رجال الحدود الذين يرقدون بجوارهم ، لقد تم قتل أفراد الدورية وشاهدت الفرحة عن بُعد على وجوه رجال الحدود.

نظفت السلاح وحملته معي مسرعاً فى إتجاههم وهم بالتالي إلتقوا بى بمنتصف المسافة ، بعد تبادل عبارات التهنئة والتقدير منهم لما قمت به كان القرار لأقدمنا بالخدمة بأن نعود إلى موقع الفصيلة ، فى تلك اللحظة شاهدت شهاب يصهل ويرفع قدميه الأماميتين لأعلي ويضربهما ببعض راغباً بإعلان سعادته بأن إلتقي بى ، أثناء الطريق أخبرني الرجال بأن سبب حضورهم لهذا المكان أنهم كانوا فى طريقهم لمركز المساعدات الغذائية نظراً لأن شهاب متنمر ولم يصمت عن الصهيل والتوتر ممتنعا عن الطعام مما دفع بالشاويش إدريس إلى أن يقرر أن نرسل به إليك ، وكما لاحظت فقد هدأ بعد أن إلتقي بك وبثك بعضاً من حبه وإشتياقه.

كم تمنيت بأن أحتفظ بقطعة من السكر كي أقدمها إليه مقابل تلك الصداقة وهذا الحب المتبادل بيننا ، قد لا يشعر شهاب بأنني أكن له كل حب وتقدير ؛ بل لا يعلم أن السبب الرئيسي لتركه مع فصيلة الحدود كان خارجاً عن إرادتي خشية الإعتداء علينا سوياً ، سلمت أحد الزملاء البندقية القناصة وركبت على صهوة شهاب الذي أسعده هذا بل ظل يقفز ويدور حول نفسه بين سعادة ودهشة الرجال.

أســـرع الظلام بالهبوط وكان من الواجب أن نحصـــــل على مأوى ،

إستطاع الرجال بخبرتهم الطويلة أن نسلك مكاناً يتعذر على جنود العدو التوجه إليه ؛ هناك وبأحد السراديب دخلنا بالدواب وتوجه أحدهم لإحضار بعض العشب الأخضر لهم بينما توجه آخر لإحضار عشب جاف ، بدأ السامر من خلال تسخين الطعام والخبز الذي يحملونه معهم ثم تلا هذا تناول الشاي الذي غزت رائحته أثناء طهوه على النار نفوسنا فأنعشتنا وأدخلت البهجة والسعادة على نفوسنا وأجسادنا.

رويت للرجال حادث تعرض الجنود الإسرائيليين لي حين عودتي من زيارة قبيلة أبو إسماعيل والإصابات التى لحقت بى وما قام به أمشير من تصرف بأن بال على جسدي وأنا مصاب ، ضحك الرجال وقال أحدهم أن أمشير يحبك مثل شهاب وما فعله أمشير أنه قام بعلاجك كأحسن ما يكون العلاج ، فلولا بول أمشير لكانت الإصابات تزايد تأثيرها ومن المحتمل أن يتلوث الجرح الذي أصابك ؛ لكن عناية الله كانت معك ولهذا قام هذا الجمل المشاكس بما قام به حبا منه لك ودفعا من الله لعونك.

أردد بداخلي : الآن علمت ما قمت به يا أمشير وسأقدم إعتذاري إليك وأسامحك فقد إعتقدت أنك تسخر منى وتعطرني ببولك وتجعل منى أضحوكة أمام الناس لما حدث ، لقد أصبحت صديقي ورفيقي مثل شهاب ، ظللت تلك الليلة أتمعن فى قدرة الله فى الكون والبشر والحيوانات والطيور وعلمت بأن الحياة على الأرض ليست متوقفة على بني البشر بل هناك مخلوقات تفهم وتعلم ما لا يعلمه الإنسان لأن الذي قام بهذا الله.

معركة من طرف واحـــــد

طلب منى العريف أبو بكر أن أتلو عليهم بعض ما تيسر من القرآن الكريم إحتفالا وفرحا وبهجة بما قمنا به مساء اليوم من قتل أربعة من الأعداء ، صفق الباقون لهذا بينما إعتدلت فى جلستي ونزعت نعلي وبدأت فى تلاوة سورة الأعلى:

(بسم الله الرحمن الرحيم)

سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى (١) الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى (٢) إلي آخر السورة.

أثناء التلاوة توقفت الجمال وشهاب عن مضغ الطعام ثم إقتربت الحيوانات من مكان جلوسنا ، غمر الرجال شعور بالخوف والخشية من قدرة الله الذي جعل تلك الدواب تفهم وتعي ما يقرأ من قرآن ومن معان سامية ، إقترب منى أمشير ومسح بطرف فمه بظهري كأنه يدعوني لأن أكمل باقي التلاوة وألا أتوقف ، نفذت رغبته ورغبة باقي زملائه وزملائي فأتبعتها بسورة العصر إن الإنسان لفي خسر ..... حتى نهاية السورة ؛ مازالت الدواب فى حالة من النشوة التى كنت أشعر بها قبل هذا مع أمشير ثم سار على نهجه شهاب وفى بعض الحالات السيدة ناقة ، غمر الرجال الراحة والسرور وبدأت التعليقات الفكهة تخرج من الأفواه الطيبة ، خلدنا فى نوم هادئ بعد أن شملت السرداب البركة بذكر الله وحمده من البشر والحيوانات التى ذكرت بالقرآن "والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ... " ثم ناقة صالح والتى عقرها الكافرون.

صباح اليوم التالي تركت أمشير فى ضيافة أبناء الحدود العائدين إلى مكان تجمعهم حيث طالبهم أبو بكر بأن يسلك كل واحد منهم طريقا لأنه من

المؤكد أن العدو سوف يبحث عن قاتل جنوده حيث كنا نسمع أصوات الطائرات الهليكوبتر تبحث أثناء الليل عمن قام بهذا العمل ، كما طالبني أبو بكر بتوخي الحذر والحيطة؛ بل طلب منى ترك شهاب معهم خشية تعرف الأعداء عليّ وحينما سألت شهاب بأن يظل برفقة زملائي أعلن إحتجاجه بعدة ضربات بمقدمة قدمه اليمنى الأمامية ولف رقبته بعيداً كأنه راغب بألا يراني.

قبلت رأسه وطلبت بعض السكر من رباح فأعطيتها له فأسعده هذا فحرك رأسه يمينا ويسار بجوار رأسي كأنه يقدم شكره وتحيته وأنه مازال مصمما على مرافقتي ، لم أجد غضاضة من تنفيذ رغبته وأنا أعلم مقدار سعادتي بوجوده معي ، كنت أشعر معه بأنني فارس حقيقي ، بل كنت أشعر بمعني كلمة فهد الليل التى أطلقها الشاويش إدريس على شخصي بعد أن كانت اسما يطلق على فصيلة الحدود فقرر الرجال بأن من يستحق هذا اللقب وهذا الاسم الجندي صابر أو الجندي سابقا صابر.

ودعت الرجال وسلكت طريق العودة لمركز المساعدات الغذائية ، بعد أن قطعت مسافة تقدر بنصف المسافة المتبقية إلى مكان المركز فجأة شاهدة عدة طائرات هليكوبتر تظهر من خلف إحدى هضاب الجبال الجرانيت قريبا من ممر السير ، ظهر أحد الرجال من باب الطائرة طالبا منى التوقف وعدم الحركة وإلا سوف يطلقون النار عليّ فى الحال ، كنت أعلم إجرامهم فى تلك الأمور كما أننى كنت أخشي على شهاب، توقفت وهبطت من فوق ظهر شهاب وأثرت فى إذنه " إرجع لزملائي وأشرت له بأصابعي العشرة " نظر إليّ نظرة عتاب وكأنه يتساءل : أيعقل أن أتركك بمفردك فى هذا الموقف؟

أشرت له بما يعني قطع رقبة ، أعيد عليه الحركة بيدي على حافة الرقبة،

قطع رقبة ، هبطت الطائرات من حولنا وفى تلك الأثناء كانت العواصف الرملية تغطي المكان فضربت مؤخرة شهاب بيدي صائحا " بسرعة على زملائي" ، لم أشاهد أثرا لشهاب وسمعت أصوات حوافره ، سمعت طلقت الرصاص تدوي فألقيت بجسدي أرضا حتى توقف إطلاق النار ، بعد أن إنقشع الغبار وقفت رافعا يدي لأعلى مما أسعد الجنود بأنهم أوقعوا بى ، إقترب منى أحدهم وسألني عن اسمي وعملي وأين أسكن ، أجبته بوضوح مما دفعهم لعدم الإعتداء عليّ وربطوا يدي بحبل مصنوع من البلاستيك وأخذوني بصحبتهم على إحدى الطائرات.

بمركز المخابرات العسكرية بمدينة العريش تعرضت لإستجواب وراء إستجواب دون تأثير على شخصي تحت التهديد الذى إنتقل إلى الفعل ، لقد تلقيت كل صنوف التعذيب سواء من النوم أرضا فوق بلاط أسمنتي فى برد شهر يناير والأجساد تتجمد بها الدماء أيضا من إنخفاض درجة الحرارة ، لا أعلم كيف أفادتني قصص وروايات الأقدمين خاصة الصحابة ومن هم في صدر الإسلام ، تذكرت سيدنا بلال بن رباح وما كان يتعرض له ، كانت تلك الروايات تشد من عزمي لدرجة أن البرودة الشديد تخلت عني وصاحبها دفء عام بالجسد ، بل أتى جنود المعتقل صباح اليوم وهم متأكدون من أننى قد لاقيت ربي متجمداً من البرودة فشاهدوني على أحسن ما يكون ، إستكملوا تعذيبهم لي كي أعترف على من ساعدني لقتل جاستون أو الجنود الأربعة الذين ماتوا الأسبوع السابق.

ظللت أتنقل من يد لآخري ومن عذاب لآخر وأنا مازالت صامداً ، لن أستعرض بطولة قمت بها خلال ذلك ورغم فظاعة العذاب لكن كما قلت كانت ذكري قصص الأجداد العظام فى صدر الإســـلام ذات أثر قوي عليّ

مما جعلني لا أخضع لأي نوع من الإبتزاز بأنهم سوف يفعلون بى كذا وكذا لقد أصبحت لا أشعر بأي عذاب بل شعرت بأن جسدي تبلد ونحس كما يقول العامة ولم أصرخ أو أشعر بألم حينما يقبلون بالمسامير الكبيرة المنصهرة ويدفعون بها فى جسدي فى أماكن مختلفة رغم أننى كنت أشتم رائحة شياط الجلد من حرق البشرة الخارجية والشحم أسفلها ثم رائحة شواء اللحم.

لا أعلم ما قضيته من أيام ولكن أحد الأيام وأنا جالس أنظر حولي وأنظر لجسدي والآثار الظاهرة الواضحة من أنواع العذاب المختلفة وبالأخص ثقوب المسامير التي تقيح بعضها والبعض الآخر مازالت الدماء تسيل منه قطرات واللكمات التى على وجهي والضربات التى نزلت على مؤخرة ظهري بأعمدة خشبية غليظة وأعتقد أن البعض منه مزود بمسامير كانت تلهب بدني وحين ترفع عيدان الأخشاب الغليظة تلك من فوق ظهري فى كل مرة كنت أشاهد قطرات الدم تتساقط منها ، تلك الآلة هى التى كانت تشعرني بكثير من الألم ولم تنفع معها نكري أبطال صدر الإسلام من بلال وعمار بن ياسر وغيرهم ، لقد كانت مؤلمة بدرجة شديدة.

فى هذا اليوم الذي كنت أنظر إلى نتائج التعذيب شممت رائحة لا أستطيع أن أنساها ، ولا أنسي صاحبها ، ثم سمعت صوت صاحبها ، فى كل مرة كنت أشعر بأن قلبي يتحرك فرحاً وسعادة كأن طفلا فقد فى بلدة غريبة وجاءت أمه كي تأخذه لحضنها وتعطيه من حنانها وعطفها وعنايتها ، لقد أقبلت رحيل ، شممت رائحتها وشعر قلبي بقربها وسمعت صوتها العذب ثم شاهدتها عيوني التي شاهدت وقاست العذاب طوال تلك الفترة والتى علمت أنها تعدت الستة أسابيع ، لقد ظللت فى هذا المعتقل شهرا ونصف شهر.

فُتح الباب ومجرد أن شاهدتني مكورا بأحد أجناب غرفة الحبس رديئة التهوية ورائحتها تزكم الأنوف لم تتعرف عليّ وسألت السجان : هل هذا صابر خادمي الذي يعاون جيش الدفاع؟ ، الذي أنظر إليه الآن لا ينبأ عن صابر ، أكد لها الحرس بأن هذا صابر الذي كنا نعتقد بأنه أحد عناصر الإرهاب بسيناء ولكن تبين لنا كذب هذا الإعتقاد لأنه يعمل عندك وهو عبدك المخلص كما تقولين.

تجيب علي حديثه: لولا شعوري وقلبي الذي يدفع بى بأنه صابر لما تعرفت عليه ، إنحنت نحوى تساعدني على النهوض وقبلتني كما كانت تفعل شعرت لحظتها بحنان الأم والشقيقة والحبيبة ، مهما كان الإنسان يخالفك فى العقيدة لكن الله خلقنا على شاكلة واحدة من العطف والحب والحنان وبالأخص النساء ، بكيت على كتفها وهي تحتضن هيكلي العظمي سيئ الرائحة والشكل والملمس ، كانت تهدهد على كتفي والبكاء يلازمها وأثناء هذا أقبل مدير المعتقل متسائلاً بدهشة : كيف يا سيدتي تبكي على حال هذا الهمجي الكافر الإرهابي ، نظرت إليه ومازالت رأسي على كتفها وجسدي يرتعد من الضعف والهزال ؛ أجابت على سؤاله: كابتن موردخاي .. لو قرأت بعض تعاليم التوراة التى جاءت على لسان نبي الله موسي لما قلت هذا لو تفهمت روح الديانة اليهودية التى أنزلها الله من السماء لما قلت هذا: كابتن موردخاي .. أعد سيارة تقلني أنا وهذا الحبيب الذي أعتبره أخي الأصغر وونيسي وونيس ابني هارون ، السيارة تنقلنا إلى مركز المساعدات الغذائية وأنا لي شأن آخر عما قمتم به من تعذيب يخالف القوانين الدولية.

ظهر الغضب والضيق على وجه الرجل وأسرع بإصدار تعليماته بإعداد سيارة إسعاف من سيارات جيش الدفاع كي تنقلنا إلى مركز

المساعدات ؛ أثناء إعداد السيارة أقبل طبيب المعتقل وقام بعلاج أولي لكل الإصابات التى لحقت بى وسلم رحيل بعض الأدوية طالبا منها مداومة العلاج وتنقية الجروح حتى لا أصاب بالغر غرينا القاتلة ، قدمت رحيل الشكر له ؛ تحركت بنا السيارة وأنا مازلت نائما على السرير بداخلها ورحيل تجلس أرضا تمسك بيدي تشد عليها ومن حين لآخر تقبل يدى باكية مرددة بأنها السبب فيما حدث لي.

وصلت بنا السيارة إلى موقع مركز المساعدات ، وإستندت على كتف رحيل بينما غادر السائق المكان عائداً لوحدته دون تقديم الواجب الإنساني بالمساعدة مما دفع رحيل إلى توجيه السباب له ولجيش الدفاع ، توجهت بى إلى الحجرة المخصصة لإستقبال الضيوف والتى سبق وأن إستقبلتني قبل هذا لمدة ثلاثة أيام فى أول لقاء مع رحيل ، بهدوء ساعدتني على راحة جسدي وإختفت قليلاً وأحضرت لي ملابس زوجها المتوفى موشيه والتى كنت مشمئزا من إرتدائها بعد ما شاهدت منه يوم الوفاة ، عاونتني رحيل على إستبدال ملابس المعتقل بتلك الملابس ، صرخت لأكثر من مرة حينما كشفت عن جسدي أمامها وشاهدت آثار التعذيب البدني والذي لم يخلو أي جزء من آثار التعذيب.

أحضرت الطعام والشراب ثم أقبل هارون ولدهشتي شاهدت تراجي تقف معه ثم علمت منها أنه حينما تأخرت على زيارتهم حضرت كي تطمئن على حالي وكان بصحبتها شقيقتها بثينة الأصغر منها فأخبرتها رحيل بأنه نمي إلى سمعها نبأ أسري من قبل الأعداء ورجتها أن تظل مع طفلها طيلة نهار الـــــيوم حتى تعمل كل ما تســتطيع للإفراج عنى ، وافقتها الفتاة بينما عادت شقيقتها بثينة بالجمل لتخبر أســرتها كي تطمئنهم على حالها.

كانت سعادتي مزدوجة ، لما يمثله لي هارون من حب ملائكي وطفولة بريئة لا أستطيع وصفها وبالأخص حين كان يجلس على ساقي يمسك بتلابيبي معانقا مقبلاً خدي بشفتيه الصغيرتين الرقيقتين ، أقبل الطفل مسرعا وقفز على ساقي دون الإنتباه لتحذير أمه ، ملس بيده الرقيقة الناعمة على وجهي ثم أخفي وجهه ناحية كتفي باكيا بصوت مرتفع مما أثر علينا نحن الثلاثة ، لقد شعر الطفل بحالي ومأساتي ولم يجد أمامه سوي وسيلة الإحتجاج التى وضعها الله به وهي البكاء والصراخ.

نجحت رحيل وتراجي فى إبعاد أي ضيق أو حزن عن هارون بالحديث معه ببعض الكلمات الطيبة وبعض قطع من الحلوى مما ساعد علي أن يفارقه العبوس والضيق وظل جالساً بجواري أنظر إليه لأكتشف أن الله خلق الأطفال كي تسعد البشرية ، إستلقيت بجسدي غير قادر على الحركة ، بعد قليل أقبلت تراجي حاملة طعام خفيف كي أتناوله ، بنظراتها الرقيقة وبسمتها البهية التى طالعتني بها تناولت طعامي دون أن أنبث بكلمة ، بعد قليل عادت تخبرني بأنها سوف تغادر المكان عائدة لأسرتها وسوف تواليني من حين لآخر ، أشرت إليها بأخذ "البركة" الجمل الحليم فشكرتني على هذا وعلمت فيما بعد أن رحيل حملتها بعض الهدايا من المؤن لأسرتها والتى أسعدت تراجي بالتأكيد.

***

أثناء جلوس إدريس شاهد الفرس شهاب مُسرعا فى إتجاهه وصهيله القوي يسبق خطواته ، بدي على الفرس الإنزعاج وتساءل إدريس أين باقي الرجال؟ لم يجب شهاب ولكنه رفع أقدامه لأعلي ثم قفز ناحية الطحين وصهل بشدة ، توتر الرجال راغبين بحل هذا اللغز دون جدوى ومازال

شهاب ثائراً حانقاً ، لم يبال بالطعام أو قطع السكر التى أهديت له ، بعد ساعة زمن من وصول شهاب أقبل الرجال الذين أرسل بهم إدريس إلى صابر كي يسلموه شهاب نظراً لرغبته بالعودة إليه ، أسرعت إليهم موضحا الأمر ، دهش الرجال وتساءل أحدهم: كيف حدث هذا يا بلال؟ شرحت له ما حدث من شهاب منذ قدومه حتى الآن ، أوضح الرجال للشاويش إدريس ما تم وما قام به صابر من قتل أربعة من رجال العدو ، صمت إدريس قليلاً ثم ردد بأن صابرا إما قتل أو تم أسره ، ثم رفع يده لأعلى بدعاء لله " اللهم لا أسألك رد القضاء ولكن أسألك اللطف فيه " أشار إلينا إدريس بأن نقوم بالصلاة من أجل صابر بأن يتقبله الله شهيداً لو لقى مصرعه أو أن يخفف عنه عذاب الأسر.

لقد مضي علي هزيمة جيشنا عام كامل ، خلال هذا العام إستطعت أن أقوم بواجب وطني لم أخطط له بل كانت الأقدار تضع تلك الأهداف أمامي ووفقني الله فيما قمت به ، نسيت الأهل والوطن وأصبح كل همي ما أصبحت عليه ، لقد أصبحت عاجزاً عن القيام إلا ببعض الأعمال الصغيرة من صرف مستحقات الأسر الفقيرة ووضع الطعام أمام الإبل ، كنت ألاحظ الحزن على وجه الناقة وقد إزداد حجمها وما هي إلا شهور قليلة وتلد ، كما أن الجمل البركة بطبيعته هادئ الطباع ولم يشكل لنا أي مشكلة لكنني كنت فى شوق إلى كل من أمشير وشهاب ، كانت تراجي تأتي لزيارتي كل عدة أيام حسب الظروف المحيطة وأحوال الطقس ، شعرت بأن الفتاة تزداد قربا منى ولكنى كنت أشعر بالبعد عنها ، لقد أصبحت عاجزاً وشعرت بأنني لن أستطيع الزواج فإصابتي جعلتني أسير منثني الركبة وبالتالي أصبحت قصير القامة وأتحرك ببطء.

كانت رحيل تشد من أزري وتدفعني لزيادة التقارب مع تراجي ولكني شعرت بأن الحياة ليست وردية ولم يكن بها أي شيء وردي سوى كلمات هارون البسيطة ضعيفة النطق والفهم أما النظرة إليه فكانت تدخل السعادة إلى قلبي ، أحد الأيام جلست تراجي أمامي بينما جلس هارون على ساقيها تلاعب خصلات شعره الناعم بأصابعها الرقيقة والطفل يشعر بسعادة ، تتساءل: لماذا تبتعد عني؟ أشعر بأنك غير راغب لأن أراك؟ صمت ولم أعلق ؛ بعد قليل ظهرت دموعها مما دفعها للنهوض مسرعة للداخل فأقبلت رحيل تنظر إليّ عاتبة ولسان حالها يتساءل لماذا أغضبت تلك الفتاة الرقيقة

المحبة لك؟

شاهدت تراجي تسرع بالخروج من الخيمة فأشرت إليها بصعوبة بأن تحضر ؛ أنادي عليها فلم تستجب ، أسرعت أعدو خلفها بعد أن قفزت فوق الجمل بخفة ورشاقة ولكن ساقاي لم تطاوعني فسقطت أرضا فوق الصخور أتألم بصوت مرتفع.

لم أشعر سوي أننى نائم على السرير وبجواري تراجي ورحيل بينما هارون يلاعب أصابع يدى ويحركها ، نظرت إليهن متسائلاً ماذا حدث؟ لم أتلق إجابة من أي منهن وكل ما شاهدته إبتسامة وأنوثة فرحة بنجاتي مما ألم بى ، حاولت الجلوس فساعدتني الإثنتان وجلست فى مواجهتهن ووجهت حديثي لتراجي موضحا لها أنني أكن لها كل حب وتقدير وأنتِ تشاهدين حالي وأشعر بأنني لن أكون الزوج المناسب لكِ.

تشير إليّ رحيل بألا أقول هذا بينما تنحني تراجي راغبة بتقبيل يدي فأجذبها مقبلاً يدها فتضحك باكية وتنحني على وجهي تعطرني بقبلة ندية على خدي مما دفع برحيل إلى التصفيق والتهليل ، هكذا عاد الحب والوئام بيننا بفضل إخلاص تراجي وعون ومحبة رحيل ، أصبحت تراجي تأتي كل أسبوع لزيارتي وقد إقترب عام ١٩٦٨ من نهايته وخلال هذا العام نما إلي أسماعنا أخبار عن المعارك بين الجيشين المصري والإسرائيلي على ضفاف قناة السويس ، كانت تلك الأخبار تدخل السعادة والحياة المتجددة إلى قلوبنا وحياتنا حتي رحيل التى كنت أشعر بأنها فى حالة من السعادة حينما يذيع راديو القاهرة ما يلقاه الجيش الإسرائيلي على القناة من ضربات موجعة وخسائر كبيرة لم يعتد عليها وأيضا حين غرقت المدمرة الإسرائيلية إيلات العام الماضي.

مضى على حالتى الصـــحية السيئة أكثر من أسبوعين ، أحد أيام أثناء زيارة تراجي قالت لي أنها أخبرت والدها بما تعرضت له وما عليه حالي ، ثم قالت أنه سوف يذهب لإحضار الشيخ عيد أبو مســـعد حيث علم عنه أنه يجيد علاج تلك الحالات مردداً: ربنا سوف يعافيه من إصابته ، أسعدني سماع هذا؛ فهذا يدل على إهتمام تراجي وأسرتها بحالتي ، والمريض دائما ما يسعده مثل هذا الإهتمام رغم تأكدي بأن ما سوف يقوم به الشيخ عيد أبو مـــسعد لن يقدم أو يؤخر فى شيء.

مازالت رحيل ترعي حالتى وتقدم لي كل خدماتها لإعتقادها بأنها المتسببة فيما أصابني من الأعداء ، لم تمض أيام قلائل إلا وأقبلت تراجي يرافقها كلٌ من والدها الشيخ إسماعيل وشخص آخر علمت فيما بعد أنه الشيخ عيد التى سبق وأن حدثتني عنه ، إستقبلتهم رحيل بترحاب بعد أن همست تراجي فى أذنها بحديث قصير تصاحبه بسمة مضيئة طيبة إنعكست على حالتي ، شاهد الشيخ عيد الإصابة وأوضح بعد قليل بأن هذا من أعمال المجرمين اليهود ، نظرت إليه رحيل بضيق وغادرت المكان فأخبرت الرجل بأن تلك السيدة يهودية ولا داعي لأن تسب اليهود فتلك ديانة أما الأعداء فهم من دولة تسمي إسرائيل ، إضطرب الرجل وهاجمه الضيق لوجود سيدة يهودية بجوارنا مما دفع تراجي لأن تخبره بأن ما قامت به تلك لسيدة فاق عون أي إنسان حتى الآن.

أكد الشيخ عيد أنه سبق وأن قام بعلاج لمثل تلك الحالات وسوف يستمر العلاج لمدة ثلاثة أسابيع يوم بعد يوم يقوم بزيارة كي يقدم علاجه ، كانت أمامنا مشكلة بأن تتقبل رحيل تلك الزيارات ، طلبت من تراجي أن تخبر رحيل بأنني سوف ألحق بكم بناء على رغبة والدك ، بعـــد قليل أقبلت

رحـــيل وتراجي؛ نظرت إليّ رحـــيل ساهمة مرددة ، مش موافقة ... إنت فاهم؟ هما مش عارفين إنت تبقي ليا إيه ؟ ده أخويا .. إنتوا فاهمين .. أخويا .. وده ابني هارون .. الإتنين دوول ماقدرش أعيش من غيرهم .. تعالى كل يوم يا شيخ عيد وعالج صابر وكمان أنا مش هزعل لما تشتم اليهود!!

فى تلك اللحظة قدم الشيخ عيد والشيخ إسماعيل كل إعتذار موضحا بأنه يقصد الأعداء لكن اليهودية ديانة ونحن كمسلمين نؤمن بها ونقول على نبيكم سيدنا موسي عليه السلام ، أعتذر سيدتي.

أضاء النور وجه رحيل وقدمت لنا جميعا مشروبا وحدث تبادل طيب للأحاديث بيننا ثم سألت الشيخ عيد عن تكلفة العلاج فإنبرى الرجل رافضا أن يحصل على أتعاب لكنها صممت ووضعت شرط حصوله على أتعاب فى مقابل أن يبدأ عمله وإلا سوف تعتذر عن إستقباله وسوف ترفض علاجه ، حاول الرجل والشيخ إسماعيل والد تراجي لكنها أوضحت لهم بأن صابر لديه نقود نظير عمله معها لمدة تقارب العام ، نحن الآن فى نهاية شهر ديسمبر ولقد عمل معي منذ شهر نوفمبر من العام الماضي ، صابر سوف يعالج على نفقته ، صمت الرجال وأنا بالأحرى أسعدني وجود مال يخصني وسوف يتم العلاج على نفقتي ويكفي الآخرين العون الأدبي والمعنوي.

بدأ الشيخ علاجه بأن أعد مخلوطا مكونا من دهن ليه الخروف مُضافا إليه نبات فيسأ الكلاب بالإضافة إلى نبات لبن الحمار ، كنت أضحك بداخلي لأسماء تلك النباتات ، كان الرجل يوزع أجزاء صغيرة من هذا المخلوط والذي أصبح على شكل عجينة لينة يغلب عليها اللون الأخضر ثم يقوم بفردها على الأجزاء المصابة وما أكثرها ثم يقوم بالدعك الطولي ثم العرضي ثم الدائري حتي يصبح جـــسدي رطب الملمس ؛ حيث

كنت أشعر من خلال هذا العمل بأن تلك المنطقة تسري بها الراحة كما تسري أيضا بباقي أوصال جسدي ، بعد هذا ينتقل الشيخ عيد إلى منطقة تالية ويقوم بتوزيع نفس العجينة على الأجزاء المصابة والتى كانت تشبه المصاب بمرض الحصبة من كثرة الثقوب المنتشرة بها ولكن هذه الثقوب ناتجة من أثر غرس المسامير التى تغير لونها إلى اللون الأحمر لإنصهارها بوضعها بداخل النار لفترة طويلة ، إنتهي يوم عمل الشيخ عيد بعد حوالي ثلاث ساعات من المجهود المتواصل ، ظل هذا الرجل يقوم بتلك العملية ثلاثة أيام كل أسبوع وقد بدا يصل إليّ إحساس وشعور بالراحة البدنية بعد أن غادر جسدي الكثير من الآلآم التى لحقت بى من أثر التعذيب الذي تعرضت له.

الحمد لله .. مضي عليّ أكثر من شهرين ونصف وقد إلتئمت جروحي من أثر التعذيب الذي أثخن الكثير من الجراح والآلآم التى شعرت بها وأصبحت حالتي الصحية كالمعتاد وُعدت إلى حالتي التي كنت عليها قبيل الإعتقال ، كما طلب الشيخ عيد من رحيل بأن تقوم كل يوم بتدليك جسدي بمستحلب بيض الجمل المضاف إليه بعض اللبن من الناقة حتى يصبح جسدي ناعما وتغادره الخشونة التى صاحبت عملية العلاج التى قام بها ، أحضرت رحيل مبلغا من المال كي تسلمه للرجل ولكن الرجل رفض تسلمه، حاولت أن تقنعه بأن يتسلمه وأخبرته بأن هذا كان إتفاقا بيننا قبل البدء فى العلاج ؛ شكرها الرجل ورفض الحصول على أي أتعاب ؛ تلك اللحظة نظرت إليّ رحيل بما يعني تحدث أيها الشاب ؛ فهذا شأنك ، مجرد أن حاولت إقناعه بتقبل المبلغ كأتعاب، فإذا بالسيدة العجوز تظهر وتهبط من على ظهر الجمل قبل أن يبرك أرضا؛ والمعروف أن تلك عملية

شـــاقة، ثم قالت لى: أتعابك دفعت يا صابر ، عود لدارك يا شيخ عيد ، شاهدت الرجل فى حالة من الإرتباك والخوف والإحترام ثم أسرع بركوب ناقته مغادرا المكان بأقصى سرعة ، أشارت العجوز للجمل بأن إهبط دون حديث ؛ أسرع الجمل وبرك أرضا وقبل أن يستقر على الأرض تعلقت العجوز بصنم الجمل الذي نهض لأعلي دون أمر ودون إذن وفر من أمامنا فتبادلت نظرات الدهشة مع رحيل.

***

الحب لغة التفاهم مع الحيوان

أشاهد الشاويش إدريس يجلس بين الرجال والقلق باديا على وجهه ، يرجع السبب فى ذلك إلى عاملين هامين ، الأول نقص المواد التموينية التى كان يأتى بها صابر والثاني حالة الهياج المستمر من أمشير وشهاب ، لقد مضي على غياب صابر ثلاثة أشهر سواء لمقتله أو لأسره من قبل الأعداء؛ ومنذ ذلك الحين والجمل والحصان لا يكفان عن إحداث الإضطراب والأصوات المزعجة ومحاولة الهرب واليوم حدث تطور جديد فقد حاول أمشير عض زميلنا أحمد الطيب وعندما تدخل زملائنا لإنقاذه هاجمهم الحصان محاولا رفس الرجال والحمد لله أن الرجال نجوا جميعا.

نظر إلىّ الشاويش إدريس محدثا: لماذا تقف هكذا تراقبنا يا رباح؟ أقبل وشارك معنا فى الحديث والمناقشة لعلك تفيدنا برأيك والذي دائما ما يكون صائبا فقد ألهمك الله القرار الحكيم.

ـ سيدي القائد ، أري أن نفك أسر الجمل والفرس ، فأنا أعلم علم اليقين حبهم لصابر وأعتقد بأنهما سوف يسرعان بالعودة إلى مركز المساعدات إعتقادا بأن صابر موجود هناك ، وإذا لم يكن موجودا سوف يعودان أدراجهما لطيب العيش بيننا وبين باقى الجمال ، ولهذا فإذا قررت إطلاق سراحهما فأري أن نحدد ثلاثة رجال لمتابعتهم حتى نعلم ماذا حدث لهما وفى نهاية المأمورية يحضران لنا العون الغذائي من مركز المساعدات سواء كان صابر هناك أو لم يكن ، فالسيدة رحيل تعلم أننا أصدقاءه وكما أخبرني صابر بأنها تعلم بأننا من رجال التعدين التابعين لإحدى الشركات ولم نستطع العودة إلى الديار لظروف الحرب.

أشاهد إدريس يتحاور مع بعض الزملاء على ما أفضيت به من إقتراح ، صمت إدريس قليلا وظهرت بسمة الضياء التى دائما ما ترتسم على وجهه الطيب وأعلن موافقته على الإقتراح وحدد الرجال الثلاثة وكنت أنا من ضمن هؤلاء ، تقرر أن يبدأ التحرك فى الصباح ومن أجل هذا وضع الطعام والماء أمام شهاب وأمشير.

بكل شجاعة الرجال قمنا بفك قيود الجمل والحصان بعد الإستعانة بباقي الجمال التى أصبحت تعمل كحائط صد من محاولة هجوم الجمل والحصان علينا ، لم نشاهد طيفهما؛ حيث أسرع الإثنان بالعدو خلف بعضهما ، بل من المدهش أن الحصان توقف قليلا كي يقترب منه الجمل لإختلاف سرعة الإثنان ، كنا نسرع خلفهما ولكن الإثنين أصبحا مثل الريح العاصفة سرعة وإختفاء ولا يميز حركتهما سوي الغبار الناتج من العدو.

منتصف النهار شاهدنا أمشير وشهاب مقبلين نحونا أى أنهما عادا من حيث توجها وقد صهل شهاب بينما زمجر أمشير وظهرت القلة من فمه والتى تعني الضيق ، بعد قليل شاهدنا من علي بُعد ثلاثة من سيارات العدو تطارد الإثنان ، لقد كان هذا الوادي محصورا بين جبلين ولهذا لم يستطع الإثنان المراوغة أثناء المطاردة سوي العودة ولكن الطائرات الهليكوبتر المعادية أقبلت من الجهة المضادة أي التى هرب إليها كلٌ من أمشير وشهاب، لقد حوصر الإثنين ومازالت العربات المدرعة قادمة فى إتجاهنا ؛ حيث كنا نشاهدها من على مسافة لا تقل عن ثمانمائة متر يميزها الغبار المتخلف عن المطاردة وأعتقد أنهم لم يرونا حيث كنا نقف بجوار بعض الصخور المنعزلة بجوار أحد الجبال بالمنطقة.

تبادلنا النظرات وماذا نحن فاعلين فليس معنا سلاح ولو كان معنا لما إستطعنا استخدامه لأن قوة العدو أكبر من قوتنا وسوف تحصدنا بالمدافع المسلح بها السيارات المدرعة ، تفتق ذهن أحمد الطيب بأن نشتت الهجوم المدرع ضد أمشير وشهاب ؛ من أجل هذا هبطنا من فوق الجمال وكل واحد منا طلب من جمله أن يقوم بالعدو فى أحد الإتجاهات غير الإتجاه الذي توجه إليه كلٌ من أمشير وشهاب.

قمنا بهذا وما توقعه أحمد الطيب حدث حيث إنقسمت قوة المطاردة ؛ كل سيارة تطارد جملا معتبرة بأن هذا الجمل سوف يصلها للحصان نظرا للمعلومة التى لديهم بأن الحصان أكثر سرعة من الجمل ، ظل هذا الوضع حتى أقبل الظلام ولم تستطع قوة المطاردة أن تنجح فى مهمتها لأننا لم نسمع صوت إطلاق رصاص ومن غير المعقول أن يجازف أحد الجنود بأسر أحد

من تلك الحيوانات وفى تلك الأحوال تزداد شراسة الحيوان لحالة الخوف والتوتر التى أصابته.

منتصف الليل شاهدنا الجمال الثلاثة مقبلة وقام الطيب بإصدار صفيره المميز فأقبلت الجمال مُسرعة وحصل كل جمل على هدية معنوية من صاحبه ببعض اللمسات على الرقبة وكل واحد منا إستقل جمله وكانت جهة السير مركز المساعدات الغذائية.

***

صباح اليوم التالي وصلنا إلى مركز المساعدات ؛ كانت البوابة الحديدية مفتوحة على مصراعيها ، تحركنا بحذر جهة الباب ونحن نخشى السيدة رحيل التى نعلم كل صغيرة وكبيرة عنها ، إستقبلتنا فتاة شابة من بنات سيناء ، فى البداية رحبت بنا ، طلبنا منها لقاء المسئول عن توزيع الإعانة ، تساءلت: تقصدون السيدة رحيل أم صابر؟ تبادلنا النظرات بيننا ، تشجعت قائلاً : هل يمكن لقاء صابر؟ أشرق وجهها وأخبرتنا بالجلوس للراحة بجوار الباب الخارجي وسوف تخبره برغبتكم بلقائه، بعد قليل شاهدنا صابرا يقف أمامنا، لم نستطع كبح عواطفنا فنهضنا للقائه بين الفرحة المختلطة بدموع البكاء، لم يكن صابر أقل منا فرحة وسعادة ، وسمعته يردد اسمي : رباح .. رباح أهلا بكم ثم توالي ذكر باقي أسماء زملائنا.

إصطحبنا للداخل ؛ بداخل المخزن علمنا منه أن هذا بيته المختار ، أعددنا أكواب الشاي وتبادلنا الأحاديث الطويلة وأخبرناه بما تبادر إلينا وخشيتنا بأنه قد لقي حتفه ، شرح لنا كيف وقع فى الأسر وبعض ما

لاقاه من أذى وعنت المحتل ، كان جسده خير دليل وبرهان على عذاب الشاب ، أخبرناه بواقعة هروب أمشير وشهاب ، ضحك الفتى وأخبرنا بأنه يتوقع وصولهما الليلة حين تهدأ أعمال الدوريات الإسرائيلية ، ظهر علي باب الخيمة الفتاة البدوية والتى لوحت لنا بتحية الإسلام وأخبرت صابر بأنها سوف تعود لمقر قبيلتها.

توجه صابر إلى رحيل التى وافقت على إمدادنا بكل ما نحتاج إليه من مواد غذائية وملحقاتها ، تساءلنا كيف ستقوم بسداد كل ما حصلنا عليه ؛ أجاب : لقد نسيتم أنني أعمل لدي السيدة ولي راتب وسوف أتولي دفع تكلفة ما طلبتموه ، لقد مضي عليّ عام حتى الآن ولم أمسك بيدي مليما واحدا ، تضاحكنا على هذا وما لليهود من أسلوب للحياة يخالف جميع شعوب العالم ، طلب منا صابر أن نظل فى ضيافته تلك الليلة وأن نتحرك صباحا إلى مواقعنا حتى نحصل على الراحة المطلوبة من عناء طريق القدوم لنا ، كانت الجمال تتناول طعامها بداخل الدهليز الذى تقيم به الناقة وقبلها أمشير والذى يقيهم حرارة شمس الصيف وبرودة فصل الشتاء.

أمضينا ليلة طيبة مع صابر تمتعنا خلالها بالطعام الوفير وشرب الشاي والضحكات المتبادلة وتجاذب أطراف الحديث مع الحرص من إكتشاف هويتنا أو عملنا الحقيقي قبل نشوب الحرب كما حصلنا علي قسط وافر من النوم المريح ؛ بعد أن تناولنا طعام الإفطار أعددنا الجمال بالحمولة إستعدادا للعودة إلى مقر الفصيلة ، أثناء وقوفنا أمام الباب الحديدي الخارجي للمصافحة والوداع شاهدنا عن بُعد قدوم كلٌ من أمشير وشهاب ، كانت فرحتنا طاغية خاصة أن صابر هلل صائحا ملوحا لهما رغم أن المسافة بيننا

وبينهم لا تقل عن خمسمائة متر ، نظرت إليه باسما متسائلا : أشعر أن سعادتك لا توصف ، نظر إليّ ولسان حاله يخبرني بمدي فرحته حيث قال: والله يا رباح كأن شقيقاتي قد أقبلن من مصر ، رتبنا وقوف الجمال أمام البوابة الخارجية بحيث تحول دون إندفاع أمشير وشهاب بقوة نحو الداخل كما وقف صابر خلفهما منعا لإصابته حين يستبد بالإثنين الشوق للقائه.

توقف الإثنان بصعوبة أمام السد الذى قامت به الجمال خشية الإصابة ، صهل شهاب ومد أمشير رقبته من أسفل رقاب الجمال وخرج صوته وتناثرت الرغوة من فمه والتي تدل على الحب والسعادة التى تأخذ بتلابيب الإنسان حين يستبد به الشوق والحب فتخرج دموع الفرح من خلال عينيه ، كان هذا حال أمشير بينما شهاب ظل يصهل ويرفع قدميه الأماميتين للأمام ويحركها فى الهواء كأنه يلوح لصابر ، لم يستطع صابر مقاومة مشاعره وحبه لصديقيه حيث أقبل مُسرعا من خلال الجمال وتعلق فى رقبة أمشير الذي كان يعلم مقدار أي تصرف منه عنيف قد يؤدي بحياة صاحبه ومن أجل هذا برك الجمل بحيث أصبح صابر فى نفس مستوي رأسه ، تبادل الإثنان العناق والقبلات حيث كنا نسمع أصوات لمسات شفاه أمشير على وجه صابر.

إلتفت صابر للخلف ليشاهد شهاب يتحرك بحركة راقصة يمينا ويسارا كأن حسناء تختال بجمالها وأناقتها أمام المحبوب ، قام صابر بتقبيله بل وتعلق برقبته ولم يستطع شهاب السيطرة على مشاعره وكأنه راغب بإختطاف صابر بعيداً عن الجميع كي يعاتبه على بعده عنه تلك الفترة الطويلة ، إندفع شهاب مسرعا وصابر مازال متعلقا برقبته ويدفعه بيده

صائحا "يخرب عقلك ، ح أقع علي الأرض" لكن الحب كان أقوي وبالفعل سقط صابر أرضا مما دفع بشهاب للعودة وإنثنت قدميه الأماميتين وإقترب برأسه من جسد صابر النائم أرضا ضاحكا فأمسك برأس شهاب ونهض معه يتبادلان العناق والقبلات بين ضحكاتنا.

أشرنا إلى الأصدقاء الثلاثة بالوداع وتركنا لهم حرية إظهار العواطف الجياشة بينهم وكان السبب فى تركنا المكان هو ظهور السيدة رحيل وطفلها وكلبها الشرس ؛ كما ظهرت السعادة عليهم مما دفع بهارون للعدو نحو صابر وصديقيه ولحقت به رحيل ونبح الكلب نباح التهليل ؛ حيث كان ينبح ويحرك رأسه فى كل إتجاه وكل حركة بنباح كأنه يخبر أهل المنطقة بخبر سار ، إستمر سيرنا بطريق العودة ولم ينشغل بالنا سوي بحب صابر للجمل والحصان هذا الحب الذي إستطاع هذا الشاب الصغير أن يعود عليه بفائدة عظيمة ؛ فقد عوضه هذا عن بعده عن زملائه بل وعن أهله بمصر.

***

الحمد لله ، فقد منّ الله عليّ بالشفاء وعوضني عن كل ما كان ينقصني كي أعود لقوتي كي أصبح صلب القوام كسابق عهدي والسير لمسافات ليست طويلة وإجراء بعض الحركات الرياضية التى أشار عليّ بها الشيخ عيد أو ما نطلق عليه بمصر "العلاج الطبيعي" ؛ خلال كل أسبوع كنت أتبادل الزيارات مع تراجي إلا فى ظروف الطوارئ والتى يحظر فيها الجيش الإسرائيلي التحركات على الناس بسيناء لفترة عدة أيام أو فى بعض الأماكن حيث ترامي إلى مسامعي من العرب ثم تأكد هذا على لسان رحيل

بأنه توجد منظمة مقاومة للأعداء وأحدثت بهم خسائر كبيرة.

إنتهي عام ١٩٦٨ والشتاء القارص يضرب بنا وأصبح الإعتكاف هو عملي الوحيد ؛ حيث أقوم على العبادة وتلاوة القرآن ترتيلا وأصبح لي مريدون يستمعون لي ولم أعد أخشي من حبهم وتأثرهم بسماع القرآن ؛ بل كنت أنتظرهم حتى الإنتهاء من الطعام حتى أشعر بالتشجيع مثل ما يفعل المقرئون والمنشدون حيث يصبح هذا دافعا لهم للإجادة ، فليس لي جمهور أو معجبين سواهم.

في بداية عام ١٩٦٩ والصقيع يضرب كل مكان بسيناء ، وفى تلك الليلة قمت بكل ما إعتدت القيام به سواء صرف المواد الغذائية أو متابعة أحوال جيراني الأعزاء وقد بدا على السيدة ناقة أن الحمل قد قارب على النضج ولهذا دفعت دفعا إلى تخزين بعض العشب الجبلي وأيضا بعض سيقان النخيل الجافة وإستطعت أن أحضره إلى الدهليز بعد أن من الله عليّ بتمام الصحة ، قمت بتخزين هذا العشب بداخل الدهليز تجنبا لأمطار الشتاء وذلك لإستخدامها فى الدفء حين الحاجه رغم أن رحيل أمرتني بألا أقوم بإشعال النار بداخل المخزن حتى لا تتأثر المواد التموينية بدخان الحريق ولهذا حين الحاجة للدفء كنت أشعل كمية محددة من العشب للتدفئة بالدهليز الذي يقيم به الجيران دون إعتراض منهم.

أتذكر أنه منذ أسبوعين شاهدت غطاء ضخما من المشمع الثقيل سقط من فوق شاحنة نقل إسرائيلية كبيرة الحجم وإستطعت بمعونة شهاب سحبه حتى المخزن وبذلت من الجهد والعرق الكثير حتى إستطعت أن أثبته على فتحة

الدهليز حتى لا يصيب البرد أصدقائي الأعزاء ، بل كنت أتوقع أن تلد السيدة ناقة ويأتي بعرور ابنها فيشعر بالبرد وقد يدفع هذا والده العصبي السيد أمشير إلى التصرف الأحمق معي بأن يأكل ذراعي أو يقوم بالهجوم على مخزن المساعدات وتدميره وبالتالي أفقد وظيفتي.

تلك الليلة سمعت بعض الأصوات وكانت تخص السيدة ناقة ؛ إعتقدت لحظتها أن السبب في هذا هو أمشير ؛ فمن المحتمل أنه قد شعر بأنها معجبة بشهاب الذي يرسل لها بإشارات تدل على الحب والإعجاب فضايقه هذا وبسبب الغيرة قام بضرب زوجته ناقة هانم علقه ساخنه مما دفعها لأن تطلق الأصوات مستغيثة بالجيران ، تحيرت بعد أن وصلت الإستغاثة إليّ ؛ وما الذي عليّ أقوم به ، أنا لا أويد التدخل بين الأزواج ؛ كل زوج يقوم بقيادة بيته كيفما شاء ، مازالت الأصوات تصل إلي سمعي ولهذا عملت ودن من طين والأخرى من عجين كما يقول المثل الشائع.

بعد قليل سمعت صوت أمشير بالخارج وكأنه يطلب وساطتي لحل النزاع مع زوجته ، لم أتحرك ، إزداد صوته وشعرت بأنه بعد قليل سوف يخرج القلة من فمه وقد يحطم الخيمة على رأس اللي خلفوني ؛ قلت في بالي ألم الموضوع ؛ نهضت مدثرا بالعباءة متجها لباب المخزن وفتحته فشاهدت أمشير فى حالة من الحزن رغم الظلام ، شعرت بالسعادة وإعتقدت بأن السيدة ناقة رنته علقه سخنه ومن المحتمل أن السيد شهاب قد عاونها في ذلك والذي كنت أسمع صهيله ، شعرت بأنني سوف أصبح مصلحا بين الأحبة والأزواج ، أسرع أمشير أمامي وأنا أهرول خلفه حتى دخلت الدهليز فسمعت أنات السيدة ناقة ، عدت مسرعا وأحضرت علبة الكبريت وأشعلت

العشب فأضاء المكان ووقفت مذهولا مما شاهدت.

السيدة ناقة تنظر إلى أمشير بينما تدلي من فتحتها التناسلية ابنها بعرور، كان بعرور نصفه للخارج ونصفه للداخل ، وقفت بجوارها أشد من أزرها مثلما كانت تفعل السيدة حلاوتهم الداية بقريتنا بمرسي مطروح ، وقفت أشد من أزرها بينما أمشير يهمهم ببعض الأشياء لا أعرف ما يريد ويقترب من الناقة هانم ومازالت عيونها تتسع وتلمع والعشب أعطي لهم الراحة والدفء.

ظل الحال على هذا الوضع لمدة تزيد عن العشرة دقائق وبعرور يحاول بأقدامه الأمامية الفلفصة للهبوط من بطن أمه لكن السيدة ناقة توقف طلقها كما يقول العامة ، تشجعت وأمسكت بكتف بعرور وجذبته قليلا للخلف فشاهدته يتحرك ناحيتي فواصلت الجذب ؛ خلال هذا كنت أشاهد أمشير ينظر إليّ مشجعا حتي ظهر ثلثي بعرور وفجأة إندفع مرة واحدة وسقط أرضا ؛ حاول بعرور الوقوف دون جدوى ، كما لاحظت الراحة على وجه أمه كما أقبل أمشير يلعق جسد بعرور ثم تبعته الأم بينما وقف شهاب ينظر إلينا كأنه يمني نفسه بتكوين أسرة مثل أسرة أمشير.

حاول بعرور الوقوف لكنه سقط ثم حاول بمساعدة الأب والأم ، كرر المحاولة عدة مرات حتى إستطاع الوقوف بأرجل مرتعشة ، لا أعرف كيف علم بعرور بأنه يوجد بأسفل جسد أمه من الخلف مخزن طعامه وشرابه حيث أسرع بالقفز خلف أمه ومد رقبته الطويلة نسبيا بين رجليها وأمسك حلمات أمه وهات يا مص ، أقبل عليّ أمشير يسير الخيلاء وكأنه يخبرني بأن هذا ابنه وأنه أصبح منذ اليوم أب وقبل هذا بعام كامل وعدة أيام كان

زوجا ، قبلته وقبلت السيدة ناقة موضحا لأمشير ما فيش غيره وخلينا حبايب وكأنه فهم ما كنت أبغيه ، أسرعت إلى المخزن وأحضرت علبة السجائر وقمت بإشعال سيجارة وكل نفس أقوم على سحبه أقترب من السيدة ناقة وأنفث الدخان بوجهها فتسحبه على الفور سعيدة ثم أشاهد الدخان يخرج من بين فتحات أنفها الكبيرة ، نهاية السيجارة كانت ناقة فى حالة طيبة مما جعلها تضع أنفها أرضا قريبا من أقدامى تحكها كى تشعرنى بأنها تقدم شكرها وثنائها لى.

بعد أن تأكدت أن كل شيء على ما يرام جلست جانبا أمام النيران المشتعلة والدفء سرى بأوصالى وأيضا الأضواء الناتجة من إشتعال العشب أدخل السكينة والسعادة إلى نفسي فخلدت فى نوم عميق ، تنبهت من نومي بالدهليز على من يرفع المشمع السميك الذي كنت قد فردته كي يحمي الأم وطفلها من البرودة ، على ضوء النهار شاهدت الشمس تنعكس بضيائها على بشرة وشعر رحيل فأدخل هذا الطمأنينة إلى قلبي ، تحركت فشاهدت بعرور فأطلقت صيحة طيبة متأملة هذا المخلوق الجميل وأقبلت ناحيته وقبلت رأسه بين سعادة أمه وأبيه ، نهضت متثاقلا ووقفت أتحدث معها وسألتني أسئلة كثيرة عن كيف تم هذا ولماذا لم أوقظها لتحضر تلك اللحظة الجميلة ، غادرنا المكان بعد أن أزحنا الستارة فدخلت أشعة الشمس ونشطت الحيوانات وشاهدت بعرور يحاول القفز جريا حول أمه.

***

عزبة رضوان:

فى إحدى الأيام أقبل أحد العاملين بالعزبة وأخبرني أن رضوان باشـــا

يريد لقاءك في الحال يا عم صديق ؛ قمت بالتوجه إلي قصر الباشا وهنـــاك قام أحد الخدم بإصطحابي لأحدي غـــرف القـــصر المخصـــصة لإســـتقبال الضيوف ، بعد قليل أقبل الباشا تدفعه إحدي الخادمات علي كرسي متحـــرك فنهضت لإستقباله وصافحته وقبلت يده ، أشار إليّ بالجلوس وبعد الترحيـــب سألني عن السيدة أم صابر وبناتها وأحوالهم ، قمت بطمأنته عليهن وأخبرته بأنه بعد وفاة الهانم زوجته لم يعد هناك أحد يرعي الأسرة أو يهـــتم بهـــن ، غضب الرجل وطلب مني أن أقوم بتلبية طلبات الأسرة وأنه أعطي تعليماته لناظر العزبة بمنح تلك العائلة المرتب الذي كان يتقاضاه صابر قبل تجنيـــده ولو إحتاجت الأسرة أكثر من هذا المبلغ فعليك يا صديق أن تبلغني ؛ شكرته وطلبت منه بخجل أن يفك أسر شقيقتي صابر اللاتي يعملن لدي حرم عصام ابنه وشقيقتها كخادمات ، نظرا لحالة أمهما وضيقها من هذا الأمر ، غضب الباشا وأسرع بطلب ابنه عصام وودعني مرددا:

ـــ كل حاجه تعود لأصلها ، خلاص الرق والعبودية إنتهي زمانهم.

الفـــــهد في مواجهة جيش الدفاع

مضت الأيام سريعة جميلة ممتعة بظهور هذا الكائن الصغير إلى الوجود، وكأنما عثر هارون على صديق يلاعبه حيث إستهوى اللعب الاثنـــان رغـــم إختلاف الحجم لكن العقلية كانت واحدة ، كان من الطبيعي أن يشعر هارون بمن يهمس بالخارج بصوت مبحوح ضعيف فينهض مسرعا رغم تحذير أمه ويخرج فيشاهد بعرور فى إنتظاره ، علي الفور تظهر الإبتسامة على وجـــه الطفل فيشعر بها بعرور الذى كان يقفز لأعلي ويتحرك يمينا ويسارا رغـــم كبر حجمه بالنسبة لهارون.

عثر هارون علي من يلاعبه الكرة التي تركت دون إستخدام لفترة طويلة بداخل مخزن بالخيمة ، خرج بها فتلقفها بعرور يدفع بها هنا أو هناك ويقوم هارون بدفعها أمامه فيسعد هذا بعرور وإنضم إليهما الكلب ليفي ؛ كل هـــذا أضفي إلى المكان الحركة والسعادة وأصبحت هناك لغة واحدة يتفـــاهم بهـــا بعرور وهارون وليفي ، أصبح اللعب بينهم هو السمة البارزة وهذا أســـعد رحيل التى كانت تخشي على هارون تدهور حالته النفسية لعدم عودة والـــده موشيه.

بعد أن تناولت الطعام مع رحيل ؛ جلسنا نشرب أقـــداح الـــشاي مـــع التسلية بمشاهدة الأصدقاء الثلاثة وهم يلهون ببراءة ؛ فاتحتني رحيـــل فـــى موضوع محبب إلى نفسي وربطته بموضـــوع آخـــر كـــان مفاجـــأ لـــي ، الموضوع الأول هو زواجي وطلبت مني أن أعد نفسي للحياة بسيناء تحـــت حماية الإحتلال الإسرائيلي ، ومن أجل هذا يجب عليّ أن أتـــزوج وأقتـــرن

بمن أحب ويهواها قلبي ، في سياق الحديث قالت دون حرج : إن كنت أرغب بالزواج منها؟ أدهشني هذا الطرح ؛ فقد تعاهدنا منذ أكثر من عام على الإخوة الصادقة.

لم أجبها بينما علقت هي بأن زواجها من غير يهودي مخالف لديانتها ولكن حبها لي ولبلدها مصر دفعها لهذا ثم أشادت ببعض التعبيرات والصفات التي تمس خلقي وما أتمتع به من خصال جعلتها دون وعي بأن تفكر بى رغم ما سبق من العهد الذي تم بيننا ؛ أيضا الفارق العمري والذي يصل إلي خمسة أعوام.

نهض كل منا ليقوم بأداء العمل المكلف به ، رحيل ستقوم برعاية منزلها بينما توجهت للباب الخارجي حيث أقبلت منذ دقائق بعض الأسر البدوية إنتظارا لصرف الإعانة التموينية ، ظهر هذا اليوم أنهيت ما نويت القيام به ولم يعد أحد من البدو ينتظر بالخارج ليحصل على نصيبه من المساعدات ، خلال تلك الفترة إصطحبت رحيل هارون ابنها للداخل حيث حصل على طعامه وخلد لنوم مريح بعد عناء اللعب مع صديقيه.

توجهت لخيمة المساعدات بعد أن توضأت لأداء صلاة الظهر قبل أن يقترب العصر ، شاهدت بعض أطباق بها طعام ، فقد أحضرت رحيل طعام الغداء ووضعته بجوار أجولة الدقيق حتى لا أتجه للخيمة وأتناول الطعام معها ، رغم ضيقي من هذا التصرف لكنني إعتدت علي تصرفات رحيل والتي تقوم بها من حين لآخر ، حيث إعتادت على القيام ببعض التصرفات الغير سوية ولا تسير على نهج واحد ، وبالتالي لم أعد قادرا على تحديد

الأسلوب الأمثل للتعامل معها.

فأنا أعلم أنها سيدة فاتنة ورائعة لكنها يهودية وقبل هذا وذاك شاهدتها فى أحضان رجل قتل زوجها ، كان هناك عاملين هامين يمنعاني من إقامة أي علاقة مع رحيل ، رغم حبي لها ولقد زينها لي الشيطان مرات عديدة ، لكن العاملين الهامين وهما ، تذكر الله وهذا هام في مثل تلك الأحوال ، والثاني مشهد علاقتها بجاستون حينما شاهدتها غارقة في أحضانه في أول لقاء ، لقد أصابني هذا المشهد بالضيق والقرف ، كيف تواتيني القناعة بأن أقترن بتلك السيدة ، كما علمت أن الطفل الذي سوف تنجبه سوف يصبح يهوديا وبالتالي إسرائيليا ، أردد .. تبقي مصيبة ؛ ابني يهودي إسرائيلي ، "ما فيش بيت فيكي يا مصر ما إنضرش من إسرائيل "، عدد الشهداء بالآلآف من المصريين بسبب الإسرائيليين غير مئات الآلآف من الجرحى ، مش ممكن ، وبعدين: "تبقي إيه رحيل قدام تراجي الجميلة الرقيقة الصغيرة ، مش ممكن يا رحيل ، خليني كده على البر" ، ظللت أسلك هذا النهج حين يشتد بي الشوق إليها أو حين تهم ناحيتي مسلطة كل أسلحتها القوية والتي تجيد إستخدامها ببراعة.

ليلا وقبل الدخول فى النوم هاجمتني ذكري رحيل وما كنت أشاهده من مفاتن بحكم القرابة بيننا أو بحكم الخادم لسيدته ، هاجمني الشيطان وشعرت بأنني صابر آخر غير صابر قبل هذا اليوم الحزين والتى ألهبت حواسي الشيطانية بما قالت ، إستغفرت الله وشعرت بأن جسدي يكاد يحترق من الإنفعال والعرق ، بدأت فى تلاوة القرآن ، في بداية التلاوة وفي الآية الأولي تخيلت بأنني أشاهد رحيل ؛ تنبهت وفزعت فقد زينها لي الشيطان ؛

بل شعرت بأن ما أشاهده ليس سوي الشيطان نفسه وليس رحيل ، لا أعرف كيف أصف الحالة التى كانت عليها رحيل حينما أقبلت للحديث معي بالخيمة " مخزن المساعدات" التي أنام بها بجوار أجولة الدقيق؛ ثم تحدثت قائلة:

صابر .. إسمعني .. أنا في إحتياج لراجل خاص بيا ، عمري خمسة وعشرين سنه ، لسه قدامي سنين طويلة ومش معقول ح أعيد تجربة جواز تانيه من واحد معفن زي جاستون وقبله موشيه ، بتبص ليا كده ليه ، أيوه موشيه كان معفن ومش عنده شرف ، عايز فلوس ومركز ووظيفة مضمونة وللأسف ده حال كل رجال إسرائيل ، أيوه .. المنظمات الصهيونية تستخدم الرجاله اليهود بدول الشرق الأوسط لتنفيذ خططها للحصول على المال من دول العالم الكاره للعرب والمسلمين وعشان كده رجال الدين اليهودي حللوا الحرام عشان يحصلوا على الفلوس ، لكن مين اللي ح يتباع في سوق الجواري؟ إحنا .. نساء اليهود اللي من الشرق وبالذات بنات مصر لجمالهم ورقتهم ، كل ده تحت مسوح الدين وإقامة وطن قومي .. وطن قومي ، مصر مش كانت وطن قومي؟ تعرف يا صابر أننا كنا عايشين في مصر أحسن من إسرائيل ، كانت الناس بترفعنا لفوق ويقولوا علينا خواجات ، كانوا بيعملونا أحسن ما يعاملوا بعضهم لأننا خواجات.

إيه يا صابر!! بتبعد عني ليه؟ كده برده ، طيب أنا معنتش ح أكلمك ؛ نهضت رحيل مغادرة المكان وقبل أن تترك الخيمة عادت وإرتدت روبا سميكا كي تحمي جسدها من البرودة الشديدة حيث تخلصت منه في بداية الزيارة ؛ حيث كانت ترتدي أسفل منه ملابس شفافة بدرجة كبيرة.

ظللت خلال هذا اليوم لا أعرف كيف أقوم بتأدية الصلاة ، لقد غمرني الشيطان بتلك الملذات التى تسللت للخيال والتي زينها لي الشيطان والتي سوف أغرف من هذا الطبق .. طبق رحيل وجسدها الجميل الذي شاهدته ، شعرت بأنه من الواجب عليّ أن أغادر المكان متجها لأصدقائي رجال الحدود كي أحتمي بهم وأبتعد عن هذا الشيطان الجميل ، بعد أن تأكدت بأن رحيل أوت إلي خيمتها تسللت وجهزت شهاب لرحلة طويلة ومعتادة متجها لزيارة رجال الحدود ، تسللت برفقته خارجا وأغلقت الباب الخارجي بهدوء وقفزت على ظهره بعد أن وجهته جهة الجنوب فعلم الجهة التى نحن متجهين إليها.

توقفت لأستمع لبعض الأصوات المرتفعة ، كانت لطابور من الدبابات التى تتحرك على المحور ، أخذت جانبا بشهاب حتى تمر تلك الدبابات ، إستغرق هذا وقتا طويلا حتى شارف ضوء الصباح علي الظهور ، شعرت بتخدير ورغبة بالنوم ، ترنحت وغبت عن الوعي ، سمعت صهيل شهاب ، لم أهتم بهذا ، مازال شهاب يصهل ثم ضرب بأقدامه أرضا ففزعت فشاهدتها أمامي ، السيدة العجوز ، خشيتها ثم عاد إليّ الشعور بالإطمئنان ، هبطت من فوق الجمل متسائلة: مالك يا صابر؟ فيه إيه مضايقك؟ لا أعلم كيف إنزلق لساني لأخبرها بكل ما دار بيني وبين رحيل فى الأيام الأخيرة وبالأخص تلك الليلة حيث أقبلت لتلحقني بزمرة العاصين.

ربتت على كتفي طالبه مني العودة لرحيل وأخبرها بالموافقة إذا هي تركت الديانة اليهودية ودخلت فى ديانتك ، تساءلت : وماذا أفعل لو وافقت؟ ضحكت من حديثي ولم ترد على إستفساري ، تنبهت لرغبتي السابقة

بالكشف عن غموض تلك العجوز ، أسألها من أنتِ؟ تجيب علي سؤالي: صابر أنا سيدة مصرية قتل ابنها الوحيد العام الماضي أثناء رعيه للجمال والأغنام ، ومن أجل هذا قررت إستغلال كل طاقتي ومعرفتي بكل جزء بسيناء للقصاص من هؤلاء القتلة ، ألم تسمع بأن هناك تنظيما بسيناء يقتل العديد من الإسرائيليين؟ أجيب على سؤالها: لا أعلم ؛ ولكن كيف تظهرين فجأة وتختفين بنفس السرعة؟ صابر ؛ تلك قدرة الله التى كنت أدعوه فجر كل يوم لمساعدتي بسرعة الإختفاء عن الأعين حتى لا أقع فى قبضة الأعداء ؛ ضحكت وهي تستودعني وتخبرني بأنها سوف تلقاني كثيرا.

جلست أستوعب هذا الدرس وقررت العودة ، فقد حصلت على النصيحة وما عليّ سوى أن أخوض التجربة ، عدت فشاهدت السعادة على وجه رحيل ، دخلت الخيمة فوقفت أمامي تنتظر رد فعلي على تصرف الأمس ، إقتربت منها محاولا إحتواء جسدها بين ذراعيّ ، دفعتني قليلا للخلف متسائلة: هل وافقت على عرضي ، حركت رأسي دليلا على الإيجاب، ضحكت مرددة: محدش يقدر يقف قدام أنوثة وجمال رحيل ، أقاطع كلامها راغبا بالحديث ؛ تشير بالموافقة لي فأخبرها بما قالت المرأة العجوز ، لم تدعني أكمل كلامي وطردتني خارج الخيمة بعبارات سيئة كلها سباب يحمل بين طياته كل كره وتحقير لكل مصري ولكل مسلم.

مازالت ثائرة حانقة تلقي عليّ بكل ما هو بذيء من عبارات وكلمات : أنت فاكر نفسك بني آدم؟ أنت عبد ذليل ليا ولكل واحد يهودي ، إنت متعرفشى أنه يحق لكل يهودي إنه يستخدم الرجاله الغير يهود كعبيد ونسوانهم يتسلي بيها الرجال ، إنتم مالكمشى حق تتملكوا أي حاجه ، إنت

نسيت إن جدك الأكبر فرعون الكلب حاول قتل أجدادي لكن الرب أنقذهم وغرقه هوه واللي جابوه ، إخرج بره يا عبد يا بن العبد ، روح نام مع الجمال والحصان ولو عديت بره المركز ح أبلغ فيك المخابرات العسكرية يدوروا عليك ويضربوك بالنار لأنك قتلت جاستون القائد بتاعهم ، وعلى فكره محدش ح يصدق لو قلت لهم إنى اللى وزيتك عليه ، أخرج بره ... بره يا كلب.

لم أشعر إلا وأنا أسير مطأطأ الرأس متجها إلى سرداب الحيوانات وألقيت بجسدي أرضا ونمت معهم حتى صباح اليوم التالي ، أسمع صوتها تنادي على اسمي واسم ليفي ، أغادر السرداب فأشاهدها تنظر إليّ وإلي كلبها ليفي ثم وضعت وعاء به الطعام وهي تردد ، دا أكلكم .. أنت وهو مستوي واحد ولو فيه خنزير كنت ضميته لكم لأنك من طبقة الخنازير ، لم أعد أستطع التمييز أو التفكير فلقد أغلقت رحيل كل نافذة أمل أمامي ولم تترك لي الخيار وأصبحت مهدداً بالإعتقال والقتل جراء قتل جاستون.

مضي على هذا الحال أسبوع كنت خلاله أشعر بتعاطف الجمال وشهاب، بعد مضي أسبوع أصابني الضيق والقرف والجزع من تناول الطعام مع الكلب ليفي رغم أنه أرق حالا من رحيل ، هذا اليوم أقبل عليّ أمشير يبغبغ بحركات من فمه وبعض رغاوي ، لم أمتثل لما يبديه من دعابة ، مما دفعه لأن يدفعني فنهضت واقفا فدفعني أمامه فى إتجاه الناقة ؛ أصابتني الدهشة حين أشار بفمه إلى ضرع الناقة ، وقفت صامتا فأعاد تصرفه السابق ، كنت راغبا بتناول أى طعام بعيدا عن طعام رحيل ، تشجعت ووضعت فمي بضرع الناقة التى كانت تقف ساكنة ، شعرت بأول نقطة تذوقتها وتأكد لي

أن هذا اللبن ذا طعم طبيعي وأستطيع أن أستسيغ مذاقه بدرجة كبيرة ؛ تشجعت بمواصلة مص اللبن حتي شعرت بأن معدتي قد إمتلأت ، بعد أن إرتويت وإنتهيت قبلت رأس الناقة فحركت رأسها ناحيتي بما يعني ولا يهمك وتعال كل يوم ؛ لم أنس رجل البيت سي السيد فقبلت رأسه أيضا فأخرج بعض الرغوة من فمه ثم قبلت باقي أفراد الأسرة أي الرضيع بعرور ولم أجد بدا من مداعبة وتقبيل رأس شهاب ؛ ثم أسرعت وأحضرت له بعض قطع من السكر.

مضي علي الفورة وسوء خلق رحيل أسبوعان ؛ خلال تلك الفترة لم ألتق بها حيث كانت تصدر تعليماتها لي من خارج السرداب وأنا أقوم على تنفيذها ؛ خلال تلك الفترة أدهشني عدم حضور تراجي ؛ حيث كنت فى أشد الإحتياج إليها ؛ شعرت رحيل بأنني لم أعد أتناول الطعام مع ليفي ؛ حيث كانت تراقبنا أثناء التنافس بيني وبينه على الطعام ، أصابتها الدهشة ومن أجل هذا طلبت مشاهدتي ولقائي ؛ نهاية الأسبوع الرابع للقطعية كان هذا اللقاء الأول حيث توقعت بأنني قد أضربت عن الطعام ، خرجت عليها فصدرت منها شهقة بما يعني مش معقول حيث كانت وجبات ألبان الإبل قد أثرت على حالي بدرجة كبيرة ودفعت بى للعافية مع تحسن حالتي النفسية بالعيش مع تلك المخلوقات الهادئة وتلاوة القرآن وما حققته من إنتصار على شيطان رحيل.

بكلمات قليلة واضحة قالت رحيل : بكره ح تيجى عربية من إدارة المساعدات و ح تروح معهم لمدة أسبوع تتعرف على أسلوب الشغل وموقع المستودع الرئيسي ، كمان ح يحاولوا يعلموك سواقة اللوري عشان تقوم

أنت بالعملية دية ، فاهم مش عايزه تخاذل وأي تصرف غبي منك ح تكـون نهايتك علي يد رجال جاستون ، اليوم التالي أقبلت العربة اللوري حيث كنت مستعدا لتنفيذ تعليمات وأوامر السيدة ومن أجل هذا قمت بوداع أصدقائي من الحيوانات وأيضا هارون ؛ قفزت وجلست بجوار السائق الذي تبين لي أنـه يهودي لبناني وظل يحدثني عن جمال لبنان والمطربة الـشهيرة فيـروز ، بداخل المعسكر كانت الأمور سلسة حيث أخبروني بأنهم قيدوا اسمي للخدمة بقوات النحال وهي القوات التى تخدم على الحدود والأماكن الإدارية ويكثر بها العنصر النسائي وأن قائدي المباشر الكابتن رحيل ، ظللت فى ضـيافتهم شهرا كاملا حتى أجدت قيادة اللوري وعلمت كيفية التدوين بالدفاتر وأسلوب تخزين المواد التموينية.

عدت أقود اللوري الذي أصبح في عهدتي وأنا المسئول عنه حيث كان محملاً بالمساعدات ؛ شاهدتني رحيل فأسعدها ما قامت به معي ، أمرتنـي بتفريغ حمولة اللوري بالداخل ، ظللت أربع ساعات أقوم على تفريغ الحمولة حتى أصابني الإنهاك والتعب ؛ نمت ليلتي تلك بالزى العسكري المسلم لـي من قيادتي بمنطقة بئر سبع ، نهضت صباح اليـوم التـالي أحـسن حـالا فتوجهت لأصدقائي من الحيوانات التي أسعدها رؤيتي وكـل واحـد مـنهم إستقبلني بما يليق بى وشعرت أن بعرور قد نما عوده خلال تلك الفترة كمـا شاهدت هارون مقبلا نحوى سعيدا وبرفقته ليفي وإنضم إليهم بعرور ، أقبلت رحيل تداعبني وأعادت وصلة الإخوة ثانية مقدمة إعتذارها عن أي شيء قد أثارني أو ضايقني ، لم أهتم بما تقول لكن تأكد لي أنها سيدة لا أمان لها.

أخبرتها برغبتي بزيارة تراجي فصرحت لي وأخبرتني بـأن تراجـي

جاءت تسأل عنك وقت أن كنت تقوم بالتدريب بالقرب من معسكر "مسكوني" القريب من مدينة بئر سبع ، ركبت فوق ظهر الجمل البركة وتركت أمشير مع أسرته متجها إلى قبيلة تراجي حيث فوجئ بى القوم فإنشرح صدرهم وإستقبلوني أحسن إستقبال ؛ حصلت خلال تلك الزيارة على كل حب وتقدير وشعرت أن مشاعر وأحاسيس تراجي ناحيتي قد نمت وكبرت مثلما كبر بعرور ولم أخبرها بما حدث بيني وبين رحيل سواء من محاولة الإغراء التي قامت بها أو من سوء الحديث التى وجهته لي ؛ حيث أن علاقة الإخوة مازالت هي الأساس رغم أن تراجي قبل ذلك حاولت التسلل إلى ما يمكن أن يحدث بين سيدة وشاب يعيشان سويا فى مكان واحد لأكثر من عام ؛ تبتسم وهي تردد: حكاية الإخوة دية مش نازلالى من زور!

عدت إلى مركز المساعدات فى المساء ، اليوم التالي طلبتني رحيل كي تشعرني بعودة الحياة إلى مجاريها ثانية ؛ تقمصت شخصية الأخت الكبرى كما وضعتني فى خانة الأخ الأصغر ، لم أعاتبها على ما قالت أو تصرفت لكن كل هذا أسررته بنفسي ، قمت بأداء عملي بهمة ونشاط وأصبحت أجلس مع أسرتي من الحيوانات وما زلت أهمل طعام رحيل مما أدهشها وحينما علمت منى بتناول لبن الناقة أصابها نوع من الجزع والغثيان.

مضي شهر على عودتي من بئر سبع ، هذا اليوم أخبرت رحيل برغبتي لزيارة أصدقائي وحمل بعض المؤن الغذائية لهم ، وافقت ومن أجل هذا أخذت معي فى تلك الرحلة كل من أمشير والبركة لحمل المؤن التى كانت كبيرة حيث ضاعفت الكميات نظرا لبرودة الشتاء كما إنني إستطعت توفير بعض المعونة الزائدة والتى لم تضاف إلى الحصة التى تسلم إلى مستودع

رحيل؛ فقد ساعدني الجندي اللبناني الذي تعرفت عليه حينما علم بعشقي لأغاني فيروز بمدي ببعض الزيادات من المواد ؛ خلال الرحلة لأصدقائي أخذت صهوة شهاب وتحركنا عيانا بيانا خلال النهار ، لم أكن أخشي الأعداء حيث كنت أحمل معي تحقيق شخصية يثبت أنني أعمل بجهاز المساعدات الإنسانية بالأرض المحتلة ، وكأن القدر راغب بألا أتعرض لمواقف صعبة حينما يكون معي الإثبات القانوني الذي يتيح لي الحركة فلم ألتق بالأعداء.

أثناء سيري توجهت إلى السرداب بجبل الحلال والذي يعتبر مخزن المعلومات المتبادلة بيني وبين زملائي بالحدود وأيضا يعتبر مخزن الأغذية التى أحضرها وأتركها لهم بهذا المكان ، شاهدت ورقة أسفل مجموعة الأحجار أسفل بعض العشب الجبلي ، إذا هناك رسالة فى إنتظاري ، أمسكت بها وقرأت السطور القليلة والتى تخبرني فيه بأن الفصيلة غادرت موقعها وتحركت لموقع متقدم غربا فى إتجاه الخليج بجوار منطقة عيون موسي والتى سبق وأن توجهت إليها فى بداية عملي للبحث عن ورقة مريم كي أضيفها لطعام أمشير كي تمنع توتره وهياجه الجنسي.

وصلت لموقع رجال الحدود الجديد والذي يبعد حوالي خمسين كيلو عن الموقع الأول ، شاهدت الرجال الأشداء وشاهدت أثر الجوع الذي تعرضوا له خلال فترة غيابي ، وحينما ظهرت عليهم هلل الرجال لأنني مازالت على قيد الحياة بل وأتمتع بصحة جيدة ، علمت وشاهدت ما يقوم به المهندس عزيز ميخائيل وزميليه من مجهود لنقل خطوط نقل البترول الخام خلال الشهور الفائتة ، لقد ظلوا لفترة ثلاثة أسابيع يقومون مع رجال

الفصيلة ليلا بنقل مواسير البترول الخام المعدة كي تستخدم كخط للمياه وذلك بأن نقلوها للموقع الجديد حتى إستطاعوا نقل ثلاثمائة ماسورة حديد كل واحدة ذات طول عشرة أمتار ولا يقل وزنها عن مائة وخمسين كيلو جرام وبهذا إستطاعوا بإمكانيات ضئيلة إنشاء خط للمياه سعة عشرة بوصة يقوم بسحب المياه من عيون موسي ودفعها للأمام لتصب في المنطقة الرملية المسطحة بعيداً عن المناطق الصخرية إستعدادا لقيام الرجال بزراعة بعض النباتات التي يحتاجون إليها للإعاشة حيث يقومون بسحب المياه من العيون القريبة ثم دفعها فى هذا الخط مستخدمين فى هذا بعض ماكينات الشفط التى كانت بداخل مخازن بئر البترول كما إستخدموا البترول الخام الذي إستطاع المهندس عزيز إبتكار طريقة يدوية لتكرير نسبي له كي يمكنه من تشغيل الماكينات التي تقوم بشفط المياه من العيون ودفعها بالخط ، كان الرجال يستعدون لإقامة زراعة متنوعة تكفي حاجاتهم.

أخذت بيد الشاويش إدريس لأحد الأجناب وأخبرته بكل ما دار بيني وبين رحيل سواء برغبتها بالزواج بى ثم لقاء السيدة العجوز وما أخبرتني به ورد فعل رحيل العنيف ثم إرسالي إلى معسكر مسكوني ببئر سبع ، صمت إدريس قليلا ثم قال: لو إستطعنا استخدام كل ما تم بطريقة سليمة فسوف نستفيد إستفادة كبرى تعود على الوطن بالنفع ، سر على بركة الله ولا تخشي أن توشي بك تلك السيدة ، فأنت آخر خط أمان لها ولابنها وهى تعلم أن الإسرائيليين لو أرسلوا شخصا آخر بديلا عنك فسوف يصيبها هذا بالضيق خصوصا أنهم سوف يرسلون بيهودي من اليمن وما لهم من طباع شرسة بل سوف يستخدم هذا الرجل رحيل لمتعته الذاتية بالإضافة إلي

ما يحمله من عادات سيئة نحن نعلم عنها الكثير ، ثم نظر إليّ قائلاً: ألم يخبرك الرجال بالعملية التى قام بها العدو ضدنا خلال الفترة السابقة ، نفيت هذا فأسهب الرجل وتبين لي أنهم قاموا بالعديد من عمليات قطع الطرق وقتلوا العديد من جنود العدو وقد بلغ عدد من قاموا بقتلهم ستة جنود وأحد الضباط كما تم جرح العديد منهم وفي المقابل إستطاع الإسرائيليون معرفة موقعهم وهاجمتهم قوات محمولة جوا وتبادلوا إطلاق النيران الكثيف وقد إستمرت المعركة عدة ساعات كانت نتيجتها إستشهاد كلٌ من توكل وعبد الحق اللذين كانا مثالاً للشهامة والطيبة والتدين والورع ، بالإضافة إلى مصرع خمسة جمال ، صمت إدريس قليلا بينما الدموع هاجمت عيناي ونهضت مسرعا مستترا بأحد الجمال أبثها لوعتي وحزني على هذين الرجلين وعلى الجمال الصابرة التى كنت أرعاها وأقدم لها الطعام ، بعد قليل أقبل إدريس وتحدث معي ووجدت نفسي أخبره بالحالة التى أصبحت عليها والتي تهاجمني من حين لآخر ورغبتي فى النساء وهذا الشأن لم أكن أفكر فيه قبل ذلك سواء قبل لقاء رحيل أو بعد هذا بعدة شهور ، تساءل الرجل : هل قمت بشرب لبن الناقة التى أنجبت منذ عدة أشهر؟ أجبته بالإيجاب ، ضحك من إعترافي وطلب منى التقليل من شرب هذا اللبن لأنه يساعد على النشاط وبالأخص الناحية الجنسية ، ضحك معلقا : فاكر لما كنا بنبعد أمشير عن تناول حشائش أبو خسبا ، حالك من حاله حيث كانت تلك الحشائش تزيد من نشاطه الجنسي ، ضحك مرددا لقد أصبحت مثل أمشير.

غادرت موقع الرجال عائدا أحمل بين طيات نفسي كل الكلمات الطيبة لما أقوم به كما أشعرني الشاويش إدريس بأن خطوة الإنضمام لقوات النحال

بجيش الدفاع الإسرائيلي سوف تفتح الباب أمامي للحصول على المعلومات محذرا إياي بألا ألهث خلف المعلومة لكن من الواجب عليّ تركها تأتي إليّ طواعية ، أيضا عليّ ألا أهتم بها لأن الأعداء سوف يضعوني تحت المراقبة لفترة وقد يكون الغرض من ضمك لتلك القوات بغرض الكشف عن أسرار التنظيم الذي تنضم إليه ومن أجل هذا عليك اليقظة والإنتباه ، أيضا عليك عدم العودة إلينا مرة أخري وعليك إحضار المؤن إذا إستطعت ولتضعها بالسرداب الموجود بجبل الحلال والذى تحتفظ فيه ببندقيتك وذخيرتك وإذا رغبنا فى لقاءك فسوف ينتظرك البعض هناك كي يلتقوا بك حتى لا يتبعك العدو ويقتحمون موقعنا ويقضون علينا.

أثناء العودة إلتقيت بالسيدة العجوز ووقفت أتحدث معها وأخبرتها بما حدث وما قاله لي الشاويش إدريس ، أيدت نصائحه وأضافت لي معلومة أخري حيث قالت: إذا وصلتك معلومة هامة فأكتبها وضعها في عبوة لا تنفذ منها المياه وعليك بوضعها أسفل ماسورة المدفع المدمر والتى علاها الصدأ والمجاورة للموقع الذي دمرتم فيه عربتين مدرعتين للعدو قريبا من جبل الحلال ، الآن أستودعك الله وإختفت بسرعة كعادتها.

لقاءات غير مباشرة مع العجوز وإدريس

عدت إلى مقر مركز المساعدات الغذائية تشملني السعادة والإنشراح رغم مهاجمة ذكري الزميلين العزيزين اللذين لقيا ربهما أثناء الإشتباك مع العدو ؛ كان مصدر السعادة أن الإثنين اللذين لهما من الحكمة والقدرة على فهم الأمور قد أيدا ما أصبحت عليه وهما العجوز وإدريس ؛ حيث كنت أخشي أن أتهم بأنني أصبحت عميلا للعدو وأرتدي ملابس جنودهم ولكن ثقة الإثنين بى ومعرفتهم صالح الأمور جعلهما يفكران بمنطق إيجابي بعيد عن العواطف والوطنية الزائفة التى تلاك فى الأحاديث بين البعض.

إستقبلتني رحيل بسعادة خاصة حينما شاهدت معالم الفرحة على وجهي ؛ حيث قالت لي لا بد أنك قضيت يومين بصحبة أصدقاءك خلالها تمتعت بحلو الحديث والإستئناس بهم وتذكرت بلدتك وأهلك ، أيدت إستنتاجها وأضفت إلي هذا أنهم يقدمون لكِ جزيل الشكر والإمتنان للمساعدات التى ترسلي بها إليهم ، أسعدها هذا قائلة: بأن المساعدات تقدم لكل الفقراء والمحتاجين بسيناء دون تفرقة ، فما بالك لو أن هؤلاء هم أصدقاء وأحباء أخي الصغير ، شعرت بالسعادة تهبط عليّ من هذا الشعور الإنساني.

ظللت لعدة شهور والأحوال تسير سيرا روتينيا ولم يجد بها أي جديد ، خلال تلك الفترة شعرت بأن عيون الزملاء فى القسم الإداري لقوات النحال تراقبني فى كل صغيرة وكبيرة رغم حسن التعامل والمودة التى بيننا وبالأخص سيرجنت عفلق "الشاويش عفلق" اللبناني الذي كان يشعر بود

ناحيتي وبالأخص حينما يطلب منى تقليد صوت فيروز فى بعض أغنياتها فكان ينصت ويستمع ويتمايل طربا معلقا ، عظمة على عظمة يا ست ، ثم ينظر ناحيتي ضاحكا متسائلاً: أليس هذا ما يقوله المعجبون بالسيدة أم كلثوم حين الطرب؟ أجيبه هذا صحيح لكن هناك ست واحدة وهي أم كلثوم ، يعلق: أنت محق فيما تقول.

أحد الأيام أخبرت تراجي أثناء زيارتي لهم بما أقوم به مع جيش الدفاع، لم أتخيل أو أتوقع هذا التصرف منها ، لقد تبدل حال الفتاة وأصبحت كارهة النظر إليّ ثم نهضت وتأخرت قليلا ثم عادت وهي تطلب مني بجفاء ألا أعود لزيارتهم ثانية ، حاولت توضيح ما أقوم به لكن الغضب والإنفعال طغي على كل شيء بل وصل إلى أسرتها حيث أقبل كل من الأب والأم مؤيدين تصرف تراجي مما إضطرني لمغادرة الخيمة عائداً إلى مكان عملي حاملا معي كل ذكري سيئة لأقصي درجة فقد ضاع الحلم المكتسب الذي إستطعت إستخلاصه فى تلك الأجواء المشحونة بالحرب والإحتلال وتناثر الدماء.

شعرت رحيل صباح اليوم التالي بأن هناك ما كدر صفو مزاجي ، حاولت الإستنتاج ولم تستطع أن تصل لقلب الحقيقة ، إستفسرت عما قمت به مع تراجي من تصرف طائش ، أشعرني هذا بالغضب ولم أقوي على الإجابة ، تتساءل: هل حاولت تقبيلها أو الإقتراب منها أكثر من اللازم مما دفعها للغضب وأنت تعلم مقدار تمسك البدو بالقيم والأخلاق ، نظرت إليها مندهشا بأن تفكر بمثل هذا متسائلاً: كيف يصل بك التفكير لهذا؟ فأنت تعلمين كل شيء عني كما تعلمين كل شيء عن البدو ؛ تضحك وتعود

برأسها للخلف مرددة: شقاوة محبين!!

أحد الأيام وأنا بمستودع المواد الغذائية ؛ حيث أقوم على تحميل اللوري الخاص بمركز رحيل ؛ سمعت حوارا بين إثنين من الجنود وأنا بداخل المخزن ؛ حيث كان الشباك مفتوحا على مصراعيه بأن جيش الدفاع أعد قاعدة صواريخ جنوب سيناء قريبا من جبل كاترين وبعد الإنتهاء من تلك القاعدة سوف يستطيع الجيش تدمير سد أسوان الجديد الذي قامت حكومة عبدالناصر بإنشائه وذلك بإستخدام صواريخ أرض /أرض ، ولم يتبق إلا القليل ؛ أي عدة أشهر ويستطيع الجيش إغماد خنجر آخر في قلب عبدالناصر وشعبه مثل الخنجر الذي أغمده العام قبل الماضي بهزيمة جيشه فى سيناء ومقتل عشرات الآلآف وجرح عشرات الآلآف بالإضافة إلى أسر أكثر من ثمانية آلاف ضابط وجندي.

أسعد هذا زميله الآخر حيث علق قائلاً: توقف عن الحديث ولا تنسي أن بيننا واحداً منهم ، علق الآخر: تقصد صابر هذا الجلف الغبي؟ يجيبه بالإيجاب فيضحك الزميل معلقا بأنه لا يفهم الفرق بين البقرة والحسناء ، ألا تعلم أنه يقيم مع السيدة رحيل ، تلك الرائعة الفاتنة الجميلة وينظر إليها كما ينظر الأبله إلى البقرة فى إنتظار روثها ولبنها ، ضحك الإثنان ؛ حيث خرجت أحمل الجوال الثقيل وقد بدا التعب والإرهاق على حالي ؛ حادثني أحدهم: صابر.. ما هي نوعية العلاقة بينك وبين السيدة رحيل؟ بعد أن وضعت الجوال فوق اللوري وحصلت على نفس كامل جلست قليلا بجواره معلقا: دي أختي الكبيرة ، إنفجر الإثنان بالضحك وحاول آخر أن يكشف المستور بأنه توجد بعض ملاطفات مثل .... نفيت هذا ولا يجب أن تتقول

عليها بذلك ، علق الآخر: هل تعتبر السيدة رحيل سيدتك وأنت خادمها؟ صمت وكدت أتشاجر معه فقد تذكرت كلمات جاستون الملعون وهو يشبهني بهذا الوضع المذل.

غادرت المكان لأعود لإستكمال عملي حيث علق أحدهم قائلا ألم أقل لك بأنه أبله وينظر إلى تلك القطعة من الألماظ المتحرك نظرته إلى البقرة ، واصل الجنديان الحديث فى أمور أخري بينما إستكملت حمولة اللوري بعدها أقبل المشرف وراجع نوعية وكميات التحميل فتأكد بأنها مطابقة للكشف المسلم لي ؛ سلمني تصريح مغادرة المعسكر ، حيث كنت أقود اللوري بسرعة راغبا بأن أخبر العجوز والشاويش إدريس بما سمعته ، وصلت إلى المركز وشاهدت رحيل تجلس أمام خيمتها تلاحظ هارون يلاعب بعرور والكلب ليفي ، صاحت بعبارات الترحيب ، نهضت ونفحتني قبلة أخوية وأنا أفكر فيما صبه الجنديان من أخبار ومعلومات وإستنتاجات فاسدة عن علاقتي بها.

تركتني رحيل وطلبت مني الجلوس كي تعد مشروبا دافئا لكلينا ، جلست وأنا أتابع خطوات سيرها ورشاقة جسدها وأردد ، هل تلك الفاتنة يجب أن يقال عليها ما سمعته اليوم؟ تنبهت بأنني شاهدت بعيني أكثر مما قيل عنها ، إستغفرت الله وقلت فى نفسي إن الله يقبل توبة عباده ، سمعت صوتها يحادثني مقدما لي كوبا من الشاي الذي أسعدتني رائحته قبل تناوله ، جلسنا نتحدث قليلا ثم نهضت وأفرغت حمولة اللوري وارتديت جلبابي وأخذت ورقة وكتبت عليها سطرا موجزا وملخص لما سمعت " تعد العدة الآن لتدمير السد العالي بقصفه بصواريخ أرض /أرض من منطقة سهل

جبل كاترين ، الأعمال قاربت على الإنتهاء ".

شاهدتني رحيل أستعد لركوب شهاب فتساءلت ، يا تري إلـى أيـن؟ صمت ولم أكن قد أعددت ردا لمثل هذا السؤال لكنها أكملت: أيـوه رايـح للحبيبة ، قلبي معاك ، مش تنسي تبوس لي تراجي ؛ أعقبت هـذا بـضحكة عالية الصوت ، ضحكت لضحكتها مؤكدا بأنني لو نفذت وصـيتها سـوف يقتلني أبوها وعشيرتها ؛ أسرعت بشهاب فى طريقي المرسوم بخيالي حتي وصلت إلى ماسورة المدفع قبل حلول الظلام ، نظرت حولي ثم تأكد لي أن الأمور على ما يرام فإنحنيت بجوار الماسورة كأنني ألبي نداء الطبيعة فمن المحتمل أن هناك من يراقبني بنظارة الميدان ويتعرف عليّ ؛ حيـث أننـي أركب الفرس شهاب ومعروف عنه أنه يقيم بخيمة رحيل ، بسرعة أخرجت الورقة من السرج من فوق ظهر شهاب حيث كنت قد وضعته بداخل كـيس صغير من البلاستيك المخصص لتغليف علب الشاي ، بسرعة دفعت به إلى داخل الماسورة ، نهضت مسرعا متجها لفصيلة الحدود ، هنـاك إسـتقبلني الرجال بالترحيب والسعادة مؤكدين لي بأنك أصـبحت لا تخـشي العـدو ودورياته بعد أن حصلت على ترخيص يسمح لك بالحركة فى أي إتجاه وأي مكان بإستثناء المواقع العسكرية.

إنتحيت بالشاويش إدريس جانبا وأخبرته بـالخبر الـذي سـمعته مـن الجنديين: نظر إليّ الرجل قائلاً: والله أنت تستهج "تستحق" مكافأة يا صابرا، قبلني وطلب منى العودة حتى لا يرتاب بنا أحد فمن المحتمـل أن يراقبنـا البعض ويعلم بعلاقتك بنا حيث أنهم مازالوا يجدون فى البحث عنـا حيـث أخبرني حمدان مهرب المخدرات بهذا ، شكرته وعدت مسرعا خلال الليل ،

كنت أثناء تجولي مسموح لي بحمل سلاحي الشخصي وهو عبارة عن رشاش ماركة عوزي إسرائيلي سريع الطلقات حيث أعطاني هذا الرشاش الأمان للدفاع عن نفسي لو إعترض طريقي بعض الذئاب أو الضباع القاتلة.

***

صاح بي الشاويش إدريس مخاطبا: رباح : أعد الترانزستور الذي أهداه إلينا الشيخ حمدان كي نستمع لمحطات الإذاعة المختلفة عما يتم على جبهة القتال بين الجيشين المصري والإسرائيلي من قتال شرس يدور بين الجيشين دون هوادة يترتب عليه وقوع قتلي من الطرفين ؛ أسرعت بالتنفيذ وعلق العريف أحمد الطيب مكررا ما سبق وعلمناه بأننا كنا نشعر بهذا عن طريق بعض البدو الذين يشاهدون الطائرات الهليكوبتر التى تعمل كإسعاف والتى تقوم بنقل الكثير من جرحي جنود جيش الدفاع إلى مستشفي العريش العسكري والبعض ينقل إلى داخل إسرائيل للعلاج ومن لقي حتفه فينقل لدفنه.

***

خلال عملي الذي كنت أقوم به كسائق ومندوب تسلم الأغذية لمركز المساعدات التى تشرف عليه السيدة رحيل علمت الكثير مما يتداول بين الجنود من أحاديث حول الخسائر التى لحقت بقواتهم على الضفة الشرقية لقناة السويس سواء من قصفات سلاح المدفعية المصري أو من هجمات تقوم بها مجموعات من قوات الكوماندز المصرية على جنود جيش الدفاع هناك وقد سبب هذا المزيد من الخسائر بالأرواح بل إلي الخوف والخشية

من توجه الجنود للخدمة على ضفة القناة فى مواجهة الجنود المصريين.

هذا يوم لن أنساه ، كان أحد أيام شهر إبريل من عام ١٩٦٩ حيث شاهدت عدد من الجنود يلتفون حول بعضهم البعض على هيئة دائرة ويتحدث بعضهم بينما يبكي البعض الآخر وقد آثار هذا فى قلبي الخوف من ردة فعلهم ، شاهدت صديقي السيرجنت عفلق اللبناني الذي أقبل عليّ أثناء حمل أحد الأجولة الثقيلة قائلاً: عارف إيه حصل فى جنوب سيناء؟ أشرت إليه بأنني لا أعلم ، حرك رأسه دليلا على تأكده من هذا ثم قال تعرف إن المصريين المجرمين بعتوا رجالهم من الكوماندز وهاجموا قاعدة موردخاي بعد أن تم إنشائها وتزويدها بالصواريخ لتدمير مشروع سد أسوان اللى جمال عبدالناصر أزعج الجميع بيه ، ده مشروع خطير ولو تم ح تكون هناك مشكلة لإسرائيل ، عشان كده جيش الدفاع صمم على تدميره بصواريخ أرض /أرض لكن حظنا السيئ أن فيه بعض الجواسيس قدروا يعرفوا المعلومات دية وبعتوها للقاهرة وهما بدورهم بعتوا شوية كوماندز وش إجرام ونسفوا القاعدة وكان المخططين للهجوم فى غاية الذكاء ، لم يهاجموا القاعدة إلا بعد أن تم تخزين مئات الصواريخ الضخمة شديدة الإنفجار والتي أصبحت متخمة بالجنود والضباط والخبراء والمهندسين ، التقديرات الأولية بتقول أن القاعدة أصبحت لا جدوى منها ولا يمكن إصلاحها لكن أخطر ما فى الحكاية أن حوالي ٤٩ قتيل وقعوا لحد الآن والجرحى تعدوا المتين ، والأدهى من كل هذا هو فقد رأس أحد الصواريخ واللي بداخله تكنولوجيا عاليه وأمريكا عملت مشكلة مع الحكومة الإسرائيلية لتقصيرها فى فقد رأس الصاروخ ، تصور أكثر من خمسة آلاف جندي من جنود الكوماندز الإسرائيليين مسحوا سينا بدورا على المصريين اللى عملوا العملة

دية ، لكن ما فيش حس ولا خبر وكأنهم تبخروا مع دخان إنفجارات القاعدة.

غادرت المستودع فى حالة من السكرة والإنبهار ؛ بعد مسيرة عدة كيلومترات توقفت أستعيد ما قيل ، تلك هي المعلومات التى علمت بها منذ أكثر من خمسة أشهر وقمت بإبلاغ العجوز بها وللشاويش إدريس أيضا ، أتساءل: هل كان لي نصيب فى تحقيق هذا الإنجاز ولو بقدر ضئيل بنقل تلك المعلومة؟ شعرت بأنني تجاوزت حدودي وما أنا إلا شيال أعمل مع رحيل نظير الإعاشة التى تقدمها لي وبعض المساعدات التى تعدت العامين حتى الآن لأصدقائي رجال الحدود ، من أجل هذا طردت تلك الأماني وقررت أن أعيش على المستوي الذي أنا عليه وأن هناك من الأجهزة الكبيرة التى إستطاعت أن ترسل بتلك المعلومة بل وغيرها إلى القيادة بمصر.

مضي اليوم على خير ما يرام ، توجهت لمكان نومي أشعر بإعياء نظير ما قمت به من أعمال وبالأخص حمل أجولة الدقيق ، أكثر من أربعين جوال زنة الواحد خمسة وسبعين كيلو جرام دون مساعدة من أحد ثم تفريغهم بعد ذلك بمعسكر رحيل دون مساعدة ، كدت أن أغفو في نومي ولكني شعرت بحركة قريبة من مخزن الأجولة التى أنام به ، نهضت حذرا خشية هجوم مباغت من حيوان مفترس أو لص راغب بسرقة بعض المعونات ، لم أستمع لأصوات الكلب ليفي صديقي الذي كنا نأكل بطبق واحد لمدة أسبوع كعقاب من رحيل ، بعد قليل سمعت وقع أقدام تسير بالقرب من جدار الخيمة السميك ، جلست حذرا وتوقعت أن القادم رحيل والتي ستأتي شبه عارية فقد أقبل الصيف ومن أجل هذا سوف تتخلص من بعض الملابس لإرتفاع درجة الحرارة وأيضا رغبة فى الإغراء كي تشبع بعض نزواتها رغم علاقة

الإخوة التي أبغي أن تظل قائمة بيننا ، سمعت صوتا لا تخطئه الأذن ؛ صابر .. صابر .. هذا الصوت هو صوت العجوز والذي تميزه نغمة جافة حادة وأيضا بحة في النطق ؛ أجيبها: أسمعك يا أمي ، خرجت من الخيمة للقائها لكنها دفعتني للداخل قائلة: رغبت بأن أخبرك بنفسي وليلا حتى لا يراني أحد ، أنت بطل همام يا صابر ، ألا تتذكر المعلومة التى تركتها بورقة بداخل المدفع الصدأ القريب من جبل الحلال؟ أجيبها: نعم، وقد مضي أكثر من خمسة أشهر على هذا الحدث ، نعم لكن نتيجته حدثت أمس الأول حيث أقبل رجال مصر البواسل وقاموا بنسف القاعدة بمن فيها ، الأعداء فى حالة من الذعر والضيق ولهم رغبة جامحة لمن يرشدهم على من حصل على تلك المعلومة ، أنت يا صابر .. حينما أرسلت بتلك المعلومة للقيادة أرسلت بفريق آخر كي تتأكد من تلك المعلومات وقد أفاد هذا الفريق بدقة ما حملته من أخبار وفي خلال تلك الفترة كانت هناك قوة مصرية قد أنهت تدريبها وسبقها أحد ضباط المخابرات الحربية من مصر والذي أرسل إليهم بتأكيدات ومعلومات ساعدت على دقة التنفيذ فى الوقت المناسب حيث كانت القاعدة مُعدة للعمل وكانت تنتظر زيارة وزير الدفاع الإسرائيلي ولهذا كانت متخمة بالضباط والجنود والفنيين والمهندسين والإعلام ، كانت الخسارة قوية ، جئت أبارك لك عملك ، شكرتها وتساءلت كيف وصلت إلى هذا المكان دون أن يشعر بك الكلب ليفي؟ ضحكت بهدوء وأخبرتني بأنها ألقت بقطعة من اللحم بها مخدر وبعد أن خلد ليفي فى نومه من تأثير المخدر قدمت لك من الفناء الخلفي!!

* تم ذكر هذه العملية العسكرية بالتفصيل برواية "عابد المصري" لنفس

أتساءل بدهشة: الفناء الخلفي؟ أنا لا أعلم بأن هناك فناء خلفياً ، أخذت بيدي ودخلت من السرداب الذي تحيا به الناقة وأمشير وشهاب وبعرور ثم سارت حتى النهاية فلاحظت أن السرداب يتلوي لأحد الأجناب ثم شاهدت ضوءا يطل من فتحة بأعلاه ضوء القمر ، ظلت تسير وأنا أتبعها فى ممر مرتفع حتى وصلت لقمة المرتفع الصخري وهبطت ثانية فشاهدت أرضا منبسطة تكسوها الرمال وتحيط بها الصخور ومن غير الممكن إختراقها بالعربات المدرعة أو الدبابات.

شعرت بسعادة لهذا الإكتشاف ، شاهدت الجمل الخاص بها ومازال واقفا يتناول بعض العشب ، صدرت منها بعض الكلمات فأسرع الجمل ناحيتها ملبيا النداء ، أشارات إليه بما يعنى إخفض جسدك أي إبرك ، برك الجمل وقفزت فوق ظهره فنهض الجمل دون أمر وأسرع بها لتغيب بداخل ظلام الليل الذي يبدده ضياء القمر ، جلست قليلا أتمعن المنطقة المحيطة بى ثم عدت أدراجي وتسللت إلي داخل الخيمة فشاهدت حورية الليل تجلس بوضع يثير الإنفعالات ، لقد كانت رحيل ، والتى تساءلت أين كنت؟ فأخبرتها بأنني كنت أتفقد أصدقائي من الحيوانات ، ضحكت لهذا مرددة ألا تعطي بعض الوقت لأصدقائك من بني الإنسان ، من بني وطنك ، من التى تجلس أمامك وقد ترملت مبكرا؟

ظللت واقفا بينما كانت تشير إليّ بالجلوس ، أتردد وأعلق بكلمات مضطربة فالليل طويل هادئ لا يعلم ولا يرانا سوي الواحد القهار الذي

لولاه ولولا تذكره لوقعت الواقعة ليس لها من منقذ ، رحيل: أنا أحبك كما سبق وإتفقنا وأرجو أن يظل هذا الإتفاق مستمرا ، تتردد في الإجابة: أعلم لكنني فى شوق لسماع كلمات جميلة من رجل يشعرني بأنوثتي التى لا زالت شهية قوية ، ألا تبغي أن تكون هذا الرجل؟ مازالت واقفا أتفصد عرقا وشبه محموم بين الرغبة والرهبة من عذاب الواحد القهار ، بين التردد والتمنع ألوي وجهي للخارج باكيا بجوار الخيمة.

أشاهدها ترفل فى ثوب فضفاض حريري وتنحني قريبا من رأسي وتضمها إلى صدرها مهدهدة على ظهري متسائلة: ما الذي يبكيك؟ أردد لا أستطيع الإقتراب منك ولا أستطيع الإبتعاد عنك وأرجو منك إذا كنتِ تحبين أخاك صابر ألا تفعلي تلك الأشياء أمامي حتى لا يحدث لي هذا الإضطراب، مازالت تهدهد على رأسي المستلقية على صدرها شبه العار ، تماسكت رحيل وساعدتني على الوقوف ولملمت نفسي المبعثرة وأخذت بيدي وسارت بى حتى باب خيمتها ومازالت الهواجس والأفكار الشيطانية تزينها لي ، من أجل هذا كنت أنتظر كل ما هو سيئ وجميل فى آن واحد ولم أعد أستطع أن أفاضل بين تصرف وآخر.

بداخل الحجرة التي تستقبل بها ضيوفها ساعدتني على الجلوس وأسرعت بالإختفاء ثم عادت ثانية بعد عدة دقائق بعد أن سترت جسدها ببعض الملابس حماية من سهام نظرات عيني الملتهبة لتلك اللوحة المتحركة التي أبدع الخالق فى خلقه ، مدت إليّ يدها بفوطه مبللة بالماء طالبة منى تجفيف عيناي ، جلست قريبا منى وقبلت خدي كعادتها وشعرت بأن الإخوة عادت ثانية كي نتمتع بها بعد أن تلاشي العشق المحرم ليحل محله حلال الإخوة

في التعامل والعلاقة بين إثنين ، بعد قليل قدمت لي مشروبا جميلا وتحـدثت فى أمور شتي ثم ودعتني أمام باب الخيمة متسائلة: ألا تقبل أختك الكبيـرة قبل نومها ، عدت وقبلت وجنتيها وشعرت بنسمات ريح طيبة أشـتمها مـن رائحتها التي تميزها حين لمست خديها ؛ عدت مسرعا إلى خيمتي أنـتفض من خشية الله وأتساءل: هل أستطيع مقاومة هذا الإغراء فى كل مرة؟

ظلت العلاقة طيبة بيني وبين رحيل ورغم هذا كان يراودني من حين لآخر هاجس الخوف بأن تعود لمزاولة الضغط عليّ ، مضي علـي حادثـة محاولة رحيل تغليب عاطفة الشهوة على علاقة الأخوة عدة أسـابيع كنـت خلالها فى حالة من السكون ؛ حيث كنت أقوم بأداء عملي خير قيام سـواء بإحضار المؤن من المستودع الرئيسي أو بالقيام بصرف تلك المؤن للعائلات البدوية الفقيرة التي تأتي إلى نقطة التوزيع التي تشرف عليها رحيل ، أيضا كنت أشعر بسعادة طوال نهار اليوم بما أشاهده من تفاهم غريب ومدهش بين كل من هارون وبعرور والكلب ليفي ، لا أعرف أو أعلم لغة التخاطب بينهم حيث كانوا يقتفون أثر بعض بل حين موعد رضاعة بعرور كانت أمه تخرج أصواتها تطالبه بالعودة إليها كي يتناول طعامه بعدها يتركهـا ليلهـو مـع أصدقاءه.

خلال رضاعة بعرور كان كل من هارون وليفي ينتظراه قريبـا مـن مكان وقوف أمه التى كانت تزمجر غاضبة حين تركه للرضـاعة والنظـر لأصدقائه بما يعني أنا ح أخلص الرضاعة وأجي بسرعة كي نلعب وربنـا يفرجها وأكبر وأعتمد على نفسي في الأكل زيكم ، حين ينتهي بعرور مـن وجبته يترك أمه ويقفز لأعلي بينما هارون وليفي يهرولان خلفه ، وخـلال ذلك تقوم أم بعرور ووالده أمشير بمتابعته بشغف ولهفة ، كانت تلك العلاقة تجذبني للمشاهدة مما دفعني لمتابعتهم وتجاهلت عن غير عمد نداء بعـض البدو الراغبين فى صرف المستحقات التموينية التى جاء موعد صرفها مما

دفع برحيل إلى رفع عقيرتها طالبة منى فتح البوابة والقيام بواجباتي وتـرك الصغار فى لهوهم.

نهضت متثاقلا بضيق لمن كدر صفو متعتي لمتابعة تلـك العلاقـة بـين مختلف المخلوقات اللذين يجمعهم حب اللعب واللهو ، تحركت تجاه البوابـة الخارجية فشاهدت من خلال الأعمدة الحديدية من لم أكن أتخيل لقائها ، لقد أقبلت تراجي وشاهدتها باسمة الطلعة رقيقة البسمة مخضبة البشرة وقد ظهر ثغرها عن إبتسامة طيبة مرددة:

ـ كيفك صابر؟

ـ الحمد لله ، أزاي أحوالكم وأحوال عم إسماعيل

ـ كلتنا بخير ، كلتهم باعتين لك سلامات كتير أكبر من جبل لبني

ـ شكرا تراجي ، فتحت البوابة وسارت تتهادي بخيلاء بنات حواء وسرت خلفها حتى جلست قريبا من خيمة رحيل التى كانت تتابع المشهد منذ بدايتـه فضحكت معلقة:

ـ يخرب عقلك يا صابر .. دا أنت حكايتك حكاية .. كده يا تراجي تلخبطي حال أخويا؟

ـ نظرت إليّ تراجي راغبة أن تستوعب الكلمة ، أخويا!!

غادرت رحيل لشأنها بينما كنت أقوم على تجهيز الصرفية الخاصة

بأسرة تراجي التى لحقت بى عند المخزن راغبة بمعرفة ما سمعته منذ قليل.

ــ صابر .. إيه حكاية أخويا؟ أنا عارفه إنها يهودية ، هو أنت زيها يهودي؟

ــ لأ مش كده .. الفكرة أننا أخوات فى الوطن ، أصلها مصرية زيّ وزيك لكن الظروف دفعتها تروح إسرائيل.

ــ وتخدم فى جيش الدفاع بتاعهم؟

ــ زي حالي ، مش أنتِ زعلتي من الحكاية دية ؛ إقتربت مني باسمه.

ــ صابر .. أنا أحبك!!

ــ يخرب بيت عقلك يا تراجي ، دا أنت بقيتي جريئة ، مش خايفه لحد يسمعك؟

ــ صابر .. الإنسان البطل اللي يعمل لصالح بلده لازم كل الناس تحبه وخصوصا اللي جلبها بيميل ناحيته

ــ قصدك إيه؟

ــ أم سينا جت ليا أولة إمبارح وحكت ليا على كل اللي عملته من أجل بلدنا

ــ أم سينا؟ مين أم سينا؟

ـ الولية العجوزة اللي بتجابلك كل كام يوم!!

ـ ياه .. اسمها أم سينا؟

ـ كل الجبايل بتجول عليها كده ، محدش يعرف هيا من جبيلة مين ، محدش يعرف دارها فين ، ناس كتيره بتجول إنها طول الليل والنهار بتلف من مكان للتاني وشايله معاها على ضهر الجمل شيكارة فاضيه فيها هدمتين وغطا للنوم وكام صحن ، بتنام فين ما نعرف؟ والنبي لما تجابلك إيجي ناولها شوية طحين وشوية سكر وشاي ، أصلها غلبانه خالص من يوم ما ضناها جتلوه اليهود وهيا بتلف سينا زي النحله ، صابر .. أم سينا هيا اللى جالت ليا علي إللي عملته واللي ودا اليهود في داهية فى جبل كاترين ، بس وصتني ماعرفش حد حتي أبويا لأن ده خطر عليك.

ـ ياه يا تراجي .. الست دية محتاجه للعون؟ عمرها ما طلبت مني ولا كسرة خبز

ـ ماتعرف أن فيه ناس عنديهم عفة نفس وجناعه؟ هيا منهم ، عمرها ما طلبت حاجه من حد ، بس لما تجابلك إيجي إعزم عليها تاكل وجدم لها شوية الطحين والسكر وربنا يكافئك.

ظل حوار تراجي يطن بأذني ليس بسبب ما قالته عن شخصي من البطولة وخلافه ولكني تأثرت لحال تلك المرأة العجوز أم سينا التى تقوم بقطع سيناء شرقا وغربا ليل نهار حر وبرد وتتعرض لكمائن اليهود وكل غرضها خدمة وطنها والإنتقام ممن حرمها نعمة الابن ونعمة الإستقرار

ومن أجل هذا قررت أن تذيقهم مرارة البؤس وعدم الإستقرار كي يتجرعوا من كأس الحزن والبكاء وفقد العزيز.

أثناء الليل تسلطنت كما يقول العامة وقمت بتقليد أم كلثوم وهي تتغني بأغنية "رق الحبيب" إحتفالا بعودة الحبيب تراجي إلى أحضان قلبي الذي أفتقدها عدة شهور وما قامت به من الهجر والبعد عني بسبب إستنتاجها بأنني خائن لوطني ولكن حين علمت الحقيقة أقبلت سعيدة فرحة حتى لاحظت أنها كانت في حالة من التردد وأنها راغبة بأن تمنحني مكافأة البطولة بحضن ناعم دافئ القلب مثلها ، يا لكي من عزيزة رقيقة يا تراجي ، وشكرا لأم سيناء وأم المصريين وأمي ، طفرت بعض دموع من عيني حين تنكرت الأم فعدت بذاكرتي لما كانت تقوم به أمي بعد وفاة أبي كي تقوم على رعايتنا وإطعامنا ، أردد .. آه .. الجنة تحت أقدام الأمهات .. لك الفخر والعظمة يا مصر بأمهات أنجبتهم منذ قديم الأزل وأذكر منهن " آسيا زوجة فرعون التى حنت على نبي الله موسي وأم موسي لما تحملته من آلام فقد الرضيع بإلقائه في النيل ثم هاجر أم إسماعيل نبي الله والتى ظلت وحيده فى صحراء الجزيرة العربية بوليدها ، أيضا زوجة سيدنا محمد السيدة ماريه القبطية وشجرة الدر التى سارت بالحكم أثناء تهديد الأعداء لمصر وأخفت على الجميع نبأ وفاة زوجها الملك الصالح أيوب حاكم مصر في تلك الحقبة ثم مرورا بالعصر الحديث من سيدات نفخر بهن فى مجالات العلم والأدب والفن وخلافه ، إن تراجي حفيدة تلكم النسوة وأيضا رحيل لكن السياسة أفسدت الكثير من النفوس وأذلت الكثير من المبادئ والقيم.

مضي على هذا اللقاء الدافئ بتراجي أكثر من شهر ، أثناء جلوسي ليلا

وحيدا أعد النجوم فى ظلمة الليل الطويل شعرت بمن يقترب مـــن موضـــع جلوسي بالمنطقة القريبة من أصدقائي وأحبائي من الحيوانات ، شاهدتها فى ظلمة الليل وكأن مصباحا يتحرك ، كان الضياء ينير هذا الوجه الطيب الذي لاقي العذاب والهوان على الكبر ، نهضت أقبل يدها :

ـــ أهلا أم سيناء

ـــ شكرا يا صابر

ـــ إيه رأيك ناكل سوا؟ أنا م أكلتش لحد دلوقتي

ـــ بقالك أد إيه مكلتش؟

ـــ خمس ساعات

ـــ اللي جدامك محطتشي كسرة خبز فى معدتها من تلات تيام!!

ـــ حالا ح أروح أجيب الأكل وناكل مع بعض ، خدي راحتك لحد ما أجيب الأكل .. إدخلي ريحي جسمك جوه في المخزن وأنت عارفه المكان.

أسرعت لخيمة رحيل ودخلت المطبخ بهدوء فشعرت بى وتساءلت عمـــا أريده؟ أخبرتها بأنني أعد أكله بسيطة ، عرضت مساعدتها فشكرتها وطلبت منها أن تظل بجوار هارون ، أخذت الكثير من الطعام وتوجهت لأم ســـيناء ودخلت عليها فشاهدتها تغط فى نوم عميق ، حاولت إيقاظها لكن السيدة كان باديا عليهـــا الإرهـــاق ، تركتهـــا وظللت أراقبها أثناء نومها فغفـــوت

أيضا ولم أنتبه إلا على صوتها راغبة بالبحث عن الماء كي تقوم بالوضوء لتؤدي صلاة الفجر والصبح قبل شروق الشمس ، رافقتها حتى توضأت من بئر المياه وشاهدتها تجفف يديها بالأسمال البالية التي تستر جسدها الواهن الضعيف ، قامت أم سيناء بتحديد جهة القبلة بدقة تعجبت لها وأدت الصلاة ثم أنهتها فقدمت لها الطعام ، تناولته على مهل وروت فمها بقليل من الماء البارد من البئر ثم نظرت إليّ وركزت نظراتها إليّ فأصابني التوتر والخوف ثم تحدثت قائلة:

ـ صابر .. عايزاك ترسم صورة للمعسكر اللي أنت بتجوم بنجل المؤن منه كمان تكتب أسماء بعض الضباط به وأي إضافة أنت شايفها ، بعد كده أنت عارف فين صندوج البوستة بتاعي ، نهضت راغبة فى الرحيل فطلبت منها أن تأخذ بعض الأطعمة ؛ حيث كانت رافضة لكني أقنعتها وبالأخص حينما ناديتها بلقب أم سيناء ، ثم ناولتها عبوة صغيرة تشمل الدقيق والشاي والسكر فقدمت شكرها بدعاء لله بأن أنال بغيتي وأتزوج من تراجي هذا الأسبوع مما أدخل البهجة والضحك إلى قلبي ، كعادتي رافقتها حتى مكان وقوف الجمل وما أن شاهدها حتى أسرع لها وبرك أرضا وقفزت فوق ظهره بلياقة بدنية تحسد عليها ونهض الجمل فورا وأسرع الخطي قفزا ولم أعد أميز سوي نقطة بنية اللون عن بعد.

سارت الأمور علي ما يرام ولم يجد جديد على أحوالي كما أن رحيل إلتزمت الحيطة والحذر فى التعامل معي وأعتقد أنه أصابها نوعا من خيبة الأمل أو شعور بالإحباط بأن أنفر منها وقد أثر هذا على كبريائها وهي السيدة الجميلة التى يخطب ودها الكثير من الرجال ، كما سارت أموري

العادية في عملي بالتوازي مع إعتكافها عني وقد شغلتني مشاهدة ومتابعة الأصدقاء الثلاثة الذين يلهون بجواري وكأن سعادة الدنيا بين يدي ، كما أنني قمت بزيارة أصدقائي من رجال الحدود وأسعدني اللقاء بهم وثنائهم على ما أقوم به من إمدادهم بما يحتاجون من مواد غذائية ، حينما علم إدريس بما دار بيني وبين العجوز أسعده هذا حيث أخبرني بأنه لم يستطع إختراق الدوريات الإسرائيلية الكثيفة على شاطيء القناة كي يقوم بتوصيل المعلومة السابقة بقاعدة الصواريخ ، كما أكد علي صحة حديث العجوز لي وشجعني على مواصلة الإمداد بالمعلومات وبالأخص التي طلبتها العجوز أم سيناء مؤكدا بأنها تعمل مع رجال منظمة تحرير سيناء.

تم اللقاء التالي مع تراجي أثناء قيامي بزيارة موقع القبيلة ومدي الترحيب الذي إستقبلت به وقد راودني الإضطراب والخوف بأن تكون تراجي قد ذل لسانها بالسر التى أخبرتها به أم سيناء ولكنها نفت هذا موضحة بأن ما جد هو أنها أخبرت أسرتها بأن ما يقوم به صابر هو من صميم الأعمال الوطنية التي تصب في صالح أبناء مصر بسيناء حتى لا يقطع العدو المعونة الغذائية عن أبناء سيناء ولهذا فإن صابر يتحمل المجهود الكبير وتعنت القادة العسكريين لجيش الدفاع وقادة منظمات الناحال الإسرائيلية والذين يتميزون بالتخلف والجهل والعصبية ، كل هذا من أجل أبناء سيناء.

حكيت لتراجي عما دار بيني وبين أم سيناء بخصوصها وأن هذا الأسبوع لن يمر دون أن نحقق خطوة للأمام فى طريق الزواج والإرتباط مما دفعها للضحك معلقة بأنه قد مضي أكثر من أسبوع بل شهر أو يزيد

على تلك النبؤة ولم يحدث أي شيء ، نهضت وغابت وعادت بعد قليل وجاء فى إثرها عم إسماعيل الذي فاتحني بأنه يوافق على ما قلته لإبنتـــه تراجـــي بأنك راغب بالتقدم إليها وقراءة الفاتحة وهذا نسب يشرفني ويـــشرف أبنـــاء القبيلة ، شاهدت الرجل يمد يده اليمني فى مواجهتي فدفعت بيدي وتصافحنا وقرأ كل منا الفاتحة وهكذا أصبحت فاتحة خطبة تراجي قد تم قرأتها علـــي صابر ويعتبر هذا أول خيط للترابط الإجتماعي مع تراجي.

جلست جلسة طيبة وأنا أنظر إلى تراجي نظرات فاحصة كي أتبين الخبـــث والدهاء التى تتمتع به بعد أن وضعتني فى موقف حرج مع والدها رغـــم أن ما تم كان أمل حياتي وحلم صباي ، وحينما علمت تراجي بما أفكـــر فيـــه إندفعت ضاحكة مقررة بأن لها السبق فيما أرادت مقررة أن بنات مـــصر لا تنقصهم الشجاعة أو الذكاء ولن يجلسن بالدار ينتظـــرن العـــريس الـــذهبي المخلص لهن من عبودية الأب أو الأم.

بطولة حتى النفس الأخير

شعرت بشوق جارف لإستخدام البندقية القناصة ، ففي خلال الشهور والأسابيع الماضية شغلتني الأحداث عن هذا السلاح ، توجهت إلي السرداب الذي أحتفظ فيه ببندقية القناصة وبحثت عنه حتي عثرت عليه ، فضضت الغلاف القماش وفحصت البندقية فوجدتها على حالها حيث كنت أخشي أن ينالها الصدأ من تركها لفترة طويلة دون إستخدام ودون القيام على نظافتها وتزييت أجزائها ، جلست لفترة طويلة في إنتظار هدف كي أقتنصه وأشفي به غليلي من تصرفات الأعداء دون فائدة وقد قارب ضياء الشمس على الظهور دون مشاهدة أي أهداف ، أعدت البندقية ثانية وعدت إلي المستودع فشاهدت رحيل تنتظر عودتي وتساءلت بلهجة يغلب عليها التهكم:

ـ كنت فين يا صابر لحد دلوقتي؟ أكيد كنت بتمر على بيت الحبايب على رأي محمد عبدالوهاب

ضحكت لحديثها وإقتربت منها وطبعت قبلة علي خدها كالمعتاد فسكنت وشعرت بأنني الأخ الصغير الذي لا يغضب من مزاح شقيقته الكبرى ؛ أمسكت بيدي ودخلنا لداخل حجرة المعيشة والإستقبال وأعدت مشروبا تناولته مسرعا وتساءلت لماذا كل تلك العجلة فأخبرتها بأنني أبغي الإطمئنان على الجمال والحصان ولهذا فسوف أقدم لهم الطعام والشراب وأيضا أقوم على نظافة الحظيرة وأقوم على تجديد فرشها بالرمال النظيفة ، شجعتني وأخبرتني بأن هذا مجهود كبير سوف يأخذ الكثير من وقتك وتساءلت ألا تتناول طعام إفطارك أولا ؛ أشرت إليها بما يعني فيما بعد.

توجهت لأصدقائي وأخذت بحبالهم وتسللت من الممر التى أرشدتني إليه أم سيناء حتى خرجنا إلى المنطقة الخلفية فأسعدهم هذا وأخذوا ينطلقون لهوا وجريا وبالأخص بعرور الذي أخذ يقفز لأعلي وينظر يمينا ويسارا باحثا عن صديقيه ، قمت بعد هذا بوضع الطعام المكون من الشعير وعبوة كبيرة بها الماء ثم عدت إلى الحظيرة الرئيسية ووضعت الروث الناتج من بقائهم لفترة بهذا المكان بوعاء من الكاوتش "غلاً " كما أزلت المشمع الضخم الذي كنت قد وضعته أثناء موسم شتاء العام الماضي كي يقدم الحماية والدفء لهم، ظللت على هذا الحال لفترة طويلة وخلال هذا حضر كلٌ من هارون وليفي يبحثان عن صديقهما بعرور فأخذت بيد هارون حتى الفناء الخارجي وليفي يتبعنا وحين لمحهما بعرور ترك ثدي أمه وقفز عاليا مسرعا نحوهما وبدأ فاصل من اللهو بين الثلاثة.

منتصف النهار إنتهيت من نظافة الحظيرة وتوجهت للبئر وحملت الماء بالعبوة التى أحتفظ بها لهذا الغرض وأحضرت ملابسي التى قمت على غسلها منذ يومين حيث كنت أقوم على نشرها على أجناب بعض الصخور القريبة وقد جفت ، بدأت النظافة الشخصية وحصلت على حمام منعش وإستبدلت ملابسي بملابس نظيفة ثم توجهت إلى غرفة المعيشة فشاهدت رحيل تنام نصف نومه أي تنام بوضع الجلوس ؛ أشارت لي بأن الطعام بداخل المطبخ وقد تركته كي تتناول غدائك وعليه غطاء من السلك كي يحافظ عليه ويمنع تسلل أي شيء ضار له.

الحمد لله ، تناولت طعامي وتركت المطبخ بعد أن قمت على نظافة الأوعية التى بداخله مثل كل يوم وأيضا نظافة الأرض وتأكدت بأن كل

شيء بمكانه وكما تريد رحيل حتى لا تسمعني بعض الكلمات السيئة على أنني ، غادرت المكان فشاهدتها وقد خلدت فى نوم هادئ ، أغلقت باب الخيمة المزود بباب من السلك الذي يمنع الحشرات وخاصة الذباب من التسلل إلى داخل الخيمة.

تعدي الزمن منتصف عام ١٩٧٠ كما أخبرتني رحيل ؛ كنت أشعر بأنه لا جديد أستطيع أن أقدمه للوطن ولم أعد أتولي القيام بأي مهام نظرا لعدم وجود فرص سانحة أمامي كي أغتنمها ، لاحظت أن السيدة ناقة قد إزداد حجم بطنها وأكد لي هذا بأن السيد أمشير يقوم بواجبه خير قيام بينما شهاب ينظر إليّ متسائلاً: هل سأظل وحداني هكذا وح أعيش وحداني؟ أجيب علي سؤاله بإشارة مماثلة ، كلنا فى الهم شركاء ، أخذت بلجام شهاب بعد أن وضعت فوق ظهره السرج وقفزت فوق ظهره متجها إلي منطقة جبل الحلال؛ توجهت لماسورة المدفع الصدأ ووضعت بداخله ما سبق وأن طلبته مني أم سيناء "خريطة توضح أقسام المعسكر بالإضافة إلي أسماء بعض الضباط" ؛ أسرعت بالعودة ثانية إلي مستودع الأغذية.

هذا هو اليوم المقرر لنقل المؤن الغذائية إلى مستودع رحيل ، بعد أن إنتهيت من تحميل الأجولة وملحقاتها جلست هامدا خامدا من المجهود الذي بذل ، كنت أجلس فى ظلال اللوري ألتقط أنفاسي ، شاهدت مجموعة من الجنود يتحركون أمامي بخطوات بطيئة ويتبادلون الأحاديث وقد سمعت خيطا منها بأن جيش الدفاع سوف يقوم بإعداد تجهيزات هندسية على شاطئ القناة خلال وقف إطلاق النار الذي إتفقت عليه كل من مصر وإسرائيل وأن تلك الدفاعات سوف تمنع أي فكرة لتقدم المصريين لإسترداد سيناء من

أيدينا، خاض الرجال فى مناقشات طويلة وأسهبوا في شرح وتوضيح تلك المعلومة وكان باديا عليهم السعادة والفرحة ؛ حيث علق أحدهم قائلا بأن هذه التجهيزات لو تمت سوف تستغني وزارة الدفاع عن الكثير من الجنود وتقوم على تسريحهم ونعود لحياتنا العادية ونبتعد عن هذا المأزق الذي وقعنا فيه بالقتال مع مصر وإستمرار تلك الإشتباكات الطويلة الدامية التى ألحقت بنا خسائر كبيرة لم نكن نعتاد عليها وأصبحت حربا طويلة أنهكت الإقتصاد وأوقفت جميع الأنشطة بداخل البلاد ولولا الدعم الأمريكي لهلك الشعب لعدم توفر حاجياته الأساسية.

تلك المعلومات ظللت أستعيد معانيها وما يدور بمحتواها ووجدت أنها معلومات ليست ذات قيمة ولو كانت ذو قيمة ما تحدث بها الجنود بتلك الطريقة ، فهذا يعني بأنها أخبار عامة وليست ذات صبغة سرية ومن المحتمل أنهم تعمدوا الحديث أمامي كي يعلموا هل سوف أنقل أو أهتم بتلك المعلومات أم لا؟

تذكرت حديث السيدة العجوز أم سيناء التى قالت لي: صابر ؛ عليك نقل المعلومة كما هي ولا تتدخل في قيمتها من عدمه ، هناك رجال متخصصون يفهمون تلك المعلومات وما ورائها ، عليك فقط نقلها بصندوق البريد الخاص بى ؛ بعد أن وصلت باللوري لمستودع رحيل أسرعت وفرغت محتواه وأنا أقطر تعبا وإرهاقا فمنذ الصباح وأنا مثل الحمال بمحطة القطارات ولم أحصل على راحة بالإضافة إلي التفكير فيما سمعت وشغلني تفكيري فى تلك المعلومة لكن حين تذكرت حديث أم سيناء توقف تفكيري

وأصبحت أداة طيعة للتنفيذ.

لم أستطع خلال الوقت المتبقي من نهار هذا اليوم أن أتوجه للمدفع الصدأ الملقي بالعراء والذي سبق وأن أرسلت عن طريقه بعدة رسائل كان من أهمها رسالة قاعدة الصواريخ بمنطقة كاترين والتي أعدت لتدمير منشئات السد العالي قبل الإنتهاء منها وما ترتب عليه من وصول فرقة كوماندز مصرية قامت بنسف القاعدة بمن فيها وما ترتب عليه من خسائر بشرية ومادية هامة وأيضا فقد إحدي رؤوس التوجيه الخاصة بالصواريخ.

اليوم التالي أخبرت رحيل برغبتي بحمل بعض المؤن لأصدقائي بمنجم التعدين والذين يعيشون مع بعض البدو بإقليم القبقاب ، وافقت كالمعتاد فحملت ما إستطعت حمله من المؤن على ظهر أمشير العفي وركبت فوق ظهر "الجمل" البركة متجها لرجال الحدود الأفذاذ قريبا من منطقة عيون موسي ، خلال الطريق عرجت على المدفع الصدأ وبرك الجملان للراحة بينما وضعت قطعة الورق التي بداخل عبوة بلاستيك بداخل ما سورة المدفع وبعد قليل نهضت الجمال وأكملنا طريق السير في طريقنا إلى رجال الحدود.

كل ما سبق وسمعته وقمت بتنفيذه أخبرت به الشاويش إدريس ، وافق الرجل على تعليق أم سيناء والتى لا يعلم عنها أي شئ كما أنه إعترف بعدم قدرته على نقل تلك المعلومة مثل التى قبلها ، كما طلب مني الصمت والهدوء وعدم محاولة الحصول على أي معلومات جديدة ، ظللت بضيافتهم يومين عدت بعدها للمستودع فشاهدت رحيل مشتاقة لرجوعي وعودتي

وأيضا هارون وليفي وتبين لي أن ناقة هانم كانت فى حالة ضيق لعدم وجود أمشير رغم أن غياب أمشير عن الحظيرة أسعد بعرور كثيرا فقد رحل الأب الذي يوبخه فى كل مره يقوم فيها باللعب مع صديقيه.

مضي عام ١٩٧٠ وخلاله تم توقيع إتفاق لوقف إطلاق النار بين الجيشين المصري والإسرائيلي وهذا الإتفاق أثر فينا بالضيق نحن رجال الحدود وأبناء سيناء فقد خمد الجمل الذي ثار على الإحتلال ، أعقب هذا وفاة الزعيم الذي ينام الناس مطمئنين لوجوده وقيادته رغم ما بدا يقال عنه ولكن ما من أحد يعمل إلا ويجد المنافقين خلفه والمهاجمين لأجنابه ، حدث حزن عام وبالأخص من رجال الحدود والتى كانت أعمارهم أكبر مني بسنوات وهم الذين سمعوا وشاهدوا مآثره رغم أنه وبينهم نقطة ضيق عكرت صفو العلاقة من نقل أبناء النوبة بعيدا عن ديارهم عبر التاريخ نظرا للإستعداد للإنتهاء من بناء السد العالي وبالتالي سوف تتكون بحيرة ضخمة خلف السد أطلق عليها اسمه بحيرة ناصر وسوف تغرق مساحات شاسعة على أجناب النيل وبالتالي كان يجب نقل كل من سوف يصيبه الضرر لكن هذا النقل وتبديل المكان أصاب أبناء النوبة بالضيق حيث كانوا يعتمدون على النهر إقتصاديا من صيد الأسماك والزراعة والرعي والتنقل عبر النيل.

منتصف عام ١٩٧١ كنت أسمع من الراديو عن بعض المشاكل التى تحدث بمصر من مظاهرات للطلبة ومشاكل بين أعضاء الإتحاد الإشتراكي والرئيس السادات ثم أحداث مراكز القوي وعزل بعض الوزراء وسجن البعض ؛ حيث أن البعد عن الوطن والأهل فى مثل تلك الظروف والأحوال يجعل الإنسان فى حالة من التشتت والخوف ، لم أجد ونيساً ورفيقاً في تلك

الليلة سوي قراءة القرآن الكريم ، جلست كعادتي داخل المخزن وإستندت بظهري على الأجولة التي أنام بجوارها كل يوم وأصبحت رائحة الدقيق شيئا طبيعيا ينعش ذاكرتي ، بدأت التلاوة وبعد عدد من الآيات شعرت بحركة فأيقنت أن أمشير وشهاب ومن المحتمل بعرور قد أقبلوا لسماع صوت التلاوة وتشجيعي ببعض الأصوات ، كنت أسمع صوت حشرجة مرافقة للحركة بخارج المخزن وسكون الليل وضوء خافت تسلل من ضوء القمر بخارج السرداب ، بعد قليل دُفع باب المخزن وظهر ظل ثم شبح إنسان أمامي والدماء تغطي جسده وصوت الحشرجة يلازمه.

كدت أصرخ ؛ فلم أتمالك أعصابي ولم أعد نفسي لهذا المنظر ؛ تساءلت بسرعة: مين؟ إنت مين؟ إوعي تكوني رحيل؟ سمعت الصوت يناديني طالبا منى المساعدة.

ـ إمسك إيدي يا صابر ، أنا مش جادره أجف على رجلي ، ساعدني يا ابني أ أنا باطلع فى الروح .. قاطعت الحديث متسائلاً :

ـ مين؟ أم سينا؟ إوعي تكوني أم سينا ، ينهار !! أم سينا ، أيوه ريحي جسمك هنا .. إيه اللي حصلك؟

ـ إسمع مني الكلام اللي ح أجوله يا صابر .. معدش فيه وجت .. كلتها دجايج وأسلم الروح وأغادر الحياة وأجابل ربنا وحبيبي .. ابني مصطفي .. آه .. جايه لك يا مصطفي ، تلات سنين محرومه منك ، صابر إمسك الخنجر ده

ـــ إيه ده .. دا كله دم

ـــ أيوه .. ده دم النجس مزراح اللي جتل مصطفي ابني وحرمني منه ، وأنا النهاردة حرمته من حياته ، خلصت عليه .. أيوه .. جتلته وسط رجالتـــه .. بالذمة مش أنا وليه شاطره رغم إنني عجوز؟

ـــ إيه الحكاية يا أم سينا؟

ـــ الحكاية إني شفت مزراح المجرم واجف بين إتنين من ظباطه بيكلم معاهم في جنب لوري كبير ، الكلام ده كان بعد المغرب بشوية وأنا جدرت أعرفه من وسط الإتنين زمايله لأن كشاف العربية كان ضارب فى وشيهم وماسكين ورجه بيطلعوا "بيقرؤا "فيها بركت الجمل خلف كوم رمل كبيـــر وإتـــسحبت وجيت من ورا اللوري وصرخت فيه ، مزراح يا مجرم ، طل ناحيتي رحت منواله بالخنجر ضربتين ورا بعض ، والله يا صابر يا بني .. آه .. آه

ـــ ريحي نفسك يا أم سينا

ـــ صرخ مزراح والدم نطر زي الحنفية ورحت خطفه الورجه منه وجريت أستخبي ورا كوم الرمل اللي مستخبي وراه الجمل ، لكن واحد معاه رشاش ضرب عليّ وأنا باجري ، إتصبت وتحملت ووصل للجمـــل ونمـــت فـــوق ضهره ونهض يجري زي الريح ، لولا الجمل سريع كنت مت هنـــاك أنـــا وهوه ، لأن الجمل إختفي عن نظرهم.

ـــ اسمه إيه الجمل بتاعك؟

ـ مِسك الليل .. اسمه مِسك الليل .. وده جمل مش عادي .. ده مبـــروك ؛ على فكره لما أموت خليه لك .. " بصوت مرتفع" مِسك الليل .. مِسك الليل .. أيوه .. تعالي .. بص يا صابر أنا ح أعرفه أنه بجي لك .. مِسك الليل .. ده ابني صابر .. خليك وياه .. وحافظ عليه .. ما تسيبه

ـ ظهرت الرغاوى من فم الجمل وظهرت القلة بلونها البمبي وهـــذا يعنـــي بأنه غاضب ..

ـ مالك يا مِسك الليل .. مش عاجبك كلامي .. طيب روح دلوجتي .. روح يا مِسك .. روح يا مِسك .. صابر أنا جرب معادي مع ربنا .. الورجه اللي مخبياها تحت هدمتي مهمه جدا .. إبعتها ووصلها للشخ عيد .. عيـــد أبـــو سلمان اللي كان بيعالجك .. ح تعرفه من إسماعيل أبو تراجي .. فـــاهم .. مش ح أوصيك .. تدفني فى الحته اللي ورا المخزن وحتلاجي مِسك الليـــل بارك هناك وزعلان ويمكن بيعيط .. بتضحك!!

ـ لأ مش جصدي .. بس إنتي مستعجله على الموت ليه؟

ـ لو تشوف اللي أنا شيفاه ولو تسمع اللي أنا سمعاه كنت تتمني إنك تموت دلوجتي وفي الحال علشان تتمتع .. جيالك يا رب.. جايا لك يا مصطفي .. جبل ما أنسي .. أيوه ساعدني يا رب إني أطلع الورجة .. أيوه .. الورجـــه آهه .. صحيح كلها دم لكن حاول تنضف اللي تجدر عليه جبل مـــا تبعتهـــا للشيخ عيد .. الورجه مهمه يا صابر.

ـ إيه إللي شايفاه وإللي سمعاه .. ما فيش في المخزن غير هـــدومك

إللي كلها دم .. ريحي نفسك وأنا ح أجوم أوصل لرحيل أجيبهـا تـساعدني عشان ننضف هدومك وأخليها تحميكي ونشوف حاجه للدم إللي لسه بينزف

ــ إوعي .. جف مكانك .. ما تعرف رحيل بأي حاجه .. دي يهودية بنـت يهودى وخلينا ماشين فى سكتنا .. لكن أنت مش مصدج إني شايفه وسـامعه حاجه حلوه .. لساني مش جادر ينطج ويجول لأنه وعد ربنا للمؤمن والشهيد وإللي بيجاتل فى سبيل الله .. مش بتجرأ فى القرآن إن الشهيد حي عند ربه ويرزق يعني بياكل مش كده .. وكمان أنه حي عند ربه لكـن إحنـا مـش بنشعر بيهم يعني مش بنشفهم ولا نسمعهم .. مش أجدر أجول أكتر من كده .. ربنا معاك .. ربنا ح ينصر مصر بعد تلات خطوات .. ح ينصر مصر بعد تلات خطوات .. صابر حافظ على الطحين اللي عندك لأن فى الخطوة التالته ح تحتاجه .. ح تحتاج طحين كتير وميه للرجاله اللـي بيحـاربوا .. صابر .. صابر .. آه .. أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمـدا رسـول الله .. أيوه خليك ماسك يدي.

بعد قليل شعرت بيدها تقبض علي يدي بشده وإرتفع صـدرها وهـبط وصمت المكان ولم أعد أسمع أي شيء سوي وش مثل الذي يحدثه صـوت وابور الجاز .. ثم شاهدت ضوء أبيض خافت يتحرك خارجـا مـن بـاب المخزن وسار هذا الضوء بجوار جدار المخزن المصنوع مـن البلاسـتيك الغير شفاف وكان الضياء واضحا كأن إنسانا يمـسك بكـشاف مـضيء ، إرتجف جسدي وشعرت بالحمى تضرب أطرافي وهمد جسدي وجلست على أرض المخزن ساكنا وشعرت بأن روحي تسحب من جـسدي وأن تقلـصا أصاب أطراف يدي وقدماي ، ومازالت البرودة تسري فى جـسدي وخمـد

تفكيري وشعرت بأني أتقلب في الهواء ولم أعد أري أي شيء ثم تلا هذا إنعدام السمع ورحت فى إغماءة لم أعد أسمع أو أري أي شيء سوي الرؤيا الطيبة .. رؤيا شاهدت فيها أم سيناء تخرج من أسفل الرمال ترتدي ملابس بيضاء وقد أصبحت شابة جميلة تمتلئ بالحياة والشباب والحيوية ، شاهدتني فأشارت إليّ قائلة .. لا تنسي ما طلبته منك يا صابر .. داوم على الكر والفر ونقل المعلومة ولا تنسي توصيل الورقة التى تركتها لك بعد أن أخرجتها من أسفل ثيابي للشيخ عيد ، أستودعك الله وسوف ألقاك حين يأتي موعدك .. أشاهد شبابا وشابات يستقبلونها بفرحة .. تنظر إليّ باسمة وتقبل أحد الشباب وهي تردد .. مصطفي ابني .. لقد جئت لك وسوف أكون فى نفس درجتك .. أشاهد دوامات بأضواء مختلفة تطير وتهبط وتصعد وتتحرك وتتسع دائرة دورانها حولي حتى تلاشت وأصبحت نقطة مضيئة بالسماء وأنا أضحك ملوحا مع السلامة يا أم سيناء .. ثم سمعت صوتها قادما من السماء متسائلة:

ـ أتضحك يا صابر؟ سعيدا مسرورا أم تسخر مني؟

ـ أمي وأم مصطفي وأم سيناء أنا أضحك بسعادة ، فالنهاية أروع ما يكون ولقد إلتقيت بأحبابك

ـ صابر .. كل نقطة عرق تبذلها تضاف إلى محيط الحب التى تحتاج إليه مصر .. لا تنسي تلك الجملة .. كررها دائما وذكر بها كل مصري ومصرية.

صمت كل شيء وظللت هكذا حتي سمعت أصواتا بالخارج ، تنبهت

فشاهدت أم سيناء مازالت نائمة على ساقي والدماء تلفها وقد أسلمت الروح ومازلت يدها اليمني قابضة على كف يدي الأيمن .. ذعرت وكدت أصرخ وبكيت بصوت مسموع ومازالت الأصوات بخارج المخزن تصل لأذني وأنا عنها غافل ولا أعلم كيف التصرف .. أثناء بكائي تساءلت من بالخارج؟ لم أسمع إجابة لكن سمعت صهيل شهاب ثم سمعت غرغرة أمشير وصوت بعرور الرفيع الذي يدل على الضيق وأم بعرور ثم صوت أكثر ضخامة ودلف برأسه فشاهدته .. إنه مسك الليل .. حدث إضطراب وخشيت أن يعتقدوا بأنني قتلت صديقته وسيدته أم سيناء .. ماذا أفعل يا ربي؟

حملتها وخرجت من باب المخزن وتحركت بداخل السرداب حتي وصلت للمنطقة الخلفية .. لقد توقف نزف الدم ولكن الشيء الذي أدهشني هو تلك الرائحة الطيبة التى أشتمها من تلك الأم الطيبة وتساءلت: أيعقل أن تضع إمرأة عجوز تحيا فى الصحراء عطرا قيماً مثل هذا وهي تركب الجمل ، لقد إلتقيت بها عدة مرات ولكنني لم أشتم عبق هذا العطر الذكي الرائحة من قبل .. أيقنت أن حواء تحيا فى كل وقت وكل زمان وفي مختلف المواقف حتي خلال الحرب والموت والدماء.

جلست أرضا ووضعت جسدها الطاهر أمامي ، طلبت من مجموعة المشيعين أن يظلوا فى أماكنهم وسوف أتأخر بعض الوقت كي أحضر كوريك كي أحفر وأعد مدفنا لها كما سبق منذ ثلاثة أعوام حين أعددت مدفنا لموشيه زوج رحيل وشتان الفارق بينهما ، لقد ماتت السيدة منذ ثلاث ساعات تقريبا ومازال جسدها ندياً رطبا وليس متخشبا صلبا ورائحته طيبة لأقصي درجة ولم أشتم رائحة طيبة مثل تلك قبل إنضمامي للجيش ورغم

لقائي بالعديد من سيدات الطبقة الأرستقراطية بقصر رضوان باشا لم أشتم مثل تلك الرائحة الذكية ، أيضا لم تتساقط قطع من جسدها مثل ما حدث مع موشيه.

أسرعت بالمغادرة والعودة حاملا معي كوريك الحفر ، نظرت لمجموعة المشيعين التى كانت تحيط بالجثمان وأنا فى حالة من الدهشة ، متسائلا: من غير وضع الجثمان؟ بالطبع لم يجبني أحد ، صمت حيث تعودت أن أشاهد وألاحظ بعض الأشياء الغريبة التي لم أقابل مثلها في مطروح أو أنشاص ، قمت بالحفر فشاهدت إحتجاج كل من شهاب ومسك الليل ، أتساءل ماذا تريدان ، أحاول إستكمال الحفر وهما فى حالة من التوتر ، توقفت قليلا أفكر، لقد تبدل وضع الجثمان بالهيئة التى وضعته عليها ، لماذا أقوم بالحفر عموديا علي وضع الجثمان ، ماذا لو قمت بالحفر بحفرة موازية للجثمان ولأري ماذا سوف يفعله أصحاب وأصدقاء الراحلة ، بأول معول من الكوريك قفز شهاب لأعلي يلاعب بقدميه الأميتين الهواء وهذا دليل سعادته أيضا أقبل مني مسك الليل ولعق القفا وكنت أخشي أسنانه القوية.

الحمد لله إستطعت إرضاء شهاب ومسك الليل بتبديل وضع الحفرة وكنت فى دهشة بأن الحيوانات لها رأي وكلها حفر وكلها موته وسوف تتحلل أجساد الجميع وخلال هذا كنت أشاهد بعرور وأمه وأباه ساكنين ، كان المجهود شاقا وظللت أقوم به حتي إكتملت الحفرة ، لففت جسد الراحلة بالملاءة التي أمتلكها ثم هبطت بداخل الحفرة وحملت جسدها اللين المرن ذا الرائحة الطيبة وفردته على مهل على الأرض وقفزت لأعلي الحفرة لأهيل عليها الرمال وأنا أنظر من حين لآخر لمجموعة المشيعين وشعرت بأنني

الحانوتي وتلك المخلوقات هم أهل المتوفى وهم يراقبونني بكل إهتمام.

أنهيت مرحلة الدفن وجلست أستنشق الهواء وأنظر لضياء الشمس في بداية إشراقها عن هذا اليوم الغريب على مداركي .. جلست أقرأ بعض آيات من سورة الرحمن:

بسم الله الرحمن الرحيم

الرَّحْمَنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الإِنسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (٤) الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (٥) ..... مازلت أواصل التلاوة ونظري مسلط على أصدقائي والذي تأكد لي أنهم يفهمون ويشعرون مثل الإنسان وهذا ينعكس على تصرفاتهم بديلا عن الكلام والتعبير .. حتي وصلت إلي الآيات .. كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ (٢٧) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٨) ... صدق الله العظيم

كان صوتي للتلاوة يجذب أسماع كل من شهاب وأمشير .. كان هذا واضحا على مجموعة المشيعين وكان الصمت هو حال الجميع وقد بركوا أرضا ووضع كل حيوان فمه فى الرمال صامتا بإستثناء بعرور الذي كان يحاول اللهو ولكن أمشير كان يزمجر فيصمت على الفور ، وحينما وصلت التلاوة للآية ' كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ' شاهدت جميع الحيوانات قد أصابتها رجفة مثل التى تحدث لبني الإنسان حينما تهاجمه نوبة أنفلونزا.

ظللت جالسا وحولي الأصدقاء ولم أنتبه إلا حين لاحظت نهوض بعرور فإعتقدت بأن الجوع أصابه ويبغي الحصول على رضعه من أمه

الحزينة لكن المفاجأة أن بعرور شعر بأن كل من هارون وليفي أقبلا بعد إستيقاظهما وتناول طعامهما ، هرع الأصدقاء للعب واللهو ؛ حيث كان بعرور حذر من إغضاب والديه وظل هادئا حتى نهضت مغادرا المكان عائدا للمخزن راغبا بإستبدال ملابسي المعطرة بدماء أم سيناء والإغتسال ، بداخل المخزن شاهدتها تقف مثل النمر الأرقط وتمسك بيدها الورقة التى أخرجتها أم سيناء من ملابسها المهلهلة ، تتحرك بعصبية وباديا عليها الفورة والثورة العارمة ثم ألقت فى وجهي بالورقة بعد أن كورتها وتساءلت:

ـ تقدر تقوللي إيه الورقة دية؟

ـ مش عارف؟

ـ أنت ح تستعبط ، أحلف بموسي والتوراة إن ما قلت ليا الحقيقة لأوديك فى داهية يا ابن الكلب يا نجس .. عند هذا الحد لم أتمالك أعصابي خاصة إنني قمت بدفن أم الشهيد وأم سيناء منذ قليل والأحداث والإنفعالات مازالت ساخنة .. لم أشعر سوي أنني أهوي على وجهها صفعا مرات ثلاث مما دفعها للصراخ والسباب لي ولوطني وديانتي ثم غادرت المكان متوعدة حانقة وقبل أن تصل الباب بصقت عليّ.

شعرت أن الدنيا أصبحت ظلاما ، فلقد ماتت السيدة المنقذة التى كنت أنتظر مشاهدتها كي توجهني للطريق الصحيح ، لن أنساها فقد أمدتني بشهاب هذا الفرس الأسطوري ثم تلك المعلومات ولا أنسي ما حصلت عليه من معلومات أدت فى النهاية لتدمير قاعدة الصواريخ التى كان يهدد بها

العدو مصر بتدمير السد العالي الذي أصبح على وشك الإنتهاء.

سلمت أمري لله وجلست فى انتظار القدر الذي قرره الله لي ومن أجل هذا كنت أقوم بأداء الصلاة فى موعدها حتي إذا جاء القدر أكون قد أديت ما عليّ نحو الله ، كنت أقيم الصلاة قريبا من مدفن أم سيناء ، أحد الأيام وبعد أن إنتهيت من أداء الصلاة وأنا مازلت جالسا تنبهت بأن قبر أم سيناء فـــى وضع عمودي تجاه القبلة ، تعجبت لهذا وأنا لم أتذكر أثناء دفنها أنني تنبهت لهذا ، عادت بى الذاكرة بأنني حين عُدت شاهدت وضع جثمانها قد تحـــرك وتبدل ربع لفة بحيث أصبح جسدها ينظر جهة القبلة ، رددت بداخلي سبحان الله وفوق كل ذي علم عليم وأرسل بالغراب ليعلم أبناء آدم كيف يـــدفن الأخ شقيقه ، لقد كان هذا الغراب أول حانوتي فى البشرية.

•••

كنت في أشد الحاجة إلي من أفتح له قلبي مما ينتظرني علي يد تلك السيدة الماكرة المجرمة ، فإما أن أكون ذليلا خلفها ألبي لها كل ما تطلب بما فيـــه علاقة شائنة ضد الدين والأعراف أو أن تسبني وتهين كرامتي كـــل فتـــرة زمنية ، وتساءلت: ما الذي يجعلني رهن إشارتها؟ فلأهرب من هذا المكـــان السيئ وأعود لأصدقائي أحيا بينهم كرجال نحترم بعضنا البعض وتحت قيادة واحدة نقاوم العدو الذي إحتل أرضا عزيزة من أرض مصر الطاهرة.

قررت زيارة تراجي وفتح قلبي لها وأخبرهـــا بـــأنني ســـوف أغـــادر مستودع الأغنية وأعود للعمل مع رجال الحدود ، هناك إلتقيت بعائلتها ثـــم أقبل الـــشيخ عيـــد ، دار حـــديث مخالف عما كنت قد قدرته وإقترب

مني الشيخ عيد عارضا رأيا: صابر .. أعلم أنك رايد تراجي والشيخ إسماعيل قرأ الفاتحة معك ، ما رأيك بأن تعقد وتزف عليها حتي يصبح حضورك وعودتك من هذا المكان ليس به شائبة حين تلصص اليهود علي تحركاتك؟

صمت قليلا وأعلنت موافقتي ، هلل الرجال وتسألوا متي يكون هذا مناسبا؟ تعجلت قائلا بطريقة المصريين النهاردة قبل بكره ، شعرت بأنهم في دهشة لكن الشيخ عيد أيد هذا وتبعه والدها بينما إعترضت تراجي راغبة بالتأخير أسبوعا ولكن الرجال قرروا وما قرر لا بد من تنفيذه ، تقرر أن يقام الحفل غدا وأنا قررت بأن أظل حتي أنتهي من الزفاف مع تراجي ثم أعود لعملي خشية أن تحرمني رحيل من إجازة قريبة.

وافق الجميع علي هذا ، جلست منفردا بنفسي وتساءلت: ماذا فعلت يا صابر؟ وكيف تعجلت وإندفعت بتلك العلاقة والزفاف السريع؟ عدت للهدوء مرددا .. ولماذا أنتظر؟ فلا يوجد جديد ولأشعر بحب تراجي ودفء العائلة وليكن ما يكون ، غبت قليلا عن الوعي وجاء صوت من الماضي .. صوت أم سيناء .. إن شاء الله فرحكم الأسبوع ده أنت وتراجي أبو إسماعيل .. ضحكت بملء فيه وأنا أردد .. لقد كنتِ تعلمين بالمستقبل فقد جاء الزفاف مبكرا لم نستعد له.

أمضيت أكثر من أسبوع نلت خلالها كل ترحيب وتقدير وتمتعت فيه بحلاوة تراجي من كل الأوجه فلقد أنعم الله عليها بمواطن الجمال الداخلي والخارجي ، أنها زوجة مثالية حتي الآن!! لقد كان هذا الحدث الرائع

منتصف عام ١٩٧١ وبعد وفاة أم سيناء بثلاثة أيام ، شعرت بأنني تصرفت التصرف الصحيح في هذا التوقيت ، لقد كانت وفاتها محزنة علي قلبي وبالأخص ما صاحب الوفاة وقد دار كل هذا أمامي ثم ما تلا الوفاة من خروج رحيل على كل قواعد الأدب والإحترام ، فلم يسبق أن قام أحد بسبابي أو سباب أبي بمثل ما قامت به رحيل.

إستمرار الحياة مع النمر الشرس

مضت عدة أيام على توتر العلاقة بيني وبين رحيل وعودتي بعد الزفاف الذي تم علي تراجي ، كان وداع تراجي مؤثر وشبه باكية تطالبني بألا أتأخر عليها بالزيارة ، خلال تلك الفترة التي أعقبت عودتي لمستودع الأغذية إعتمدت على نفسي من ناحية الغذاء ، فالدقيق بجواري والشاي والسكر ولبن جاف ، كنت أعجن بعض الدقيق قريبا من مدفن أم سيناء ؛ حيث كنت شبه مقيم بجوارها منذ منتصف النهار وحتى غروب الشمس ؛ حيث لا يقبل البدو فى هذا التوقيت المتأخر للصرف ، بعد إنتهاء العجين أحضر بعض العشب القريب من المكان وأشعله بين حجرين ثم أضع قطعة صفيح غير مهذبة من مخلفات الحرب على النار فوق الحجرين فتقوم على تسوية العجين ليصبح خبزا ، أيضا كنت أعد مشروب اللبن المضاف إليه بعض السكر.

تعايشت وتحايلت على المعايش كما يقول المثل ولم أعد أطيق مشاهدة رحيل لما تسببه لي من ألم ونفور بسبب سبابها وإحتقارها لي بإستمرار أو محاولة إثارة غرائزي ؛ فقد أصبحت تلك التصرفات تثير إمتعاضي ، ولا يمض يوم إلا وكنت أقوم على تلاوة القرآن للراحلة أم سيناء ، كنت أشعر بسعادة وأنا أدقق النظر فى القبر الذي حددته بإطار من الأحجار القاتمة اللون ونبهت على هارون أن يخبر صديقاه بألا يقتربا من هذا المكان وحين جلوسي وإقتراب الأصدقاء الثلاثة من المكان للعب واللهو كنت أصرخ فيهم فيبتعدوا على الفور.

صباح أحد الأيام كنت أشعر بخمول وكسل ؛ ولهذا لم أتوجه هذا اليوم لقراءة الفاتحة على روح أم سيناء وجلست مدثرا بالفراش ملتفا بملابسي راغبا فى مواصلة النوم رغم سماعي لأصوات الأصدقاء الثلاثة بالخارج يلهون ويلعبون وكالعادة لم يتجهوا للعب بالمنطقة الخلفية لأنني لم أكن متواجدا بها؛ حيث أنهم يقتفون أثري ويطمئنون حين أتواجد بها ، سمعت نباحاً شديدا من الكلب ليفي وإرتفع صوت بعرور بالصراخ أعقبه صراخ ناقة هانم وأمشير وصهيل شهاب ، قفزت للخارج لأعلم الحقيقة فشاهدت هارون يغطس ويطفو بداخل بحيرة الماء الموجودة بالمكان وقد قارب على الغرق ، لم أتمالك نفسي وقفزت على الفور بداخلها وحملت الطفل وخرجت به خارج البحيرة التى تزودنا جميعا بالمياه العذبة ، وقمت بعمل الإسعافات الأولية اللازمة فى مثل تلك الأحوال والتى تعلمتها بحكم عملي مع المصطافين.

شاهدتها ، تلك النمرة المستأسدة تصرخ مهرولة ناحيتنا وألقت بنفسها على طفلها تحاول تنبيهه بينما الطفل كان قد تعدي مرحلة الخطر فقد تقيأ الماء الذي تسلل إلى جهازه التنفسي بسبب ما قمت به ، بكي الطفل وأمسك بيديه الصغيرة بشعر أمه وتعلق بها كأنه يبغي الحماية والأمان ، حملته أمه سعيدة رغم بكائها ؛ حيث كانت تقبله وتحركه ذات اليمين وذات اليسار بينما ليفي وبعرور يسيران خلفها راغبين بإستكمال اللعب ولم يتركاه إلا على باب الخيمة ؛ حيث ظلا لفترة فى إنتظار عودة صديقهما للعب مرة ثانية.

أسرعت إلى المخزن ونزعت ملابسي المبتلة وجففت جسدي وإرتديت الملابس الجافة وأسرعت بالتوجه إلى المنطقة الخلفية والتى أطلقت عليها

اسم روضة أم سيناء تيمنا بتلك السيدة العظيمة التى شاهدتها فى الرؤيا ترفل مع الملائكة بملابسها البيضاء يرافقونها للجنة الموعودة ونعيمها الذي وعد به الحق عباده المؤمنين ، هناك جلست وأشعلت العشب وأعددت كوبا من الشاي وأنا أردد "الحمد لله أن إستطعت إنقاذ هذا الطفل البريء " . خرجت رائحة إعداد مشروب الشاي فأنعشت أمالي وجلست أرشف من الكوب بسعادة وكلي أمل بأن أعبر محنة غضب رحيل رغم شعوري بالتوجس وبالخوف بأن يحدث ردة فعل من تهورها حينما هاجمتني بشراسة بداية الأسبوع قبل الماضي غداة وفاة أم سيناء.

شاهدتها تقترب مني والبسمة المضيئة على وجها الأبيض الجميل وضياء أسنانها يعطيك الأمل والسكينة وما عليك سوي أن تنسي ما حدث ؛ بل من الواجب عليك أن تتبع تلك الحسناء فيما تقول وتفعل وتأمر ، جلست بجواري بوضع القرفصاء وقبلت خدي الأيسر المجاور لها ومسكتني تجذبني بوضع الأجناب تنثر عليّ الكلمات الطيبة الجميلة وإختارت كلمات الشكر والثناء من القاموس كي تلقيها عليّ ؛ بل أقسمت بكل ما هو عزيز لديها بألا تضايقني بعد هذا اليوم ؛ وأقسمت بأن أبيت منذ تلك الليلة بالحجرة المجاورة لها ولا أعود للنوم بمخزن الدقيق ، أنظر إليها فى دهشة فتعيد تقبيلي وتهزني مرددة:

ـ خلاص .. صافي يا لبن .. قولها .. حليب يا قشطة

ـ حليب يا قشطة يا أم هارون .. لم تتمالك نفسها فإنحنت تحاول تقبيل يدي فأسرعت بجذبها وقمت بتقبيل قمة رأسها وهي علي هذا الوضع ، ثم إعتدلت

ونظرت إليّ مرددة:

ـ لو ماكنتش أنقذت هارون كنت إنحرمت من الاسم ده .. أم هارون .. ربنا يخليك .. إنت أحسن من الأخ والزوج وكل الناس .. صابر .. إنت أهلي دلوقتي وكل اللي تقول عليه ح أنفذه .. وماتزعلش منى ومن تهوري عشان بلغت عنك بإني مرتابة فى تصرفاتك والقيادة وعدتني أنها ح تبعت إتنين من رجالتها للتحقيق معك الأسبوع القادم .. ماتتزعجش وأنا ح أقدر أسوي المسألة بس أنت ماتخافش وماتتلجلجش ، بس أنا عايزه أعرف الخريطة اللي كلها دم مهمة في إيه؟

ـ مش عارف وماكنتش أعرف إنها خريطة

ـ على كل حال أنا ح أجيبها وخليها معاك ومحدش يعرف حاجه عنها .. مش تزعل لإندفاعي ضدك وربنا يعدي التحقيق على خير .. وبعدين ما قولتليش الأسبوع اللي غيبته كنت فين؟ وشك منور وباين عليك كنت مبسوط، علي كل حال إما كنت مع أصحابك العمال المساكين أو مع تراجي، مش كده؟ ح أسيبك دلوقتي وأروح أشوف هارون خلص أكل لأني غيرت هدومه وحميته وحطيت له الأكل رغم أن الجمل الصغير والكلب واقفين قدام الخيمة .. عايزه منك قبل ما أنسي تشوف لنا صرفه فى حكاية عين الميه دية عشان مايتكررش إللي حصل .. مش ح أوصيك .. أسيبك بقي.

تركتني رحيل كما هي عادتها معلقا بين السماء والأرض .. فترفع من شأني وتقترب مني تغدق عليّ بكل ما هو جميل ثم فجأة تضع بعض الرمال بداخل طبق الطعام الذي أعدته لك بعناية .. أردد .. تلك السيدة لن

تتبدل أو تتغير .. لقد إندفعت وأبلغت عني اليهود وفى تلك الأحوال حينما يحققون مع أحد سوف يظل متهما أمامهم طيلة عمره.

عصر هذا اليوم إستطعت تجميع بعض الصخور ووضعتها فوق بعض حتي أصبحت تحيط بعين الماء حتى لا يحدث ويسقط أحد بداخلها ويلقي حتفه دون أن ينتبه أحد لإنقاذه ، في تلك الليلة وجدت نفسي قد رقيت وإنتقلت للنوم والإعاشة بخيمة رحيل التى لا يدخلها أحد ولم أدخلها إلا حين إصابتي فى أول مرة حينما إقتحم أمشير المستودع أما عدا ذلك فكنت أجلس باقي أوقاتي سواء بين أصدقائي من الحيوانات أو بين أجولة الدقيق ، كنت أعلم علم اليقين أن الحياة بداخل الخيمة مريحة وناعمة لكن تلك الحياة لم تعد لأمثالي فنحن تحت الإحتلال وبالتالي نحن أقل درجات عن المحتل ، كما كنت في حالة من التردد ، فلقد تزوجت وأخشي أن تخبر رحيل زوجتي تراجي بأنني أبيت معها في خيمة واحدة ولن تضع تراجي حسن النية لما تشاهده من حركات ودلال رحيل المثير بالإضافة إلي ما تتمتع به من فتنة وجمال ، أيضا لم أخبر رحيل بنبأ زواجي خشية أن تبلغ الإسرائيليين عن أسرة تراجي وبالتالي تهلك الأسرة الطيبة معي.

أغدقت عليّ رحيل بحبها وحنانها وعطفها وكلماتها الرقيقة الجميلة بالإضافة إلي هذا ما حباها به الله من مواطن الفتنة والجمال ، لاحظت أن رحيل بدأت تعود لعادتها القديمة بالتحلل من كثير من الملابس الساترة لترتدي بدلا منها ملابس فاضحة تثير الشجن والعواطف والمشاعر والأحاسيس وتدفع إلى إرتكاب المعاصي والآثام ، شعرت بأنني لم أعد أتأثر بتلك المشاهد مثل ذي قبل وكان السبب الرئيسي في هذا هو الزواج ولهذا

تأكد لي أن الزواج يحمي الرجل والمرأة من الإنزلاق في المعاصي ، لم أعلق علي ما تقوم به ولم أقم علي تنبيهها فقد سبق ونبهتها كما أنني أعلم بأنها أيام قلائل وأودع هذا المكان برحيلي لجهات التحقيق العسكرية ، ومن أجل هذا فسوف أظل صامدا ساكنا حتى يأتي هذا الموعد في الأسبوع المقبل.

إحدي الأمسيات إقتربت منى رحيل تحدثني بصوت شجي هامس ، صابر: أنا عارفه إنك بتضايق لما ألبس الملابس ديه ، مش كده؟ لكن لازم تعرف أن دي عادة النساء أنها تشعر بسعادة حينما تشاهد ما حباها به الله من مواطن الجمال ولا يظهر تلك المفاتن سوي الملابس والألوان والأصباغ التى تضاف للوجه والروائح والعطور ، يزيد من خيلاء المرأة أن تجد الرجال يمعنون النظر إليها سعداء حين يشاهدونها ، البعض يصمت ويشاهد والبعض يشاهد ويعلق والبعض من أصحاب الجرأة يتقدم ليغتنم بعض المتع الحسية والسمعية.

أعلم هذا يا رحيل ، لقد كنت أشاهد النساء على شاطئ البحر يلهون وهن فى منتهي السعادة عندما ترتدي كل واحدة ملابس البحر صغيرة الحجم ضيقة المقاس فتظهر ما ستر أكثر مما خفي وستر ، أيضا حينما كان الشباب يدقق النظر فى تلك الأجساد بل كن يسرن بطول الشاطئ كي يشاهد أكبر عدد من المصطافين تلك الحسناوات وما أنعم الله به من جمال عليهن ، أنا أعلم كل هذا ولكني أرغب بأن أظل أقرب إليك من هؤلاء وبالإخوة سوف تظل العلاقة بيننا قائمة مستمرة أما إذا تبدلت وأصبحت مادية بطعم ورائحة وكلمات معسولة تلهب المشاعر والأحاسيس أعتقد أنها سوف تذبل سريعا

ولن يكتب لها الخلود.

أنت تبالغ فيما تقول لأنك لم تدخل التجربة لكن إذا تجرأت ودخلت التجربة فلن تتركها بعد هذا اليوم ؛ بل سوف تندم أنك أهملت الجوهرة التي أمامك تلك الفترة وكان يجب عليك ألا تضيع تلك الشهور والأعوام راهبا بجوار أجولة الدقيق ، فكر وأنظر وقرر: هل أجولة الدقيق أفضل أو التى أمامك الآن؟ هل أجولة الدقيق تثير غرائزك التى خلقها الله معنا حينما خلقنا أم من تحدثك الآن سوف تزيدك سعادة ومتعة حين تتجرأ وتتقدم ولا تتأخر ، تلك هي آخر فرصة لك وبعد هذا لن أقترب منك أو أتحدث معك فى هذا الموضوع ؛ سوف أظل أعتبرك إنساناً غريبا عليّ رغم إحتفاظي لك بتقدير بل وحب ، تصور حبى لك رغم كل ما تقوم به من رفض لصداقتي وحبي.

غادرت المكان وأنا مازلت أتابع سيرها وأتخيل هذا الجمال بل وما تخفيه عني وتخبرني بأنه شيء فوق الوصف والخيال وأنها متعة لا تواتيها أي متعة وقد خلقها الله معنا ولم نسعى للحصول عليها ، جلست صامتا أستوعب كل ما قيل بل وما شعرت به ، أتساءل: هل سوف أظل على هذا الحال ترتفع درجة الإنفعال ثم أعمل على إخمادها؟ كيف هذا ومن يستطيع إحتمال كل تلك التوترات والأحاسيس وتفاعلها وتبلدها ، إنها مشكلة عويصة والشيطان أصبح يزينها لي كثيرا؛ فهي راغبة وترقد بجواري على مسافة مترين ، نعم رحيل أنت أجمل وأرق من أجولة الدقيق ، أنت غادة رائعة ورغم أنني لم أقم على تلك التجربة سوي بالحلال من زوجتي وأم أبنائي بالمستقبل تراجي العفيفة ، لكن ما أشعر به حين تحدثت لهو شيء ساحر لكن هناك عقاب الله ، عقاب الله الحامي لي بإستمرار ولو أراد الله تلك

العلاقة أن تتم بهذا الوضع لما وضع محاذير ووضع عليها عقوبات رادعة تصل إلى حد الجلد بل والقتل.

أصبح الليل كابوسا وجحيما ؛ فكرت بالعودة إلى مخزن الدقيق ولكني جبنت ؛ بل لم أجد الشجاعة كي أتخذ مثل هذا القرار وفي بعض الأحيان كنت أقول لا يجب أن أهرب من ميدان المعركة ، أخيرا لجأت لمن يلجأ إليه كل محتاج وكل صاحب حاجه وكل من وجد نفسه أنه أمام مشكلة أكبر منه حجما وقوة ونفوذا ، لجأت إلى الخالق ، خرجت وجلست بجوار الخيمة وبدأت فى التلاوة ، لا أستطيع أن أصف ما كنت أشعر به حين النطق ليس بكل آية ولا بكل كلمة ولكن بكل حرف ، كنت أشعر بأنني مثل شخص يسير بالصحراء ونزلت علي رأسه مياه باردة لتلطف درجة حرارته من لهيب أشعة الشمس فى يوم قائظ من أيام شهر يونيو ، فتخفف عنه تلك الحرارة والألم وإحتراق الجسد ؛ بل وتبعث بالراحة والهواء المنعش وعودة الحياة إلي الشرايين الملتهبة.

واصلت التلاوة وشعرت أنني إندمجت بل قُل تسلطنت كما يقول العامة وإرتفع الصوت وإهتزت الصخور من حولي لكلمات الله وأصبحت إقرب إلي الخشوع والعبادة والتذلل ، شعرت بمن يقترب مني ، نظرت نظرة هادئة بطيئة فشاهدتها ، كانت رحيل والتى أقبلت بعد أن سترت أكبر مساحة من جسدها الفاتن ودموعها تخرج بغزارة وتشير إليّ بما يعني إستمر ، مازلت أتلو ومازالت السيدة تبكي دون صوت مما دفعني للصمت ولكنها أصرت علي أن أواصل التلاوة وكان الوصل والوصال هو أكبر علاج

للحالة التى لبست السيدة وهي حالة الشبق والإحتياج للجنس الآخر.

خمدت حركتها وسكنت لكن دموعها مازالت تسيل ، نهضت متثاقلة وأمسكت بيدي لألحق بها ، بداخل الحجرة ، إقتربت مني وقبلتني قبلة الأخت مكررة: أنت عظيم يا صابر ، القرآن اللي سمعته رجعني تاني عشر سنين لما كنت فى مصر ، شيء رائع ، فعلا الكلام ده مايقولوش إلا شيء عظيم وما فيش أكبر عظمة من الخالق الرب ، ربي وربك ورب كل الكائنات زي ما سمعت بتلاوتك وأن كل مخلوقات الله والجبال والبحار تسبح بحمده وتعبده ، كلام مش معقول ، مش عايزه أستعجل وأقول إني بقيت مسلمة لكن أنا بقيت قريبة من ربنا خالص ومش مهم عنوان واسم الديانة ، صابر أنا ح أروح أغسل وشي وراجعة ، خليك ، ماتمشيش.

في الأيام التالية كانت رحيل تجلس أمامي وفي مواجهتي كي أخبرها عما قرره الإسلام سواء من النواهي والمحرمات أو المحللات ؛ كل ما إستطعت الحصول عليه وتعلمته سواء أثناء الدراسة بالمدرسة أو من خلال شيوخ المساجد أثناء خطبة الجمعة أخبرتها به ، كانت السيدة فى دهشة أن تكون تلك المعلومات أنزلها الله وتم إخفائها عن بعض البشر ؛ رغم رقة وجمال رحيل التى كنت أشاهدها منذ أول لقاء حتى الآن لكن حدث لها تحولا غريبا فى تصرفاتها بل فى هيئتها وشكلها ، لقد نضج الجمال وأصبح رائقاً أي دون إثارة ، أصبحت بشرتها بيضاء ناعمة لامعة يظهر من أسفلها النور والضياء ، حين تنظر إلى عيونها تشاهد عينين سابحتين فى الفضاء دون خلاعة أو إثارة ، حتي طريقة سيرها ؛ حيث كانت تسير كسيدة تتمتع بخيلاء لكن دون تحريك بعض أجزاء الجسد التي تثير الجنس الآخر ، كان

واضحا أن السيدة إقتربت من الله فى الأيام المنصرمة.

أثناء إعداد مستحقات الإعانة لأحدي الأسر شاهدت سيارة عسكرية إسرائيلية تتقدم جهة الباب الخارجي ؛ قمت بفتح الباب على مصراعيه حتى تتمكن من الدخول ، دخلت السيارة وهبط منها ضابطان وظل السائق جالسا بداخلها ، خرجت رحيل لإستقبالهما بينما كنت فى حالة من الإرتباك والخوف ، تحدثت معهم رحيل بثقة وأخبرتهما بأن ما سبق وأخبرتهم به كان إستنتاج وشك لكن تبين لي بعد هذا أنه غير حقيقي ، صرح أحدهما بأن هذا شيء طيب لكن نحن من يقرر هذا ، أرجو سيدتي أن تطلبي من عاملك أن يرتدي ملابسه ويلحق بنا عند السيارة كي نتوجه به للمعسكر لتوجيه بعض الأسئلة له.

برجاء وإستعطاف طلبت رحيل أن يقوما بتركي يومين حيث أن موعد صرف الحصة التموينية بالغد ؛ وسوف يقوم صابر على صرفها وبعد الوصول يعود اليوم الذي يليه ليقدم نفسه بالمعسكر ، تداول الضابطان وبدا على وجوههما مسحة من الإبتسام تدل على أنها علما السبب الحقيقي لبقائي لمدة يومين آخرين ، ورغم إستنتاجي بما يخمنان وأيضا رحيل إلا أنها لم تبدي أي ضيق أو تبرم أو تشعرهما بأنها تفهمت مقصدهما السيئ ، وافق الرجلان وأخبرني أحدهما بأن معسكر التحقيق خلف معسكر إمداد المواد الغذائية مباشرة ، غادرا المكان وتنفست رحيل الصعداء وأسرعت إليّ تقدم إعتذارها وأنا مازلت فى حالة من الدهشة من طلبها ورغبتها بتأخير التحقيق يومين إضافيين ، أقبلت تتحدث معي وتدفعني في آن واحد:

ـ صابر ، بسرعة خد شهاب وإجري وصل الرسالة اللي كلها دم اللي أنا شفتها من كام يوم ، فاكرها؟

ـ أيوه يا رحيل ، بس إحتمال إننا نكون متراقبين

ـ مش مهم ، ولا مراقبة ولا حاجه ، أنا شاعره إن التحقيق مش حيكون يومين يمكن يوصل لأكتر من شهر ، دوول قومي وأنا عارفاهم ، روح دلوقتي ربنا معاك.

أسرعت إلي شهاب ووضعت السرج فوق ظهره فظهرت السعادة على حركاته وأعتقد بأنني عثرت له علي عروس قريبة ، فرسه من بنات المنطقة؛ لقد ضاق زرعا من الرهبنة ؛ فهو راغب بتكوين أسرة مثل صديقه أمشير ، لم أهتم بما يرغب وقفزت فوق ظهره أقطع المسافات كأنني أشارك فى سباق ، الحمد لله وصلت لديار تراجي وفوجئت بى وتساءلت:

ـ إوعى تكون جاي تجابل بوي وتطلب منه إنك تاخدني معاك لمخزن الدجيج والسكر؟

ـ لا يا تراجي ، أنا كنت عايز أجابل عم عيد

ـ عمك عيد !! ليه؟ حدث شي ضايجك مني بعد الجواز؟

ـ لا ، بدي أجابله لحاجه تانيه ، ديليني على داره

ـ تعالي ورايا ، بعد عدة خيام سمعتها تنادي .. عم عيد .. عم

عيد .. ضيف يريدك ... ظهر الرجل حيث قام يتثائب من نوم الظهيرة وحين شاهدني رحب بى طالبا مني دخول الخيمة ولكني طلبت منه لقاءا منفردا لا يجمعنا بأحد ثالث ، نظر جهة تراجي وطلب منها الدخول والجلوس مع أم علي زوجته لحين الإنتهاء من الحديث مع صابر ، نفذت الفتاة توجيه الشيخ عيد وحينما تأكد لنا أنه لا يوجد أحد تحدثت معه:

ــ شيخ عيد .. من أسبوعين زارتني أم سيناء .. باسما

ــ كيف أحوالها .. والله ما طلت علينا من مدة .. الولية دية ربنا ح يكرمها .. لكن ده جبل جوازك؟ مش كده برضه؟

ــ أيوه .. بس مرضتشي أجيب سيرة والمناسبة كانت فرح وسعادة وعلي كل حال زي ما أنت قلت .. ربنا كرمها .. كرمها بالشهادة .. لاحظت صمت الرجل والدهشة بدت على وجهه وأخبرته بكل صغيرة وكبيرة وأخرجت الخريطة وناولتها له فإذ بالرجل حينما شاهد جزءا منها إرتجف وتخوف وأسرع بها بعيدا عن الخيمة ودفنها بالرمال ثم عاد لاهث الأنفاس كي يخبرني بما يعرف ويعلم.

ــ دي خريطة عليها حاجات كتيرة وأسرار عسكرية بتاعة جيش الدفاع وسمعت أن فيه مجرمين هجموا على ضابط كبير وجتلوه وسرجوا الخريطة والجيش بيدور عليهم ؛ بيجولوا أن وياهم ست عجوز لكن ما خطرشي في بالي إنها أم سينا .. الله يرحمك يا أم سينا

ودعني الرجل وطلب مني الحذر أثناء التحقيق ومهما تعرضت من

ضغوط يجب عليّ ألا أفشي كلمة لأن هذا معناه القضاء على الكثير من البدو ؛ وفي المقابل لن يفرج عنك الإسرائيليين ، أثناء عودتي برفقة تراجي لدارها كانت تسير بجوارى تتهادي وتتمخطر متسائلة عن السر اللى كنت عايز عم عيد تسأله عنه.

ـ طبعا كنت عايز تسأله كيف تتجوز رحيل وإنت متجوزني ، أنا عارفانه إنك عينك زايغة زي كل أهل مصر مش بتكفيهم مره واحده لكن كل ما يشوفوا صبيه مليحه ريجهم يجري وراها ، معندكمشي جناعه.

ضحكت من حديثها وأخبرتها أن كل كلامها هبل فى هبل وبطلي نصاحة وإقتربت من أذنها راغبا بأن أخبرها بموضوع التحقيق فأسرعت تعدو مرددة.

ـ يا لهوي .. يا لهوي .. عيب يا صابر إحنا في الشارع

ضحكت بملء فيها وأخبرتها بموضوع التحقيق وأنني من المحتمل أن أتأخر عنها فترة طويلة فلا تتسرع وعليها الإنتظار ، ضحكت مؤكدة بأنها سوف تنتظر عودتي ولم تفرح بزواجها سوي أسبوع واحد وسوف تنتظر عودتي أعواما طويلة مودعة لي مرددة: مع السلامة ولا يهمك ؛ هكذا أنهيت مهمتي وعدت وأنا مازالت فى دهشة ؛ كيف تدفع بى رحيل لإنهاء هذا العمل الوطني والضار أيضا بجيشها ، لم أجد إجابة وحين وصلت للمستودع وتأكد لرحيل بأنني أنجزت مهمتي ظهرت السعادة على وجهها وصفقت مسرورة مما دفعني للتساؤل: عن هذا التطور وكيف تقبل الضرر بوطنها فأجابتني مستنكرة ": وطني هو مصر " سامع .. مصر ومافيش

غير مصر والعشر سنين اللي فاتوا كانت عيني متغميه ، أنا مصرية بنت مصرية .. أي حد يحاول يضر مصر فأنا ضده ، الديانة ملهاش دخل ، صابر: لو فيه دوله إسلاميه وأنت كنت حصلت على جنسيتها بل وتزوجت منها وسوف تقوم تلك الدولة بالهجوم على مصر أين يكون ولاءك؟ أجبتها على الفور لوطني .. بلدي وبلد أبويا وأجدادي ، صفقت للمرة الثانية مقررة أنها منذ أن شاهدتني أسرع لإنقاذ ابنها شعرت بأننا من بلد واحد .. فأنا لست على ديانتها وأنقذت وليدها من الغرق لكن جاستون الذي على ديانتي ورغم هذا قتل زوجي اليهودي ليختلي بى ، أتلاحظ الفرق؟ عد لحجرتك وأحصل على راحتك.

إعتقال غير مبرر

اليوم التالي توجهت لمعسكر المواد الغذائية وقمت علي صرف الحصة المقررة وأسرعت بالعودة بالسيارة المحملة بالمؤن وتذكرت ماذا سوف أفعل، كنت راغبا بلقاء رجال الحدود الشجعان لأخبرهم عن حالي ونظرا لأن الوقت لن يتسع لهذا فقد أكملت الطريق قُدما بالسيارة حتى موقع رجال الحدود بالقرب من عيون موسي ، هناك إستقبلني الرجال بالحفاوة والتهليل لأن هذه هي المرة الأولي التى أصل إليهم بلوري إسرائيلي محمل بالمؤن ، في بداية الأمر كاد الرجال يطلقون عليّ النار لولا صياحي وتحذيري لهم بأنني صابر ولا تطلقوا النار ، جلست معهم بعض الوقت ورويت للشاويش إدريس الأحداث التى وقعت منذ إستشهاد أم سيناء وحنق رحيل عليّ وإبلاغها عني ورغبتها المتأججة نحوي من حين لآخر ، كما أخبرته بنبأ زواجي من تراجي منذ أسبوع مما دفعه للضحك مقررا بأن صابرا يفعل كل شيء يرغب به ، طلب مني إدريس أن أعطيها العذر ، فالسيدة دون رجل وقد قتل زوجها أمامها وتحيا بصحراء موحشة بطفلها لتقوم بتنفيذ تعليمات جيش الدفاع.

قبل أن أغادر المكان أعطيتهم مؤنة شهرين وطلبت منهم قبل نهاية الشهرين أن يأتي إثنان بجملين للمستودع لصرف الحصة إذا لم أحضر إليهم وكنت حينئذ بالسجن أو قام الأعداء بقتلي ، أخبرتهم بأنني سوف أخبر رحيل بأسماء إثنين من أصدقائي ورشحهما إدريس وهما أحمد الطيب والعريف أبو بكر ، ودعني الرجال بكل حفاوة طالبين مني التماسك وعدم الخوف من عنف المحققين الإسرائيليين ، غادرت المكان وأنا أشعر بالدموع

تحاول مغادرة عيناي ولهذا جاهدت النفس لأظل متماسكا مع عـدم إنفـراط عقد الرجولة الذي يجب أن يتحلي به رجال الجيش.

عدت منتصف الليل للمستودع وشاهدت رحيل فى إنتظاري وتـساءلت عن سبب تأخري حيث خالجها شعور بأنهم قد ألقوا القبض عليّ ، أخبرتهـا بأنني قمت بزيارة أصدقائي كي أسلم لهم المؤن ، شـكرتني وطيبـت مـن خاطري وأخبرتني بأنه لو جد جديد فسوف توفر لهم كل ما يطلبونه وسوف تتحمل أثمان تلك المؤن ، ودعتها وذهبت لحجرتي كي أحصل على قسط من الراحة ، لم أستطع النوم خلال تلك الليلة فقد تحرك فيلم تسجيلي عن حياتي منذ وعيت وأدركت الحياة ؛ حيث كانت هناك نقاط هامـة توقـف عنـدها التسجيل الأمين للأحداث بداية من علاقتي مع ريهام بعد إنقطاع إستمر لعدة سنوات ثم علاقتي بالباشا وعلاء بك ثم أمي وشقيقاتي وصولا إلى التجنيـد ولقاء رجال الحدود الصامتين الأفذاذ وأخيرا وقوعي بـين بـراثن رحيـل والنقطة المضيئة الأخيرة بزواجي من تراجي.

شعرت بأن حياتي كلها ضربات قدرية ومن يدري ماذا سوف يحـدث لي؟ أجبت على هذا السؤال بما هو واقع ، هل كانت أم سيناء تسأل مثل هذا السؤال؟ وهل باقي الشهداء الذين لقوا مصرعهم على يد الأعداء فكروا ولو للحظة فيما حدث؟ أعتقد أنه لا يوجد أحد قد فكر فى مثـل هـذا الـسؤال ، سوف أعقلها وأتوكل كما قال رسولنا الكريم ، نهضت صـباحا وإرتـديت ملابسي وتوجهت لأصدقائي أبثهم حديث الفراق ، كأنهم يشعرون بما يشغل بالي أو إعتقادي كان كذلك ، ودعت كل حيوان علي حده ثم أشـرت لهـم بالوداع ولحقني كل من ليفي وبعرور للقاء صـديقهم هـارون ؛ إسـتقبلتني

رحيل كأحسن ما يكون الإستقبال وكأنها تعاقب نفسها بما إقترفته من تهور سوف أدفع ثمنه من حريتي وقد يصل الثمن إلى أن أدفع حياتي ، جلست بجواري تطعمني كأنني طفل ، أنهيت لقيمات صغيرة وتناولت بعدها كوبا من الشاي وقبل ركوب السيارة عانقتني وضربت على ظهري ضربات قوية تدل على الفراق الذي لن يعقبه لقاء ، كنت أسمع بكائها على كتفي ، تماسكت وقفزت مغادرا باب الخيمة فلحق بى هارون وتعلق بى باكيا فإنحنيت عليه وحملته وقبلته عدة قبلات ومازال الطفل باكيا ؛ كما نبح ليفي وقفز بعرور بما يعني أنهما لا يعلمان السبب وراء كل هذا الوداع والبكاء والأحضان والقبلات المتناثرة بيننا وكأن لسان حالهما يردد .. بطلوا دوشه وخلينا نلعب شوية.

كنت أقود السيارة وكأنني متجه لموعد غرامي وليس لتحقيق وتعذيب وإعتقال وإحتمال القتل ، فكلما إقتربت المسافة للمعسكر الذي به مكتب التحقيق كنت أشعر بالشجاعة ويغادرني الخوف والرهبة ، أسعدني هذا الشعور مما دفعني للثقة بالنفس وأن الله معي دائما ولن يتركني لهؤلاء القتلة، على باب مكتب التحقيق شاهدت اسمي مسجلا محددا فيه موعدي لديهم هذا اليوم مما دفع جندي الحراسة للسماح لي بالدخول ؛ دخلت ومازلت أقود لوري المستودع وأرتدي زى قوات الناحال.

إصطحبني أحد الجنود وبداخل المكتب المختص إستقبلني أحد الضباط ويدعي " إبراهام سمعان " الذي جاء منذ يومين بغرض التحقيق معي ، إستقبلني بوجه باش وطلب منى الجلوس أمامه وظل يدقق النظر في شخصي ولم يحدث لي أي إرتباك بل ظللت على حالي ومتماسك ، سألني إن كنت

راغبا بتناول مشروب ما فطلبت كوبا من الشاي فضحك قليلا معلقا:

ـ كنت فاكرك ح تطلب كوب عصير ليمون كي يهدأ من حالتك

شرحت له بهدوء بأنني هادئ وأنا لم أرتكب أي خطأ وأنا هنا فى إنتظار أي قرار تتخذونه ، إبتسم معيدا بعض كلماتي ؛ هل سوف تتقبل أي قرار نتخذه؟ أجبته بأنني أوافق على أي قرار تتخذونه إلا طلب واحد ، أسرع يتساءل ما هو؟ أجبته خيانة وطني .. أردد .. خيانة وطني.

صمت الرجل وغادر المكتب ثم عاد ونظر إليّ باسما مرددا:

ـ حظك كويس ، فيه توصيه بعدم تعذيبك أو سجنك لكن القرار البديل هو الخدمة الشاقة لمدة ستة أشهر بسلاح الهندسة الإسرائيلي ، صاح فيّ ، إنهض وبخارج المكتب سوف تجد من يصطحبك لتنفيذ هذا القرار.

غادرت المكتب غير مصدق ما حدث أو ما سمعته ، تساءلت: من يا تري سوف يقوم بالتوصية عليّ؟ إبتسمت ضاحكا : أكيد الشاويش إدريس!! أو أمشير أو تراجي .. صمت قليلاً وأعدت ترديد كلمة تراجي وتنبهت للكلمة الصحيحة .. رحيل .. لن يفوت هذا رحيل ولها من أساليب الإقناع الكثير .. أردد .. الحمد لله .. الحمد لله ، أقبل ضابط صف وصافحني وأخبرني بأنه قادم لإصطحابي لعملي الجديد ، لم أصدق تلك الكلمة فهو يقصد السجن الجديد ، على أي الأحوال ليس هناك فرق.

تحركت معه ثم ركبت سيارة لوري بها بعض الرجال ولا أعرف أحدا

منهم ومن اللحظة الأولي تبين لي أنهم فى حالة نفسية سيئة فالعبوس والوجوم كان السمة السائدة لهم جميعا ، وصلنا إلى معسكر يقع بداخل الأرض المحتلة بإسرائيل ، تسلمنا ملابس برتقالية اللون مكتوب على ظهرها جملة باللغة العبرية ، علمت فيما بعد أنها تعني إدارة سلاح الهندسة بجيش الدفاع ، ظللنا بهذا المعسكر عشرة أيام كرست كلها للتدريب الذي يرتكز على معدات التشييد والبناء سواء من معدات أو مواد مثل الأسمنت والحديد وأعمال الخرسانة ثم السباكة والكهرباء.

لقد إكتشفت أن جميع هؤلاء الرجال جنود مصريون إحتفظت بهم إسرائيل ولم تبلغ عنهم الصليب الأحمر وبالتالي هم فى عداد المفقودين ، وتقوم إسرائيل بتسخيرهم فى الأعمال الشاقة داخل الأرض المحتلة "فلسطين" أو بالأراضي التي إحتلت بعد عام ١٩٦٧ ، لقد كان الرجال فى حالة من الإنهيار التام ، فلو قتلهم الإسرائيليون لن يحاسبهم أحد لأنهم فعلا تم إضافتهم لكشف المفقودين بالجيش المصري.

دفعنا جميعا إلى الخطوط الأمامية ، المكان الذي وصلت إليه يقع شرق قناة السويس ، مدينة مهجورة ومدمرة بفعل أعمال القتال بين الجانب المصري والجانب الإسرائيلي ، علمت فيما بعد أن تلك المدينة يطلق عليها اسم القنطرة شرق ولم أكن قد شاهدتها قبل ذلك ، تسلمنا ضباط من سلاح المهندسين يجيدون اللغة العربية ، تم توزيعنا كمجموعات عمل ، كنت ضمن مجموعة العمل الخاصة بتوصيلات المياه والصرف الصحي ولهذا كنت أعمل يوميا في منطقة واحدة.

بدأ العمل بغرض إعداد دفاعات قوية لجيش الدفاع أي دفاعات محصنة ضد قصف المدفعية والطيران المصري ، شاهدت وإختبرت البدء في إنشاء تلك الدفاعات التي أطلق عليها نقاط خط بارليف ، كان العمل يبدأ بالنقطة المحصنة بالحفر بمنسوب منخفض بحيث لا ينخفض عن منسوب مياه القناة ، ثم توضع فرشة من الأسمنت المقاوم لتسرب المياه ثم تفرد ستائر من حديد التسليح المجلفن المانع للصدأ ؛ ثم توضع فرشة أخري من الأسمنت ، يتم هذا فى يوم واحد ويتخلل هذا وضع مواسير مياه ومواسير صرف صحي من البلاستيك الأبيض المقاوم للأحمال أيضا عمال الكهرباء يضعون مواسير التوصيلات.

حينما ننتهي من مستوي يقبل عمال الخرسانة لعمل حوائط خراسانيه عريضة ومعدة سلفا وبها أماكن الأبواب والمزاغل الخاصة بالأسلحة وفتحات التهوية وخلافه ، ظللنا نقوم بالأعمال وحين ننتهي من مستوي نرتفع للمستوي الأعلى أي الدور التالي وما قمنا به فى السابق نقوم به فى هذا المستوي ، بعد أن إنتهت أعمال الخرسانة والسباكة تجمع جميع الجنود وسلمت إلينا مفاتيح مخصصه لفصل القضبان الخاصة بالسكة الحديد "شريط القطار" عن الفلنكات الخشبية ، بعد هذا كنا نكلف بحمل قضبان القطار والذي يصل وزن القضيب الواحد إلى أكثر من طن ، كنا ندفع بهذا القضيب ليوضع بطريقة معينة فوق النقطة الحصينة.

إستمر العمل بتلك النقاط عدة أشهر والآن إنتهت مدة العقوبة الموقعة عليّ وسوف أغادر المكان عائدا إلى مكتب التحقيقات لأحصل على شهادة الإفراج ، نهار هذا اليوم لن أنساه حيث كان اليوم الأخير من عام ١٩٧١ ،

ليلا والإذاعة التى يديرها جيش الدفاع توعدنا بإذاعة حفل ساهر لأم كلثوم وقد تم نقل الحفل مباشرة من إذاعة القاهرة بطريق السطو والسرقة ، سمعت منيع الحفل يقدم الحفل ويعلق قائلا " نحن على أعتاب سنة جديدة .. عام ١٩٧٢ " لم أعد أستمع لباقي حديثه حيث تذكرت حديث أم سيناء لي ، صابر .. إستعد .. أمامك ثلاث عتبات وفى الثالثة تنشب حرب التحرير وعليك الإستعداد بالطعام والشراب للمقاتلين ".

أردد .. الله أكبر .. إفتح علي بنعمتك وأظهر لي معني ما قالته أم سيناء .. لا تبخل عليّ يا رب ، مازالت كلمة أعتاب عام جديد ترن فى أذني وظللت طوال الليل أستعيد صوت المذيع وأرغب بأن إستكمل الكمال بمعرفة الثلاث عتبات ، شعرت بهلوسة وحيره أخرجتني مما كنت أفكر فيه وإستبدلته بالنوم العميق ، إستيقظت صباح اليوم التالي وبعد تناول طعام الإفطار طلبني كبير المهندسين بالموقع وسلمني صك الإنتهاء من العمل وأمرني بأن أستقل الأتوبيس الخاص بنقل الجنود الذي حل موعد إجازتهم والمحطة الأولي هي العريش وسوف يستقبلك رجال التحقيقات العسكرية هناك.

مساء هذا اليوم كنت فى معسكر التحقيقات وحدد لي سرير رقدت عليه حتي الصباح ، في صباح اليوم التالي إستقبلني الضابط المسئول وراجع الكشوف الموجودة أمامه وتسلم مني إخطار المهندسين العسكريين ، بعدها سلمني صك الإفراج وأشار إلى أحد الجنود بأن ينقل هذا المفرج عنه ويعود لموقع عمله برفقة دورية الظهيرة ، صافحني مرددا ، مش عايز أشوفك هنا

غير فى شغل ، لو غلطت المرة التانية ح تكون فيها نهايتك.

ركبت مع رجال الدورية والذين كانوا يدخنون سجائر محشوة بمخدر الحشيش حتى كاد أن يهاجمني الإغماء مما دفعهم للضحك على حالي ووضعوني أعلي السيارة المدرعة ورغم البرودة الشديدة لشهر يناير من عام ١٩٧٢ إلا أنني شعرت براحة وإستطعت إستنشاق الهواء النقي ، وصلنا إلى باب المستودع وقد قارب ضوء النهار علي الإفلات ، قام السائق بإطلاق نفير السيارة وبعد قليل ظهرت رحيل بصحبة كلبها ، قفزت من أعلي العربة المدرعة مودعا الجنود بينما توقفت رحيل غير قادرة على إستيعاب ما تشاهده حيث كانت المفاجأة أكبر من طاقة إحتمالها ، صرخت ثم وقعت مغشيا عليها ، حملتها ودخلت بها إلى حجرتها وجلست بجوارها ، بعد قليل أقبل هارون ينادي أمه وبخلفه ليفي ، حين شاهدني صفق الطفل وأسرع نحوي يعطرني بقبلاته الرقيقة الجميلة وبادلته قبلات أكثر من التى منحها إياي ، تنبهت رحيل وتلفتت يمنا ويسري وركزت نظرها نحوي وشاهدتني وأنا أقبل وحيدها ، مدت ذراعيها نحوي فأنزلت هارون جانبا حيث لحق بليفي وسمعت صوت بعرور بالخارج ، نهضت وظلت جالسة بالسرير ووضعت رأسها على كتفي باكيه ضاحكة وتقبض على ظهري كأنها تخشي أن أفارقها مرة ثانية.

غادرت السرير ونظرت إليّ تتفحصني وتبين لها أنني إزددت سمرة وأيضا صلابة وقوة وبدا عليها الضعف والهزال ورغم أنني لم أوجه إليها أي سؤال عن حالتها الصحية الواهنة إلا أنها أخبرتني بأنه لولا وجود هارون وخشيتها عليه لفقدت حياتها مما ألم بها من ألم نفسي بسبب إندفاعها

وحماقتها وأيضا بسبب الوحدة التى ألمت بها.

قضينا أمسية رائعة بدأت بإعداد حمام منعش وطعام شهي وتبادلنا علاقة الحب الأخوي الذي كان يشعرني بكل حنان أفتقدته منذ مغادرة قرية أنشاص ، ظللت مستيقظا إلى ساعة متأخرة من الليل ، أثناء حديثنا وسمرنا كنا نستمع لأغنية أم كلثوم "أغدا ألقاك" ، شعر كل فرد منا بأنه لا يستطيع مقاومة الرغبة فى النوم ، إفترقنا بعد أن قبلت هارون الذي كان يسبح فى أحلامه مع ليفي وبعرور.

صباح اليوم التالي جلسنا نتحدث وتبادلنا الكلمات الطيبة وكل واحد منا شعر بأنه لا يستطيع أن يفارق الآخر ، أقبلت بعض الأسر البدوية فنهضت لصرف مستحقاتهم ، أخبرتني رحيل بأنها قامت على صرف ما يحتاج إليه زملائي العاملين بالتعدين أيضا إلتقت بتراجي عدة مرات حيث كانت تأتي لصرف مستحقات أسرتها وتقضي معها بعض الوقت ويدور الحديث عن صابر وأحواله ، سألتها: هل قمت بعمل توصية لي حتي لا أحصل على حكم بالسجن ، إبتسمت معلقة:

ــ تفتكر الأخت اللي تحب أخوها واللي أنقذ ابنها من الموت تعمل إيه غير اللي عملته ، دي أقل حاجه عشان خاطر حبيبي صابر ، ربنا يخليك ليا .. أقوم أشوف حالي وأعمل عزومه حلوه النهاردة زي ما بنقول فى مصر .. غادرت المكان وأسرعت إلى لقاء أصدقائي ، كنت أسمع أصواتهم بداخل الدهليز وحين دخلته شاهدت العيون اللامعة تنظر إليّ .. قام أمشير بأحداث أصوات الفرحة والرغوة التي سقطت من فمه على الأرض وأيضا الجمل

"البركة" أيضا الجمل مسك الليل الذي ورثته عن الراحلة أم سينا ، أما شهاب فقد قفز لأعلي ملوحا بقدميه الأماميتين وأقبل سريعا ووقف أمامي محركا رأسه لأعلي وأسفل ، كانت التحية واضحة أما ناقة هانم فقد حركت أقدامها الخلفية بحيث تخلت عن رضاعة بعرور وأقبلت نحوي تشم رائحتي مما دفع بأمشير لأن يحذو حذوها حيث شاهد ترحيب زوجته وصديقه شهاب أكثر دفئا منه ، قبلت بعرور ولاحظت أن جسده نما وأزداد طولا وحجما وحدثته قائلا: مش كفاية لعب؟ أنت كبرت وبقيت طويل على لعب العيال وكأن تلك الكلمات أسعدته فأخذ يقفز لأعلي وأسفل وسمع نباح ليفي فأسرع فى أعقابه حيث كان هارون قادما يحمل قطعة من الشيكولاته إقتسمها مع صديقيه وحين أخبرت رحيل بما شاهدت أخبرتني بأنه منذ تركك لنا وأنا أحاول إدخال السعادة إليهم حيث عمت علينا حالة من الحزن والضيق ووجدت أن الأصدقاء الثلاثة الصغار قادرون على إدخال السعادة علينا جميعا لو أسعدناهم ؛ حيث كانت قطع الشيكولاته هي الأساس.

رسومات هندسية لمواقع خط بارليف

اليوم التالي لعودتي من المعتقل ودعت رحيل وأسرعت إلى زيارة ديار قبيلة تراجي ، كان برفقتي شهاب ويرجع السبب في إستخدامه إختصار وقت الوصول وأيضا وقت العودة حتي أستطيع قضاء فترة أطول مع تراجي؛ فقد حرمت من حديث ومشاهدة تلك السيدة الجميلة المشاغبة ؛ كانت الفرحة غامرة حين إلتقيت بالأسرة وأخبرتني تراجي بأنها كانت علي علم بما حدث لي من الأخبار التى أمدتها بها رحيل ، كما أخبرتني بأنها شعرت بمقدار ما تكنه لي رحيل من حب أخوي كنت أتشكك فيه قبل هذا ولكن حينما جمعنا حب مشترك لشخص واحد تباينت المواقف ؛ فهناك حب الأخت الكبيرة والتى شعرت به رحيل تلك السنوات الطويلة وما أسبغته عليها وعلي طفلها من رعاية ودفء أسري كبير وبين حب الزوجة لزوجها والنوعان يصبان فى إطار واحد وهو إطار العلاقات الإنسانية التى تساعد الإنسان على الحياة بسعادة وأمل لمستقبل مشرق ، أيقنت من تلك الكلمات بأن تراجي أخبرت رحيل بنبأ زواجنا منذ عدة أشهر قبل الحكم عليّ بالعمل ستة أشهر بسلاح المهندسين الإسرائيلي ، أيضا كان واضحا علي تراجي حالة الحمل ؛ حيث شاهدت بطنها مرتفع وشعرت بسرور داخلي وكنت راغباً بحضور أمشير معي حتي لا يتعالي *"يّانزح علي شخصي ويعمل فيها سبع البرمبة ومافيش حد أحسن من حد"* ، كما ملأني الزهو بأنني سوف أصبح أب خلال شهرين علي أكثر تقدير ، *"ياه .. الواحد كبر وبقي مجوز ويبقي عنده عيال"* ، كما شعرت بأن هارون وأصدقاءه سوف يسعدهم إنضمام صديق جديد في قائمة الفريق الذي تكون بين الصخور والجبال خلال فترة الحرب والقتال.

أمسكت تراجي بيدي وكان باديا عليها السعادة والإبتسام ثم توقفت بعد أن سرنا عدة خطوات بعيدا عن خيمة عائلتها حيث قالت لي سوف تشاهد شيئا جميلا سوف يسعدك ، إعتقدت بأنها أنجبت وسوف تريني المولود ولكن كيف أنجبت بتلك السرعة؟ شاهدتها تنظر من حولها وتساءلت أين شهاب ، أفادها طفل صغير حينما سمعها تتساءل: أين الحصان الأبيض الذي حضر به صابر فأخبرها بأنه شاهده يسرع فى إتجاه خيمة الشيخ عيد ، هللت مرددة ، هايل ، والله أنت فرس هايل يا شهاب ، مازلت أسير برفقتها والدهشة هي حالي وشعرت أن تراجي إستبدلت حب وعشق الجمال بحب وعشق الخيول ، سمعتها تنادي .. الخالة أم علي .. يا خاله .. بعد قليل أقبلت الخالة أم علي زوجة الشيخ عيد والذي لم يكن متواجدا حيث رحبت بي السيدة مهنئة على مغادرتي السجن!! تساءلت أم علي:

ـ عايزين تشوفوا شهاب؟

ـ أيوه يا خاله

أفسحت السيدة الطريق وشاهدت عددا من جذوع النخيل المترابطة والمتراصة ومغطاة ببعض الأقمشة البالية ، سارت بنا ودخلنا إلى ممر يمر أسفل جذوع النخيل وشاهدت شهاب ولكن الشيء المدهش أنني شاهدت حصانا آخر أحمر اللون وبجواره مهر صغير يحمل اللونين الأبيض والأحمر ، على الرأس والرقبة ومنطقة الجزع الخلفي اللون الأبيض وباقي الجسم اللون الأحمر ، كان منظر المهر الصغير غاية فى الجمال ، نظرت

إليّ تراجي وشعرت بأنها تحمل خبرا راغبة بأن تخبرني به حيث قالت:

ـ المهر الصغير ده ابن شهاب!!

ـ ابن شهاب !! إزاي؟

قصت عليّ تراجي قصة غريبة حيث أخبرتني بأنه منذ أكثر من عام شاهدنا شهاب وأمشير قادمين يهرولان وقد بدا عليهما الإعياء ، كنت أعلم أنهما ملك لك ؛ حيث كنت متواجدة يوم أن أهدتك إياه السيدة العجوز أم سيناء وأيضا أمشير قدم معك يوم أن حضرت إلينا أول مرة تحمل الحصة التموينية لنا ولخالتي ، حينما حضر كل من أمشير وشهاب وضعنا لهما الطعام وحجزهما الشيخ عيد بداخل تلك الزريبة حتى الصباح ، في تلك الليلة قام شهاب بواجبه نحو "زمردة" فرسه الشيخ عيد التى كانت فى أشد الحاجه كي تعشر "تحمل" وأثناء وجودك بالحبس ظهر هذا المولود الجميل ، كما تشاهد مهر ذكر يمرح حول أمه وكما تشاهد أيضا مدي سعادة شهاب بابنه مثل أي إنسان يشاهد ميلاد ابن له.

كانت المفاجأة سارة لأقصي حد وعلمت بأن أمشير وشهاب كانا يجريان على حل شعرهما وأنا أنتظرهما في قلق بالغ خشية أن يقتلهما العدو الإسرائيلي وتبين لي أن هناك قصة حب تربط بين شهاب وزمردة أثمرت عن ميلاد "ياقوت" ، لقد سار شهاب على الدرب الذي سرت عليه ، فكما أقمت يا صابر علاقة حب مع تراجي جارة زمردة وتزوجتها وسوف تنجب لك ياقوت صغير قمت أنا بعلاقة نسب مع زمردة وسبقتك وتزوجت وأنجبت ومحدش أحسن من حد .. ياه .. قلتها بدهشة الدنيا دواره والله يلهم

الحيوان كي تستمر الحياة وتبين لي أن أمشير أصبح يعمل خاطبة وقد سبق وأن قام بتزويج نفسه من ناقة هانم أم ابنه بعرور بل وعلمت أنهـا تنتظـر حادثاً سعيداً آخر وأعتقد لو إستمر هذا الحال فسوف تمتلئ المنطقة بالبعارير " جمع بعرور " وبدلا من أن نوزع دقيق وسكر نقوم بتوزيع جمال صغيرة، أضحكني هذا التعبير وحمدت الله بأن الحكومة المصرية ليس لها سلطة علي سيناء وإلا كانت أوكلت حالة العجز في ميزان المدفوعات لكثرة أبناء أمشير كعادتها مع بني البشر ، قضيت ليلتي تلك مع زوجتي الجميلة أبثهـا حبـي وأشواقي عن بعد نظرا لحالة الحمل التي أثـرت عليهـا ، وفـي الـصباح غادرت القبيلة متجها لعملي.

سارت الحياة بنا سيرا طيبا وخلال تلك الفترة قمت على زيارة أحبـائي رجال الحدود وبعد جلسة طيبة أخبرني إدريس بأنه فقد ثلاثة رجال آخـرين فى إشتباك عنيف ومسلح حول بئر أبو زنيمة للبتـرول حينمـا علـم بـأن الإسرائيليين نجحوا فى دق بريمة جديدة وأنهم على وشك إستخراج البترول الخام ومن أجل هذا قامت الفصيلة بكامل قوتها وبرفقـة رجـال البتـرول بمهاجمة موقع أبو زنيمة وحدث قتال ليلي تدخلت خلاله الطائرات الهليكوبتر ورغم الخسائر التى لحقت بالبئر وببعض رجال البترول الإسرائيليين إلا أننا فقدنا ثلاثة رجال وهم .....,,

اليوم التالي بعد أن ظللت مساء تلك الليلة حزينا على فقد هؤلاء الرجال والتى تربطني بهم صداقة طيبة أخبرت الشاويش إدريس بما قمت بـه مـن العمل بتحصين مواقع للعدو على ضفة القناة وأخبرته بـأنني راغـب بـأن أرسل برسالة مع الشيخ عيد كي يعلم أولي الأمر بما حدث وكنت أتمني بأن

أقوم علي رسم ما شاهدته ، أشعر هذا إدريس بالسعادة والراحة وأخبرني بأنه من الواجب عليّ القيام برسم هذا التصميم ، أخبرته بأنني لا أستطيع فلا أمتلك تلك الموهبة ، صمت قليلا مرددا .. الحكاية دية عايزه مهندز .. رباح .. فينك رباح .. إبعت ليا الباشمهندز .. بعد قليل حضر المهندس عزيز وأخبره إدريس بما أحطته به علما ، إبتسم الرجل قائلا تلك مهنتي ومهمتي أيها الرجل الشجاع ، فلنأخذ مكانا ونستعد للقيام بهذا الرسم وما عليك سوي الوصف ومحاولة تذكر الأبعاد والخلطة فى كل المواد والأماكن وأترك لي الباقي.

أحضر الشاويش إدريس دفتر الأوامر الخاص بالفصيلة والذي يدون فيه الأعمال التى تقوم به الفصيلة وهو دفتر رسمي ولم يعد مستغل ويتمتع بورق أبيض نظيف وكبير المساحة حيث تصل أبعاده ٣٠سم × ٤٠سم .. جلست بجوار المهندس عزيز وطلب إدريس الجميع بتركنا كي لا تشغلنا أحاديثهم ، ظللت بجوار المهندس عزيز أكثر من ساعتين والرجل يقوم بالرسم حتى إنتهي وتساءل ، هل هذا الرسم مقارب لما شاهدته وقمت بالعمل به؟ أجبته كأنه هو ، تركنا حوالي الساعة ثم عاد بعد أن أضاف وأزال بعض الخطوط من على الرسم فهتفت .. الله أكبر .. كأنك كنت معنا .. الحمد لله .. كما قام بكتابة كل البيانات التى زودته بها على الرسم حتى اسم الموقع المحصن وموعد إقامته ، قمت بفصل الورقة التي بها الرسم عن باقي الدفتر ؛ توجهت للشاويش إدريس كي أسأله عن معني اللغز التي أخبرتني به أم سيناء وظل الرجل يفكر وطلب عون زملائه ولم يستطع أحدا منهم أن يقوم بتفسير ما نصحت به أم سيناء ؛ قفلت عائدا كي ألتقي بالشيخ عيد فى أقرب وقت كي أسلمه هذا الكنز من المعلومات كما أخبرني

المهندس عزيز ميخائيل مهندس البترول الهمام الذي حذرني من إكتشاف العدو لتلك الرسوم.

وصلت إلى مركز المساعدات ولم أجد رحيل في إنتظاري فدخلت مسرعا إلى حظيرة الأصدقاء وحررت شهاب من السرج ودلكت له جسده بالفرشاة وأثناء ذلك كان يعب من المياه ثم تلي هذا تناول بعض الشعير الموجود ، كان واضحا السعادة والغبطة على ملامح شهاب فقد رافقني عدة أيام شاهد خلالها ابنه ياقوت وزوجته زمردة وبث لهما بعض الأشواق ورغبته بأن يجتمع الشمل حتي نحيا ونعيش كأسرة مترابطة مثل صديقي أمشير.

أخفيت الرسم الذي قام بتخطيط خطوطه وأجزاءه المهندس عزيز ميخائيل بعد أن وضعته بداخل كيس بلاستيك من الأكياس التي تغلف عبوات الشاي الكبيرة ، أسرعت ووضعت الكيس بجوار قبر أم سيناء والتي دائما ما كنت أتذكرها أثناء فترة الإعتقال ، أثناء الحفر بجوار قبرها شاهدت بعض سيقان لنباتات قريبة من القبر وقد نبتت بطريقة غير منتظمة ، فكرت بإقتلاعها ولكني تراجعت وتركتها كي تنمو ثم أقدمها لبعرور أثناء لهوه مع صديقيه والذين أقبلوا وكنت أشاهدهم يجرون خلف مكان جلوسي وكل واحد منهم يخرج صوتاً يختلف عن أصوات الآخرين لكن التفاهم سمة واضحة وقد مضي أكثر من عام ونصف على تلك العلاقة ومازالت الصداقة قوية وقد بدا واضحا بأنها قد أفادتهم جميعا وبالأخص هارون الذي إنخرط في الحياة وأصبح كثير الإعتماد على نفسه وأصبح قادرا على تكوين جمل كلامية واضحة كاملة بعد حالة اللجلجة التي كانت مسيطرة عليه مع ظاهرة

الإنطواء المستمرة ومتابعة رحيل فى كل خطواتها.

قرأت الفاتحة على روح المناضلة المرحومة أم سيناء ، لقد تأكد لي بأن المنطقة القريبة من القبر كانت رائحتها طيبة للغاية وقريبة من الرائحة التي سبق وأن شممت عبقها ليلة وفاتها ، كان الفارق واضحا بين قبر موشيه وبين قبر تلك الأم الطاهرة.

صباح اليوم التالي قمت بعمل فتحة صغيرة بشكارة السكر عبوة زنة عشرة كيلوجرامات ووضعت بداخلها الكيس البلاستيك الذي يحتوى على الرسم ، أخبرت رحيل بقضاء هذا اليوم مع عائلة تراجي ، ظهر على وجهها الغضب والضيق مما إضطرني إلى إلغاء تلك الرحلة حتي لا تغضب مني وتقلب عليّ الأمور رأسا على عقب كما حدث ، بعد قليل أقبلت بعد أن زال العبوس من وجهها وطلبت مني أن أقوم على زيارة تراجي وأنها ترغب بأن أظل بجوارها فهي وحيدة ولا أقارب بجوارها وكأن الله أرسلك لي ولابني ، طبعت قبلة سريعة على خدها مما دفع بدموع السعادة لأن تظهر بعيونها الجميلة وربت على كتفي ثم أشارت لي ملوحة بما يعني مع السلامة.

قطعت الطريق الواصل بين المستودع وبين ديار قبيلة تراجي دفعة واحدة وكنت أشعر بشهاب أثناء عدوه برغبته بالوصول مبكرا حيث كان فى شوق لكل من زمردة وياقوت وكأنه يتغني بأغنية عبد الحليم حافظ " إسبقني يا قلبي إسبقني على الجنة الحلوة إسبقني" تعجبت لهذا الحصان الذي سيطغي حبه على حب قيس وليلي العامرية وسوف تكتب رواية عن حب كل من

"شهاب وزمردة" ، سمعت صهيل شهاب ولم يتبق سوي عدة كيلومترات لكن سبب الصهيل ظهور دورية إسرائيلية قطعت علينا الطريق وأشار إليّ قائدها بأن أهبط من على صهوة الحصان وأتجه إليه بينما قام آخر بفحص سرج الحصان كأنه يبحث عن شيء ما أثناء هذا كان الضابط يطلب مني هويتي وبعد أن شاهدها أشار إلي الجندي بالتوقف عن التفتيش قائلا له بالعبرية بأنه زميل وصديق ؛ عند هذا رفع الجندي يده عن شكارة السكر حيث كان ينوي فتحها بمطواة بيده ، تركتنا الدورية ولساني يردد الحمد لله .. الحمد لله ، ليس خوفا وخشية منهم ولكن لفقد القيادة بمصر لهذا الرسم الذي أكد لي المهندس عزيز والشاويش إدريس أهميته القصوى.

أمام دار تراجي طلبت من شهاب التوقف كي أهبط من فوق ظهره ولكنه لم يهتم بي وأسرع ودخل إلى الحظيرة مباشرة مما تسبب في إرتطام رأسي بأحد أفرع أشجار النخيل المقام عليها السقف وكانت الإصابة طفيفة لأنني أسرعت بخفض رأسي ، توجه شهاب إلي ياقوت يبثه حبه وشوقه وكأن المهر الصغير يشعر بأن هذا الحصان أباه فظل يقفز ويصهل بصوته الرفيع مما إنعكس على زمردة بالسعادة وكأنها تداعب شهاب بقولها حمد الله بالسلامة يا سبعي.

تركت الأسرة بعد جمع شملها وحملت شكارة السكر فشاهدت الشيخ عيد واقفا مرحبا بي ، أمسك بيدي ودخل بي إلي داخل الخيمة حيث طلب من أم علي زوجته إعداد أقداح القهوة بينما الرجل يربت على ساقي مرحبا ، ناولته شكارة السكر فأسعده هذا وأسررت له بما تحتويه ، إنتفض الرجل ودخل إلي الخيمة وعاد يحمل سكينا ووعاء من البلاستيك وشق الشكارة

وفرغ محتواها فظهر الكيس البلاستيك ، فضه مسرعا ولم يتفهم الرسم لكنه كرجل مخابرات فطن تأكد له أن تلك الوثيقة لا تقل أهمية عن المعلومات التي سبق ونقلتها له عن طريق أم سيناء عن قاعدة الصواريخ بجنوب سيناء منذ ثلاثة أعوام ، ضرب الرجل على ساقي بقوة مكررا .. الله أكبر عليك .. الله أكبر .. والله معلومة واحدة من بتوعك كفيلة إنها تجعلك من الأبطال .. ربنا يحميك ثم تركني وقام مسرعا ثم عاد بعد قليل بعد أن أخفي الوثيقة مقررا بأن ما بها سوف يصل القيادة قبل فجر الغد بمشيئة الله.

قمت على زيارة أسرة تراجي وتناولت معهم طعام الغداء وإنضم إلينا كل من الشيخ عيد وأم علي وبعد أن جلسنا جلسة طيبة قررت بعدها الرحيل فقد تعدي الوقت آذان العصر ، حينما طلبت من شهاب الحضور شاهدته مقبلا وخلفه كل من ياقوت وزمردة ، فى البداية إعتقدت أنهما يودعانه ولكن تبين لي ومن حديث الشيخ عيد بأنهما يرغبان فى مرافقته أو يظل شهاب معنا ، ما رأيك ، أجبته بأنني لا أستغني عن شهاب ، حينئذ قال الشيخ عيد فترحل الأسرة كلها معك ولهذا طلب عون الشيخ إسماعيل والد تراجي حيث قام الرجلان وبمساعدة مني بحمل ياقوت ووضعته على ظهر شهاب حيث لا يقوي على السير تلك المسافة فما زالت أقدامه ضعيفة ، نظرت زمردة لشهاب وصهلت كأنها تداعب صغيرها وسعيدة به وكأنها تطالب شهاب بالإهتمام بياقوت حتي لا يسقط من فوق ظهره ، بعد هذا صعدت صهوة شهاب وتمكنت من السيطرة علي الصغير ياقوت.

ودعت الأسرتين عائدا إلى المستودع ؛ حيث كنت فى غاية السعادة وأنا أراقب حنان وعطف وحب شهاب وزمردة على صغيرهما ، دون حديث

واضح مني ، كأنهما زوج وزوجة خرجا للتنزه بصحبة طفلهما وهما يرعيانه بكل حرص وسعادة ؛ حيث كنت أسمع صهيل زمردة فيتوقف شهاب فتسرع إليه تلعق جسد ياقوت وتعضعض بلطف أذنه فيحاول القفز متجها إليها ولكني أضغط عليه طالبا منه الهدوء حتي نصل إلي المستودع.

الحمد لله وصلنا بالسلامة إلي المستودع وقد بدا على الصغير الإرهاق من طول المسافة وعدم الحركة ، توقفنا عن المسير وهبطت من فوق ظهر شهاب وقمت بإنزال ياقوت من فوق ظهره فسقط أرضا لا يستطيع الوقوف فأقبلا والديه يساعدانه بلحس سيقانه الضعيفة من أسفل لأعلي حتي إشتد عوده ووقف بأرجل مرتعشة ؛ فجأة أقبل هارون وصديقاه ولم أشاهد ياقوت الذي قفز إليهم وأسرع الأربعة بالجري وشاهدت رحيل بعد أن وضعت يدها على فمها وجحظت عيناها وهي تردد .. آه يا ربي .. ربي .. ما هذا الجمال والروعة وأقبلت وشاهدت زمردة تقف بلونها البني ورشاقة جسدها ، نظرت إليّ متسائلة من أين أتيت بتلك العائلة فأشرت لها بعد أن إنتهي من تقديم واجب الضيافة للسيدة زمردة وواجب الصداقة للسيد شهاب ، إصطحبتهما لداخل الحظيرة وحررت ظهر شهاب من السرج وتبادل الأصدقاء الأربعة النظرات "أمشير وناقة هانم وشهاب وزمردة" تركتهم يتفاهمون وعدت لرحيل كي أبثها كل حب الأخوة وأطيب من خاطرها وأجلس برفقتها فقد أصبحنا جميعا مجموعات بإستثناء رحيل.

العـــــتبة الثالثـــــة

شعرت بالراحة بعد أن قمت بإرسال الرسم التوضيحي لنقاط خط بارليف الحصينة وشعرت بأنني قد قمت بعمل ذا فائدة كبيرة لجيش مصر رغم مـــا أنا فيه من شد وجذب من جراء أفعال وتصرفت رحيل التى سببت لي الكثير من المشاكل والضيق ورغم هذا فإنها سيدة قوية جميلة ساهمت بقدر كبيـــر في إعاشة رجال الحدود ولولا هذا لكانت حياتهم بائسة والله أعلم ما الـــذي كان سوف يحدث لهم دون تلك المساعدات ، فقد يـــصبحون تحـــت رحمـــة حمدان مهرب المخدرات ولكني أعلم معدن هؤلاء الشجعان أبناء النوبة.

تذكرت نبات الشعير الذي قمت بزراعته منذ أكثر من عام والسبب فـــي هذا أن رحيل أبلغتني بأن الجمال والخيول تحتاج إلـــى عليقـــه وبـــالأخص الشعير وقد إزدادت الأعداد ونحن في إنتظار ضيف قادم أي بعرور جديـــد سوف يولد بعد ثلاثة أشهر ، فكرت من أين آتي بالشعير فتذكرت الـــشعير الذي قمت على زراعته ولم أتمكن من حصاده بسبب إعتقالي لأكثر من ستة أشهر منتصف العام الماضي ولم يخبرني رجال الحدود بأنهم قـــاموا علـــي حصاد الشعير ، وفى هذه الأيام فالشعير لم ينضج بعد فنحن نهايـــة شـــهر ديسمبر من عام ١٩٧٢ ، تذكرت كلمات الرئيس السادات التي كنت أســـتمع إليها بالمعتقل بأن هذا العام هو عام الحسم حيث كان الإسرائيليون يضحكون ويتندرون على هذا الكلام حيث علق أحدهم قائلا بأنه من المحتمل أن مصر قررت الإنتحار فى حالة رغبتها بشن حرب مع إسرائيل ، ونصيحة لهم بأن يستعدوا من الأن بتوفير الطوب ومواد البناء حيث سيدمر جيش الدفاع كـــل

مدن مصر ولن نترك حائطا مقام.

اليوم التالي توجهت لمنطقة وادي القبقاب كي أعلم ما جري لنبات الشعير عن العام الماضي ، وصلت وكانت المفاجأة الكبرى بأن مساحة كبيرة من الأرض تلونت باللون الأخضر وقد زرعت بالشعير الذي كبر حجمه ونما وإرتفع عن الأرض بمقدار قدم "٣٠سم" ؛ كانت المساحة ضعفي المساحة التى قمت على زراعتها وبتفقد المساحة تبين أن حبيبات الشعير العام الماضي نضجت وفرطت من شدة الحرارة ولم يقم أحد بجني المحصول وإنتشرت حبات الشعير بفعل الرياح وغطت الرمال المثارة البذور وجاءت أمطار هذا الشتاء فقامت بري البذور التى نبتت ، كنت في حالة عالية من السعادة بسبب زيادة الرقعة المنزرعة والتى تنبأ بأن محصول الشعير وفير وسوف تغطي إحتياجات مجموعة الجمال والخيول التي بحوزتي هذا العام وجزء من العام القادم ١٩٧٤.

ظلت العلاقة بيني وبين رحيل هادئة إلي أن جاء يوم طلبت مني أن أقوم علي زيارتها فى المساء ، كان هذا الحديث بعد أن تناولنا الطعام فأنا مازلت أعيش معها في نفس الخيمة ، وافقتها الرأي وتوجهت لأصحابي من الحيوانات كي أقدم لهم الخدمة المطلوبة والرعاية وأيضا أشاهد هذا المهر الصغير "ياقوت" ، أيضا شاهدت بعرور وقررت أن أطلق عليه اسما ، فسوف يأتي أخاه بعرور موديل ١٩٧٣ بعد أشهر قليلة ولهذا فمن الواجب أن أطلق عليه اسما ولم أجد أفضل من اسم البطل "هادي الصغير" ؛ هذا الجمل الذي نال الشهادة أمامي دفاعا وحماية من بطش الجنود الإسرائيليين.

طلبت من هارون أن يأتي للعب مع أصدقائه بالمنطقة الخلفية والتي بها قبر الراحلة أم سيناء ، شعر بالفرحة والسعادة بعد أن سبقت وصوله هناك ، بعد قليل شاهدته قادما مع أصدقاءه ومن بينهم "ياقوت" المهر الصغير الذي مازال يسقط أثناء لعبه لضعفه بسبب صغر سنه ، أشرت إليه بأن يأخذه لأمه وأنا فى إنتظاره ، تمنع المهر عن مغادرة المكان فإستعان هارون بليفي الذي نبح فى وجه "ياقوت" فأسرع إلي أمه خوفا من ليفي ، وقفت أمام بعرور كي أخبره بإسمه ، اسمك هادي .. سامع .. هادي ، أشير إلى هارون فيكرر خلفي ، طلبت من هارون أن يقف بعيدا وينادي عليه باسمه الجديد ، هادي ، لم يتحرك وشعرت بأن بعرور يتمتع بكمية من الغباء ، كرر الطفل اسم هادي حينئذ نبح ليفي في وجهه فأسرع بعرور خوفا منه ، نادي هارون .. هادي .. دون جدوى .. طلبت من هارون أن ينادي عليه بهذا الاسم بإستمرار أثناء اللعب وقد أسعده هذا.

جلست أمام قبر أم سينا وعدت أتفحص النباتات التي شاهدتها منذ فترة وتبين لي أنها نبات أشجار الزيتون ، عادت بي الذاكرة يوم وفاتها بأنني شاهدتها تمسك الخنجر وبنفس اليد كيس صغير وحين سألتها أخبرتني بأنها بذور أشجار الزيتون ، حينما قمت على دفنها ألقيت بالكيس بجوار الرمال وأثناء أن أهلت على جثمانها الرمل تناثرت البذور وبسقوط الأمطار نبتت البذور ، شعرت بالسعادة فقد نبتت أشجار الزيتون ومازالت الرائحة ندية وأصبحت أمامي آيتان ، واحده بالجانب الشرقي أمام باب المستودع الحديدي لجثمان "موشيه " والرائحة الكريهة والآية الأخرى جثمان الراحلة أم سيناء وعبقها الطيب الذي أشتمه منذ وفاتها حتى الآن ونبتت بجوارها أشجار

الزيتون المباركة.

هبط الظلام فتوجهت للخيمة وهناك وجدت رحيل في إنتظاري ، رحبت بي ولاحظت أن هيئتها مغايرة وخشيت إندفاعها وتهورها لكن الشكل المغاير لم يكن مشجعا لمثل هذا السلوك رغم أنه كان مخالفا لما إعتدت ملاحظته فلم تكن هناك ألوان وأصباغ على وجهها ، بل كانت ترتدي الملابس الطويلة ذات الأكمام وعولت هذا بأننا في وقت الشتاء والبرودة تحيط بنا ومن حولنا.

ـ أهلا صابر .. وشك منور وباين عليك الإنبساط .. يا تري إيه السبب؟

ـ أبدا .. لما بأشوف هارون وأصحابه باكون طاير من الفرح

ـ مش معقول على حلاوة الحصان الصغير .. تعرف بأفضل لوقت كتير أبص له .. جميل جدا

ـ فعلا جميل جدا والأجمل من كل ده هارون وأم هارون

ـ أيوه ، جينا للجد .. أم هارون .. صابر إسمع اللي ح أقولك عليه وما تقاطعنيش .. صابر أنا قررت الدخول في الإسلام .. ولا كلمة .. ما تقاطعنيش .. قررت الدخول فى الإسلام مش عشان خاطر كلامك الخايب اللي قلت لي عليه من خمس سنين ، لو عايزة تتجوزيني أعلني إسلامك .. لأ وألف لأ .. أنا قررت الإسلام عشان مقتنعه بأنه دين رائع .. لكن الفضل بعد كلام ربنا يرجع للي قرأ كلام ربنا .. لتلاوتك يا صابر .. تعرف مدة وجودك في الإعتقال وأنا بأسمع لإذاعة لقيتها صدفة ، اسمها إذاعة القرآن

الكريم وطالعة من مصر .. عرفت حاجات كتير وأقدر أعلمك إيه إللي عرفته ، سمعت أصوات شيوخ كتير .. كنت سعيدة .. تصور يا صابر إن بعد عشرة شهور ح أصوم رمضان اللي جاي عرفت كده من إذاعة القرآن الكريم.

ـ خلاص .. سكتي .. طيب آدي بوسة ..

ـ لأ .. لأ إبعد

ـ ليه يا بنت الناس .. مش إحنا إخوات؟

ـ إخوات إنسانيا ومعنويا لكن مش إخوات فى الحقيقة ومن الليلة تاخد فرشتك وتروح تنام في الخيمة .. أنت راجل غريب عليا .. الإسلام بيقول كده.

ـ الله أكبر .. ربنا يفتح عليكي يا رحيل يا بنت سمعان

غادرت الخيمة وجلست بالخارج وشعرت بأن جسدي مخدر مما سمعته وشعرت به .. لم أصدق عيناي وأيضا كذبت أذناي .. سبحان الله وهو الذي يهدي ولولا أن هدانا الله لما إهتدينا .. الله أكبر الذي يهدي كل عاص ، جلست مخدرا طائرا محلقا فى سماء العلا وسمعت أذناي تلاوة وقمت بترديد ما سمعت من تلك التلاوة:

لَمْ يَكُنْ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمْ الْبَيِّنَةُ (١) رَسُولٌ مِنْ اللَّهِ يَتْلُوا صُحُفاً مُطَهَّرَةً (٢) فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ (٣) وَمَا

تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ (٤) وَمَـا أُمِـرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ (٥) صدق الله العظيم

دخلت للحجرة وحملت بعض أغراض أعدتها رحيل وتحركت متثـاقلا لمخزن المساعدات وأعددت نومتى وأنا شبه سكران وما بين الكذب والحقيقة خط رفيع لا يقوم بالفصل بين الإثنين إلا بالإيمان المطهر لقلوب المؤمنين.

نهضت فجر اليوم التالي وأنا مازلت غير مصدق ما سمعت وشـاهدت ، توجهت لعين المياه وغرفت منها كمية قمت بالوضوء وعدت أجفف يـداي من برودة المياه شبه المجمدة ، وقفت أمام الخالق أعبده مخلصا متـضرعا وأنا شبه باك وراغب بأن أسأله هل ما سمعته من رحيل حقيقـة يـا رب؟ أنهيت صلاتي وجلست مدثرا بملابسي وبدأت فى التلاوة ، لم أتخير سـورة أو آية محددة ، بل كنت أسمع قرآن يتلي بداخل عقلي أو قرآن يتلي بـداخل أذني ، يتلي بصوت شجي وكانت القراءة بصوت سيدة ، صوت ساحر عابد لم أستمع لصوت قبله ، تحركت الدموع بعيوني وهبطت لتغسل بعض غبار شر وصل لقلبي كي أصبح طاهرا.

سمعت من يهمس بأذني ، قم أيها الشاب وترحم على أم سـيناء فهـي تشاهدك من أعلي من الجنة المباركة ، نهضت وتحملت البرودة التي تجمـد الأطراف فشعرت بالدفء يسري بأوصالي وسرت مرفـوع الهامـة حتـي وصلت لقبرها جلست أرضا وتلوت فاتحة الكتاب وترحمت عليها ، شعرت بتخدير بأوصالي وترنح وكدت أسقط أثناء جلوسي هذا ، حاولت اليقظة لكن

النوم كان أقوي وأسرع فخلدت فى نوم هانئ لا أستطيع تحديد مدته ، شاهدتها ، شاهدت أم سيناء تجلس على كرسي جميل لا أستطيع وصفه لأنه غير موجود مثله في كل الكراسي التي شاهدتها ، أشارت إليّ أن أقبل يا صابر ، تقدمت إليها راغبا بتقبيل يدها فرفضت وشكرتني ، صابر كل كلام رحيل إلي عرفتك بيه صحيح ، صدقها فى تلك المرة ، نعمة ربنا نزلت عليها لأنها ساعدتك إنت وزمايلك عساكر الحدود الغلابا وربنا كتبها لها فى الكتاب المحفوظ وقرر أنه يرضي عنها فدفعها للإسلام ، صابر عرفتك وأنا أغادر الدنيا لدار الآخرة إن قدامك تلات عتبات ، فاكر؟ عدت عتبتين وباقي عتبة ، جهز نفسك وماتعرفشي حد حكاية العتبة وخليها سر ، العتبة قربت ، يعني السنه الجايه زي الوقت ده يكون ربنا رفع راية الإسلام ، صابر متنساش تبقي تزور قبري ، ربنا ح يحميك وينجيك ، لا إله إلا الله ، أسرعت مرددا محمد رسول الله ، أستودعك الأن يا صابر.

نهضت من نومي منشرح الصدر وقد ظهر ضياء يوم جديد فالوقت شروق والشمس تحاول الظهور من خلف الجبال والهضاب ، أسرعت بالعودة إلي المخزن فشاهدت أصدقائي من الحيوانات وألقيت عليهم التحية وهدهدت على جسد كل واحد منهم وأسعدهم هذا ، دخلت إلي المخزن وألقيت بجسدي ورحت فى نومي لم أنتبه إلا على صوت هارون يحاول إيقاظي كي نتناول طعام الإفطار وخلال ذلك كان في إنتظاره خارج المخزن الأصدقاء الثلاثة، خرجت متجها لخيمة رحيل ونظرت لأصدقاء هارون وأنا أردد ، الله أكبر وسبحان الله.

إلتقيت رحيل وشاهدتها تلتف بطرحة تغطي شعر رأسها ، كدت أضحك

وتنبهت بأن الموضوع جد ولا يجب العبث بمشاعر السيدة وعقيدتها الجديدة ورجوعها لله ليس مدعاة للضحك ، تناولنا طعامنا بحضور هارون ، كنت أختلس النظرات لها أثناء قدومها أو غدوها أو أثناء الحديث مرددا ، سبحان الله ، لقد تبدل الحال وأضاءت أنوار الهداية هذا الوجه الجميل ليصبح رائقا صافيا تشاهد منه الصفاء الإلهي وليس الإغراء الشيطاني ، أعقب تناول الطعام شرب الشاي وغادرت الخيمة كي أقوم على أداء عملي فودعتني طالبة من الله أن يوفقني بكل خطوة لصالح الإسلام والمسلمين ، ركنت ظهري بالخارج خشية السقوط فالجرعة الإيمانية كانت كبيرة ولم أكن مستعدا لأن أمسح شريط ذكرياتها الماضي سيء الأخلاق بتلك السهولة.

***

قيادة المخابرات الحربية وفي مكتب رئيس قسم الإستطلاع الذي أقبل كي يلقي بكلمة هامة فى مجموعة من الضباط من سلاح المهندسين العسكريين وبعض الخبراء بكليات الهندسة ، أوضح لهم القائد المسئول تكوين النقاط الحصينة من الداخل ومكوناتها والمواد التي دخلت فى الإنشاءات والوسائل المستخدمة في التصميم لتفادي القصف المباشر من أسلحة المدفعية وقنابل الطائرات زنة الخمسمائة رطل ، طلب من الحاضرين دقة الدراسة وأن تكون الرسوم بداخل القيادة مع السرية التامة مقررا بأن هذا الرسم أحضره أحد الشباب المصري الذي أعتقل وعمل فى تلك النقاط ولحساسية الموضوع أرسلنا لنتحقق وجاءت المعلومات التالية مؤكدة رغم أن معلومات الشاب كانت أدق وأشمل لأن من إعتمدنا عليهم من رجالنا لم

يستطيعوا إختراق خطوط الحصون والحصول على تلك الرسومات الدقيقة.

***

صباح يوم جميل ورائع حيث كنت أشعر بأن الطهارة وبركة الحي القيوم تطغي علي المكان ، شاهدت بثينة شقيقة تراجي الأصغر قادمة مسرعة بالجمل ، وقفت وتساءلت: ماذا حدث يا بثينة؟ بعد أن توقف الجمل وبرك أرضا وحصلت الفتاة علي أنفاسها ، نظرت إليّ بعيون لامعة باسمة مرددة: مبروك .. تراجي خلفت إمبارح وجابت بنت حلوه زي الجمر .. وقفت صامتا وقد إعتقدت الفتاة بأنني حزين لهذا حيث كنت أرغب بصبي ، أقبلت رحيل وشاهدتني وأنا صامت صمت أبي الهول وتساءلت ماذا حدث؟ أخبرتها بثينة بالخبر ، وقفت السيدة ووضعت يدها علي صدرها مرددة .. الله .. الله .. ألف مبروك يا صابر .. صحيح معرفتش معاد الولادة لكن ألف مبروك ، خلفة البنات رزقها واسع .. تنبهت وقمت بتقبيل بثينة ورحيل مرددا .. الحمد لله .. نظرت إلي رحيل أخبرها بأنني راحل إلي زوجتي ، ظهرت بسمة الصفاء والحب مرددة ألف مبروك .. بلغها سلامي .. هكذا أخذت صهوة شهاب عائدا إلي ديار تراجي وخلفي بثينة بالجمل ، وصلنا إلي هناك عصر هذا اليوم رغم شدة البرودة ، دخلت عليها فشاهدتها ترضع الصغيرة .. كدت أن أصرخ مهللا ، لقد كان المنظر رائعا لأقصي درجة ، إنحنيت وجلست أرضا وباركت لها الإنجاب وقبلت يدها فشعرت بسعادة وأمها وشقيقتها يقفان ينظران إلينا بسعادة ، أظهرت المولودة فلم أتبين معالم واضحة لكنني قبلت اللفة القماش التي كانت الرضيعة بداخلها.

اليوم التالي غادرت ديار تراجي عائدا للمستودع حيث كنت أحلم وأتغني بأغان شبابية سعيدة وأسمع صهيل شهاب من حين لآخر فأجيبه بقينا زي بعض يا شهاب ، خلاص ، كل واحد فينا إتجوز وخلف ، كونّا عيلة .. الحمد لله.

وصلت المستودع وتنبهت بأن رحيل موجودة ؛ حيث كنت أشعر بشيء روحاني يقيم بنفس المنطقة التى أعيش بها ، رغم خوفي السابق من أي حديث أو تحرك لرحيل أصبحت الأن أتمني مشاهدتها وسماع صوتها ، كنت أستمع لها ولا أعلق ، لقد غشيني شعور طيب رطب نحو تلك السيدة ولم أكن أفكر بأن من المحتمل أن تقوم تلك السيدة بإحترام ديانتي وعقيدتي فقط ثم يصل الأمر فجأة إلي إعتناق عقيدتي ، وكما قال رسول الله صلي الله عليه وسلم " ربح البيع يا رحيل ".

توجهت إلي حظيرة الأصدقاء ونظرت نظرة فاحصة إلي جمل أم سيناء "مسك الليل" ، أنادي عليه ، نظر إليّ دون أي إهتمام ، توجهت إليه ووقفت بجوار رأسه وهو مشغول بطحن ما في فمه من طعام ، أحادثه: مسك الليل، أترفض ندائي وأنا صديق أم سيناء! زمجر ورفع رأسه لأعلي ، خشيت علي نفسي فعدت للخلف ووقفت علي أول مدخل الحظيرة ، بعد قليل ترك الطعام وشاهدته متجها لي وقد خفض رأسه لأدني مستوي وهذا يدل في عرف تصرفت الجمال بالضيق أو الحزن أو تقديم الإعتذار ، قبلت كل هذا ، وقف أمامي فأشرت إليه فبرك وقفزت علي ظهره ونهض وأسرع بي لخارج المستودع ، قمت بعمل دورتين في المنطقة التي أمام المستودع ولم أكتشف أنه سريع الخطوة مثلما كنت أشاهده حين كانت الراحلة أم سيناء تمتطيه ،

إكتشفت أن تلك الميزة التي كانت به خاصة بأم سيناء وليست خاصة بالجمل.

جلست أستمع لحفل أقيم بدار سينما ريفولي يقوم فيه بالغناء بعض المطربين بمناسبة العام الجديد ، قدم الحفل المذيع وأخذ يكيل ويمدح فى نجوم حفل تلك الليلة وضمن ما قال ، أنه حفل خاص بمناسبة وصلونا لأعتاب عام جديد ، عام ١٩٧٣ ونرجو فى هذا العام أن تتحقق فيه كل الأماني للشعب المصري والعربي كما نرسل بكل تحية وتقدير إلى رجال مصر المكلفين بحماية الحدود رجال القوات المسلحة و.....

تنبهت ، العتبة الثالثة ، ياه ، هل يحدث ما سبق وأخبرتني به تلك السيدة الطاهرة ، لقد قالت لي هذا أثناء مغادرة الدنيا فى طريقها للحياة الباقية بالآخرة ثم أعادت هذا الحديث أثناء الرؤيا التي شاهدتها منذ عدة أيام وأعتقد أن رؤيا الأموات تكون صادقة فى الغالب ، إذا سوف تحدث الحرب هذا العام وسوف ننتصر لكن متى حتي أستعد لهذا بالماء والطعام كما قالت، قررت ترك الأمر لله فلم أعد قادرا على التفكير والإستنتاج.

يوم النصر الخالد

هكذا بدأت أعتاب عام ١٩٧٣ كنت كل يوم في إنتظار ما أخبرتني بـه أم سيناء من فرحة المصريين والعرب بالنصر المبين ، بدأت الأيام تزحـف فتكمل أسابيع ثم شهور ولا بصيص لهذا الأمل بعيد المنال ، فقد زاد الطـين بله أن إجتمعت القوي العظمي أمريكا والإتحاد السوفيتي نهاية العام الماضي وأطلقتا مصطلح الإرتخاء العسكري بالشرق الأوسط ، كنت أستمع للإذاعـة المصرية التي كانت حانقة على هذا الإتفاق .. قبل هـذا الإتفـاق تخلـص الرئيس السادات من الخبراء الروس ، ماذا يخبأ القدر لمصر والمصريين ، الأعوام تسير ببطيء ولم تعد هناك فرحة أو بصيص من أمل ، فمنذ العـام الكئيب عام ١٩٦٧ والفرحة غادرت قلبي ، وإكتمل الحزن بوفـاة الـرئيس عبدالناصر ثم تلا هذا ما يعرف بمراكز القوي تبعها طرد الخبراء الـروس وأخيرا مصطلح الإرتخاء العسكري.

الله يرحمك يا أم سيناء ، كنتي بتاكلي أرز مع الملائكة ، فلا حرب ولا يحزنون والقوات من الجانبين تقف أمام بعضهما البعض والحالة الإقتصادية بمصر مترديه وما أسمعه من إذاعة لندن يخبرنا بهذا بينمـا الإسـرائيليون يتمتعون بمساعدات ضخمة فى كل المجالات كما أنهـم المنتـصرون بـل وصلت سرقتهم وسطوهم على حقول بترول أبو زنيمة ورغـم محـاولات رجال الحدود إلا أنهم إستطاعوا السيطرة علي الآبار وإستغلالها.

لم تكن هناك فرحة تسعدني وتبهج قلبي سوي ما أشاهده أمامي ، كانـت هناك ثلاثة أفراح غامرة لا زلت أتذكرهم حتي الأن بعد مرور تلك الأعوام

الطويلة ، الفرحة الأولي كانت إنجاب ابنتي الأولي وأطلقت عليها تراجي اسم عفاف أما الفرحة الثانية فكانت الطفولة الجميلة البريئة بين هارون وأصدقاءه الثلاثة وهم الكلب ليفي والحصان الصغير ياقوت والجمل الصغير هادي ؛ حيث كنت أقضي أوقات الفراغ فى ثلاثة أشياء ، الصلاة وقراءة القرآن ومشاهدة لعب تلك المخلوقات وكيف تتفاهم مع بعضها البعض ، أعود بذاكرتي لأيام الطفولة حينما كنت صغيراً فى عمر هارون وكان بجوارنا كلاب وجمال لكن اللعب معهم بتلك الطريقة ومصادقتهم فهذا لم يحدث لي أو يحدث لأطفال آخرين.

أما الفرحة الثالثة والتي أثلجت قلبي وقللت من الضيق الذي إنتابني من عدم تحقق نبؤه أم سيناء هو ما طرأ على رحيل ، لقد سيطرت عليها حالة من الروحانية العالية والثقة بالنفس والهدوء الذي نفحها به الله بعد إيمانها ، لقد شاهدت الفارق بين المؤمن وغير المؤمن فى هذا المكان ، كان الفارق واضحا وضوحا مذهلاً ، كنت أشاهد رحيل فى غاية الرقة والوداعة وحين سماعها الآذان بالراديو كانت تنطلق للداخل وتعود بعد فترة فأسألها أين كانت وماذا فعلت ، تجيب بهدوء وإستحياء بأنها كانت مع الله ، يا ربي ، مع الله وليس مع جاستون أو موشيه ، أستوضح: تؤدين الصلاة؟ فتحرك رأسها بإيماءة بسيطة ، ثم تنظر إليّ متحدثة: أخي صابر: هل يمكنك أن تسمعني بعض آيات من القرآن الكريم ترتيلا بصوتك الرخيم؟

نعم أختي المؤمنة ، أجلس أمامها أتلو القرآن وفي بعض الحالات قد تخونني الذاكرة بسبب عدم التركيز فى التلاوة لما أشاهده من إنفعالات تظهر على وجهها الأبيض الرقيق ، لقد كانت رحيل تستمع للتلاوة ليس فقط للتمتع

بصوت القارئ ، لكن لتتبحر فى المعاني ؛ حيث كانت تحتفظ بورقة وقلم وتكتب أسماء بعض الكلمات والتعبيرات وبعد الإنتهاء من التلاوة تستوضح مني ما خفي عنها.

بداخل المنطقة الخلفية التي دفنت بها أم سيناء قمت على إعدادها لتشوين المواد الغذائية كما طلبت مني أم سيناء منذ أكثر من عامين ؛ حيث قمت بإستخدام الغطاء السميك الذي كنت عثرت عليه قبل ذلك بأن قمت بوضعه فوق المواد الغذائية التي قمت على تشوينها لحمايتها من الأمطار وتأثير درجات الحرارة ؛ حيث كنت أقبل باللوري مباشرة وأقوم بنقل كل تلك الأجولة للخلف مستخدما كل من أمشير وزميله بركة وجمل أم سيناء مسك الليل والفرس شهاب وزوجته زمردة ، حيث طلبت رحيل من الإدارة زيادة الحصص التموينية نظرا لدخول عدد كبير من المستحقين الإعانة نظرا لندرة الوظائف والأعمال وبالطبع إستجابت الإدارة الأمريكية لأمر الإدارة الإسرائيلية وتضاعفت الكمية مرتان خلال النصف الأول من عام ١٩٧٣ وكل هذا كان بإيعاز مني تمشيا مع وصية أم سيناء.

شعرت بأنني أخطأت بتشوين كل تلك الكميات ، فمازالت الأسر البدوية على حالها وقد تضخمت الكمية المخزنة والتى يمكن أن تتلف في بداية العام القادم حسب ما هو مدون على كل عبوة من جميع الأصناف ، تحيرت ماذا أفعل ولم يسعفني تفكيري فأسرعت للحصول على النصح والنصيحة من أحبابي رجال الحدود وبالأخص الشاويش إدريس أيضا كي أطلب منه أن يعاونني ببعض الرجال كي نقوم على حصد محصول الشعير فقد قارب على النضج ونحن فى أشد الإحتياج له لإطعام أصدقائي خاصة أن ناقة هانم

أنجبت بعرور الثاني وبالتالي فمن المحتمل بالمستقبل أن يزداد العدد وكل هذا سيقع علي أكتافي مما دفعني للخروج يوم بعد يوم لجمع أكبر كمية من الأعشاب الخضراء قريبا من المنطقة ، أيضا قررت إخباره بما حدث لرحيل منذ نهاية العام الماضي ودخولها فى الإسلام ولم أرغب فى إخباره فى المرات السابقة لقناعتي بأنها فترة وسوف ترتد ثانية ولن تقوي على حرمان نفسها من اللهو واللعب والفسق التي تشربت منه لسنوات بإسرائيل منذ هجرتها وطنها الأصلي مصر والحصول على جنسية دولة مزيفة ليس لها جذور ومغتصبة حقوق عرب فلسطين.

فكرت قبل التوجه إلى رجال الحدود بأنه من الأفضل لي نقل بعض المؤن وحفظها لديهم كي أضمن المحافظة عليها خاصة أن رحيل حذرتني بأنه من المحتمل أن تأتي لجنة تفتيش ومتابعة وتكتشف كل تلك المؤن الزائدة عن الحاجه مما يضطرها بأن تقدمنا لجهات التحقيق المختصة ، وجدت أن فكرتها صائبة ومن أجل هذا قمت بتحميل كل من شهاب وأمشير وبركة ومسك الليل بكميات من الدقيق والسكر وأودعتها بالمنطقة بجبل الحلال كي أستطيع العودة فى نفس اليوم ، ظللت على هذا الحال خمسة أيام وفى اليوم السادس رافقني شهاب متجها إلى رجال الحدود فوصلت مساء نفس اليوم وجلست بينهم وتمتعت بدفء الحديث ومظاهر الحب الذي يجمعنا، فقد مضت علينا ست سنوات ونحن نحيا بعيدا عن الأهل ؛ حيث شهر مايو على الأبواب ، وحين علم الرجال بأن زوجتي أنجبت فتاة هللوا وقدموا لي التحية الواجبة.

أخبرت إدريس بما جد على رحيل ، توقف الرجل وتعجب ثم إبتسم

وردد الله أكبر وحينما أخبرته بتشككي فى إسلامها كرر قـول رسـول الله صلي الله عليه وسلم حين قال للصحابي خال بن الوليد "هلا شققت عن قلبه" حينما أخبره بأنه قتل أحد الكفار بعد أن قال أشهد أن لا إله إلا الله .. طلـب مني إدريس تركها لله فهو الهادي وهي لا تخشي من أحد بأن تظـل علـى ديانة الآباء أو تستبدلها بالديانة الحق ، أما بخصوص حصاد الشعير فسوف أطلعك علي شيء أعتقد أنه سيبهرك ، سرت برفقته مـسافة لا تقـل عـن كيلومتر فشاهدت حديقة غناء قام رجال الحدود بزراعتهـا بفـضل براعـة المهندس عزيز وزميليه بتوفير المياه ورفعها من عيـون موسـي وتـشغيل طلمبة السحب مستخدما خام البترول المكرر بدائيا ؛ حيـث قـام الرجـال بزراعة نبات الشعير على مساحة عدة أفدنة ثم بعض الخضراوات المختلفة من فلفل وباذنجان وجرجير وبسلة وطماطم وبعض الأنواع الأخـرى وقـد عاوننا حمدان مهرب المخدرات بأن هرب إلينا بذور تلك النباتات ، كما قرر إدريس بأن يرسل رجاله لإحضار المؤن التي أخبرته عنها ثم طلب مني لا أتشكك فى كلام أم سيناء فقد قالت هذا الكلام وهي فى النزع الأخير ثم أكدته بعد هذا بعام في رؤيا صالحة أمام قبرها ، ومازال عـام ١٩٧٣ لـم نبلـغ منتصفه ، إترك كل هذا ولا تتعجل يا بني فنحن لا نصوم شهر رمضان إلا آخر شهر شعبان حينما نتأكد من هلال شهر الصيام فقد يأتي ما تحدثت عنه الشهيدة الطاهرة في آخر أيام هذا العام.

عدت للمستودع بعد قضاء يوم كامل ولهذا ضاع مني أيـام ثلاثـة فـى الذهاب والعودة ويوم هناك مع الرجال الأفذاذ ، وجدت رحيل على حالها من السكون والدعة والعبادة والإهتمام بعملها والتفاني فيه وحسن معاملة البـدو الفقراء بديلا عن الترفع والتقـزز التي كنت أشاهدها عليـه كمـا أن

رجال الجيش الإسرائيلي تجنبوا التعامل معها لشعورهم بأنها أصبحت جافة ولا تتمادي معهم بالضحكات والقفشات الخليعة التي كانت تشتهر بها.

مضي عشرة أيام أخري منذ غادرت مقر رجال الحدود ومازلت أواصل نقل المؤن وتأكد لي بان إدريس أرسل برجاله ونقلوا جزء ليس باليسير مما تم نقله لهذا المكان المتوسط المسافة بيني وبينهم ، بعد عدة أيام شاهدت ثمانية رجال من رجال الحدود ورجال البترول قادمين فرادي على الجمال وتوجهنا جميعا للمساحة المنزرعة شعير وأسعدهم ما قمت به وللمساحة الشاسعة التي زرعت بنبات الشعير ، ظللنا نحصد فى الشعير ؛ حيث كنت خلال الفترة السابقة قد طلبت من البدو حين حضورهم إحضار بعض الفوارغ من الأجولة معهم للإحتياج إليها وقد نفذ الجميع رغبتي وأصبح متوفر لديّ كمية من الفوارغ ؛ حيث كنا نحصد الشعير ونعبئه على الفور فى الأجولة حتي تجمعت كمية كبيرة وقد ظل العمل قائم علي قدم وساق أسفل حرارة شهر مايو المرتفعة .

بعد هذا تم نقل كميات الشعير إلي المستودع وقد ظل رجال الحدود معي لأكثر من عشرة أيام وقد شاهدت قيمة العمل الجاد التي إستطاعت حصاد تلك الكميات من الشعير والتي أعتقد أنها سوف تكفي أصدقائي من الجمال والخيول لأكثر من عام يكون محصول العام القادم قد نضج ، ودعت الرجال ؛ حيث عادوا لموقعهم بينما عدت لإستكمال الأعمال وإعطاء رحيل راحة حيث ظلت طوال الفترة السابقة تقوم على أداء العمل بمفردها.

مضت الأيام طيبة هانئة إلا من بعض منغصات من رجال الجيش

الإسرائيلي راغبين بإلحاق الأذى برحيل ولا أعلم السبب وهي لم تهتم بهذا ، خلال تلك الفترة قمت على زيارة أسرة تراجي وتأكد لي تقدم حالة تراجي الصحية أيضا المولودة وشعرت بسعادة بالغة ، بعدها عدت للمستودع وظللت أقوم علي أداء عملي كالمعتاد ، مساء هذا اليوم علمنا من راديو القاهرة بأن بداية شهر رمضان غدا ، صاحب رؤيا هلال الشهر المبارك إذاعة بعض أغانى رمضان الجميلة والتي إهتزت لها رحيل طربا وسعادة وهي تضحك وتخبرني بأنها كانت تستمع لتلك الأغاني وهي طفلة صغيرة قبل ضياعها من وطنها الحبيب مصر ، بكت وهبطت دموعها غزيرة وهي تندد بتصرف والدها ووالدتها بأن حملوها من حلم مصر الجميل إلى كابوس إسرائيل الفظيع ، تردد .. صابر: هل هارون يملك من أمره شيئا؟ لقد أحضرته أنا وموشيه إلى هنا وهو صغير لا يستطيع الإعتراض ، أنا وجميع الأطفال هكذا ولذلك طالما تساءلت : ليه يا بابا عملت كده؟

مضت الأيام جميلة من شهر رمضان وكانت رحيل عند وعدها بالصيام وإعداد طعام الإفطار وأيضا طعام السحور ؛ لقد قرب بيننا الشهر المبارك بأن نتناول طعامنا سويا والسحور أيضا ؛ حيث كنا نقضي وقتا طيبا بعد صلاة العشاء أمام باب المستودع ونستمتع بهواء الصحراء الجاف والهدوء الجميل الممتع وسماع بعض الأغاني الجميلة ولمسابقات الفوازير التى تذاع بإذاعات القاهرة المتعددة.

فى هذا اليوم الموافق السبت العاشر من رمضان السادس من أكتوبر قررت ظهيرة هذا اليوم أن أقوم بالغد بتوزيع المعونة الغذائية على البدو بكميات مضاعفة كي أتخلص من الكميات المخزنة والتي ملأت المنطقة

الخلفية والمخزن أيضا كما قمت بنقل بعضا منه بمنطقة جبل الحلال بخلاف ما قام بنقله رجال إدريس ، شعرت بإرهاق وتعب بعد أن قمت بترتيب الأصناف بالمخزن وبعد أن أديت صلاة الظهر إختبأت بداخل المخزن ورحت فى نوم هادئ خاصة أن الأصدقاء الأربعة قرروا اللعب بالمنطقة الخلفية التي يوجد بها قبر الراحلة أم سيناء.

أثناء نومي شعرت أنني محلق بالسماء فشاهدت أم سيناء تجلس علي كرسيها بملابسها البيضاء الناصعة تبتسم لي ملوحة مرددة بكلمة واحدة .. مبروك .. مبروك .. ونهضت على صوت رحيل التى أقبلت توقظني من نومي واللهفة والخوف حالها ، تساءلت خير يا رحيل .. خير؟ .. بكت بسرعة ووضعت يديها على عينيها وهي تردد .. مش معقول .. ألطف يارب .. أصرخ بها .. رحيل .. لا داعي لهذا .. فقد أيقظتني من رؤيا جميلة .. ماذا حدث؟ تردد .. الحرب .. الحرب .. أستوضح .. مالها الحرب ... خلاص مافيش حرب وكله نايم فى العسل .. تصرخ فى وجهي .. قوم يخرب عقلك .. الحرب قامت بين مصر وإسرائيل بقالها ساعة .. أردد بتلعثم: مش معقول وشعرت بأنني غير قادر على السير وإستندت على أجولة الدقيق وشعرت بأن عيوني جحظت ومازلت أردد .. يارب .. اللهم لا أسألك رد القضاء ولكن أسالك اللطف فيه.

سرت برفقة رحيل إلى خيمتها وأنا لا أري بوضوح وكان هذا باديا من حالتي ؛ حيث كانت تمسك بيدي وتوضح لي الطريق وأنا شبه أعمي ، وصلنا إلي الخيمة وجلست أرضا فأقبلت حاملة الراديو الذي يذيع أغانى وطنية وموسيقى عسكرية ، أتساءل: إيه اللي حصل؟ أبدا فتحت الراديو

أسلي نفسى وأنا أجهز طعام الفطار سمعت البيان رقم ٣ من إذاعة مصر وقال أن فيه إشتباكات بين الجيش المصري والإسرائيلي على طول الجبهة قلت فى بالي كلام إذاعة مصر مش مصدق ، حولت المؤشر على إذاعة الجيش الإسرائيلي فسمعت بيانهم قال أن بعض الغوغاء من الجنود المصريين حاولوا عبور قناة السويس لكن قوات جيش الدفاع سحقت عظامهم وإرتد من عاش ذليلا جريحا وتركوا قتلاهم بالمئات.

قمت على تشغيل الراديو فسمعت البيان السادس أي أن خلال فترة قدوم رحيل لي وتحدثها معي أذيع بيان ٤ ، ٥ .. كان البيان السادس هو فيصل القصيد ، فقد أذاع راديو القاهرة أن حوالي عشرين ألف جندي عبروا القناة وهم موجودون على الضفة الشرقية ؛ حيث يقومون بتدمير خط بارليف وأن عددا ليس بالقليل من الطائرات الإسرائيلية الحربية سقط بنيران صواريخ الدفاع الجوي أو من أثر الإشتباك مع القوات الجوية المصرية.

جلست ساهما ، جيش وحرب وطيران إسرائيلي يدمر وطيران مصري قاتل ، إيه الحلاوة دية ، تذكرت حديث رحيل بأنها لا تثق بإذاعة القاهرة ، حولت المؤشر على إذاعة لندن وسمعت نفس ما قالته إذاعة القاهرة مع تضخيم قيمة خسائر الجيش الإسرائيلي ، جلست ساهما ثم أسرعت عائدا للمنطقة الخلفية وأمام قبر الراحلة أم سيناء قرأت الفاتحة وشكرتها وسجدت لله أمام القبر بأن أرسل لي بتلك السيدة كي تخبرني ، الحمد لله فأنا قمت بالإستعداد بالكثير من المؤن لمساعدة المقاتلين الأفذاذ بسيناء.

الحمد لله ، قلتها بعد أن إستقرت حالتي من التوتر الذي صاحبني حينما

أخبرتي رحيل بأن الحرب قد إندلعت بين كل من مصر وإسرائيل ، فقد كنت أخشي ما حدث منذ أكثر من ست سنوات وأن تلحق بنا الهزيمة المؤلمة يليها الإنسحاب الذي مازلت أدفع ثمنه ببقائي هنا ، بسيناء ، أردد: سيناء الرائعة تلك الأرض التي عشت بين ربوعها ستة أعوام أو يزيد فى ظـروف أشـد صعوبة لكن من يقول بأنني كنت سوف أقوم بما قمت به؟ وبما أرسلت بـه من معلومات إلي القيادة عن طريق الراحلة أم سيناء أو الشيخ عيـد ، ثـم تقديم يد العون والمساعدة لرجال الحدود الأفذاذ ، وتلك السيدة التى هداها الله إلي نور الإسلام وليس لي الفضل لكن الله سخرني لهذا ، فأنا عامل مساعد لكن الله هو الذي يهدي من يشاء.

أخبرت رحيل برغبتي بزيارة رجال الحدود ، ترددت خشية أن يحدث رد فعل من أهالي سيناء على أحداث الحرب ، إبتسمت لها وأخبرتهـا بـأن الحرب مازالت قائمة مشتعلة والبدو في سيناء على حالهم يقبلـون طـالبين المساعدة الغذائية ولم يعلق أحدهم على ما يحدث بميدان القتال رغـم إننـي ألاحظ البسمة والسعادة تظهر آثارها من أسفل البشرة ، أيـدت إسـتنتاجي وطلبت مني ألا أتأخر عليها وأخبرتني بأنها علي أتم الإستعداد بسلاحها كما أنها أعدت جهاز الإتصال اللاسلكي للعمل!! تساءلت: جهاز لاسلكي معك يا رحيل ؟ أجابت أيوه يا صابر ، فمنذ نشأة هذا المـستودع وجـيش الـدفاع زودني بجهاز إرسال وإستقبال لاسلكي لا أقوم علي تشغيله إلا وقت الحاجه؛ حيث يقوم بالإتصال برئاسة المستودع ويعلموا مني ما أريده وقد يـستدعي إرسال دورية عسكرية سريعة أو طائرة هليكوبتر فى خلال دقائق لإنقـاذي وتقديم يد المساعدة ، نظرت إليها وقمت علي وداعها متجها لرجال الحدود.

أثناء الطريق من مستودع رحيل للأغذية إلى منطقة عيون موسي حيث مقر رجال الحدود كنت فى دهشة وأتساءل: نقطة مساعدات للغذاء مزودة بالماء النظيف والسخان غاز للتدفئة والطهي وتسخين مياه الإستحمام ومدفع رشاش وأحد كلاب الحرب الشرسة ثم جهاز إتصال لاسلكي ، بينما نحن فى سلاح الحدود والذي يحمي الحدود من المتسللين والأعداء وأيضا يحمي الوطن من الداخل من مهربي المخدرات ورغم هذا لا نمتلك تليفونا أرضيا أو جهازا لاسلكيا ويظل إعتمادنا على فرد قادم بالجمل من شمال سيناء إلى الجنوب ليقطع ٣٠٠ كيلومتر كي يحمل إلينا الأخبار والمعلومات ، وتساءلت: ما الفارق بيننا الأن وبين الصحابة في صدر الإسلام حينما كان يرسل الخليفة بالأوامر إلى الولاة وقادة الجيوش بمرسال يستخدم الجمل أو الحصان ، ونتيجة ذلك أن بدأت الحرب وإنتهت ونحن لم نعلم بما جري إلا بعد خمود نار القتال بأكثر من شهر ونصف من أحد المهربين ، أيعقل هذا؟

وصلت إلي فصيلة الحدود ولم أعثر إلا على رجال البترول الثلاثة حيث أخبروني بان رجال الحدود إشتبكوا مع العدو الإسرائيلي فى معركة حامية لحماية قوة من الصاعقة هاجمت آبار البترول وبعد الخسائر التي لحقت بالعدو أقبلت قوة إضافية وحدثت خسائر برجال الصاعقة وكان رجال الحدود بالقرب منهم وشاهدوا المعركة وإشتركوا فيها وظل القتال دائرا خلال النهار ومنتصف الليلة ولقي إثنان من رجالنا الشهادة وهما ....

ترددت ماذا أنا فاعل؟ غادرت الموقع عائدا إلى المستودع لكني شعرت بحنين إلى سلاحي الذي لم أستخدمه منذ إعتقالي أي منذ أكثر من عام ونصف العام ، عرجت على السرداب الذي أخبأ به السلاح ، تفحصته ،

شاهدته ينير بوسط ظلام الليل كأنه يطلب مني أن أمنحه شرف القتال في تلك المعركة ، أسمع صدي صراخه بأذني: ما هو دا الوقت المناسب كي نعمل ثلاثتنا .. أنا وأنت وشهاب؟

حملت السلاح وتوجهت إلي النقطة التي قتلت بها المجرم جاستون منذ أكثر من خمسة أعوام ، إختبأت فى إنتظار هدف ما ، وأنا أعلم صعوبة مشاهدة هدف فردي فى تلك الظروف فالحرب على أشدها لكن الله يساعد من يرغب في المساعدة حيث كنت أناجيه بطلب تحقيق الهدف ، أقبلت عربة لوري إعتقدت وقتها أنها تحمل مهمات أو شيء مثل هذا ، أطلقت علي قائدها رصاصة سقط قتيلا في الحال وترك عجلة القيادة وسارت السيارة دون سيطرة حتي إرتطمت بعد عدة أمتار بمنطقة الصخور بالمنطقة وإنقلبت على أحد الأجناب ، لم أسمع أي أصوات وبعد فترة زمنية قصير سمعت أصوات بعض جنود الأعداء بداخل صندوق اللوري المقلوب.

كان الجنود مسلحين وأخذوا في إطلاق النيران من داخل اللوري دون تمييز حيث كانت الرصاصات تخترق مشمع اللوري في أي إتجاه ، كانت النيران كثيفة ومنتشرة ، خشيت الإصابة وظللت معتكفا حتي تهدأ النيران ولكنها لم تهدأ ، سمعت هاتفا يقول: لماذا لا تطلق النار على تنك الوقود الخاص باللوري وسوف يقوم باللازم نحو الجنود الأوغاد بالداخل ، بتلسكوب البندقية مع دقة التصويب إخترقت الرصاصة تنك اللوري الذي ظهرت النيران منبثقة منه فجأة ؛ خلال هذا أسرعت بالهرب رغم الرصاصات الطائشة وذلك للإبتعاد بعد أن إنفجر خزان الوقود الخاص باللوري الذي كان يحمل الجنود وبعض الذخائر مما أدي إلى إندفاعي من

فوق صهوة الفرس إلي الأرض مع تفجر دماء من مختلف أجزاء جسدي كما لاحظت أن الدماء تغطي بعض أجزاء من جسد شهاب.

نهضت متثاقلا وشعرت أن نهايتي قد أشرفت ، هدهدت علـى ظهـر شهاب الذي كان فى حالة توتر شديد وكأنه يخاطبني متسائلا: ليه التهور ده؟ أنت عارف إني متزوج وعندي طفل جميل اسمه ياقوت ، أنت كده ح تخلي زمردة أرملة وتضطر أنها ترضي بالحصان العجوز اللي إشتراه الشيخ عيد بعد ما لملمت أسرتي وأصبحت زمرة وياقوت معي ، بهدوء سرت بجـوار شهاب الذي كان يزك ثم نظر إلي وهز رأسه وصهل بصوت خفيض وأشار بمقدمة رأسه للخلف جهة ظهره أي إركب أيها الفارس ، ترددت رغم لهفتي لهذا راغبا بالبعد عن المنطقة ، ركبت صهوة شهاب وسرت في إتجاه عكس إتجاه مستودع الأغذية حتي وصلت لمنطقة صخرية سرت عليها وإلتفت من الجانب الآخر بين الصخور والتلال حتي وصلت للمستودع مـن المنطقـة الخلفية التي تملئها الصخور ، وصل شهاب إلى الحظيرة ورفعت من فـوق ظهره السرج ، سمعت رحيل قادمة ومعها "كشاف" إضاءة يدوي وتـساءلت ماذا حدث وحينما شاهدت الدماء تغطي أجزاء من جسدي وجـسد شـهاب كادت أن تصرخ لكني أسرعت أقدم لها الإطمئنان مع طلب المساعدة الطبية فأسرعت لإحضارها وقمت بمساعدتها بعلاج شهاب بعـد تنظيـف جـسده بالكامل بقطعة إسفنج مبللة بالماء.

تبين أن إصابته سطحية من شظية أعتقد أنها مـن أخـشاب صـناديق الذخيرة بينما كانت إصابتي من قذائف الزلط والأحجار بفعـل الإنفجـار ، حمدت الله بأنها لم تكن من المعدن بحيث تحتاج إلـى جراحـة وخبـراء ،

أخبرت رحيل بأنني سوف أغادر المكان الأن ومعي شهاب ونظل بعيدا عدة أيام حتى تهدأ الأحوال ، أيدت فكرتي حيث أخبرتني بأن مكتب الإستخبارات العسكرية تحدث معها وأخبرها بالعملية وأن من قام بها يستخدم حصان.

زودتني ببعض الأطعمة وعبوة من الماء وغادرت المكان ومعي سلاحي، لم تكن المسافة بعيدة بيني وبين الدهليز الذي تخيرته بحيث يكون قريبا من المستودع ويعطي نفس النتائج أي الإختباء عن الأنظار ، بعد أربعة أيام تحسنت حالة شهاب الصحية أيضا إندملت جروحي وخلال تلك الفترة كنت أتلو القرآن ، فقد أصبحت عملي الوحيد مع الدعاء للمقاتلين بالنصر المبين.

تحركت أحد الليالي متجها إلى مقر رجال الحدود ، بعد أن بذلنا أنا وشهاب مجهودا كبيرا من أثر الإصابة ؛ وصلنا إليهم وإستقبلونا أحسن إستقبال وأشاد إدريس برجاله والمعركة التي قاموا بها لمساندة قوات الصاعقة لحماية إنسحابهم بعد أن تكالب عليهم العدو رغم خسارة رجلين وإصابة ثالث مازال يعالج وهو العريف أبو بكر ، كما إقترب مني إدريس قائلا سمعت عن عملية واعره تم فيها تفجير لوري ذخيرة بعساكره جرب المحور الأوسط واليهود بيجولوا اللي جام بيها راجل إستخدم فرس جلت لإخوانك هنا ما فيش غيره .. صابرا.

إبتسمت له وأظهرت له الإصابات التي مازالت تحت العلاج فأسرع بطلب بيض الجمل وقام بوضع بعض نقاط على الجروح أيضا قام بنفس العمل مع شهاب ، بعد مضي حوالي الساعة من الزمن شعرت براحة وقد

زال الألم وأعتقد أن هذا ما حدث لشهاب لأنه في صباح اليوم التـالي أخـذ يصهل راغبا في العودة فقد أضناه الشوق لزمردة ويـاقوت ، طلبـت منـه الهدوء نظرا لأننا فى حالة حرب وبلاش حكاية الحب والعواطف شـويه ؛ لكنه مازال يصهل رافعا قدميه لأعلي.

أخبرت زملائي بالحدود برغبتي بالعودة حيث كنت أشعر بجزع وخوف على رحيل ، وافقوا ورغب إدريس بتكليف إثنين من الجنود بمرافقتي ولكني أخبرته بأنني سوف أعود ليلا حتي لا أفاجئ بدوريـــة نهاريـــة أو طـــائرة هليكوبتر تقتنصني ، أثناء العودة كنت أسرع الخطي إلى المستودع ، كـــان قلبي يحدثني بحدوث شيء غامض منذ نصف ساعة تقريبا ، تساءلت: مـــاذا سوف يحدث هناك ؟ يجب عليّ أن أظل هادئ الجنان ، أيضا كنت أشـــعر بأن شهاب يكاد يقفز لأعلي حتي يصل إلي السحاب راغبا بالوصول لعائلته مبكرا ، لا أعلم ماذا أصابنا نحن الإثنان للرغبـــة بـــالعودة مبكـــرا وبتلـــك السرعة وقد حدث كل هذا قبل نصف ساعة مضت قبل طلبـــي هـــذا مـــن الشاويش إدريس حيث كنت راغبا بأن أظل ثلاثة أيام أخري لكن حدث هذا التوتر فجأة.

وصلت قبيل الفجر إلي المنطقة الخلفية ، شـــاهدت بجـــوار تـــشوينات الأغذية شيء يتحرك ، خشيت أن يكون الإسرائيليون في إنتظاري ، لكن ما هدأ من توتري سماع نباح ليفي ثم أعقبه صوت هـــارون وتـــلاه أصـــوات صديقيه ياقوت والجمل الصغير هادي وأدهشني هـــذا بـــأن تتـــرك رحيـــل مجموعة الصغار يلهون بهذا المكان حتي قرب الفجر ألا تخشي عليهم مـــن ذئب أو ضبع والذي سوف يفترسهم فى الحال دون مقاومة ، حملت هارون الذي كان يبكي فهدأت من خاطرة وقبلته وسار أصدقاءه خلفي ، دخلت إلي الدهليز المؤدي إلي الحظيرة ومنها إلي المستودع فسمعت صوت بكاء.

أدهشني هذا وتوقفت عن السير وشعرت بأن كارثة قد حدثت أو علـى وشك الحدوث ، تساءلت: من هناك؟ لم تصلني إجابة وأزداد البكاء إرتفاعـا ثم تلي هذا إستفسار من الباكية : صابر؟ أيوه مين ؟ رحيل؟ لأ .. أنا بثينة!! يا للدهشة .. بثينة فى المستودع وفي هذا الوقت المتأخر ، أسـرعت إليهـا فأمسكت بملابسي وجسدها يرتعد ويكاد قلبها الصغير يقفز من بين ضلوعها.

ـ فيه إيه يا بثينة؟

ـ المجرمين اليهود .. جم جبل العصر وكانوا عايزين ينـسفوا المـستودع عشان خايفين أن الجيش المصري يوصل لحد هنا ، رفضت رحيل لكـنهم صمموا ووضعوا المتفجرات ، رفعت عليهم السلاح ، قام أحـدهم بـإطلاق النار عليها فأطلقت عليهم عدة رصاصات وقبل أن تلقي مصرعها ، صـاح أحدهم برحيل : إنتي ورا كل المصايب اللي حصلت لجيش الدفاع بالمحور الأوسط.

ـ يعني إيه؟ رحيل ماتت .. بصوت باك

ـ أيوه .. أيوه يا صابر

ـ يارب .. ليه .. بعد ما قربت منك تموت .. ده جزاء المؤمن الصالح .. حرام .. حرام .. طلبت مني بثينة ألا أتصرف هكذا ويجب علـيّ أن أقـوم علي دفن رحيل حيث تركها اليهود بالعراء بينما حملوا الثلاثة الذين قتلـتهم وبعض جرحاهم .. لقد غادروا المكان بعد هذا بنصف ساعة وبعد أن قاموا بنسف مخزن المساعدات .. الحمد لله أنهم لم يفطنوا لهـذا المخـزون

الكبير ، أتساءل: لماذا يا بثينة تركتِ هارون بالخلف ، أبدا يا صابر لم أتركه لكن رحيل طلبت مني أن أقوم على حماية هارون بالخلف خشية أن يصيبه أي مكروه أثناء عملية نسف المخزن وحينما سرت به وبباقي الحيوانات عدت لأقف بجوار رحيل لكن الأوغاد تشاجروا معها وسبوها وأنها كافرة وليست على ديانتهم حيث أنهم وضعوا ميكرفون لنقل كل ما تقول وتتحدث به وعلموا منه بأنها أصبحت كافرة حيث تتبع دين محمد.

أهذا كل ما حدث يا بثينة ، نعم ثم بدأ القتال الذي دار بينهم ، نعم صابر، لقد كانت رحيل سيدة شجاعة وأخبرتهم بأنها مسلمة ومصرية وتكره إسرائيل وكل من يعيشون بداخلها وأنها بعد الحرب سوف تعود أدراجها للعيش بمصر لهذا جن جنونهم ورفعوا عليها السلاح فكانت أسرع منهم وقتلت بعضهم مما دفعهم لقتلها بإطلاق دفعات رصاص كثيرة حيث كنت أخشي على نفسي وعلي هارون الذي كان يبكي أمه.

لكن كيف ظللت هنا بجوار رحيل ولم تعودي إلى دارك؟ الحقيقية منذ يومين حينما أتيت بصحبة أبي لصرف المستحقات التموينية لعائلتي وعائلة خالتي طلبت منا رحيل أن أظل معها نظرا لأنك سافرت لمهمة ، كان أبي فرحا بما علمه من رحيل بدخولها الإسلام وبإنتصارات الجيش المصري على الأعداء فوافق أن أظل بجوارها حتي عودتك وقد شاء القدر بأن أكون هنا كشاهد عيان على ما حدث.

هبطت السرداب تاركا بثينة وهارون وأصدقاءه الصغار التي كانت أمهاتهم تنظر إليهم طالبة منهم العودة لأحضانها دون إهتمام منهم سوي

بالصديق الذي فقد الحنان والحب والرعاية بفقده أمه ، أسرعت حذرا أمام البوابة الخارجية أتلصص فلم أجد أثرا لأي من جنود الأعداء عدت ثانية وشاهدت رحيل ملقاة على ظهرها والرشاش بيدها والدماء تغلف جسدها ، إنحنيت عليها وقبلت رأسها مرددا : أختي الكبرى ، هنيئا لك ما وصلت إليه، فقد لقيت ربك وإنتي صائمة شهر رمضان وشهيدة وسوف تدخلين الفردوس الأعلى وتجلسين مع الأنبياء والصديقين وأم سيناء.

حملتها وعدت بها للمنطقة الخلفية وطلبت من بثينة أن تحمل هارون بعيدا حتي أنتهي من دفن الشهيدة رحيل .. أردد .. ياه .. البطلة والشهيدة رحيل .. هل هناك من كان يصدق أن تلك السيدة التى شاهدتها في بداية قدومي إلي هنا تصبح هذه خاتمتها؟

أنهيت حفرة الدفن وإجراءات الدفن وحملتها كما حملت أم سيناء وبعد أن حملتها عدت ووضعتها أرضا غير مصدق ما أنا أشتمه وأشعر به ، رائحة العطر الطيب تفوح منها ، هل هي صدفة أو أن هذا نصيب الشهداء البررة الأطهار ، عدت وحملتها وشعرت بأن جسدها خفيف مثل جسد أم سيناء لكني عولت السبب في خفة جسد أم سيناء لأنها نحيفة بعكس رحيل ذات الجسد والقوام المتناسق ، بهدوء وضعتها بحفرتها أو بمقبرتها وتلوت عليها بعض من قصار السور ثم أهلت عليها الرمال ووضعت بعض الأحجار ثم باقي الرمال وحددت محيط المقبرة وجلست أمام قبرها أتأمل ولكن البكاء هاجمني ، لا أعلم لماذا حدث هذا فأنا صلب متماسك فقد أعتدت مشاهدة الموتى منذ كان عمري عشرة أعوام حينما كنت أعمل صبي حانوتي حينما يحتاج عم عايش الحانوتي للعون وهذا في مقابل ثياب المتوفى الرثة وليست

القيمة أو الصالحة.

جلست والدموع تملأ عيناي وأعود بذاكرتي للماضي حين أقبل بي أمشير إلي هنا والحالة المرضية التي كنت عليها وعنايتها بى ؛ ثم حين تعارفنا وكم شاهدت ما أنعم الله عليها من جمال وفتنة ورقة ثم سبابها لي وعنفها ضدي ثم حنانها نحو رجال الحدود والعطاء الكريم بلا مقابل للمواد الغذائية الذين هم فى حاجة إليها ، ثم تقاربها مني وتنافرها أيضا وحبها لي كأخ صغير حيث كنت أشعر بحنان الأم والأخت الكبيرة ، رحمك الله ، رحمك الله فقد نلت الشهادة وأنتي تدافعين عن الحق ؛ لقد أسلمت وجهك لله ولاقيت الله وأنت صائمة شهر رمضان وقد عقدت النية أن تقومي بحج البيت المعمور بالعام القادم بعد إنتصار مصر وعودتك إليها .. رحم الله الأمهات الصالحات.

حوالي الساعة العاشرة صباحا سمعنا نداء بعض البدو الراغبين بصرف مستحقاتهم ، كنت قد قررت البقاء بالمنطقة الخلفية لإقناع العدو بأن المستودع أصبح فارغا ولم يعد له وجود ومن أجل هذا طلبت من بثينة أن يظل الجميع بالخلف ولا يظهر منا أحد بالمنطقة الأمامية ، تفقدت المستودع وتبين لي أن الجنود الذين أقدموا علي عملية نسف المستودع لم يكن بينهم محترف حيث وضعت العبوات سطحية وحين التفجير حدث الإنفجار سطحي والذي أثار بعض الشظايا من الصخور التي غطت وأخفت فتحة خيمة المؤن وبالتالي لم تعد ظاهرة ، كما حاولوا تخريب خيمة رحيل وكان التركيز على قاعة الجلوس والإستقبال أما عدا هذا فمازالت هناك أوعية للطهي وأغطية وبعض المفروشات والملابس الخاصة بهارون وبالراحلة حيث طلبت من

بثينة تجميع كل ملابسها وحفظها في بعض الصناديق الكرتون المتخلفة من عبوات الشاي والكاكاو.

شعرت بأن ورائي أعباء كثيرة أود الإنتهاء منها ، كان العبئ الأول والمهم الملقي علي عاتقي هو عودة بثينة لأسرتها ، فالفتاة فى حالة نفسية سيئة ولا يجب أن تظل فترة زمنية أطول في هذا المكان الذي يحمل كل شواهد وصور الحزن الناتج عن الإجرام فى التعامل مع البشر ، أخبرتها بذلك فإزداد بكائها وأشارت إلي هارون ورغبتها فى الحفاظ عليه ، تحيرت ماذا أفعل ، فقد أصبح هارون مسئوليتي الأولي ، فبعد وفاة رحيل لابد من أن أحافظ وأحمي هذا الطفل يتيم الأبوين الذي لم يبلغ العاشرة من عمره وهذا عمره الزمني أما عمره الفكري فلا يتجاوز السبعة أعوام نظرا لحالة الإنطواء التي تلازمه والسبب في هذا هو حرمانه المبكر من والده ومن اللعب مع الأطفال الذين في مثل عمره ، أيضا ما شاهده من مظاهر الخلاعة علي رحيل أثناء الحفلات الماجنة التي كانت تقيمها لضباط جيش الدفاع الإسرائيلي ومن المحتمل أنه شاهدها مع جاستون فأثر كل هذا على حالته النفسية.

أخبرت تراجي بأنني أوافق على أن يرافقها هارون وأن تحافظ عليه حتي تنتهي تلك الغمة وأسعدها هذا كثيرا ، بعد غروب شمس ذاك اليوم إصطحبت كل أصدقائي من الحيوانات وأيضا بثينة وهارون في طريقنا إلي قبيلة تراجي ، كنت أدعو الله بألا يشاهدنا أحد من الأعداء ، الحمد لله قبيل فجر اليوم التالي وصلنا إلي ديار تراجي ونهض القوم لإستقبالنا والترحيب بنا وتساءلت أم تراجي عن رحيل فصمتت بثينة بينما إندفع هارون في

البكاء، حاولت النساء تهدئة هارون ولكنهن لم يتمكن من هذا.

أخذت بيده ودخلت به حظيرة الحيوانات فشاهد أصدقاءه سواء هادي أو بعرور والحصان الصغير ياقوت وليفي كلبه الوفي ، شعر بالسعادة والفرحة ونسي أحزانه وجلس بأحد الأجناب فوق الأعشاب الجافة يلاعبهم ، إلتف أصدقاءه حوله وكأنهم يشدون من أزره ورفض الصغار نداء الأمهات للحصول على الوجبة من الألبان حتي يظلوا بجوار هارون ، كنت أنظر لتلك المخلوقات وأردد سبحان الله وخرجت بنتيجة واحدة ، تلك النتيجة تقول لو ظل الإنسان بعيدا عن الماديات والسيطرة وحب المناصب لأصبح يتفهم تلك الحيوانات وأصبحت الحيوانات صديقة له لكن الفارق بيننا وبينهم إننا لا نشبع لكن الحيوانات إذا شبعت سكنت ولم تنظر لطعام أو جنس فقد حصلت على حقها الذي قرره لها الخالق عز وجل.

جلست قريبا منهم وحاولت تراجي أن تدعوني للجلوس بالداخل ولكني فضلت تلك الحياة وهذه الصحبة التي شعرت خلالها بأنني إنسان نبيل وبعيد عن كل مساوئ البشر التي أعلمها والتي لا أعلمها ، أشاهد هارون يملس علي رقبة الحصان المهر الصغير ويحدثه: عايز تلعب دلوقتي وإلا تروح لمامتك؟ يهز ياقوت رقبته ويدق بأحد أرجله رغم أنه ينام أرضا بجوار العشب الذي يجلس فوقه هارون ، يجيب هارون : خلاص خليك هنا وأنا أروح أجيب لك أكل من ماما رحيل عشان أنت جعان ، يتذكر الصبي بأن أمه لاقت حتفها ولم يعد يراها أو يسمع صوتها ، فيندفع في البكاء فيقبل عليه أصدقاءه ، الكلب ينبح معربا عن سخطه وضيقه لمن قام بهذا العمل وحرم هارون من أمه بينما يسرع الجمل "هادي" إلى أمه يخبرها بأن صديقه

يتألم فأشاهد السيدة ناقة مقبلة وتبرك أمام هارون وتضع رأسها أرضا بين أقدامه فيمسك بأذنيها يلعب بهما وتخرج بعض الأصوات التي تدفع ابنها للسعادة فيقفز لأعلي ويسعد هذا هارون وليفي والحصان الصغير ياقوت.

أتساءل: ماذا قالت الأم كي يتفهمه هارون أو الحصان أو المهر الصغير ، من الممكن أن ابنها يتفهم إشارات أمه لكن الباقين كيف فهموا الإشارات وما معني قفزات الجمل الصغير ، تعجبت بعد أن صفقت مرددا .. لا إله إلا الله .. أنهم أبرياء أتقياء ليست بدمائهم السموم التي ترسبت في بني الإنسان كي يصبح خائناً وقاتلاً وكاذباً ومنافقاً وهاتكاً للأعراض .. الحمد لله على هذا .. إنحنيت وقبلت هارون وتركته مع محبيه الذين سوف يسعدونه وغادرت المكان بصحبة تراجي ، جلست معها قليلا فشاهدتها تحمل إناء به لبن من أجل هارون ، أسعدني هذا الحنان وطيبة قلبها، فبالرغم أن عفاف طفلتها في أشد الإحتياج إليها إلا أنها تحاول أن تسري عن هارون ، شاهدتها عائدة ولازال الإناء بيدها ومازال ممتلئا ، أشرت إليها بماذا حدث؟ هل رفض هارون اللبن أو أنه نائم أو مشغول باللعب؟

إبتسمت تراجي وذهبت لأمها وأعادت إليها الإناء ثم أشارت إليّ فوقفت وتبعتها لحظيرة الحيوانات وبأصبع السبابة أشارت إلي هارون وهي باسمة ، كدت أقفز لأعلي وأصيح الله أكبر فوق كل شيء ، لقد كان هارون واقفا أسفل الناقة وبجواره بعرور ابنها والإثنان يتبادلان الرضاعة من حلمات الناقة والتي كانت تقف صامته كي تشعرهما بالراحة والإطمئنان وتدفعهما للحصول على أكبر كمية من اللبن.

صباح اليوم التالي غادرت ديار تراجي متجها إلى مستودع الأغذية وحين إقتربت منه شاهدت بعض البدو عائدين والذين يعرفونني ؛ تساءلوا لماذا دمر المستودع ولم يعد به مؤن و لم نشاهد رحيل؟ أجبتهم بأن تلك أوامر الجيش الإسرائيلي ، غادروا المكان صامتين واجمين ، دخلت المنطقة الخلفية بصحبة أمشير والبركة الذين إتجها إلي الحظيرة بينما ظللت بالخارج وتأكد لي أن كل شئ مازال في مكانه ، جلست أمام القبر أقرأ الفاتحة على روحين طاهرتين من أرواح نساء مصر الكنانة.

تبدلت وتغيرت الأخبار الخاصة بالقتال ، فبعد تقدم وتفوق الجيش المصري سمعنا عن بعض إنكسارات وهزائم محدودة ثم زاد الطين بله عبور بعض من قوات الجيش الإسرائيلي إلي الجهة الأخرى من شاطئ القناة ، فلم يعد الشاطئ الشرقي محتلا منذ عام ١٩٦٧ بل تعداه إلى جزء من الشاطئ الغربي وسمعنا عن معارك قاسية بين الإسرائيليين والمصرين جيشا وشعبا ، بل بعد عدة أيام أخبرني بعض البدو بأنهم شاهدوا أرتالاً من اللوارى الإسرائيلية متجهة شرقا إلى داخل إسرائيل وهي تحمل المئات من الفلاحين المصريين بزيهم المعروف وأيضا المئات بل الآلاف من الحيوانات مثل الأبقار والجاموس التي إستولي عليها جيش إسرائيل بعد عبوره وأرسل بها لداخل إسرائيل كي يسعد شعبه بأننا هزمنا جيش مصر وهذه هي العلامات والنتائج.

غرفة عمليات القوات المسلحة والقادة يحيطون بالرئيس السادات لعلاج المعضلة العسكرية وما عرف عنها إعلاميا باسم الثغرة ، كان قرار رئيس الأركان سعد الدين الشاذلي تصفية الثغرة عسكريا ، فهذا عمله ولا يجب

على القائد العسكري أن يدلي بإقتراح تتحمله أي جهة أخري غير الجهة العسكرية فهذا دأب القادة العظام بجميع دول العالم المتقدم ، لأن الأعمال العسكرية تجابه بأعمال عسكرية مضادة ، كان القرار صعبا لكن من المؤكد أنه سوف ينجح لأسباب كثيرة يعلمها العدو قبل القيادات العسكرية المصرية، أعد رئيس الأركان عدته لتنفيذ مهمته ولكن الولايات المتحدة دخلت على الخط مباشرة بتحذير واضح لمصر مرده إذا أقدمتم على تصفية الثغرة عسكريا فسوف نتدخل مباشرة لصالح إسرائيل وسوف ندمر الجيشين الثاني والثالث والسد العالي وبعض المنشآت الهامة بمصر.

حمل التحذير مستشار الأمن القومي الأمريكي هنري كيسنجر إلي الرئيس السادات الذي راوغه مما جعله في ضيق شديد فهو يعلم مقدار ذكاء ودهاء أنور السادات وحينما واجهه بقرار رئيس الولايات المتحدة ريتشارد نيكسون بخصوص هذا الأمر ، أخبره الرئيس السادات بأنه ليس أمامه من مفر سوي التصفية العسكرية لكن كيسنجر ردد أمامه سوف أضع حلا آخر: سوف أجبر إسرائيل على سحب قواتها من الثغرة ، تساءل السادات وما هو المقابل؟ ردد كيسنجر بخبث ودهاء ، مقابل أن تبعد رئيس الأركان سعد الدين الشاذلي عن هذا المنصب نظرا لأن الإسرائيليين لا يأمنوا هذا الرجل الذي أذل قيادتهم وذبح الكثير من جنودهم وهم يحاولون تسليم أنفسهم للجيش المصري ، فقد رفض أسر القوات وقرر القتل ردا على ما حدث لجنود مصر بسيناء عام ١٩٦٧.

وافق الرئيس السادات علي إقتراح كيسنجر وظل متكتم الخبر حتي تأكد من أن القوات الإسرائيلية بدأت فى الإنسحاب فقرر التضحية بأعظم بطل

مصري عسكري فى العصر الحديث وأشاع عنه الرئيس السادات وقتها ببعض الإشاعات المغرضة المخالفة للواقع بغرض تأكيد أسباب الإقالة وإبتلع الطعم كيسنجر وإسرائيل ، لكن كانت هناك مشكلة أخري لأن الإنسحاب أو الفصل بين القوات المتحاربة سوف يستلزم وقتا لا يقل عن الشهرين والجيش الثالث بالشرق محاصر ولا تصل إليه المياه أو الأدوية أو الأطعمة ، بعد مفاوضات شاقة طويلة وبحضور الصليب الأحمر الدولي وافقت إسرائيل على مرور الأطعمة والمياه والأدوية للجيش المحاصر حتي تمام الإنسحاب الكامل.

كانت القيادة الإسرائيلية تعمل على إطالة أمد الحصار حتي يموت الجيش الثالث عطشا أو يتنازل الرئيس السادات عن بعض إنتصارات حققها ، بل أن قيادة الجيش الإسرائيلي أمرت جنودها بأن يضيفوا إلي فناطيس مياه الشرب المحمولة على اللوارى بعض الكيروسين حتي لا يستطع المصريون شربها وفعلوا وشرب منها الجيش الثالث فقرروا أن يقوم الجنود بالتبول في فتحات الفناطيس حتي لا يقوم المصريون بشرب تلك المياه وبالفعل رفضوا شرب هذا الماء الملوث وفضلوا العطش.

قرر الرئيس السادات بخبرته الطويلة قبل الثورة والتي حصل عليها أثناء فصله من الخدمة بالجيش الملكي حيث عاش سائقا يتجول بكل أنحاء مصر أن يطلب عون أصدقاءه وأحبابه مشايخ سيناء ، أرسل بأحد ضباط المخابرات الحربية الأكفاء الذي تسلل من خلال القوات المحاصرة للجيش الثالث وإلتقي برجال القبائل حاملا رسالة الرئيس المحددة بلكمات قليلة ،

رجال سيناء الأبطال .. جيشكم الثالث محاصر ويحتاج إلى الماء والطعام.

***

الصـــــراع بين الشيطان والإنســـــان

وزارة الحرب الإسرائيلية التي شكلت فى أعقاب إندلاع حرب يوم عيـد الغفران للطائفة اليهودية ، تساءلت رئيسة الوزراء الإسرائيلي مسز جولـدا مائير عن أوضاع قوات الجانبين الإسرائيلي والمصري المعادي ، عـرض وزير الدفاع الجنرال موشي ديان تقريره الذي تلخص في النقاط التالية:

أولا جيش الدفاع الإسرائيلي .. الوضع المعنوي تحسن عن الأيـام الأولـي لبداية الحرب وهذا راجع للمعونة الفعالة التي قامت بها كل من وزارة الدفاع الأمريكية وحلف شمال الأطلنطي والدعم العسكري والتقني غيـر المحـدود وغير المسبوق ؛ أيضا مستوي الإعاشة طيب للغاية وبالطبع منـذ توقـف إطلاق النار بين الجانبين والخسائر البشرية تضاءلت بوجـه عـام ، لكـن الشيء المؤلم والذي لا يخلو من الضيق والتوتر سببه الرئيـسي العمليـات العدوانية الغير مبررة التي تقوم بها القـوات المـصرية وبالـذات قـوات الكوماندوز مما أسقط بعض القتلى من قواتنا.

ثانيا الجيش المصري .. الجيش الثاني فى وضع عـادي نظـرا لإرتباطـه بخطوط الدعم الخلفية للقيادة .. أما بالنسبة لوضع الجيش الثالث فأنا أؤكـد هنا أنها أيام قلائل ويلفظ رجال الجيش أنفاسهم من شدة الحصار الذي قمنـا بتطبيقه بصرامة وجدية بالغة وكان أخر تقرير وصل إلينا من الأقمـار

الأمريكية يبين حالة الهذيان والجفاف التي وصل إليها الجنود المصريون لدرجة أنهم يحاولون تكرير المياه المالحة كي تستخدم في الشرب والمحاولات ضئيلة لا تفي بحاجة الرجال الذي يصل تعدادهم لأكثر من ٥٠ألف رجل .. نحن في إنتظار الرئيس السادات يتقدم بطلب عودة القوات المتحاربة إلي الخطوط التي سبقت قيام حرب يوم الغفران ولو تمسك بقراره سوف يهلك الجيش الثالث بالكامل ولن نأخذ بهم شفقة ولا رحمة " تصفيق حاد ومتواصل وهتاف بحياة دولة إسرائيل القوية"

•••

أبوبكر:

مساء اليوم الأول من شهر نوفمبر سمعنا أصواتا لبعض الرجال تتحدث مع جنود الحراسة القائمين على حراسة موقع الفصيلة ، نهضت من نومي متجها إليهم وتساءلت: ماذا حدث يا أحمد؟ أمباشي أبو بكر .. هاذان الرجلان قادمان برسالة من زعيمهم حمدان أبو رمح إلي الشاويش إدريس ويقولان بأنها هامة وخطيرة .. سمعت صوت الشاويش إدريس ينادي عليّ : أقبل بهما يا أبو بكر ولنري ماذا يريد حمدان بعد أن تركناه لأكثر من ست سنوات يمرح ويقوم بالتهريب ويعمل كل ما هو مخالف للقانون .. السلام عليكم شاويش إدريس .. وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته .. أين الرسالة؟ تفضل .. رباح .. أعد الشاي للرجال ترحيبا بهم وقم على خدمتهم حتي أنتهي من قراءة تلك الرسالة.

ماذا يريد حمدان برسالته تلك؟ هل فقد عقله ويعرض علينا أن

ننضم لعصابته؟ سوف يكون هذا العرض أكبر نكتة في العالم وفي سلاح الحدود المصري ، لقد أصاب الوهن عقل الرجل ولم تنفع معه أية أنواع من المخدرات التي يجلبها للمصريين ثم إستبدل بهم جيش إسرائيل .. ولماذا أستعجل النتائج؟ سأقوم على فتح الرسالة وقراءة ما بها ثم أقرر ما يجب عليّ القيام به في وجود الرجال كما إعتدنا منذ أكثر من ست سنوات ..

السلام عليكم شاويش إدريس .. أنا حمدان أبو رمح .. وصلت إليّ معلومات مؤكدة من شيخ القبيلة يعرفني فيها أن السيد رئيس الجمهورية الزعيم أنور السادات طلب معونة الرجال بسيناء لإمداد قوات الجيش التالت بالأكل والشرب وهما محصورين بين جيشين لإسرائيل ومش عارفين نقدم لهم المساعدة ، المكان اللي حدده لنا سيادة المقدم حمزة اللي حمل رسالة الرئيس بتقول أنه محصور بين خليج السويس بجوار موقع بور توفيق حتي جنوب البحيرات أو قريبا من منطقة سرا بيوم .. رغبت بأن أعرفك كي نقدم يد المساعدة لجنودنا الأبطال نظراً لأن المجرمين الإسرائيليين راغبين بقتلهم جوعاً وعطشاً .. أخوك .. حمدان أبو رمح.

أشاهد الشاويش إدريس صامتا بعد أن كان يقرأ الخطاب بصوت مرتفع وسمعت كل ما جاء بخطاب حمدان .. نظر إلي قائلاً: رباح .. أيقظ الرجال، قمت وأفراد الحراسة بإيقاظ الرجال الذين أقبلوا مسرعين وكل فرد يحمل سلاحه منتظرين أمر القتال ، أشار إليهم إدريس بأن إجلسوا .. جلسوا وفي نفس الوقت أقبل رجال البترول أيضا وتحدث إدريس وأعاد قراءة الخطاب للمرة الثانية .. طلب من الرجال الإختصار وعرض الأفكار .. لم تكن هناك أفكار سوي تقديم الماء إليهم وعلي الفور ، بينما تحدث المهندس

عزيز ميخائيل بأهمية الحصول علي براميل خام فارغة سعة ٢٠٠ لتر وهذه كفيلة بإنجاز عملية المساعدة ونقلها بحيث يحمل كل جمل بإثنين من البراميل، فلو كان مجموع الجمال عشرة فهذا يمكننا من نقل عشرين برميل بما يوازي ٤٠٠٠ لتر ماء تكفي نصف القوة المحاصرة.

ضرب إدريس بعصاه أرضا راغبا بإنتهاز فرصة الليل ومهاجمة بئر بترول أبو زنيمة للحصول علي البراميل المطلوبة وقرر إصطحاب خمسة عشر جملا بحيث يحمل كل جمل بثلاثة براميل فارغة تمكننا من تقديم المساعدة للقوة بأكملها كما أمرنا بإعداد السلاح لأننا سوف نشتبك مع قوات العدو التي إشتبكنا معها منذ ثلاثة أسابيع كي ننتقم لزميلينا الذين لاقي الشهادة.

تحركنا بسرعة مع اليقظة حيث تقدمنا رباح وأحمد الطيب للإستطلاع ، وصلنا إلي المنطقة منتصف الليل وتلصص البعض وتأكد لهم بأن المكان هادئ ولا توجد به سوي بعض الحراسات الخفيفة ، سبقنا المهندس عزيز وزميليه وقاما بفتح مخزن العبوات الممتلئ براميل صاج سعة ٢٠٠ لتر وذلك بإستخدام قصافة السلك الصلب التي كان قد أحضرها مع بعض العدد في أعقاب معركة ١٩٦٧ ، دخل الرجال وقاموا بتحميل البراميل علي الجمال ؛ لكن أحد الجمال توتر وأخرج أصواته العنيفة وكان هذا من سوء تصرف الجندي المسئول عنه الذي تهاون في تكميم فم الجمل مثل الباقين ، تنبه الحرس وشغلوا الإضاءة وأطلقت صفارة الإنذار ، لم يمهلهم الرجال إذ فتحوا عليهم النيران وظل تبادل أطلاق النيران قائما بين الطرفين قرابة النصف ساعة حتي صمت الحرس الإسرائيلي ما بين قتيل أو جريح بينما

لفظ المهندس عزيز ميخائيل أنفاسه من إصابة مباشرة في الصدر ، حملـه الرجال وأسرعوا عائدين فهم يعلمون بأن القوات المحمولـة جـوا سـوف تحضر بأقصى سرعة ، ظللنا نتحرك بسرعة خلف الجمـال التـي تحمـل البراميل الفارغة ؛ إستطعنا الوصول إلي الحواف الشمالية للجبال المحيطـة بمنطقة عيون موسي وخلال هذا ظهرت أضواء الصباح وسمعنا وشـاهدنا عشر طائرات هليكوبتر تجوب المنطقة.

لم يتم إكتشاف مكاننا وظللنا في حالة من الإختباء حتي أقبل الليل فخرجنا نسعى لموقعنا ، بالموقع شاهدنا أحد الرجال الغرباء الذي كان يقف مع أحد رجال حمدان وفرد الحراسة المتبقي من رجال الفصيلة ، تقدم منـا الرجـل وعرفني بنفسه ، النقيب فريد من رجال المخابرات الحربية وأتبـع المقـدم حمزة الذي سبق وأن كتب حمدان اسمه فى الخطاب الـذي تخلـصنا منـه بالحرق كما أخبرنا رسول حمدان قبل أن يغادرا المكان ، جلس الرجل معنا وشرحنا له ما سوف نقوم به وأسعده هذا ، خلال الحديث كان الرجـال قـد أداروا موتور سحب المياه ودفعه بالبراميل ، خلال ساعتين كانت هناك أكثر من ٢٥ برميل ممتلئة بالمياه الصالحة للشرب ، أخبرنا النقيب فريـد بأنـه سوف يرافقنا كي يحدد لنا إلي أين نتجه.

تحركنا حوالي الواحدة صباحا ، برفقة النقيب فريد ، وصلنا الخط الأول للقوات قبل السادسة صباحا ، لقد شاهدت ما لم أكن أتوقعه حيث كان الجنود شبه سكارى والرؤوس تترنح ولا يستطيعون السير أو الحديث ، نظروا إلينا كأننا أشباح ، كان الواحد منهم يرفع يده إلينا ولا يستطيع الـصمود برفعهـا فتسقط منه بسرعة لحالة الضعف والهزال ، أمرنا النقيب فريد بـأن نتـرك

بكل موقع جملاً ببرميلين وبعد التفريغ يتم التجميع للعودة لموقعنا السابق بعد آخر ضوء أي بعد ذوبان شمس هذا النهار.

وقفت مع إحدي الوحدات وأقبل الرجال فرادي سكارى عجزة حيث عاونني أحدهم وقمنا بوضع البرميل علي ظهر دبابة متخندقة وفتحت الطبه الصغري فسالت المياه كخيط رفيع من الفضة يتلألأ وبكل عبوة بلاستيك سعة ٢٠ لتر كنا نفرغ البراميل ، كان المندوب يأخذ العبوة ويمر على الرجال ويقدم لكل واحد منهم شربة ماء لا تزيد عن كوب ماء بعدها يصمت الجندي ويترنح وبعد دقائق ينتبه وينهض ويعدو خلف مندوب المياه راغب بكمية أخري ، هكذا تنبه الرجال وخلال ثلاث ساعات وبكل المواقع عادت الحياة للرجال.

طفرت الدموع من عيني وأنا أشاهد هذا المنظر ، أتساءل :من قال أن القتال والحرب تستخدم فيه عملية التعطيش والتجويع ولكنهم اليهود وأربابهم الأمريكان ، بئس الأخلاق والقيم والمبادئ ، بعد الساعة السادسة مساء تحركنا بصحبة النقيب فريد ؛ وصلنا إلى موقعنا بعد العاشرة ، إستبدلنا الجمال بأخرى وقام الرجال بعملية ملئ المياه ولهذا قسمت الرجال ، جزء يقوم بتعبئة المياه وجزء يقوم بتوصيلها حتي نظل نعمل يومياعلي أن يسير جندي خلف كل جملين بدلا من جمل ، سرنا على هذا الحال.

أخبرت النقيب فريد بأنه يوجد لدينا دقيق وسكر .. شكرنا الرجل حيث أخبرنا بأن القوات كبيرة وتحتاج إلي عبوات وقد يصل حجم الدقيق المطلوب يوميا إلي أكثر من نصف طن ، إبتسمت له وأخبرته بأن هذا

متوفر ، لم يصدقني حتي نهضت وإصطحبته معي وشاهد كميات الدقيق والسكر واللبن الجاف المخزنة ، صفق الرجل وقام بتقبيلي وتساءل هل يمكن الجمل أن يحمل جوال دقيق فوق حمله البرميلين؟ أخبرته بان الجمل لا يستطيع هذا ولكن يوجد لدينا خمسة جمال فى الراحة فيمكننا أن نقوم بتحميل كل جمل بأربعة أجولة دقيق وهي تقل عن وزن البرميلين مياه.

أعطيت تعليماتي للرجال وأسرعوا بالتنفيذ وقبل منتصف الليل تحرك الركب يحمل الدقيق والماء ، قررت مرافقة الركب رغم نداء البعض لي بأن أحصل على راحة لأنني أعمل يوما ولم أحصل على راحة لكني رفضت وطلبت من أحد الرجال بأن يتوجه إلي لقاء صابر وإخباره بكل ما تم وأن يعمل على مدنا بما يستطيع ، ثم يعرج علي مقر عصابة حمدان طالبا منهم العون بتزويدنا ببعض الجمال حتي يمكننا نقل المؤن من مستودع رحيل إلي موقع الفصيلة.

ما شاهدته بالأمس إختلف عن اليوم حيث كان الجنود في إنتظارنا ولهذا لم نستغرق وقتا طويلا في التفريغ وكانت حمولة الدقيق كأنها هدية من السماء فقد أيقن الرجال بأنهم سوف يقتاتون خبز حاف وهذا لا يهم ، لكن المهم أن تجد المعدة ما تعمل على تشغيلها ، أيضا عبوات السكر المرافقة التي أسعدت الرجال أن شاهدوا عبوات الشاي وعلق أحدهم قائلاً: لو كوب شاي وكوب ماء كل يوم سوف أظل لمدة عام تحت الحصار وأحارب كالأسد.

وصلت قبل العشرة صباحا إلي مستودع رحيل وشعرت أنه أصبح

خرابا وينعق البوم بداخله ، بعد قليل شاهدت الجمل يتحرك ويحدث أصوات وأنا أعدو خلفه لكنه إستمر في العدو وأنا أخشي أن أفقده وكيف أعود للفصيلة لكن المفاجأة إنني شاهدت جملين آخرين سرعان ما تعرفت عليهما وهما أمشير المشاكس والبركة .. لم أجد بجوارهما أحد ، منتصف النهار سمعت حركة ثم شاهدت صابر الذي أقبل نحوي سعيدا وجلسنا معا نتحدث وأخبرته برسالة الشاويش إدريس ، أجابني بأنه سوف ينفذ كل تعليماته من باكر وسوف يتوجه لبعض معارفه لطلب المدد.

تساءلت: إنني لم أشاهد رحيل حتي الأن .. أين ذهبت؟ نظر إليّ صابر صامتا ثم أشار إلي أحد الأجناب جهة الأرض مرددا ، بداخل الأرض التي سوف نعود إليها جميعا وكل واحد له موعد حدده الله ، أخبرني بقليل من الكلام بما حدث لها فقرأت الفاتحة علي روحها الطاهرة وغادرت المكان متوجها إلي قبيلة حمدان أبو رمح ، بينما أخبرني صابر بأنه سوف يتوجه إلى الجانب الأخر في إتجاه جبل المغارة للقاء قبيلة أبو إسماعيل والشيخ عيد طلبا للعون.

***

وصلت بعد أن فرش الظلام الأرض مبددا ضوء النهار .. إستقبلتني القبيلة بترحاب ، صافحت هارون وقبلته وكانت سعادته عاليه حيث شاهد العديد من الحيوانات كي يلهو معها حيث أضيف إلي قائمة الأصدقاء بعض الماعز والخراف والدواجن ، همست في أذن الرجال بما أخبرني

به زميلي فى الحدود ، تنبه الرجال وأسرعوا بركوب جمالهم والقدوم معي ، وصلنا قبيل الفجر ، إعتكفنا تفاديا لمراقبة الطائرات أو الدوريات ، قبيل الغروب بساعتين حملت الجمال الدقيق والسكر بعد أن حصلت علي ما تحتاج إليه من طعام وشراب ، بعد أن هبط الظلام أسرعنا بالعدو بالجمال وأخذنا الطريق دفعة واحدة رغم أننا نسير على أقدمنا ولم يقم أحد بركوب الجمل حيث تركناه لمهمة سامية وهي حمل أجولة الدقيق للرجال المقاتلين ، تنبهت لكلمة الرجال المقاتلون .. كدت أصرخ وأخذت في ترديد اسم أم سيناء .. الله يرحمك .. لقد أنار الله لها الطريق إلي الجنة وأيضا أنار الله لنا الطريق كي نقف أمام إجرام اليهود ومن ورائهم.

وصلنا قبل الضحى وبركت الجمال وحرر الرجال ظهورها من الأثقال، هناك شاهدنا أعداد غفيرة من الجمال فتبين لنا أنها إمدادات من حمدان ورجاله الذين تولوا الإمداد ومعهم القبائل للجانب الأيمن القريب من البحيرات نظرا لخطورة تلك المنطقة ولهم بها سراديب وممرات يعلمونها جيدا ولا يعلم عنها اليهود شيئا ، رافقت الرجال المتجهين للجيش ، كنت سعيدا بمشاهدة رجال الجيش حيث إستقبلونا بالترحاب وشاهدتهم وهم في حالة طيبة وكل واحد منهم يقف بجوار سلاحه على أهبة الإستعداد ، نظر إليّ إدريس وسمعته يردد سبحان الله ، لو كنت يا صابرا شفت الرجالة دولت من أربعة أيام كنت تجول مش يفضلوا عايشين للصبح ، كانوا مثل حبايبة العنب إللي بجت زي الزبيبة ونشفت ، خلاص يا بني ، تعرف أن فيه عساكر منهم ماتت من العطش والجوع بس محدش جاب سيره عشان ميحصلشي ردة فعل عليهم.

إجتماع مجلس الوزراء الإسرائيلي الذي وجه سؤالا إلي وزير الدفاع موشيه ديان يتساءل فيه، لقد مضي أكثر من شهر ولم يمت الجيش المصري ولم يرسل السادات برسائل أو وسطاء لعودته للحدود التي كانت قبيل إندلاع الحرب ؛ ماذا حدث لهم؟ أيها السادة أنه لشيء محير أن صور الأقمار الصناعية الأمريكية أظهرت أن الجيش المحاصر بحالة صحية طيبة وأن الجنود في أوقات الفراغ يلهون بالجري ولعب الكرة ؛ بل الصور توضح بأن هناك نيرانا مشتعلة لإعداد طعام وأن عبوات المطبخ الكبيرة يقف عليها جنود يطهون أشياء لا نعلمها ولكن البخار يتصاعد منها وبعض الصور حددت أن بعض الجنود يتناولون اللحوم وإستطاع رجال الإستطلاع الإلكتروني أن يلتقطوا أصوات بعض الجنود وهم يشكرون الطهاة على حسن طهي اللحوم وإعداد "الحساء" الشوربة.

رئيسة الوزراء ، أيها السادة ؛ نحن نضحك على أنفسنا والأمريكان لن يظلوا واقفين في إنتظار نتائج غير محسومة ، سوف أبلغ هنري كيسنجر بتحديد مواعيد فصل القوات ولنجعلها قادمة من دولة إسرائيل بدلا من أن يضحك علينا العالم مرة ثانية خلال شهرين ، إنتهي الإجتماع.

***

عسكري صابرا ، تفتكر كم من الطحين مازال متبقي طرفك بالمخزن ، شاويش إدريس لم يعد متبقي هناك سوي أجولة الشعير التي قام رجالك بحصدها معي منتصف هذا العام ، الحمد لله علي كل حال عسكري صابرا ، والله أنت ولد زين وجدع والولية أم سينا بتفهم أنها طلبت منك توفر طحين ،

الحمد لله ، يا شاويش إدريس ما أنت راجل جدع وحكاية توزيع جمل على كل وحدة عسكرية كبيرة في مستوي لواء مشاه أو مدرعات عمل شغل والعساكر شربت الشوربة وأكلت اللحمة وعلي رأي أحد العساكر لو كان فيه رز كنا عملنا فتة ؛ بس يا عسكري صابرا .. إنت شايف الرجل الزين الحلو اللي واجف هناك ريح الجنود اللي بيوزعوا عليهم اللحمة

ـ أيو ه شايفه .. يبجي مين الراجل ده؟

ـ يا وله يا عبيط .. ده قائد الديش .. أيوه .. اسمه أحمد بدوي لكن إيه .. راجل .. صح وزين .. ورايا ح نروح نجابله ونتحدد وياه:

ـ السلام عليكم يا فندم

ـ أهلا .. أنتم تبع مين؟

ـ إحنا رجالة الحدود واللي معسكرين في عيون موسي من جبل حرب ٦٧ ما تبدأ

ـ مش معقول ، إنتم مانفذتوش أمر الإنسحاب؟

ـ والله يا فندم ما عرفنا إلا بعده بأكتر من شهر وطبعا ماكناش نعرف نعود والجمال معانا .. وزي ما تجول كده يا فندم الجمل بتاعي هوه الطيارة والدبابة بتاعتنا

ـ برافوا عليكم .. إنتم قدمتم للجيش التالت خدمة كبيرة

ـ أيوه يا فندم .. البركة في شيوخ قبائل جنوب سينا .. وحمـدان مهـرب المخدرات

ـ خليكم بجوار رجالنا لحد ما تنتهي المشكلة علي خير وعلي كـل حـال قربت تنتهي ، الأخبار وصلتني بتقول أنها كام يـوم وتعـدي المحنـة ، ح نفضل علي الحال ده ، كل شويه الأمريكان يساعدوا إسرائيل علي الظلـم ، على كل حال ربنا معانا

ـ ونعم بالله ، تمام يا فندم

ـ شكرا أيها الرجال الشجعان

***

إستراحة القناطر والرئيس السادات مع معاونيه ؛ حيث تحدث قائلاً: خلاص يا أحمد "الفريق أول أحمد إسماعيل وزير الحربية" ، كيسنجر بلغني أنه من بكره كل المعابر مع رجال الجيش التالث حيستلمها الصليب الأحمر وهمـا بدورهم ح يسلموها لنا ، ربنا لطف بينا وكان معانا ، مش عـايزك تنـسي تشكر الولاد بتوع سينا ، رجاله بصحيح ، كمان عرف ممدوح سـالم أنـه يبحبح على العيال بتوع المزاج شويه ، يعني نبسطهم ونبسط الناس ، كلـه ينبسط رغم مخالفة القانون.

صابرا .. نعم شاويش إدريـس٣٧١.. النجيب فريد كتب اسامينا عشان

يعطونا مكافأة .. مش فلوس .. يعني كده زي ما تجول ورجه تجول إن الولد صابرا رجل زين وكان همام وعمل حاجه زينه للبلد وللناس ، قال طيب يا صبرا؟ والله إنت ما فهمان واللي دخلك الديش ظلمك .. ياه .. نسيت إنك مش تبع الديش ، ح أدور على النجيب فريد وأعرفه أن الولد صابرا مش تبع الديش ولا مش مهم؟ ، هوه في حد فهمان حاجه .. كله زين وكله بيزيط دلوجتي والحرب إنتهت وحنرجع لإدارة السلاح زي ما عرفني النجيب فريد بس لما يبعتوا لينا ، دلوجتي ح نجمع في السويس ، كلتنا حتى الجمال ، يا لله يا صبرا هات الجملين العهدة اللي عندك وكمان الجمال الصغيرة كمان.

ـ إزاي يا شاويش إدريس؟ .. الجمال دية مش تبعهم

ـ ليه يا ولد ؟.. مش أبوهم أمشير؟ .. وأمشير ده من جوة الفصيلة ؟.. والجمل الصغير يتبع أبوه في الاسم والديانة؟ .. يبجي ينضموا للحدود ، ليخصموهم علينا يا صابرا .. دوول يا بني بيعرفوا كل حاجه وبيجروا "يقرئوا" اللي في رأس النفر منا .. كفايه مناهده .. يا لله يا صبرا روح وهات الجملين الصغار ، أنا عارف إن أمهم ح تكون زعلانه لكن اللي ح يطيب خاطرها أنهم راجعين مع أبوهم أمشير.

مضي يومان خلال ذلك أعلنت إسرائيل ومصر برعاية أمريكية عن إنتهاء محادثات الكيلو ١٠١ والتى كان يتولى رئاسة الوفد العسكري المصري اللواء أركان حرب محمد عبدالغني الجمصي رئيس هيئة عمليات القوات المسلحة ، نبأ الإتفاق للفصل بين القوات وإنسحاب إسرائيل تباعا ،

خلال إنسحاب القوات الإسرائيلية كنا ومازلنا نقوم بإمداد قوات الجيش الثالث بما يمكن تقديمه من دعم إداري وبالأخص المياه رغم برودة الشتاء فمازال الرجال في إحتياج للعون ، كما إستطاع حمدان ورجاله السطو على مخازن الجيش الإسرائيلي بمدينة العريش وسرقة محتوياته الإدارية وقد أدي هذا إلى حالة من الهستيريا للقيادة الإسرائيلية الجنوبية بسيناء.

لم تمض أيام قلائل وإذا بهجوم إسرائيلي مباغت على قوافل المساعدات، كان إدريس كعادته سريع البديهة ، مجرد أن شاهد طائرة هليكوبتر تحلق قريبا من القافلة حتي أسرع بتنبيه الرجال بإخفاء الجمال والحرص وأخذ مواقع إطلاق نار ، لم تمضي نصف ساعة إلا وظهرت عدة طائرات هليكوبتر قامت بإطلاق النيران علي أي شيء متحرك وفي نفس الوقت كانت هناك قوات أرضية أنزلتها تلك الطائرات على الممر الذي كنا نسلكه ، حدث إشتباك مسلح بيننا وبين الجنود الإسرائيليين كنت خلاله مستترا خلف بعض الصخور وبالبندقية القناصة إستطعت قتل ثلاثة من الأعداء بالتوالي وشاهدت إصابة طائرة هليكوبتر وشاهد الرجال النيران تشتعل بها وحاولت الهبوط الإضطراري لكن الوقت لم يسعفها فإنفجرت قبل أن تصل إلي الأرض ولو وصلت لكنا قد أسرنا طاقمها.

إستطاع العدو تحديد مكاني وهذا ناتج من كمية النيران التي كانت تطلق على موقعي الذي كان مغايرا لإتجاه موقع رجال فصيلة الحدود ، شظية قنبلة أصابت ساقي الأيسر ووقعت أرضا وشعرت بأن الألم والدماء قد سيطرا علي كل أعضاء جسدي ، مازالت المعركة مستمرة ، كنت أستمع لصوت طلقات رصاصات رجال الحدود وإنفجارات قنابل الأعداء ، قبل

الغروب إنتهت المعركة وتركت الطائرات ساحة القتال بعد أن تدخلت بعض وحدات المشاة من رجال الجيش الثالث مما أدي إلي إصابات كثيرة لحقت بالمعتدين وبرجال الجيش الثالث وخشت إسرائيل أن تكون نتيجة المعركة الفشل في تطبيق الإتفاق خاصة بعد أن قاموا بسحب الجزء الأكبر من قواتهم من غرب القناة.

سمعت من ينادي عليّ ، هذا هو الصوت الذي أستطيع أن أميزه بين أصوات كثيرة ، صوت الشاويش إدريس ، نهضت قليلا من وضع الرقود لأجيب على نداءه ، شاهدته يحاول الوصول إليّ وكان باديا عليه الإصابات التي لحقت به من الدماء التي تغطي جزءا كبيرا من الجلباب وعدم مقدرته على السير بكفاءة ، جاهدت حتي أستطيع الوقوف محاولا الوصول إليه لكنني سقطت في منتصف المسافة ولم يكن بيننا فاصلا كبيرا بل عدة خطوات ، فرد ذراعيه راغبا بأن يمسك بذراعي قبل أن يلقي ربه ، ولم نستطع نحن الإثنان أن يلتقي الذراعان وفي هذا التوقيت أقبل بعض رجال الجيش الثالث بنقالات نقل الجرحى وحملونا إلي مواقعهم وهناك شاهدنا شبه طبيب من الحالة البدنية التي كان عليها من أثر الحصار ، قدم الرجل لنا العون بكل براعة ولملم جراحنا وهدأ من توترنا حيث كنا نرغب بمعرفة أخبار باقي رجال الفصيلة والتي تبين فيما بعد بأنهم جميعا نالوا الشهادة في تلك الموقعة ولم يتبق منا سواي وإدريس ، أيضا علمنا بأن الشيخ حمدان وجزء من عصابته وأعوانه نالوا الشهادة بعد المعركة التي نشبت بينهم وبين جنود الأعداء ، كما أبلغنا رجال الجيش الثالث بأن العدو لحقت به خسائر كبيرة مما دفع بالحكومة الإسرائيلية لتقديم إحتجاج إلي لجنة متابعة

الإنسحاب والمكلفة بهذا بناء على الإتفاق المبرم.

كنت مستلقياً بداخل حفرة بالرمال بموقع الجيش الثالث وقريب مني إدريس الذي بادرني ضاحكنا : إسمع صابرا ، شوف كل رجالتنا ربنا راضي عليهم إزاي ، كلتهم نالوا الشهادة ، مش فضل غيري وغيرك ، تعرف صابرا ، إحنا أجل منهم ، يوم الجيامة ح يكونوا جاعدين في الجنة ونعيمها في درجة أولي وأنا وأنت برضه بالجنة لكن ريح السور ، يعني زي ما تجول بره ، والأكل اللي يفيض منهم ح يبعتوه لنا ، مش هما أحسن منا ، حنعمل إيه؟ ما أنا وأنت حاربنا لكن لسه فيه أجل ، علي كل حال كل واحد بيحصل نصيبه ، الله يرحمهم.

مضي على وجودنا أكثر من أسبوع خلالها تحسنت حالتي الصحية وأيضا الشاويش إدريس ، طلبت منهم أن أعود إلي عشيرتي وبعد أن فحصني الطبيب وافق علي هذا ولكن المشكلة أن الإسرائيليين لم يكن قد تم إنسحابهم من المنطقة التي سوف أقوم بالمرور بها وبالتالي قد يحدث بيني وبينهم إحتكاك خاصة أننا علمنا بأن الهزيمة أحدثت توتراً عاماً بينهم وأيضا الخسائر البشرية كانت كبيرة لم يتوقعها أحد من قادتهم بالإضافة إلي الأعداد الكبيرة من الأسري.

اليوم الأخير من شهر ديسمبر حضر لزيارتنا النقيب فريد وإصطحبنا إلي مدينة السويس ، شاهدنا فرحة النصر وأيضا شاهدنا الأهل والأحباب بعد فراق دام سبع سنوات ، توجهنا برفقة النقيب فريد إلي مكتب قيادة مخابرات السويس وإلتقينا بالمقدم حمزة الذي رحب بنا ، بعد تقديم الشكر والثناء

وكالعادة قام بعض المحققين بأخذ أقوال الرجال الذين كانوا تحت الأسر أو منعتهم الحرب من العودة ، بعد تحقيق دام عدة أيام التقي بى إدريس متجهم الوجه والضيق يلفه وبصوت عال علي غير عادته تساءل : هما كانوا عايزني أعمل إيه؟ أمر الإنسحاب وصل لنا مع حمدان تاجر المخدرات ، مافيش إتصال ولا طريجة نعرف بيها اللي حصل ، شوف يا صابرا ، المحجج "المحقق" عرفني أني ح إتجدم لمحاكمة عسكرية بجناية مخالفة الأوامر وعدم تنفيذ أوامر القيادة الأعلي وجت الحرب ، مش عارف أجول للناس إيه؟

هاجمني الضيق ، فهذا الرجل العملاق قد تحطم بعد أن عاد يحيا بين قواته وجيشه وأهله وبعد أن ذاق المر والألم والبعد عن أهله سبع سنوات لم يهمد خلالها وحارب وحاول نقل المعلومات وحافظ علي رجاله وجماله ثم قدم مساعدة لقوات الجيش الثالث المحاصرة لا يستطيع أي جاحد أن ينكرها، ونحن الذين شاهدنا أشباه رجال في أول يوم قمنا فيه بنقل المياه لهم ، ألا يدرك البعض بأن هناك ظروفا قهرية تمنع الإنسان من تنفيذ التعليمات والأوامر ، فإما أن تقتل بيد العدو أو تحول لمحاكمة عسكرية ، اليوم التالي جاء أحد الجنود طالبا مني لقاء نائب أحكام محطة السويس العسكرية ، هناك قابلني الرجل بكل أسلوب فظ وسيء حيث كان يلقبني بالولد .. أنت ياولد كنت بتعمل إيه فى وسط الجيش وأنت مدني؟ حاولت إيضاح الأمر وأنني كنت مجند ولم تفلح كل محاولاتي حيث أن اسمي لم يعثر عليه ضمن قوات حرس الحدود بسيناء.

نطق بما كنت أتوقعه ، يحول المجرم صابر إبراهيم أبو ركبة لمحاكمة

عسكرية ميدانية لتواجده بين أفراد القوات المسلحة أثناء المعارك الحربية ، ومن المحتمل أن هذا المجرم كان يعمل علي نقل معلومات لقوات العـــدو ؛ أشار إلي أحد جنود الشرطة العسكرية : عسكري .... خد المجرم ده وإرميه في غرفة الحبس ، هكذا وجدت نفسي في يوم وليلة بداخل سجن عبارة عن حجرة صغيرة وشباك حديد وعادت بي الذاكرة للخلف عدة أعـــوام ، نفـــس المعاملة ونفس الحجرة التي أودعني بها جيش الإحتلال ، لم أســـتطع كبـــت إنفعالي وخرجت من عيوني الدموع مدرارا ، حيث كنت أصـــرخ بـــصوت مرتفع : ده حرام ، أنا مصري وطني وإسألوا العساكر والضباط اللي قابلتهم أثناء عملنا بالسخرة في إعداد مواقع عسكرية للعدو علي شط القناة وإيه اللي كنا نقدر نعمله ، معقول يا ناس تحولوا الرجولة إلي إجرام ؟ ، أرسل نائب الأحكام بإثنين من عتاة السجن لتهذيبي وإصلاحي حيث نلت مـــن بطـــشهم الكثير حتي أصبحت غير قادر على الحركة أو الحديث.

المحكمة العســـكرية

هذا يوم لن أنساه ، فلم يحدث لي هذا قط سواء قبل أو بعد هذا اليوم ، زج بي وبالشاويش إدريس بداخل قفص صنع من الحديد بقاعة محكمة عسكرية ونحن نرتدي ملابس السجن ذات اللون الأزرق .. لم أفهم ما يقـال لأنهـا تعبيرات ومصطلحات عسكرية وقانونية حيث أكال نائـب الأحكـام الـتهم والجنايات علي كل فرد فينا علي حدة ، الشاويش إدريس ألصقت به تهـم : عدم تنفيذ أوامر قائده الأعلى ، التخاذل ، حرمان القـوات المـسلحة مـن الرجال والعتاد الذي كان من الممكن الدفع بالقوات لتحسين الأداء أكثر مـن هذا ، حصول أسرته على معاش ومكافأة إستشهاد دون وجه حق ، بعـد أن طرح القاضي بعض الأسئلة علي إدريس وحصل علي الإجابات بالإضـافة إلي وجود محام عسكري غير مدرب ، نطق القاضي بالحكم :

قضت المحكمة العسكرية الميدانية بمحطة السويس العسكرية بعقاب المـتهم رقم ..... رقيب متطوع إدريس إبراهيم جعفر بالأتي:

١- الطرد من الخدمة العسكرية
٢- السجن لمدة ثلاث سنوات علي أن يكون السجن أشغال شاقة ويودع بالسجن الحربي بالواحات
٣- إسترداد كل ما تم صرفه لأسرته دون وجه حق وأي مبالغ أخري حصلت عليها كتعويض عن الموت بميدان المعركة وإذا لم تكفـي المبالغ المتوفرة فيتم التصرف بالبيع لبعض الممتلكـات الخاصـة للأسرة لسداد الأموال الأميرية.

٤- ينشر هذا الحكم بالنشرة العسكرية ليكون عبرة لأمثاله.

لم يتحرك إدريس وظل صامتا وجاء الدور علي شخصي ، كنت مضطربا وخائفا ولا أعلم ماذا سوف يحدث لي ، فقد سمعت إثنين من الحرس يتحدثان عن ما ينتظر الجاسوس الذي نقوم على حراسته وقال أحدهما ، مافيش غير الإعدام.

شاويش الشرطة العسكرية والذي كان يتولي النداء علي المتهمين والذي سبق وأن نادي على إدريس ؛ نظر إليّ بضيق وتبرم ودفعني من ظهري للأمام رغم أن يداي كانتا موضوعتين بداخل الكلبشات الحديدية بالإضافة إلي قدماي اللتان مازالتا موضوعتين بالسلاسل ، بصوت مرتفع قرأ .. صابر إبراهيم أبو ركبة ، دفعني بظهري كي أرد .. أفندم .. قلتها ، طلب القاضي من حرس المحكمة فك قيود يداي وترك أقدامي مصفدتان بالسلاسل ، نائب الأحكام يقرأ عريضة الاتهام:

سيدي القاضي ، المذكور الذي أمامنا الآن إرتكب الكثير من الجرائم التي يعاقب عليها القانون العسكري وقد ارتكبت تلك الجرائم أثناء الحرب بالتعاون مع العدو وعلي أرض المعركة ؛ أعرض علي سيادتكم بعض نقاط إستطعنا الحصول عليها تؤيد ما إرتكبه من جرائم في حق الوطن:

١- العيش والإقامة مع وحدة عسكرية مصرية منذ فبراير عام ١٩٦٧حتي الآن بحجة أنه مجند والحقيقة غير ذلك ، فلم يثبت بالدليل القاطع أنه تحت التجنيد ؛ فقد إنتهت

علاقته بالجيش والخدمة العسكرية بتقديم كشف عائلة وبموجبه تم إعفاءه من الخدمة العسكرية بشهر مايو من نفس العام.

٢- الخدمة بقوات الناحال الإسرائيلية حيث كان يرتدي لباسهم ويحيا معهم

٣- التطوع للعمل فى إنشاء النقاط القوية لخط بارليف

٤- أخيرا ، التوغل بداخل قوات الجيش الثالث المحاصر بغرض الحصول على معلومات كي يقوم بإرسالها لقوات العدو

لهذا أطالب بتوقيع أشد عقوبة عليه

ـ رئيس المحكمة : ما أقوالك يا صابر؟

ـ كل ما قاله نائب الأحكام مخالف للحقيقة ، لأنهم علموا مني كل تلك المعلومات وأنا الذي أخبرتهم بتلك المعلومات ، أيضا لو أن أحد من الموجودين بالمحكمة وقع بالأسر هل كان سينفذ تعليمات العدو أو يرفض؟ لقد إلتقيت برجال أبطال من الذين أسروا أيام حرب ١٩٦٧ سواء ضباط أو جنود يعملون بالسخرة بإنشاءات خط بارليف ، ماذا تطلب منهم يا سيدي ، لقد قدمت الكثير من المعلومات الهامة لقواتنا بغرض تدمير بعض أهدافه كما قمت بقتل العديد منهم وأخص بالذكر الميجور جاستون قائد مكتب الإستخبارات العسكرية بسيناء ، أيضا قمت مع رجال الحدود والقبائل والمهربين بتقديم العون الإداري لرجال الجيش الثالث وأخيرا دخلنا مع قوات العدو المحمولة جوا بمعركة أصبت خلالها .. هذا كل ما أستطيع قوله ، أنا لست أقل وطنية عن

وطنية سيادة الرائد نائب الأحكام حيث كنت بسيناء أقاتل بينما كان هـو يحيا حياته بالقاهرة ، صرخ بى القاضي مانعا لى من الحـديث بهـذا الأسلوب.

الحكم: بعد قراءة كل ما هو منسوب للمتهم مع إستخدام الرأفة حكمـت المحكمة علي المتهم صابر إبراهيم أبو ركبة بالـسجن ثلاثـة أعـوام والشغل علي أن يقضي تلك الفترة بأحد السجون المدنية القاسية.

إدريس وقائد الجيش الثالث

هكذا وجدت نفسي مساق إلي سيارة الترحيلات وقد وضعت القيود أيضا بساعدي ، أثناء الطريق نلت من رجال الحراسة الكثير من الإهانة والسباب وكل كلمة تسبقها كلمة جاسوس وخائن ، تم ترحيلي إلي سجن أبي زعبل حيث تحدث أحد ضباط السجن بعد أن رمقني بنظرة حادة متسائلا: الواد ده الجاسوس ، شاويش عليّ ، خد الجاسوس ده يكسر فى الحجر مع المجرمين العتاة.

مع المجرمين والمهربين والقتلة سجنت حيث سمعت منهم كل ما هو رديء وحينما تحدثت مع أحدهم بأنه قاتل ومجرم أجاب بأن هذا شرف له لكنه لم يخن بلده ، أيها الخائن الجاسوس وتهجم على شخصي ضربا كدت خلالها أن ألقي حتفي حيث أنقذني الحرس ولهذا أمر مدير السجن بوضعي بحجرة مفردة بعيدا عن هؤلاء القتلة الذين كانوا في حالة من الغثيان والتبرم لوجودي معهم.

***

مضت عليّ ثلاثة أشهر ولم أرحل إلي السجن الحربي بالواحات وعلمت بأن هذا السجن كان أحد المعتقلات التي كانت منفي لرجال الإخوان المسلمين ومن دخل هذا السجن لا يخرج منه إلا للمقبرة ، جاء الحرس كي يأخذوا بعض المسجونين لكسح "طرنش المجاري" الخاص بقيادة الجيش ، ظللت أعمل مع المسجونين لثلاثة أيام حتي تم العمل ولهذا فسوف نكلف من باكر ٣٨٣برصف طريق يصل بين قيادة

الجيش وجبل عتاقة بين الصخور نظرا لأن شركات الرصف المدنيـــة رفضت رصف الطريق للصعوبة وأيضا الخشية من الألغام التـــي قـــام اليهود بزراعتها ، أثناء تحركنا طلب منا الحرس التوقـــف والإنـــزواء حيث حضر قائد الجيش ولا يجب أن يشاهدنا ، هبط الرجل وشـــاهدته وعرفته على الفور .. اللواء أحمد بدوي .. حينما أقترب مـــن المكـــان الذي نقف به صرخت بأعلى صوتي طالبا لقاءه لكن الحرس أنهال عليّ ضربا وصفعا مما لفت إنتباه الرجل الذي أمر بوقـــف تلـــك المهزلـــة وتحويل المسئولين عنها للتحقيق ثم أقبل ونظر إلي المسجونين وتساءل من رغب بلقائي؟ أشرت له فأشار إليّ أن أتقدم منه فشاهد الكلابـــشات بيدي فطلب من الحرس تحرير يداي ، وقفت أمامه وعـــدت بـــذاكرتي لثلاثة شهور مضت ، تساءل الرجل فيما شكواك؟

ـــ سيادة القائد ، أنا شاويش متطوع بحرس الحدود ولو سيادتكم تتـــذكر حينما قمت بمصافحتك بالشرق حينما كنت مع رجالي نرتدي الجلبـــاب السيناوي وكنا نحضر الماء للرجال و..... تذكرتك ولكن ماذا فعلت كي توضع مع هؤلاء؟ أوجزت للرجل ماذا حدث منذ الإنسحاب .. صـــمت قليلا وطلب سكرتيره العسكري وطلب منه إرسال مندوب علي وجـــه السرعة لإحضار ملف محاكمة الرقيب إدريس ، أسرعت وأخبرته بحال زميلي صابر ، أضاف هذا وكتب هذا بالأمر ووقع ثم طلب منه أيـــضا التحفظ عليّ بوحدات الخدمة بقيادة الجيش والقيام علي رعايتي ونظافتي وإستبدال ملابسي.

مضت عدة أيام ولا حس ولا خبر ، تساءلت فلم يفيدني أحد بنتيجة

ما ، بينما أحد المساعدين "صول" تهكم عليّ مرددا : أنت فاكر نفسك إيه يا شاويش؟ تفتكر أن قائد الجيش فاضي للي زيك؟ بعد يومين آخرين حضر رائد بالشرطة العسكرية ورافقني ووجدت نفسي بقيادة الجيش بعد قليل قام بتدويري "مكتب" أحد ضباط فرع الأفراد فشاهدت اللواء أحمد بدوي الذي رحب بي بل نهض مصافحا وطلب جلوسي وأنا فى حالة نفسية سيئة فقد إعتقدت أن الأمور إزدادت تعقيدا ، جلست هامدا لكنه ألقي عليّ بالخبر السعيد ، إدريس ألغيت الحكم وأوصيت بالبراءة وعدم خصم أي مستحقات وعودتك لوحدتك أسوة بباقي زملائك مع منحك ميدالية بطل الجيش الثالث والسبب في تأخري تلك الفترة هو إنتظار تصديق السيد رئيس هيئة أركان حرب القوات المسلحة لما هو متعلق بالأمور المالية ، أيضا أرسلت وزارة الحربية بأمر إفراج عن صديقك صابر وإلغاء الحكم حتي لا يؤثر على صحيفة الحالة الجنائية ، منحتك أجازة لمدة شهر تعود بعدها لقيادة حرس الحدود بكوبري القبة وهذا تليفون "أشار إلي السكرتير العسكري" لو كنت فى إحتياج لأي شيء فأخبرني ، أنت أحد الأبطال والذي أعتز بمعرفته.

بعد قليل حضر ضابط "شرف" وأدي التحية العسكرية ليخبر قائد الجيش بأن ميس الطعام مُعد كما رغبت ، نهض الرجل وأمسك بيدي وسار خلفنا الضباط حتي توجهنا للميس وهناك شاهدت العديد من القيادات العسكرية الذين صمتوا حتي جلس قائد الجيش وأشار إليّ بأن أجلس بالكرسي المجاور له ، كنت في حرج فلم أشاهد مثل تلك الكوكبة من قبل ، أشار بأن نبدأ تناول الطعام منبها علي الجميع بأن يظلوا فى

أماكنهم وعدم المغادرة لرغبته بالتحدث معهم.

كنت أمني نفسي لو تركني قائد الجيش كي أدخل المطبخ وأتناول الطعام مع القائمين عليه حتي أكون علي حريتي ، إرتبكت أثناء تناول الطعام ولم يهتم الرجل بل كان يقدم لي قطعة لحم أو نوع معين من الطعام ، إنتهينا من تناول الطعام الذي لا أعرف نوعه ولا طعمه حتي الأن ثم تحدث إلي القادة والضبط قائلاً:

أيها السادة ، يجلس بجواري أحد أبطال سيناء والجيش الثالث ورجال الحدود ، الرقيب متطوع إدريس ثم نظر إلي سكرتيره العسكري الذي أقبل ومعه ظرف مغلق فتحه ووقف القائد قائلاً: اليوم قررت ترقية الشاويش إدريس إلي درجة رقيب أول ، سمعت تصفيقاً ولم أعد أعلم هل إدريس المقصود بكل هذا هو أنا أو أن شخصاً آخر يجلس يُدعي إدريس ، أشار إليّ القائد أن أقف فوقفت وأنا أكاد أن يغمي عليّ ، فتح علبة صغيرة وأخرج منها ميدالية علقها على الجانب الأيسر لصدري مردداً: حيوا معي بطل الجيش الثالث ، سمعت تصفيقاً وشعرت بأنني أسمع أصوات لطائرات وقصف ومعارك ، لقد حدث تشويش ثم أمر رئيس فرع المهمات بالجيش بإعداد بدلة فسحة تليق بالرقيب أول إدريس وأمر رئيس فرع الأفراد بمنحي أجازة مدتها ثلاثين يوما وخطاباً موجهاً من قيادة الجيش إلي قيادة سلاح حرس الحدود وخطاب شكر لمدير السلاح بما قامت به فصيلة الحدود بمنطقة عيون موسي خلال حرب الإستنزاف وخلال حصار الجيش الثالث.

لم أشعر بما حدث ولمدة يومين قضيتهما بقيادة الجيش حيث أقبلت سيارة جيب تقلني إلي القاهرة وأنا أرتدي بدلة جديدة عليها درجة رقيب أول ومعي ظرف أعطاه لي مدير القسم المالي بقيادة الجيش طالبا مني الحفاظ عليه حتي عودتي لأسرتي هذا بخلاف إستمارة السفر وبعض هدايا من قسم التوجيه المعنوي.

كنت أتحرك بلا عقل وركبت قطار أسوان وغادرته أيضا ولم أشعر بطول المسافة حيث ظللت صامتا ساكنا ، هناك بأسوان ركبت سيارة نصف نقل أقلتني إلي قريتنا .. قرية ميت عنيبه والتي تتبع مركز نصر النوبة بمحافظة أسوان ، شاهدت بعض أبناء القرية وأحدهم ردد بأن هذا الشخص يشبه المرحوم إدريس والبعض الآخر تأكد بأنني إدريس لكن عفريته الذي صحا وعاد يخيف الناس وقد أسرع البعض بالقرية يرددون: عفريت إدريس يا ناس .. عفريت إدريس يا ناس .. البعض أسرع بالإختفاء والأكثر شجاعة حاول أن يراقبني من خلف باب أو حائط بينما تشجع العمدة ومعه مجموعة من الخفر وشاهدته يقف أمامي فلوحت مرحبا .. أهلا وسهلا ؛ تساءل الرجل: إنس وإلا جن؟ ضحكت متسائلا: جري إيه يا حاج شعبان ، أنا إدريس ، نسيت إدريس ، بس الحرب خلصت وكنت محجوز بسيناء والحمد لله عدت ، تشجع الرجل وإحتضنني وسار معي فبدأ البعض يقبل عليّ مرحبا خلال هذا شاهدت زوجتى الطيبة أم سلمي مقبلة وتوقفت أمامي وضربت بيدها على صدرها مرددة: والله هوه ، مافيش غيره إدريس أبو عيالي وحامي ضهرى وعرضي ، أقبلت عليها مقبلا رأسها بينما إنحنت تقبل يدي

مرددة : الحمد لله .. الحمد لله .. نورت أهلك وبلدك.

هكذا عدت لأسرتي ومساء نفس اليوم وبعد أن إنتهيت من بعض الإستقبالات والعواطف المتبادلة والتي أزرفت خلالها الدموع حيث شاهدت ابنتي سلمي وزوجها عطا لله وابنها محمود ؛ بعد أن سكن الدار ونام الصغار جلست مع زوجتي فى حجرتنا وأحضرت الظرف الذي سلمه لي مدير القسم المالي بالجيش الثالث وسميت الله وفتحت الظرف فشاهدت العديد من الأوراق النقدية فئة الـ ١٠ جنيه "لم تكن الأوراق النقدية قد وصل نموها للمائة والمائتين جنيه كما هو الحال الأن".. وصل المبلغ الذي أهدته لي قيادة الجيش ثلاثمائة جنيه .. وهذا المبلغ يعادل مرتب عام بالتمام والكمال ، قبلت يدي وش وظهر ورفعت يدي أشكر الله ودموعي تنساب علي نعمته وحب الناس ورحمتهم على الفقراء والضعفاء .. عشت فترة رائعة مع أسرتي وبعد إنتهاء الإجازة عدت إلي قيادة سلاح الحدود الذين رحبوا بي وأخبرني أحدهم بأن قائد الجيش اللواء أحمد بدوي اتصل بقائد سلاح الحدود وشرح له بعض ما قمت به وأيضا باقي زملائي لمساعدة رجاله أثناء الحصار.

عودة الفهد لدياره

أثناء عملي بمفردي بعيدا عن باقي السجناء أقبل أحد الحراس وبصوت مرتفع ردد: الواد النجس ابن النجس الجاسوس صابر ، تعالي ورايا يا كلب يا ابن الكلب ، تبعته وكل مجموعة من السجناء أسير بالقرب منها أتلقي التحية بالبصق والسباب وببعض إشارات سيئة باليد ، تسلمني "المساعد" هيما أو إبراهيم وهذا المساعد يقارب حجمه حجم نصف دبابة ، أمسك بى من قفاي ودفعني للأمام تنفيذا لأمر الباشا الحكمدار ، لكنه لم يجدني حيث إلتصقت بشباك الحديد الموجود بالممر من شدة دفعه فجذبني للخلف فعدت لبداية الطرقة متزحلقا على الأرضية البلاط الملساء ، نهضت ووقفت أمامه والدماء تكسو وجهي فطلب أحد جنوده بإحضار خيشه لمسح وجه النجس الخائن ، أحضر الجندي خيشه المسيح التي قام البعض بمسح بلاط الحمامات بها ومسح وجهي فأزال الدماء وترك بقايا البشر التي كانت بدورة المياه على وجهي والرائحة تزكم الأنوف.

بداخل حجرة مأمور سجن أبي زعبل ، مجرد أن شاهدني المأمور إبتسم مرددا .. براءة يا صابر .. الحمد لله تأكدت براءتك من كل التهم وصحيفة الحالة الجنائية بتاعتك ح تفضل نضيفة ، يا لله ورينا عرض أكتفاك ، صول إبراهيم .. نعم ساعات الباشا .. خمس دقائق ويكون واقف بره باب السجن يروح لأهله .. فاهم .. ترددت متسائلا: ألا أجد ركوبة توصلني لأهلي ، إعتذر مأمور السجن بينما سحبني الصول من قفايا للخارج وعطر وجهي ببعض لمسات من يده المبرطشة

لزوم العلاج الطبيعي لقلة الأدب بمخاطبة المأمور بتلك الطريقة ، بعد قليل قام الصول هيما بأخذ بصمة يدي عدة مرات ثم أحضر الجلباب العهدة الذي أصبت به أثناء المعارك مع العدو وطلب إستبدالها ببدله السجن العهدة والتي تنتظر خنزير آخر ، ثم فتح باب السجن الضخم ووجدت نفسي أقف خارج أبواب السجن.

من المعروف أن سجن أبي زعبل قريب المسافة من منطقة الزوامل وأنشاص لكن المسافة لا تقل عن ثلاثين كيلو متر بالإضافة إلي حالتي المزرية من الروائح السيئة التي خلفتها خيشه الصول هيما ، لن أستطيع الوصول لأسرتي بعد تلك السنوات الطوال وأعود لهم بهذا المنظر وتلك الرائحة ؛ توجهت لشاطئ ترعة الإسماعيلية المواجه للسجن وقمت بغسل وجهي عدة مرات مستخدما الطين بديلا عن الصابون ، بعد قليل حضرت سيارة نقل وألقت ببعض القمامة والقاذورات وقلبت ما بها فعثرت على جلباب كبير الحجم ولكنه سيء ، قمت بارتدائه وقمت علي غسل الجلباب الملوث بالدماء وساعدني في هذا عثوري علي بقايا علبة بها مسحوق غسيل بداخل القمامة ، ظللت على هذا الحال حتي المساء وقد قارب الليل على القدوم ، ظللت ليلتي بهذا المكان وقد ضرب الجوع معدتي ، في المساء عدت لإرتداء جلبابي بعد أن جف.

صباح اليوم التالي كنت أشعر بأنني أحسن حالا وأثناء جلوسي أقبلت سيدة عجوز وهي تحمل إناء ثم قالت: تاخد شوية نابت على روح المرحوم ، شعرت بكنز أقبل عليّ ، تشجعت وأخذت منها بعض النابت وجلست قريبة مني حتى أنتهي من طعامي ، نظرت إليّ ورددت: تاخد

شوية كمان .. أجبتها يا ريت يا خاله.

الحمد لله شبعت وقبلها إرتويت من مياه الترعة وقمت على نظافة بدني وجلبابي ، لم يعد هناك سوي وسيلة الوصول ، تحركت سائرا لقريتي وبعد قليل أقبلت سيارة نصف نقل وأثناء سيرها بالقرب مني سقطت بعض الأمتعة ؛ توقفت السيارة فأسرعت بتقديم يد العون للسائق الذي شكرني وعرض عليّ أن أركب معه إذا كنت متجها إلي مدينة بلبيس ، أخبرته .. الزوامل وبس .. جلست بجوار السائق وأنا أستعيد ذكريات هذا الطريق بما يحمله من لحظات طيبة حلوه حيث كنت أتذكر سماعي لأغنية عبد الحليم حافظ "*صورة .. كلنا كده عايزين صورة .. تحت الراية المنصورة*" حاولت أن أستنتج ماذا سوف يكون عليه حال أمي وشقيقاتي ، بل صديقة الطفولة ريهام ، لقد تبدل كل شيء خلال السنوات السبع الماضية.

الحمد لله ، فقد وصلت إلي مشارف العزبة ، أشاهد عزبة رضوان باشا ، سرت في إتجاهها فقابلتني سيدة عجوز وملابسها مهلهلة ولم أتبين وجها وسألتني: ما شفتش صابر؟ أسألها: صابر .. صابر مين؟ صابر ابني .. صابر أبو ركبه .. بقاله سنين غايب ، كدت خلال هذا أن أغيب عن الوعي ، لقد كانت أمي ، قبلتها وأنا أردد .. أنا صابر يا أماه .. أنا صابر .. تنظر إليّ تحاول الرؤيا والتوضيح .. تردد: ريحتك ريحة صابر وصوتك صوت صابر لكني مش شيفاك ، أقبل شاب صغير لا يتجاوز عمره الخامسة عشرة وطلب مني إهمال كلام العجوز لأن عقلها

به خبل من كام سنة وبتمشي وتلف بتدور على واحد اسمه صابر.

نظرت إليه شبه باك وقلت له: أنا صابر .. أنا صابر ابنهـا وكنـت متغيب بالحرب بينما أمي تحيا بالشارع لا تجد المأوي والأمان بينما أنا أقدم المأوي والأمان لكل أبناء مصر وأنت منهم كي تسخر مـن أمـي وكي يعيش الباقين فى القصور ونحن بجوار المقابر ، تركنـي الفتـي مسرعا مقدما إعتذاره ، سرت مع أمي حتي دخلـت بـاب العزبـة ، شاهدتنا سيدة فأقبلت على أمي تحدثها ، رحتي فين يـا أختـي بنـدور عليكي ، كل يوم كده تلفي على صابر ، خلاص ريحي نفسك ، صابر راح مع اللي راحوا ، تضرب يدها مرددة .. صابر ابني اهه .. لقيتـه بس لسه نظري مرجعشي عشان أمتع عيني بيه .. طلبت مني الـسيدة بألا أغضب من تلك العجوز لأنها تبحث عن صابر ابنها منذ سـنوات وبالأخص بعد أن تزوجت بناتها وأصبحت وحيدة ، أردد .. سيدتي .. أنا صابر ابنها .. أنا صابر .. تردد .. الحمد لله إنك رجعت .. سارت معنا وهناك شاهدت رجلا لا يقوي على السير ، لقد كان عـم صـديق المشرف علي إسطبل الخيول والذي كنت أعمل تحت رئاسته.

حينما عرفني رحب بي كثيرا كما طيب من خاطر أمي مـرددا .. خلاص يا ست أم صابر .. ابنك رجع بالسلامة .. يحـدثني بـسعادة: تعرف، إمبارح كنت مع الباشا ربنا يديله الصحة وكان جايب في سرتك .. بيقول أنه عامل حاجه كويسه لصابر ولو مرجعشي تبقي تفضل لأم صابر .. الباشا ده وليّ من عند ربنا .. كان حاسس برجوعك.

لقـــــاء الأحـــــبة

اليوم التالي إنتشر خبر عودتي من الحرب ، أسرع الكثير من الناس للترحيب بي ، كما وصل الخبر لشقيقتي التي تزوجت ببلدة قريبة مـن العزبة فحضرت بصحبة زوجها وابنتيها كما أخبرتني بأن شقيقتيها يقمن بالقاهرة وبلبيس وسوف تحضران حينما أرسل إليهن بخبر عودتـك ، كنت أشعر بأن أمي قد أصبحت أحسن حالا لوجودي بجوارها وأيـضا لقيام بعض سيدات العزبة بمعاونتها علي النظافة وإستبدال ملابـسها ، كل هذا إنعكس علي حالتها الصحية والنفسية مما دفعها بـأن تخبرنـي بأنها أصبحت تشاهدني طشاش ، وبالفعل شاهدت أن عيناها قد صـبغتا باللون الأحمر ، أخبرني عم صديق بأنهم حاولوا عرضها علي طبيـب العيون لكنها رفضت أي عون للعلاج.

صباح اليوم التالي إصطحبت أمي إلي الطبيب الذي فحصها وقـرر لها نوعاي من القطرة لإزالة الإلتهابات الناتجة عن الحـزن وحـالات الرمد الربيعي المتعددة والتي أصيبت به وأهمل علاجه ، تتابع وصول شقيقاتي وسعادتهن بعودتي وشاهدت أسرة كل واحدة مـنهن وجلـسنا جميعا حول الأم الطيبة وقضينا عدة أيام مما ساعد على تحـسن حالـة أمي بالإضافة لمداومة إستخدام أدوية ونصائح الطبيب ، فى تلك الليلـة أقبل مرسال يخبرني برغبة الباشا بلقائي حينما علم بعودتي ، أسـرعت للقاء هذا الرجل دمث الخلق الذي لن أنسي أول لقاء به يوم أن ضـمد جرحي النفسي إثر إعتداء ابنه عليّ بشاطئ مرسي مطروح.

دخلت عليه حجرته فشاهدته جالسا على كرسي لا يستطيع الحركة ، إنحنيت علي يده أقبلها وفي نفس الوقت حاول الرجل أن يقبل رأسي لكن صحته لم تساعده ، طلب مني إحضار كرسي والجلوس أمامه كي يراني ولكني جلست أرضا علي السجادة كي أملي عيني بالنظر إليه ، تحدث وضحك وإبتسم ، ثم قال: صابر ؛ لك هدية عندي والحمد لله أن أعطاني الله العمر والصحة كي أظل علي قيد الحياة حتي أسلمك هديتك، صابر ؛ يوجد حول البيت التي تسكن به أسرتك ثلاثة أفدنة من حدائق المانجو المثمرة ، أتتذكرها؟

أجبته بأنني أتذكرها منذ قدومي للعمل هنا بالعزبة وأسمع أنها من أجود الأراضي ، أيضا هي قريبة من إسطبل الخيل ، ردد: هذا عظيم ، لقد منحتك تلك الأفدنة هبة مني إليك راجيا أن تشبعك كي تبدأ حياتك فأنت تستحق كل تكريم ، فأنت بطل حارب العدو للدفاع عنا ولا أقل بأن أقدم إليك تلك الهدية المتواضعة ، أيضا سوف تظل تشرف علي الإسطبل إذا وافقت علي هذا وبراتب أعلي عن السابق ، سوف تلتقي بناظر العزبة الجديد إسماعيل أفندي الذي سيسلمك عقد الهبة الغير مشروط ومحصول تلك الأرض والذي إقترب موعد حصاده هو لك ، عليك أيضا أن تباشر عملك بالإسطبل وراعي أمك الطيبة ، ربنا يوفقك.

لم أستطع التحدث وكل ما قمت به هو البكاء وتقبيل يد الرجل ، فقد أكرمني الرجل في نفس الوقت التي أهانت كرامتي الجهات الرسمية بالدولة ، لقد كرمني بينما الجيش الذي وقفت بجواره أهانني أنا

والشاويش إدريس ، دعوت الله أن يخفف آلآم الشاويش إدريس بالسجن، بل قررت زيارة أسرته بقرية ميت عنيبه قريبا من أسوان ، غادرت قصر الباشا وأنا لا أشاهد الطريق ، لقد كانت منحة الباشا الإنسانية أكبر وأعظم من كونها منحة مادية ، كنت أدعو لله بتمام الصحة وأن يدخله الله جنته ويرضي عنه مثل ما رضي عني وأسعدني أنا وأمي ، فسوف يكفينا ما قدمه لنا شر الحاجه وعون الناس.

عدت وإلتقيت بعم صديق وأخبرته باللقاء والمنحة ، ربت الرجل علي كتفي مقررا بأنني أستحق هذا ، فأنت قدمت للوطن سبعة أعوام من عمرك وتركت أسرتك في أشد الحاجة لعونك ورعايتك ، كما أن مجهودك مع خيول الباشا أثمرت حيث وفق الباشا في بيع بعض الخيول بأثمان مرتفعة بفضل ما قمت به من العناية والتدريب ، أنت تحصل على حقك والحمد لله أن الباشا مازال علي قيد الحياة وربنا يطول في عمره.

لم أخبر أمي بما قدمه الباشا خشية الإنفعال قبل النوم ، قررت أن أخبرها صباح الغد ، أيضا قررت حين تسويق محصول المانجو هذا العام أن أتوجه لقرية الشاويش إدريس وأقدم لأسرته دعم مالي وأعمل علي زيارته بسجن الواحات الرهيب ، لقد فرجها الله عليّ وسوف أظل أدعوه بأن يفرجها علي إدريس ، لقد قاسي الرجل كثيرا وظل مخلصا لوطنه وجيشه ، كما أدعو الله بأن ترق قلوب أصحاب السلطة قبل أن يقوم المسئول بتطبيق القانون ، وعليه أن يدقق في الأمر أولا قبل أن يصدر العقاب ، فنحن لم نكن في نزهة بل كنا في رباط وكنا نكافح

ونؤدي واجباً وطنياً أفاد الجميع بلا شك.

حينما سمعت أمي نبأ ما قرره الباشا لنا نهضت ورفعت يدها لأعلي مرددة : الحمد لله .. ربنا يكرمك يا سعادة الباشا ويعطيك من عطاياه ويفرح قلبك زي ما فرحت قلبي أنا وابني .. الحمد لله .. أن النعيم والخير جه من عند ربنا ولم نذل أنفسنا بطلب أي شيء .. الحمد لله ، أردت أن أزيد من فرحة أمي فأخبرتها بزواجي من تراجي وإنجابي لطفلة بلغت من العمر ثلاثة أعوام ، سمعت الزغرودة تخرج من فمها كأنها لحن موسيقي وقبلتني ورفعت يديها بالدعاء بلم الشمل.

شغلتني الحياة وقمت علي بيع محصول المانجو بمبلغ لم أكن أسمع عنه قبل هذا مما دفعني لتنفيذ نصيحة عم صديق بفتح دفتر توفير بالبريد كي أدخر وأحافظ على هذا المبلغ حين الزواج ، إقتربت من أذنه وأصررت بها : عمي صديق لقد تزوجت فتاة رائعة الجمال بسيناء وأنجبت منها طفلة تبلغ من العمر ثلاثة أعوام ، نهض الرجل رغم سوء حالته الصحية وقبلني مرددا الدعاء بأن يسترها الله معي ومع أمي الطيبة ، خلال تلك الفترة كنت في شوق للقاء تراجي وطفلتي عفاف وكنت أنتظر الفرج ؛ حيث كنت أسمع عن المناقشات السياسية حول وضع حل للنزاع المستمر بين مصر وإسرائيل ، كنت أدعو الله بأن يكلل كل تلك الخطوات بالنجاح حتي يجتمع شملي مع تراجي وطفلتي ولإستكمال رعاية ابن الراحلة رحيل.

قررت نهاية شهر أكتوبر زيارة قرية ميت عنيبه للقاء أسرة

الشاويش إدريس ، أثناء جلوسي ليلا وبعد أن هدأ الحال وحمدت الله في كل صلاة على نعمته وبالأخص أن الله مَن علي أمي بالشفاء وأصبحت تشاهدني وتراني وهي سعيدة بعودتي إليها ، بعد أن خلدت أمي في نومها سمعت طرقا علي باب الدار قطع عليّ متعتي حيث كنت أستمع لأغنية أم كلثوم "سهران لوحدي" لقد ضاعت السهر والخلوة ولأري من القادم ، نهضت وفتحت الباب فأخبرني أحد عمال العزبة بأن شخصا يدعي إدريس راغب بلقائك.

توترت وحدث لي إضطراب وخشيت حدوث مشكلة من تلك الزيارة، لقد هرب إدريس من السجن ولم يقض سوى ستة أشهر وسوف يلاحقه رجال الشرطة العسكرية ، تنبهت من جزعي وخوفي على صوت إدريس بالظلام يردد: مالك صابرا؟ واجف مسهم كده ليه ، أسرعت إليه وأنا مازلت أتلفت يمينا ويسارا وأدخلته الدار وأغلقت الباب بسرعة ، أنظر إليه فشاهدت الحيرة علي وجهه من سلوكي معه كما شعرت بأن الغضب بدا يظهر علي وجهه الطيب ؛ تساءل:

ـ مش عايز تشوفني صابرا؟

ـ أبدا شاويش إدريس .. بس أنا خايف عليك ، من هروبك من السجن وكمان لابس لبس الحدود ده ح يخليك تقابل مشاكل كبيرة .. ضحك الرجل وطلب مني إعداد كوب شاي زين يعدل الدماغ وسوف يخبرني بكل شيء مردداً:

ـــ ما تخافش صابرا .. إدريس ما يعملش الغلط

ظل إدريس يقص عليّ كل ما حدث منذ إفترقنا بعد المحاكمة العسكرية الظالمة ، كنت أستمع إليه وأنا أردد بداخلي .. الله أكبر .. الله أكبر ، الأن علمت أن إدريس أصبح رجلا مهابا بسلاح الحدود ورقي إستثنائيا وسوف ينال درجته التالية بداية العام وهي درجة "صول أو مساعد" فقد تعدي أقرانه كما أن أموره المالية علي أحسن ما يكون رغم أنه أعاد مكافأة الإستشهاد إلي وزارة الحربية رغم أن رئيس أركان حرب القوات المسلحة صدق علي إعتبارها منحة لا ترد إذا كانت أسرته قد تصرفت بها لكن الرجل رفض أن يحصل علي شيء لا يستحق الحصول عليه ، أردد .. الله عليك يا إدريس .. العفيف القنوع يفضل علي الحال ده لا ينظر إلي الحرام أبدا والله هو الذي يغني عباده بعد عوز.

قضينا أمسية طيبة ثم غادر إدريس القرية متجها لأسرته ، لقد قرر قبل أن يسافر لعائلته في أول أجازة من إدارة السلاح أن يقوم علي زيارتي ، نعم الرفيق ، لقد كان السبب بعد الله في فك سجني فلم يكتف بأن يعرض مشكلته ومظلمته بل عرض مشكلتي ومظلمتي أيضا.

أثناء حديثي مع عم صديق سألته عن أخبار علاء بك ، أفاض الرجل في خُلق علاء ثم أخبرني بما لم أتوقعه: من يوم ما علاء بك تزوج بالمهندسة ريهام بنت د. عبدالحميد وحاله دايما في العلاليّ ، الحقيقة مراته ست محترمة وبنت ناس ، والله كل ما تيجى للعزبة تروح

تزور الست والدتك وتطيب خاطرها ، ربنا رزقهم بحتة عيل بعد جواز أربع سنين ، الحمد لله علي كده ، أصل علاء بك متولي مكتب المحاماة بتاع ساعات الباشا ، ما أنت شايف حال الباشا ، معدش يقدر علي الجري والمحاكم والقضايا خصوصا بعد وفاة الست بتاعته ، كانت ونس وعشرة عمر وهوه زي ما تقول كده ابن أصل ، العشرة ما تهونشي عليه أبدا.

لم يمض علي عودتي عدة شهور إلا وحضر علاء بك والسيدة زوجته للزيارة وقضاء بعض الأيام ، كنت سعيدا ليس لحب لم ينضج بعد ولكن لرقة ريهام ومساندتها لي ، لقد كانت البلسم الشافي لما حدث لي علي يد علاء بك الذي أصبح الصديق والسند لي بعد كل ما حدث ، إنتابني شعوراً رقيقاً طيباً بقدوم صديقة أو أخت أرنو دائما لسماع أخبارها ؛ بل مشاهدتها والإنصات لحديثها الذي دائما لا يخلو من الطيبة ورقة الكلمات والدفع للأمام بوضع الأمل بديلا عن وضع العراقيل والمشاكل ، تلك هي ريهام وقد أيد شعوري هذا ما قاله عم صديق منذ عدة أيام حينما أخبرني بما يخصها ويخص علاء بك بل ووالدها الدكتور عبدالحميد الذي رقي بالوزارة وأصبح يتقلد منصبا هاما قريب الصلة بوزير الصحة.

عصر اليوم التالي عُدت من الإسطبل فقد كنت في شغل شاغل نظرا لأن إحدي الإناث وضعت المولود الأول وكنا في حالة ترقب حيث كانت حالة الوضع غير مريحة مما دفعنا للإستعانة بالطبيب البيطري الذي قام بالمهمة علي خير قيام وتشرف الإسطبل بميلاد مُهرة

غالية ، لم أندفع بتسميتها في إنتظار رأي الباشا أو علاء بك ، حينما دخلت الدار شاهدت سيدة جميلة تجالس أمي ، نهضت باسمة ومدت ذراعها لي مصافحة مرددة .. حمد لله بالسلامة يا صابر .. من الصوت وقبل هذا بالإحساس تأكد لي أنها ريهام ، رحبت بها وتساءلت عن علاء بك فأخبرتني بأنه يجلس بجوار والده الباشا يخبره بكل ما يحدث بالمكتب حتي يكون علي علم بما يحدث ، باركت لها الزواج والإنجاب وأسعدها هذا مردده الحديث السابق لأمي .. ألف مبروك علي جوازك وبنوتك الصغيرة .. شكرتها وجلسنا نتحدث في أمور الوطن بعد الإنتصار وما المنتظر حدوثه بعد هذا وما قامت به قواتنا المسلحة من أداء معركة علي أحسن ما يكون ، إنتهي اللقاء وغادرت الدار فخرجت برفقتها مودعا حتي باب القصر وعدت وأنا سعيد حالم بعودة صديقة الطفولة إلي خيالي مرة أخري فهي تاريخ ولن يستطيع أحد إهمال التاريخ لأنه واقع حدث ولا يمكن الرجوع فيه.

صباح اليوم التالي وأنا بداخل الإسطبل كي أتأكد من العناية التي يحصل عليها كل من الأم والمولود الجديد أقبل علاء بك مرحبا مصافحا محتضنا والفرحة تملأ قلبه وجوارحه مرددا : لولا خشيتي من إيقاظك في نومك لكنت حضرت بالأمس حينما أخبرتني ريهام بعودتك ولقاءك بمنزل والدتك ، سرنا معا وخرجنا للتنزه بالحديقة وطال الحديث وتفرع وتشعب ثم تساءل: ألا ترغب في إستكمال تعليمك؟ كان السؤال مفاجئا وتلعثمت لعدم إعداد رد مسبق ولكنه أجاب بالإنابة ، أعلم بأنك ترغب في هذا وسوف أسأل عن كيفية إستكمال التعليم وربنا يوفق ، بعد فترة قضاها معي سألته عن اسم المهرة الجديدة

صمت قليلا مرددا : شهر زاد.

لم يمض علي هذا اللقاء عشرة أيام إلا وإتصل بى علاء بك من القاهرة يخبرني بأنه بالإمكان إستكمال تعليمك بسبب عذر قهري وقومي وهو دخولك الجيش وحضور الحرب وما المطلوب منك إلا أن تثبت بأنك كنت خلال تلك المدة تخدم بالقوات المسلحة ، كان الخبر مفرحا وصعب تحقيقه ، توجهت لعم صابر أستفسر منه فرافقني إلي شقيق صديقه المساعد عرفان والذي يعمل بالسجلات العسكرية ، أخبرني بأن شهادة الإعفاء يمكن تثبت ذلك ، أخبرته بأنها فقدت بسيناء فطلب أن أستخرج شهادة أخري أو أتوجه لمكتب التعبئة التابع له "مدينة بلبيس" وبمراجعة الكشوف سوف يزودني من بالمكتب بخطاب يثبت فيه بأنني دخلت الجيش في بداية عام ١٩٦٧.

وجدت ان هذا الحل هو الأسهل ، توجهت لمكتب تعبئة وتجنيد بلبيس وإلتقيت هناك بالرقيب أول سعدون الذي قلب بالأوراق والدفاتر ونظر إليّ ثم تساءل: فين المخلة يا عسكري واللي تسلمتها أول ما دخلت الجيش؟ صمت لفترة كي أستوعب وتساءلت: مخلة إيه يا ح الصول ، كله راح في سيناء ، يردد خلفي : راحت في سينا ، طيب ورايا يا نطل ووجدت نفسي أقف أمام الضابط المسئول بالمكتب والذي عرض عليه الرقيب أول سعدون المشكلة وزيل كلامه بأن ده ملعوب بيعمله كل العساكر طمعا في البطاطين ، أشر الضابط بالخصم علي الجندي ، ظهرت الفرحة علي وجه سعدون وكتب إذن دفع بمبلغ "٢٤٠ جنيه" عام ١٩٧٥ .. حيث كان الدولار يساوي ٣٠ قرشا .. دهشت لضخامة

المبلغ ولكنه أوضح أن الدفع ضعف ثمن المخلة ثم غرامة موازية لثمن المخلة، عليك الدفع بحوالة بمكتب البريد علي العنوان "إدارة المهمات للقوات المسلحة" وتحضر الإيصال أسلمك الخطاب.

لم أجد مفر من التنفيذ رغم ضخامة المبلغ ، دفعت المبلغ وعدت إليه فظهرت البسمة علي وجهه وسلمني الخطاب الموجه إلي الفرع المالي لقوات حرس الحدود للبحث في وجود أي متعلقات مالية يجب عليّ سدادها ثم بعد هذا أتوجه للتربية والتعليم بهذا الخطاب الذي يفيد بأن المذكور تم تجنيده بداية عام ١٩٦٧ ، توجهت للقاهرة وسألت عن الفرع المالي وظللت يومين بين المكاتب حتي عثرت علي بغيتي وهو المسئول عن مرتبات رجال الحدود ، قلب بالدفاتر وقرر بأن عليّ مبلغ أربعة جنيهات وعشرين قرشا قيمة راتب شهر يونيو ١٩٦٧ وحيث أنني تسلمت شهادة الإعفاء بتاريخ ٢٠ مايو فيصبح طرفي راتب أربعين يوما ، يتم إستردادهم مع دفع الغرامة المقررة ، حاولت إخباره بأن جميع رجال الحدود لم يتسلموا رواتبهم عن هذا الشهر فأيد حديثي حيث سرق اللصوص مرتبات الجيش أثناء الإنسحاب لكنك الأن حي ترزق فإما تدفع المبلغ أو تحول لمحاكمة بجناية الإستيلاء علي أموال أميرية دون وجه حق ، أعد خطاب الدفع ولا أعلم :كيف أصبح مبلغ الأربعة جنيهات وعدة قروش ٧٦ جنيها وثلاثة قروش ونصف ، قمت صاغرا بدفعها وحصلت علي الخطاب وعدت لقريتي بعدها توجهت للمنطقة التعليمية وقدمت الأوراق والمستندات المطلوبة وسرت في طريق التعليم بعد عناء وتكلفة لا أعلم كيف تمت وحين أفصحت لعم

صديق بمأساتي ضحك قائلاً:

ــ يا ابني إحنا كده ، الضعيف أمام القانون يفرموه والقوي أمام القانون يسندوه ، مين ح يتبهدل ويدفع ويتسجن غير اللي زي حالتنا ، إرجع للتاريخ وشوف مين اللي حفر قناة السويس؟ ما فيش غير الغلابا ، لكن باشا وإلا أفندي مش ممكن ، قول يا رب .. رددت خلفه .. يا رب ؛ سرت في خطوات التعليم وكل يوم تقريبا أجلس وأتذكر تراجي وعفاف وهارون ابن رحيل.

منتصف عام ١٩٧٥ حصلت علي الثانوية العامة نظام منازل الشعبة الأدبي وقد حققت مجموعاً يمكنني من الإلتحاق بكلية الألسن ولكن كانت رغبتي أدبية ولهذا تقدمت كطالب منتسب بكلية الأداب بجامعة عين شمس بغرض دراسة التاريخ ، كنت فى حالة كبيرة من السعادة وأنا أقوم بالتوجه للجامعة وأجلس بالمدرج مجاورا للطلبة والطالبات وسماع الأساتذة يدلون بالمعلومات الغائبة عن عقولنا ، لقد كانت غذاء للروح والعقل ، كما تعرف عليّ الكثير من الطلبة والطالبات ليس لأنني أكبر منهم عمرا ولكن لدي سماعهم ترتيلي للقرآن الكريم وإجادته ، مضت الأعوام الأربعة بنجاح مع ثناء من الزملاء وبعض الأساتذة ، الحمد لله حصلت علي الليسانس منتصف عام ١٩٧٩ ومازلت أقوم بعملي كسائس ومدرب للخيول التي لا أرغب في البعد عنها أو التخلي عن خدمتها فهي تستحق منا كل خدمة وكل تقدير.

قبل نهاية عام ١٩٧٩ بثلاثة أشهر وقعت إتفاقية السلام بين

مصر وإسرائيل ، كانت سعادتي كبيرة ، بداية العام التالي أسرعت بالسفر إلي سيناء وتوجهت إلي قبيلة أبو إسماعيل قبيلة تراجي ، مجرد دخولي للقبيلة شاهدتها تجلس وتلاعب ما إعتقدت أنه هارون وبجواره طفلة لا يتعدي عمرها الثماني سنوات ، شعرت بأن قلبي قفز سريعا ناحيتها ، أطلقت صيحة قوية وقفزت ترجي ناحيتي ترحب بي ولولا حيائها لقبلتني بينما أشارت إلي الطفلة وتردد ، بنتنا عفاف وهارون ابننا ، قبلت الإثنين وجلست معهم وأقبل عم إسماعيل ثم الشيخ عيد وباقي من كنت أراهم كل عدة أيام قبل بداية حرب أكتوبر كما شاهدت أمشير الذي أقبل ناحيتي مهرولا وقبلني بشفتيه الكبيرتين وقدمت التحية للسيدة ناقة وشاهدت أكثر من بعرور من مختلف الأعمار وكانت المفاجأة بمشاهدة مسك الليل وأكثر من إثني عشر جملا من جمال فصيلة الحدود التي أسرعت يوم المعركة باللحاق بكل من أمشير والبركة وظلوا في ضيافة أسرة تراجي ، كانت الجمال سعيدة وهي تخرج الرغوة البيضاء من أفواهها الكبيرة والبعض إستطاع أن يصل إليّ ولعق قمة رأسي أو كتفي ثم أقبل شهاب وزمردة وإلتقيت بهما وإستقبلوني بالصهيل ورفع الأرجل الأمامية وتحريك الذيل وشاهدت ياقوت المهر الصغير وقد قوي عوده ، اليوم التالي أخبرت العائلة برغبتي بأن ترافقني تراجي وابنتي وهارون وباقي الخيول ، لم يعترض أحد لكن كان الرأي الصائب إما الإنتظار ثلاثة أشهر نظراً لعدم إستقرار الأحوال بالمنطقة ، كما طلب مني الشيخ عيد بالعمل علي إستعادة رجال الحدود لتلك الجمال فهي عهدة وأخبرني بأن مقر فوج الحدود بعد الإنتصار في نفس المكان السابق قريبا من منطقة رمانة ،

أسعدني كل هذا حتي تسعد أمي وشقيقاتي بالفرحة والسعادة.

رافقني أحد الشباب وكل واحد منا إستقل فرسه وبالطبع كان رفيقي الحصان شهاب ، أسرعت للإلقاء نظرة علي منطقة المستودع وقراءة الفاتحة علي الإثنتين اللتين ترقدان بهذا المكان ، وصلت ولم أجد أثرا للمستودع فقد قام البدو بالإستيلاء علي كل المخلفات ، بالمنطقة الخلفية فوجئت بجنة خضراء من أشجار الزيتون المثمرة ، كأن عمر أي شجرة لا يقل عن عشرين عاما كما أخبرني المرافق من أبناء سيناء ، لكن تلك المنطقة المباركة والتي زرعت بها الأشجار منذ تسعة أعوام كبرت بها النباتات وأصبحت جنة خضراء.

حدد توقيت عودة تراجي بالأطفال منتصف عام ١٩٨٠ حتي تكون المنطقة القريبة منهم قد تحررت ويستطيع باقي الأقارب الحضور وزيارة مصر وزيارة آل البيت "سيدنا الحسين والسيدة زينب" ، تركتهم علي وعد بالإنتظار ، كان الوداع ممتعا مؤلما لكنني علمت أن تراجي مازالت محبة لي وترعي الأطفال رعاية رائعة ، ركبت الجمل البركة وتبعه باقي الجمال بإستثناء أمشير والسيدة ناقة وأطفالهم من البعارير الكثيرة والجمل مسك الليل ، كانت الجمال تعلم طريق قيادة الفوج أو أنها إشتمت رائحة الجنود والجمال التي تعيش بهذا المكان ، وصلنا بعد مسيرة يوم ونصف وكانت الفرحة والسعادة علي الجمال التي أسرعت جهة الفوج من علي مسافة لا تقل عن إثنين كيلومتر حينما شاهدت رجال الحدود بزيهم المميز ووقفت الجمال تتفحص الوجوه فلم تشاهد إدريس ولا أحمد الطيب ولا العريف أبو بكر أو الجنود آدم و رباح

وعثمان وحمزة وبلال ، هدأت الجمال ووقفت مع باقي الزملاء ، أقبل رقيب أول بالفوج وتساءل عن كنية تلك الجمال فأخبرته بالخبر الذي أسعده وأخبر الباقين بأن تلك الجمال التي كانت تخدم مع الباش جاويش إدريس وظلت في الحصار والحرب سبع سنوات ، وافق قائد الفوج علي ضم الجمال إلي عهدة الفوج وأرسل معي بسائق بعربة جيب حتى وصلت إلي شرق القناة إستعدادا للعبور للضفة الغربية بأحد معديات الجيش التي تقوم علي خدمة أبناء سيناء ورجال القوات المسلحة.

قبل عبور المعبر من الشرق إلي الغرب كان أفراد من المخابرات الحربية يشاهدون تحقيق الشخصية أو تصريح المخابرات بالتحرك بداخل المناطق العسكرية ، أظهرت لهم البطاقة الشخصية ، سألني أحدهم عن موقفي من التجنيد ، أخبرته بأنني أنهيت خدمتي العسكرية بداية عام ١٩٧٤ ، تشكك في حديثي طلب مشاهدة شهادة إنهاء الخدمة العسكرية أو الإعفاء منها ، تذكرت بأن الشهادة فقدت بسيناء ولكني تذكرت الكارنيه العسكري ، أخرجته من جيب الجلباب كما وضعته منذ ثلاثة عشر عاما مرفق بخطاب ريهام ، فضضت الغلاف البلاستيك وسلمته للشاويش الذي كان يقوم بعملية التفتيش والمتابعة ، شاهد الكارنيه وسلمه لآخر الذي أشار إليّ وحينما أخذني لأحد الأجناب أخبرني بأنه يتشكك فيّ وبأنني هارب من الخدمة ، حاولت إقناعه وإستعطافه لكنه أبي وطلب إحتجازي بإحدى كتائب الإمداد بالرجال.

هكذا وجدت نفسي شبه محبوس بأحدي كتائب الإمداد بالرجال بالقاهرة وخلالها لقيت أسوا معاملة وعشت أسوا حياة ، ظللت لمدة

شهرين حتي تأكد لهم بأنني معاف لأنني وحيد أسرتي ، غادرت الكتيبة وأنا لا أري الطريق أو الشارع وتحركت سيرا من منطقة الجبل الأحمر حتي كوبري القبة للقاء الرقيب أول إدريس أو "الصول" إدريس ، حيث أقبل وحينما شاهدني إمتقع وجهه وتساءل عما حدث لي وأخذني من يدي لمكتبه بالداخل وقصصت عليه كل ما دار بخصوص المهمات والفرع المالي وأخيرا تشكك رجال المخابرات الحربية بي بأنني هارب، هدأ من روعي وإصطحبني إلي منزله البسيط بحي المطرية وقمت بالإستحمام والنظافة مما علق ببدني وجلبابي وإستبدلت الملابس القذرة والهلاهيل والأسمال التي كانت علي بدني بملابس نظيفة وأخبرته بما حدث مع تراجي وأسعده هذا كما أسعده لقائي بكل من أمشير وزميله البركة وبتسليم باقي الجمال العهدة لقيادة الفوج بسيناء.

صباح اليوم التالي أقرضني إدريس مبلغا من المال وعدت لقريتي بين دهشة أمي وكل من قابلني حيث أعتقد الجميع بأنني كنت أحيا بأحسن ما يكون بجوار حبيبة القلب تراجي ، لقد أخفيت عنهم كل ما حدث حتي لا أزيد مشاعر الناس عبوسا وضيقا.

أقبلت أسرة تراجي منتصف عام ١٩٨٠ وقد كان العدد كبيرا لكن أهم شيء أسعدني بالقدوم هما شيئين هامين :

الأول .. قدوم عفاف وهي تمسك بيد هارون ، لقد نمت عفاف وجاءت تقبلني مرددة "بابا صابر" شب هارون وأصبح صبيا مليحا ويتحدث بلباقة وزال عنه التوتر النفسي الذي كان يصاحبه

الثاني : هو قدوم كل من شهاب وزمردة وياقوت تلك الخيول الرائعة ، لقد إكتملت الأسرة وألحقتهم بفصل المتفوقين من خيول رضوان باشا.

أعدت الزينات وأقيمت الأفراح وإلتف الجميع من حولنا سعادة وفرحا وإبتهاجا بزوجتي وإستقراري بعزبة رضوان باشا كما حضر كل من علاء بك وزوجته ريهام وشقيقاتي بعائلاتهم ، ظلت أسرة تراجي وأقاربها في ضيافتنا لمدة أسبوع خلالها قاموا علي زيارة آل البيت وبعض المناطق بالقاهرة.

نهاية عام ١٩٨٠ أرسلت إليّ إدارة الشئون المعنوية للقوات المسلحة بخطاب ترجوني فيه بالحضور لمبني الإدارة بالعنوان المرفق بالخطاب لحضور حفل تكريم أبطال حرب أكتوبر من المدنيين الذين قدموا لمصر كل عون ومساندة ، كنت وجلا خائفا من حدوث مفاجئات مثل التي حدثت لي بمكتب التعبئة أو الفرع المالي أو حين عودتي من سيناء.

أخبرت علاء بك فشجعني الرجل ؛ حيث قام بالإتصال بأحد ضباط القوات المسلحة والذي تربط الصداقة بينهما منذ مرحلة الدراسة بالمدارس الثانوية الذي أكد له أنه إحتفال عادي سوف يكرم فيه بعض المصريين الذين جاهدوا ودافعوا ضد العدوان الإسرائيلي خلال تلك الفترة ، تشجعت وتوجهت إلى الإدارة علي العنوان المكتوب ولم يكن الموقع التي تقع به إدارة الشئون المعنوية للقوات المسلحة بعيدا أو مرهقا بل يقع بحي مصر الجديدة ولهذا وصلت قبيل الموعد حيث

شاهدت بعض الرجال بالزى المدني في إنتظار الدخول لهـذا المبنـي الذي يتسم بالفن المعماري الجميل.

في الموعد المحدد فتح الباب ووقف أحـد الـضباط وبكـل ذوق وهدوء نادي علي الأسماء وكل واحد كان يتقدم ويـدخل إلـي داخـل الإدارة بعد أن يبرز تحقيق الشخصية الخاص به "البطاقة الشخصية أو العائلية" ، جلسنا في مكان فسيح معد إعداد طيب وبعـد قليـل حـضر بعض القادة وجميعهم ذات رتب عسكرية عالية ، قدم أحـدهم الـشكر بالإنابة عن مصر والقوات المسلحة للحاضرين ثم بدأ أحدهم ينادي علي كل فرد من الموجودين ، خلال هذا الجمع إلتقيت بإثنين وهمـا الـشيخ عيد والشيخ أبو إسماعيل والد زوجتي تراجي حيـث كانـت الـسعادة واضحة علي وجوهنا جميعا باللقاء بهذا المكان وهذا الحفل الرائع.

أشاد القادة بما قام به كل فرد من الذين نودي على أسمائهم بذكر ملخص موجز لأعماله الفدائية أو أعمال المخابرات والحـصول علـي المعلومات ؛ حيث كنت أحد هؤلاء وقدمني أحد القادة بأن ما قـام بـه المواطن صابر إبراهيم أبو ركبة أفاد القوات المسلحة إفادة كبيرة فـي إستكمال بعض بيانات ومعلومات عن أهداف هامة طلبنا الحصول عن معلومات وتوضيحات إضافية ، بعد أن نودي علي اسمي مثل البـاقين نهضت متجها للمائدة التي يجلس عليها القادة وصافحني أحدهم وسلمني ظرف وحين فتحته كان يحتوي علي شهادة تقدير موقعـة مـن وزارة الحربية بتوقيع أمين عام وزارة الدفاع اللواء .....

بعد نهاية الحفل عدت بصحبة كل من الشيخ عيد ووالـد زوجتـي الشيخ أبو إسماعيل إلي أنشاص وهناك كانت تراجي في إستقبالنا بكـل ترحيب وأيضا أمي التي أسعدها عودتي حيث كانت تخشي غيابي لفترة طويلة حيث إعتادت علي هذا في كل مشوار أقوم فيه بالتوجـه لأحـد الجهات التابعة للجيش ، قضي الرجال اليوم وتمتعنـا بحلـو الحـديث والطعام الهنيء الوفير وفي الصباح غادر الرجال أنشاص عائدين إلـي سيناء كي يسعدوا مع عائلاتهم بأن قواتهم المسلحة لم تنس رجالها وما قدموه من عون عسكري وقتالي وإستخباراتي.

الحمد لله علي منحة الله لي ، فأنا أحيا علي أحسن ما يكـون ولـي عملي والحديقة الصغيرة التي أصبحت ملكي بعد أن أهداها لي الراحل رضوان باشا ، تحيط بي أسرتي المكونة من زوجتي المحبـة الرقيقـة تراجي وبناتي " عفاف ورضوى وحنان" بالإضافة إلي ابني محمد وهو الأصغر والذي يبلغ عمره نهاية هذا العام ٢٠١١ ستة عشر عاما كمـا تبارك حياتي أمي الطيبة التي أثرت عليها السنون والأعـوام لكنهـا مازالت قادرة علي الفهم والحياة والتمتع بأحفادها ، أيضا أحصل علـي السعادة من أحفادي ، بارك الله في الجميع ولا يسعني إلا أن أردد:

الحمد لله علي نعمتك .. ومن كان رزقه علـي الله فـلا يحـزن ؛ وإذا سألت فإسأل الله وإذا إستعنت فإستعن بالله.

تمت بحمـــد اللـــه

تعليق للكـــــاتب

بتلك الخاتمة المشرفة الطيبة لرجال الحدود الأفذاذ وما قاموا به خلال سبع سنوات علي لسان أصغرهم عمرا وأحدثهم خدمة البطـل صـابر إبراهيم ، شعرت بعد هذا المجهود إنني أضيف للمكتبة المصرية نموذج مشرف مضيء لأبناء مصر الذين يعملون في الخفاء لا يبتغون سـوي رضوان الله ومصلحة شعب مصر مضحين بالوقت والجهـد والمـال والعائلة وبالأنفس حبا في وطنهم العزيز الذي وصفه الله عز وجل بأن مصر إن شاء الله آمنة.

جلست مع صابر لأكثر من عشرين يوما غيـر متـصلة ؛ فقـد إمتدت تلك الفترة علي ما يزيد عن الثلاثة أشهر ، كل عدة أيام أتـصل به وحينما أتأكد بأنه مستعد للحديث لي عما حدث خلال تلك الملحمـة أتجه إلي قرية الزوامل ، لا يستغرق مني الطريق سوي أربعين دقيقـة بالسيارة من القاهرة إلي هناك ، أشاهده في إنتظاري يـستقبلني فرحـا ليس لأنني سوف أكتب عنه لكن لشعوره بأن من يجالسه قـام أيـضا بواجبه نحو وطنه ولهذا فقد جمعتنا روح القتال والكفاح والتضحية.

أيضا لا أنسي صحبته لي حين طلبت منه لقاء الـصول إدريـس وتلك الرحلة التي قمنا بها سويا إلي محافظة أسوان وبلاد النوبة الجميلة بأهلها وطبيعتها ونيلها ، هناك إلتقينا بحضرة الصول إدريس بقريته .. ميت عنيبة .. مركز نصر النوبة ، وقد بلغ من العمـر ثمـانين عامـا ومازال قادرا علي الحكايات والقصص ، يرتدي جلباب أبيض أسـفله

سروال طويل بنفس لون الجلبـاب ولا يكـف عـن المـزاح وتقـديم المشروبات ويختتمها بالطعام الشهي التي تقوم زوجات أبنائـه وبناتـه بإعداده بعد أن فارقت زوجته الصابرة الحياة للقاء الله عز وجل.

بعد أن إنتهيت من كتابة هذا العمل وكعادتي حينما يخص العمـل أي شخص لابد أن أعرض عليه بروفة ما كتبت وله الحق في الحـذف أو التعديل أو الإضافة إما لتذكره شيء غفل أن يخبرني به أو لأنني في غمرة الكتابة نسيت ذكره ، هناك جلست مجاورا له وتسلم مني ملـف العمل كي يقرأه علي مهل ويتصل بي كي أقوم علي زيارته وتـصحيح ما رأي أن نقوم بتصحيحه.

أثناء جلوسنا أقبلت فتاة جميلة لأقصي درجة فـي العـشرين مـن عمرها ، قبلت يده مرددة " إزيك يا سيدي ، شاهدت السعادة علي وجه صابر ونهض لتقبيل الفتاة مشيرا إليّ ، سلمي علي عمك أسامه بيه يـا رحيل ، صافحتني الفتاة وبعد أن غادرت مكان جلوسنا إقتـرب منـي وهمس بأذني:

ـ تعرف مين البنت الحلوة المدورة اللي زي طبج الجشته؟

ـ لا والله يا صابر .. أول مره أشوفها

ـ لك حج .. أصلها عايشه مع أبوها وأمها في حلمية الزيتون .. فـي مصر

ـ هيا جايه فى أجازه؟

ـ أيوه .. جايه في أجازه ، دي يا سيدي تبجي رحيل بنت بنتي .. أيوه بنت عفاف الكبيرة ، دي أول حفيده حداي .. لكن تعرف مين أبوها؟

ـ لا والله .. ح أعرف من أين!

ـ أبوها جاي دلوقتي وح تشوفه .. تحدثنا في عدة موضوعات ثم أقبلت سيدة صغيرة رائعة الجمال وصافحت صابر مقبلة يده مرددة:

ـ إزيك يا آبا

ـ الله يسلمك من كل شيء ويرضي عنك ويرفع مجامك لفـوج إنتـى وجوزك وعيالك يا عفاف .. ثم طلب منها مـصافحتي فرحبـت بـي وأكملت الترحيب بأنها تسمع عني وأنني أنوي إعداد كتاب عن والدها ، ثم تساءل صابر:

ـ الله .. أمال جوزك فين يا عفاف؟

ـ جاي ورايا بسرعة ومش ح يعوج ، يظهر أنه عـوج شـويه فـي الإسطبل ، راح يشوف البهايم لا مؤاخذه

ـ طيب ، روحي لأمك يا عفاف ووصيها ، مش تنسي الفتة ودكـرين البط والحمام بالفريك ، عمكم أسامة راجل حلو وبيحب الأكلة الحلوة ،

كل الشراجوه كده.

ـــ فتكم بعافية

ـــ الله يعافيكي

بعد قليل أقبل رجل فى العقد الرابع أو الخامس يرتدي بدلـــة أنيقـــة ويسير بثقة تميزه وسامته الملفتة للنظر وحين إقترب منا أسرع خطاه ؛ حيث وقف كل منا لإستقباله ؛ حيث رحب صابر به مرددا:

ـــ حمد لله بالسلامة .. أهلا بالدكتور .. سلم يا دكتور هـــارون علـــي أسامه بيه.

صافحني الشاب مرددا التحية والتقدير وبأنه سمع عني ورتـــب عملـــه بحيث يحصل علي أجازة في هذا اليوم حينما علم مـــن عمـــه صـــابر بقدومي ، جلس بعض الوقت خلال هذا سأله صابر عن بعض الأســـئلة التي تدور عن الخيول وحالتها الصحية وتبادل الإثنان المعلومات التـــي لا أعلم عنها شيء سوي اسم الخيول ومنظرها الجميـــل والتـــي كنـــت خلال كل زيارة لا بد لي من زيارة الإسطبل الخاص بهم لأشاهد روعة الخالق في هذه الحيوانات حيث قال الله سبحانه وتعالي ":

والخيل والبغال والحمير لتركوبها وزينة.

بعد أن غادرنا الشاب لمشاهدة ماما تراجي علي حد قوله!! إقترب

مني صابر مخبرا إياي:

ـــ ده الدكتور هارون .. دكتور بيطري علي كيفك!!

ـــ يعني إيه يا صابر .. عايزني أتعالج عنده

ـــ لأ مش جصدي .. الشر بره وبعيد لكن باعرفك أنه شاطر في شغله، وشغال في شركة كبيرة في مصر وكمان مسئول عن إســطبل الخيــل بتاع علاء بيك بن رضوان باشا ، ما أنت عارف إني مسئول عن الخيل .. أمال إيه .. ح أجعد ساكت .. صحيح عديت الستين بسنة لكن لــسه فيا حيل والبركة في دكوره البط "ذكر البط" والحمام المحشي فريــك ، مش ح تنسي وكل "طعام" مرتي تراجي ، يعني كل شــوية ح تــتحجج بزيارة لكن أنا جدها وجدود.

ـــ فعلا الدكتور هارون باين عليه متمكن من شغله

ـــ أيوه أمال إيه ، ما أنت عارفه؟

ـــ عارفه إزاي يا صابر ، أول مره أشوفه

ـــ جصدى عارفه يعني سمعت عنه في الحديت بتاع الكتاب ، ما هو يا سيدي ده يبجى ابن المرحومة رحيل!!!

ـــ مش معقول .. إزاي ده حصل؟

ـ دي حكاية طويلة .. لكن أنت تعرف أن تراجي لما جت أنشاص عشان تعيش معايا جابت معاها عفاف بنتي إللي شفتها من كام دجيجة وهارون والحصان شهاب وزمردة وابنهم ياجوت ، فاكر أنا حكيت لك الحكاية دية

ـ أيوه .. وبعدين

ـ مافيش .. خليناه معانا وتعبنا ودوخنا لحد ما طلعنا له شهادة ميلاد ودخلناه المدرسة وكان متأخر كام سنة لكن بمساعدة علاء بيه والمهندسة ريهام في شرح المناهج بتاعة المدرسة نفع وبجي شاطر ومشي مع زمايله بس بعد ما ضاع منه تلات سنين لأنه فترة سينا مدخلشي فيها مدارس .. شايف بجي راجل زين ، أهو فيه شبه كبير من المرحومة رحيل

ـ ياه يا صابر .. رحيل كانت جميله كده؟

ـ لا .. كانت أجمل طبعا .. ده علي راجل لكن البنت بنته هيا اللي طالعه لستها رحيل .. بت حلوه وجميله ونوره ومصحصحه ، تشوفها تجول رحيل حتي إسأل مرتي تراجي لما تيجي.

ـ لكن ديانته إيه؟

ـ الواد مسلم ابن مسلمه ، أصلها وهيا بتطلع في السر الإلهي جالت لبثينة ، مش تنسي هارون وعرفي صابر ياخد باله منه ويعتبره زي

ابنه ويفضل مسلم زي أمه ويرجع مصر .. أوعي يرجع إسرائيل ، يرجع مصر لأرض أجداده

ـ ياه يا صابر .. دي حكاية رائعة وإنت ومراتك ناس فُل.

ـ شوف الزمن ، تربي هارون في حجري أنا وتراجي ولما كبر وتخرج من كلية الطب البيطري إتجدم وإتجوز البت عفاف ، ماكنتش موافجه عليه وتجولي يا آبا ده زي أخويا ، جلت في بالي ح تعمل زي رحيل اللي دوشتني بحكاية أخويا ، لكن الواد حليوه ونور ونبيه وتم المراد وأنت شايف بنتهم عامله إزاي كلتهم حلوين ومنورين زي المرحومة رحيل.

ـ وأنت إلي وجهته لكلية الطب البيطري وإلا المجموع؟

ـ لأ .. اللي وجهه للكلية دية أصحابة الجدام .. تعرفهم؟

ـ لأ .. مين دوول

ـ يا سيدي بعرور وليفي وياجوت

ـ كانوا معاه في المدرسة

ـ باجول أصحابه الجدام ، الحيوانات اللي كانوا معانا في سينا ، في حظيرة مركز المساعدات الإنسانية ، حبه لهم دفعه للطب البيطري وكان جايب مجموع مرتفع يجدر يخش بيه طب أسنان ولا

صيدلة لكنه جال ليا يا آبا صابر ح أدخل الطب البيطري ، أنا روحي في الحيوانات.

***

جلسنا نتناول طعام الغداء علي طبلية كبيرة إجتمع عليها صابر وتراجي وابنته عفاف وزوجها هارون وحفيدتيه ودار الحديث الجميل بيننا ، كنت خلال هذا صامتا محاولا إكتشاف جمال رحيل الجدة حيث كانت رحيل الحفيدة فاتنة لدرجة كبيرة وتقارب في الشبه من والدها هارون ، أردد ، سبحان الله وأيضا أنظر لصابر البعيد عن الوسامة وأقول يخرب عقلك يا صابر ، ضيعت منك رحيل وحلاوتها لكن المثل يقول الناس فيما يعشقون مذاهب.

هكذا إنتهيت من رواية فهد الليل التي كان بطلها رجال الحدود الأفذاذ وأحد الجنود الذي ترك الخدمة مبكرا لظرف عائلي وقد أظهرت لي تلك الرواية أن البطولة ليست وليدة العمل بالجيش أو دونه ، لكنها وليدة الإنسان وما يحيط به من أحداث دفعته لأن يصبح فهد سيناء دون منازع كما قال عنه هذا الشاويش إدريس.

*****

رقم الإيداع بدار الكتب والوثائق الرسمية

٢٠١٢/٣٥٨١

من مؤلفات الكاتب:

* الناس والحـــــرب .. الطبعة الثانية مايو ٢٠٠٩
* رسالة إلى الرئيس .. الطبعة الثانية يونيو ٢٠١٠
* مصر التـــــــي .. الطبعة الثالثة يناير ٢٠٠٩
*نُص نقـــــــــل .. الطبعة الثانية يوليو ٢٠٠٩
*مُسافرٌ زاده الخيال
*حُورية بين النخيل .. الطبعة الثانية يوليو ٢٠١٠
* الحب والحرمـــان
* همســـات مصرية
* صوت المـــــلاك
* بنت الباشـــــــا
*بُثينـــــــــــه
* عابد المصـــــرى
* رجاله ورق للبيـــع .. ملهـــــاة
* لقاء في الطـــائرة
* العصـفور وأنا * أيام من عمري